

مَنَّا الغَيْثُ إِلَى

نَهْجُ السَّيْرِ

الطبعة الثانية
١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م

مكتبة المطبع والنشر
دارا تى - أكاديمية
صاحبها نوري عيسى
١٤ شارع اميرك

الشيخ الرحمن الرحيم

مقدمة

هناك عظماء كثير يقرأ الناس قصص حياتهم ليتعلموا من عناصر النبوغ فيها ، وليتأبموا بإعجاب مسالكها في الحياة ، ومواقفها بإزاء ما يمرض لها من مشكلات وصماب ، وقد تكون هذه القراءة المجردة هي الرابطة الفذ بين أولئك العظماء ومن يتعرف عليهم ، وربما تطورت فأصبحت دراسة عميقة أو صلة إنسانية وثيقة وأبدر إلى القول بأنى لم أكتب عن صاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وفي نفسى هذا المعنى المحدود .

فأما رجل مسلم عن علم ، أعرف لماذا آمنت بالله رب العالمين ؟ ولماذا صدقت بنبوة محمد ؟ ولماذا تبعت الكتاب الذى جاء به ؟ بل لماذا أدمع الآخرين إلى الإيمان بما سكنت إليه نفسى من هذا كله ؟ .

وقد سبق لى أن شررت فى السرة فصولاً متنوعة وهل ابتعدت عنها فى شيء مما كتبت ؟ إن الرسائل التى طالت فيها بحوث العقيدة والخلق والماملة والحكم اعتمدت على سيرة النبي الكريم فى كيانها وسياقها . ولذلك يصح أن أقول : إن هذا الكتاب ليس صلة محدثة برسول الإسلام ، ولا جملة من الدلائل على صدقه ، ولا لمحات تكشففت للمؤلف عن عبقريته وسناء دعوته . .

فإن ذلك قد استفاض به الكلام فى مواضع أخرى ! ولكنى تومرت على إحراج هذا الكتاب وأمامى غاية مينة أرجو أن أكون بكتفتها .

إن المسلمين الآن يعرفون عن السيرة قشوراً خفيفة ، لا تحرك القلوب ولا تستثير الحمم . وهم يظلمون النبي ومحابته عن تقايد موروث ومعرفة قليلة ، ويكتفون من التظيم بإجلال اللسان ، أو بما هلت مؤثته من عمل .

ومعرفة السيرة على هذا النحو التافه تساوى الجهل بها . إنه من الظلم للحقيقة الكبيرة أن تتحول إلى أسطورة خارقة . ومن الظلم لفترة نابضة بالحياة والقوة أن تعرض في أكفان الموتى . إن حياة محمد ليست — بالنسبة للمسلم — مسلاة لشخص فارغ أو دراسة ناقدة محايدة ، كلا كلا إنها مصدر الأسوة الحسنة التي يقتضيها ، ومنبع الشريعة العظيمة التي يدين بها . فأى حيف في عرض هذه السيرة ، وأى خلط في سرد أحداثها إساءة بالغة إلى حقيقة الإيمان نفسه .

وقد بذلت وسعى في إعطاء القارئ سورة صادقة عن سيرة رسول الله واجتهدت في إبراز الحكم والتفاسير لما يقع من حوادث . ثم تركت للحقائق المجاورة أن تدع آثارها في النفوس دون ائتمال أو احتيال .

وقد استفدت من السير التي كتبها القدامى والمحدثون استفادة حسنة .

إن المؤرخين المحدثين يميلون إلى التعميل والموازنة وربط الحوادث المختلفة في سياق متماسك . وذلك أحسن ما في طريقهم . . .

والمؤرخون القدامى يعتمدون على حشد الآثار ، وتمحيص الأسايد ، وتسجيل مادي وجل من الوقائع والشئون . وفي هذه المحفوظات الكثيرة نفائس ذات خطر لو أحسن الاستشهاد بها وإيرادها في مواضعها . . .

ولمى هنا مزجت بين الطريقتين عن نحو جديد ، يجمع بين ما في كاتبيهما من خبر فجعلت من تفاصيل السيرة موضوعاً متماسكاً يشد أجزاءه روح واحد . ثم وزعت النصوص والروايات الأخرى بحيث تنسق مع وحدة الموضوع وتعين على إتقان صورته وإكمال حقيقته .

وقصدت من وراء ذلك أن تكون السيرة شيئاً بنمى الإيمان ويزكي الحلق ويلهب الكفاح وينرى باعتناق الحق والوفاء له ويضم ثروة طائفة من الأمثلة الرائعة لهذا كله إننى أكتب في السيرة كما يكتب جندى عن ثأنه أو ابن عن سببه ، أو تلميذ عن استاذ . رامت — كما نأت — مؤرخاً محايداً منزهاً عن بن ياء تنه .

هـ . إنى أكتب رأمم تبيى مناظر فائمة من تأخبر المسلمين العاطفي والفكري

فلا يجب إذا قصص وقائع السيرة بأسلوب يومى من قرب أو من بعد إلى حاضرنا المؤسف ،
كلما وردت قصة تحمل في طياتها شحنة من صدق الملاحظة وسلامة الفكر وجلال العمل .

ومحمد ليس قصة تتلى في يوم ميلاده كما يفعل الناس الآن . ولا التنويه به يكون
في الصلوات المخترة التي تضم إلى ألقاظ الأذان . ولا إكثان جبه يكون بتأليف
مدائح له أو صياغة نموت مستغربة يتلوها الماشقون ، ويتأوهون أو لا يتأوهون ،
قرباط المسلم برسوله الكريم أقوى وأعمق من هذه الروابط الملتصقة الكذوبة على الدين
وما جنح المسلمون إلى هذه التماير — في الإيابة عن تملقهم بنبهم — إلا يوم تركوا
الباب الملى وأعيام حمله ، فاكتفوا بالمظاهر والأشكال ، ولما كانت هذه المظاهر
والأشكال محدودة في الإسلام ، فقد افتنوا في اختلاق سور أخرى لا عليهم !
فعى لن تكلفهم جهداً ينكصون عنه ؛ إن الجهد الذى يتطلب الزمات هو
في الاستمساك بالباب المهجور ، والعودة إلى جوهر الدين ذاته . فبدلاً من الاستماع
إلى قصة المولد يتلوها صوت رخيم ، ينهض المرء إلى تقويم نفسه وإصلاح شأنه
حتى يكون قريباً من سنن محمد في معاشه ومماده وحربه وسلمه وعلمه وعمله
وعاداته وعباداته . . .

إن المسلم الذى لا يعيش الرسول في ضميره ، ولا تتبعه بصيرته في عمله وتفكيره
لا يفتى عنه أبداً أن يحرك لسانه بألف صلاة في اليوم واليلة .

وأريد هنا أن أنبه إلى ضرورة الفصل بين الجد والمزحل في حياتنا . ولا بأس
أن نجعل للهو واللعب وقتاً لا يمدوه وللجد والإنتاج وقتاً لا يقصر عنه .

فإذا أراد أحد أن يبنى أو يستمع إلى غناء فليقل . أما تحويل الإسلام نفسه
إلى غناء فيصبح القرآن ألحاناً عذبة وتصبح السيرة قصائد وتواشيح فهذا مالا مساغله .

وما لا يقبله إلا الصغار النافلون . وقد تم هذا التحول على حساب الإسلام ، فانسحب
الدين من ميدان السلوك والتوجيه إلى ميدان اللهو واللعب — وحق فيمن فعلوا ذلك

قول الله عز وجل : « وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهِوًّا وَلَهْوًا غَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ... »
وتحول القرآن إلى تلاوة منغومة تحسب ، يستمع إليها عشاق الطرب ، هو الذى

حمل اليهود والنصارى يذيمونه في الآفاق ، وهم واثقون أنه لن يمحي مواتاً ،

وتحول السيرة إلى قصص وقصائد وغزل (١) وصلوات مبهمة جعل الاستماع إليها كذلك ضرباً من الخلل النفسى أو الشذوذ النفسى - فى نظرى - من اضطراب الفرائز وفساد المجتمع .

وخير من هذا كله أن يستمع طلاب الفناء إلى اللهو المجرد والألحان الطروب . فإذا اجتفوا العمل الجاد المهيّب طلبوه من مصادر المصفاة ، قرآنًا يأمر وينهى ليفعل أمره ويترك نهيه ، وسنة تفصل وتوضح ليسار فى هديها وينتفع من حكمتها ، وسيرة تنفع روادها بالأدب الزكى ، والقواعد الحسيفة ، والسياسة الراشدة .
وذلك هو الإسلام . . .

بدأت أكتب هذه الصفائف وأنا فى المدينة المنورة ، فى الجوار الطيب التى سمعت به حيناً وأطاني على إتمام دراسات جيدة فى السنة الطهرة ، والسيرة المعطرة .
ولله المنة على ما أوفى من نعمة . ولملّه - جل شأنه - يجعلنى ممن يحبونه ويحبون رسولهم . ولا كنت لأحسن القول والعمل إلا فى نطاق الصراحة ، فلا بد أن أشير إلى أن البون بعيد بين المسلمين ورسولهم . مهما أكتوا له من حب وأدمنوا من صلوات . لقد رأيتهم يزورون الروضة مشوقين متلهفين ، ويعودون إلى مواطنهم ليجدوا من يضبطهم على حظهم ، ويود لو ظفروا بما نالوا . . .
أما أن محبة رسول الله واجبة فهذا ما لا يمارى فيه مؤمن . وما ينقض حبه إلا فى قلب منافق جحود . . .

ولكن أن تكون هذه الماطفة مظهر الولاء له ، فهذا ما يحتاج إلى تهذيب وبيان .
إن يثرب من ناحية العمران العام أقل منها يوم كانت موطناً للأوس والخزرج فى الجاهلية الأولى . وما يزرع اليوم من أرضها عشر ما كان يزرعه العرب قديماً .
وجمهور السكان من رواسب المواسم المزدحمة بالحجيج والزوار . وهم يؤثرون الحوار الماطل على المودة للعمل فى بلادهم ! ويسمون ذلك هجرة . . . فهل ذلك إسلام أو حب لرسول الله ؟ . . . أذكر أنه قابلى نفر من أهل النارب يزعمون أنهم قدموا إلى المدينة فراراً منهم من الفتن ، نازحاً منهم أنهم فارون من الزحف ، لأن إخوانهم يقاتلون الفرنسيين النزاة . رم مجرمون ، بتركهم المجاهدين يحملون وحدهم عبء هذا الكفاح

إن هذا الحب لرسول الله غير مفهوم ، وهذه الهجرة لدينته غير متقبلة ، وصلة نبي الله بسبب الله أسدٌ وأحكم من أن تأخذ هذه السبيل الشاردة الملتوية .

إن أعداء الإسلام تمكنوا — في غفلة أهله — أن يصدعوا بناءه ويحملوه ألقاضاً ، فكيف يترك تراث محمد نهياً للموادى ؟ كيف يمهّد للجاهلية الأولى أن تعود ؟ وكيف يقع هذا التبدل الخطير في سكون ؟ بل في مظهر من الحب لرسول الله ! فليفتقه المسلمون سيرة رسولهم ، وهيمات أن يتم ذلك إلا بالفقه في الرسالة نفسها والإدراك الحق لحياة صاحبها . والالتزام الدقيق لما جاء به . . .

ألا ما أرخص الحب إذا كان كلاماً ، وأغلاه عندما يكون قدوة وزعماً ! !

إنني أعتذر عن تقصيري في إيفاء هذا الموضوع حقه . فشان رسول الله كبير ، والإبانة عن سيرته تحتاج نفساً أرقّ وذكاءً أنفذ .

وحسبي أن ذاك جهدي .

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم .
وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم .
في السالين . إنك حميد مجيد .

محمد الفزالي

(١)

رِسَالَةُ وَإِمَام

الوثنية تسود الحضارات القديمة

إن تاريخ الحياة مؤسف

منذ هبط آدم وبنوه إلى الأرض ، ثم بعد أن شبّ بهم الزمن واطرد العمران وتضمت الحضارات وأدبرت أجيال وأقبلت على أقطابها أخرى ، منذ ذلك الحين السحيق والناس أخلاط متنافرون . لا نستقيم بهم السبل يوماً إلا شردت أياما ولا يشيرون بوارق حيناً إلا أطبقت عليهم ظلمات الباطل أحياناً . . . !

ولو تعمينا تاريخ البشر — على ضوء الإيمان بالله والاستعداد للقائه — لوجدنا العالم أشبه بمخمور تربو فترات سكره على فترات صحوه ، أو بمحموم غاب عنه — في سورة الألم — رشده ، فهو يهذى ولا يدري . . .

ولقد كان في تجارب الناس مع أنفسهم ودنيائهم مُزْدَجَر يزع عن الشر ويردّ إلى الخير ، بيد أن الهوى القالب لا تجدى معه معرفة .

كم سلخت الدنيا من عمرها قبل أن يظهر فيها محمد ؟ لقد مرت عليها قرون طوال أقادت فيها علماء كثيراً ووعت تجارب خطيرة . ونمت آداب وفنون وشاعت فلسفات وأفكار .

ومع ذلك فقد قلب الطيش واستحكم الزيف وسقطت أم شتى دون المكافحة المشودة لها . فإذا كان مصير الحضارات في مصر واليونان ، وفي الهند والصين ، وفي فارس ورومة ، لا أقصد مصيرها من ناحية السياسة والحكم ، بل من ناحية العاطفة والعقل !

إن الوثنية الوضيعة اغتالتها ، وفرضت عليها طقوسها الزرية فأمسى الإنسان الذي استخلفه الله عنه ليكون ملكاً في السموات والأرض — أسمى عبداً مسخراً لأدنى شيء في السموات والأرض . . .

وماذا بدد أن تدس المجول والأبقار وتعد الأخشاب والأحجار وتطبق

بأنه ! هذه الخربة ؟

نرى من هذا أن الإنسان لا من خارج الحياة . فكما يفرض

الإنسان في حياته أن يكون له روح لا بد أن يكون له جسم . فكما يفرض

كذلك يفرض المرء المسوخ صفاء نفسه وبقاء عقله على البيئة التي يحيا فيها ، فيؤله من جادها وحيوانها ما يشاء .

ويوم ينفصح القلب الضيق ويشرق الفكر الخامد وتنبو إلى الإنسان معانيه الرفيعة فإن هذه الانكساعات الوثنية تنزاح من تلقاء نفسها .

ومن ثم كان العمل الأول للدين داخل الإنسان نفسه . فلو ذبحت المجول القدسة ونكست الأستار الرموقة ، وبقيت النفس على ظلامها القديم ، ما أجدى ذلك شيئا في حرب الوثنية . سيبحث المبدأ المفجوعون عن آلهة أخرى غير ما فقدوا ، يوفضون إليها من جديد ! وما أكثر الوثنيين في الدنيا وإن لم يلتفتوا حول نصب ! وما أسرع الناس إلى تجاهل الوجود الحق ورهب الأعلى ، والجري وراء وهم بعيد !!



والخرافة لا تأخذ مجراها في الحياة وهي تملن عن باطلها أو تكشف عن هرائها ، كلا ، إنها تدارى مجونها بثوب الجدة . وتستدير من الحق لبوسه القبول وقد تأخذ بعض مقدماته وبعض نتائجها . ثم تنزى بعد ذلك للمخدوعين .

وكذلك فعلت الوثنية ! لقد أظارت على الدين الصحيح وحقائقه الناصعة ، لا كما يغير النحل على أزهار الربيع ، بل كما تنير الديدان وأسرار الجراد على الحدائق الفناء فتحيلها قاما بلقما . . .

وهي إذ أقسدت ما تركت لم تصلح ما أخذت . ولئن كان ما أخذه خيرا قبل أن تتصل به لقد أصبح شرا بعدما تحول في جوفها إلى سموم . وهذا هو السر في أن الوثنية التي لا تعرف الله تزعم أنها بأستماعها تقرب إليه وتبني مرضاته . . . جزء من الحق ، في أجزاء من الباطل ، في سياق يصرف الناس آخر الأمر عن الله ، ويمعدم عن ساحته . . . !

وأعظم نكبة أصابت الأديان إثر عدوان الوثنيات عليها ما أصاب شريعة عيسى ابن مريم من تبدل مروع . ردت نهارها ليلا وسلامها وبلا ، وجعل الوحدة شركة ، وانكسر بالإنسان فملق همته بالقرايين ، وفكره بالألقاز المماعة .

إن خرافة الثالوث والفداء تجددت حياتها بعد ما أفلحت الوثنية الأولى في إقصائها

إحصاءاً على النصرانية الجديدة . وبذلك انتصرت الوثنية مرتين ، الأولى في تدعيم نفسها والأخرى في تضليل غيرها .

فلما جاء القرن السادس ميلاد عيسى كانت منارات الهدى قد انطلقت في مشارق الأرض ومناكبها . وكان الشيطان يذرع الأعطار القبيح فيرى ما غرس من أشواك قد نما وامتد .

فالمجوسية في فارس طليعة عنيدة للشرك الفاسق في الهند والصين وبلاد العرب وسائر الجاهيل . . .

والنصرانية التي تناوى هذه الجهة قبست أبرز مآثرها من خرافات الهندو والمصريين القدامى . فهي تجعل لله صاحبة وولداً . وتقرى أنبائها في رومة ومصر والقسطنطينية بلون من الإشرار أرقى مما ألف عباد النيران وعباد الأوثان . .

شرك مشوب بتوحيد يحارب شركاً محضاً !!!

ولكن ما قيمة هذه النقائص التي جمعت النصرانية بين شتاتها ؟

« قالوا : اتخذ الله ولداً . سبحانه هو الحق . له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا . أتقولون على الله ما لا تعلمون . قل : إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم . ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » :

ويظهر أن آصرة الشرك بين المجوسية والديانات السماوية المشوهة هي التي جمعت هذه الأحزاب إلها على المسلمين يوم بدءوا يقيمون جماعتهم على عبادة الواحد الحق . وقد نبأ الله هذه الأمة بأن الأذى سوف ينصب عليها من عبدة الأصنام ، ومن أهل الكتاب في آن . ووصاها أن تتدبر بالصبر أمام هذا التحامل :

« كَتِبُتُكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ . وَلَتَسْمَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا كُتُباً . وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِكُمْ » .

إِلَهُمَّ أَنْزِلْ رَأْيَ عَلَى الْأَفْعَدَةِ يَا مُنْزِلَ رَأْيِ فِي غِيَةِ أَنْوَارِ التَّوْحِيدِ طَوَى فِي سَوَادِهِ

أيضاً تقاليد الجماعة وأنظمة الحكم . فكانت الأرض مذابة بسودها الفتك والاختيال .
وفقد فيها الضعاف نعمة الأمان والسكينة .

وأى خير يرجى في أحضان وثنية كفرت بالعقل ونسيت الله ولانت في أيدي
الدجالين ؟ .

لا غرابة إذا رفع الله عنها يده كما جاء في الحديث « . . . إن الله نظر إلى أهل
الأرض ففقتهم ، هربهم وهجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب » . هذه البقايا هي التي
ظلت مستمعية على الشرك رغم طوفان الكفر الذي طمّ البقاع والتلاع .

لقد عمت الدنيا قبل بثثة محمد حيرة وبؤس نامت بهما الكواهل .

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم قد هام في صنم
فماهل الروم يطنى في رعيته وطاهل الفرس من كبر أصم عمى
حتى تأذن الله ليحسمن هذه الآثام ، وليسوقن هدايته الكبرى إلى الأنام
فأرسل إلى الناس محمداً عليه الصلاة والسلام .

طبيعة الرسالة الخاتمة

وتمتاز بثثة محمد بأنها عامة وداعمة .

والله عز وجل كان يستطيع أن يبعث في كل قرية نذيراً ، ولكل عصر مرشداً .
وإذا كانت القرى لا تستغنى عن النذر ، والأعصار لا تستغنى عن المرشدين ، فلم
استعيز عن ذلك كله برجل فذ ؟ .

الحق أن هذا الاكتفاء أشبه بالإيجاز الذي يحسّل المعنى الكثير في اللفظ اليسير
وبثثة محمد كانت عوضاً كاملاً عن إرسال جيش من النبيين يتوزع على الأعصار
والأمصار . بل إنها سدت مسدّ إرسال ملك كريم إلى كل إنسان تدب على الأرض
قدماء ، ما بقيت على الأرض حياة ، وتطلعت عين إلى الهدى والنجاة . . . !
ولكن كيف ذلك ؟ . . .

في الزاكن المتلفة قد يقول لك ناصح أمين : أغض عينك واتبعني ، أو لا نسلى
عن شيء يستتيرك ! وربما تكون السلامة في طاعته . فأنت تشي وراءه حتى تبلغ
مأمنك . إنه في هذه الحال رائدك المعين ، الذي يفكر لك ، وينظر لك ، ويأخذ
بيدك . فلو هلك هلكت معه .

أما لوجادك من أول الأمر رجل رشيد فرسم لك خط السير ، وحذرك مواطن الخطر ، وشرح لك في إفاضة ما يطوى لك المراحل ويهون التناهب . وسار معك قليلا ليدربك على العمل بما علمت . فأنت في هذه الحال رائد نفسك تستطيع الاستفتاء بتفكيرك وبصرك عن غيرك .

إن الوضع الأول أليق بالأطفال والسذج . أما الوضع الأخير فهو المفروض عند مساملة الرجال وأولى الرأي من الناس .

والله عز وجل عندما بعث محمداً لهداية العالم ضمن رسالته الأصول التي تفتق للألباب متافذة المعرفة بما كان ويكون . والقرآن الذي أنزله على قلبه هو كتاب من رب العالمين إلى كل حيٍّ ليوجهه إلى الخير ويهمله الرشد .

لم يكن محمد إماما تقبيل من الناس صلحوا بصلاحه فلما انتهى ذهبوا معه في خير كان ، بل كان قوة من قوى الخير لها في عالم الماني ما لا اكتشاف البخار والكهرباء في عالم المادة . وإن بعثته لتمثل مرحلة من مراحل التطور في الوجود الإنساني ، كان البشر قبلها في وصاية رُعاتهم أشبه بطفل معجور عليه . ثم شبَّ الطفل عن الطوق ورشح لاحتمال الأعباء وحده . وجاء الخطاب الإلهي إليه — عن طريق محمد — يشرح له كيف يعيش في الأرض ، وكيف يعود إلى السماء . فإذا بقي محمد أو ذهب فلن يقلص ذلك من جوهر رسالته . إن رسالته تفتيح الأعين والآذان ، وتجليه البصائر والأذهان وذلك ودع في ترائه الضخم من كتاب وسنة .

إنه لم يبعث ليجمع حول اسمه أناساً قلّوا أو كثروا . إنما بعث صلة بين الخلق والحق الذي يصح به وجودهم ، والنور الذي يعصرون به غايهم فمن عرف في حياته الحق ، وكان له نور يمشي به في الماد ، فقد عرف محمداً واستظل بلوائه — وإن لم يرشبعه ويمش معه — .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ كَمَّ رَهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا فَأَمَّا الَّذِينَ آتَوْا بِالْإِثْمِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيَحْمِلُهُمْ فِيهِمْ ذِجْرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ يَسْمَعُونَ إِلَى حَرَامٍ مُسْتَقِيمًا » .

إذا رددت من انساني يفتي دروس الأستاذ ، ويشبث بثيابه وهو حي ،

أو يملق برفاته وهو ميت ، فاعلم أنه طفل غرير . ليس أهلاً أن يخاطب به العالم الرسالة بله أن يستقيم على نهجها .

في مسجد النبيؐ بالمدينة رأيت حشداً من الناس يتلمس جوار الروضة الشريفة ويودُّ أن يقضى العمر بجانها .

ولو خرج النبيؐ حياً على هؤلاء لأسكر مرآهم وكره جوارهم ، إن رثاءة هيتهم وقلة فقههم ، وفراغ أيديهم ، وضياح أوقاتهم ، وطول غفلتهم ، تجعل علاقتهم بنبيؐ الإسلام أوهى من خيط العنكبوت .

قلت لهم : ما تقيدون من جوار النبيؐ ؟ وما يفيد هو نفسه منكم ؟

إن الذين يفقهون رسالته ويحيون بها من وراء الرمال والبحار أعرف بحقيقة محمد منكم . إن القراية الروحية والمقلية هي الرباط الوحيد بين محمد ومن يمتون إليه . فأني للأرواح الريضة والمقول الكلية أن تتصل بمن جاء لبودع في الأرواح والمقول عافية الدين والدنيا ؟ .

أهذا الجوار آية حب ووسيلة مغفرة ؟ .

إنك لن تحب لله إلا إذا عرفت أولاً الله الذي تحب من أجله !! فالترتيب الطبيعي أن تعرف قبل كل شيء : مَنْ رَبُّكَ ؟ وما دينك ؟ فإذا عرفت ذلك — بقل نظيف — وزنت — بقلب شاكر — جيل من بلنك من الله وتحمل العنت من أجلك . وذلك معنى الأثر « أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَنْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ بِحُبِّ اللَّهِ ... » ومعنى الآية « قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحِبِّبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

ثم إن نبي الإسلام لم ينصب نفسه « بابا » يهب المغفرة للشر وينفع البركات ، إنه لم يفعل ذلك يوماً ما لأنه لم يشتغل بالدجل قط . . . !!

إنه يقول لك : تعال معي ، وأذهب مع غيرك من الناس لتقف جيماً في ساحة رب العالمين تناجيه « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » فإذا رضى عنك — هذا النبي — دعا الله لك ... وإذا رضيت أنت عنه ووقر في نفسك جلال عمله وكبير فضله فادع الله كذلك له ! فأباك تشارك

بذلك الملائكة الذين يرفعون قدره ويستزيدون أجره « إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا سلّوا عليه وسلّموا تسليماً » .

ليس محلّ حمد أن يجرّك بحبل إلى الجنة ، وإنما محلّه أن يذنب في ضميرك البصر الذي ترى به الحق ، ووسيلته إلى ذلك كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ميسر لذكره ، محفوظ من الزينغ . وذلك سر الخلود في رسالته .

فلنتظر : كيف طالع النبي البيّنة التي ظهر فيها على ضوء هذه الطبيعة المفروضة في رسالته ، ولننظر قبل ذلك إلى أحوال هذه البيّنة نفسها .

المرب حين البيّنة

كان أهل مكة ضائف التفكير أقوياء الشهوات .

إذ لاسلة بين نضج الفكر ونضج الفريضة ، ولا بين تخلف الجماعات من الناحية العقلية وتخلفها من ناحية الأهواء والطامع .

إن حُرّام الشهوات الذي نسمع عنه في « باريس » و « هوليوود » لا يزيد كثيراً عما وعته القرون الخالية من مفسد الإنسان على ظهر الأرض .

وتقدم الحضارة لا أثر له من هذه الناحية إلا في زيادة وسائل الإغراء فحسب . أما الشهوات نفسها فهي هي من قبل الطوفان ومن بعده . الأثرة والجشع والرياء والتهاوش والحقد وغير ذلك من ذميم الخصال ملأت الدنيا من قديم ، وإن تغيّرت الأرض التي تظهر بها على مر العصور .

وإن الإنسان يرى في القرية النافهة ، وفي القبيلة الساذجة من التنافس على المال والظهور ما يراه في أرق البيئات . وكثير من الناس تفوتهم أنصبة رائحة من العلم والفضل ولكن لا تفوتهم أنصبة كبيرة جداً من الاحتياال والتطلّع والدس .

وقد تستغرب إذ ترى الشخص لا يحسن فهم مسألة قريبة من أنفه . ومع ذلك فهو يفهم جيداً ألا يكون ملان أفضل منه ١١ .

من عهد نوح والحياة تجمع أمثلة شتى لهذا النباء وهذا المناد . فعندما دُعِيَ قوم

نوح إلى الإيمان بالله وحده . كانت إجابتهم لنوح لا تهتم بموضوع الدعوة قدر اهتمامها بشخص الداعي وما سيحرزه من فضل بهذه الرسالة !!

« فقال اللأ الذين كفروا من قومه : ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يريدُ أن يتفضلَ عليكم . ولو شاء الله لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ... »

ما أكثر منافذ الهوى إلى الأعمال والأحكام ، وما أعقد غلغلات الهوى في الأخلاق والأفكار ، والسَّير والسياسات .

وقد كانت « مكة » على عهد البعثة تموج بحركة طاصفة من الشهوات والمآثم . وكان الرجال الذين يحبون فيها أمتة قوية لنضج الأهواء وشلل الأفكار ، أو غنائها في ظل الهوى الجامح وتلذذته وحده ...

كفر بالله واليوم الآخر ، إقبال على نعيم الدنيا وإغراق في التشبع منه ، رغبة صميمة في السيادة والعلو وفضاذ السكامة . عصبية طائشة تسالم وتحارب من أجل ذلك . تقاليد متراثة توجه نشاط الفرد المادي والأدبي داخل هذا النطاق المحدود .

من الخطأ أن نحسب « مكة » يومئذ قرية مقطعة عن العمران في صحراء موحشة ، لا تحس من الدنيا إلا الضرورات التي تمسك عليها الرمح . كلا . إنها شبت حتى بطرت وتنازعت الكبرياء حتى تطاحت عليها . وكثر فيها من تطفل الإلحاد في أغوار نفسه حتى عز إخراجها منه . فهم بين عيم من الصواب أو جاحد له . وفي هذا المجتمع الذي لم ينل حنفاً يذكر من الحضارة العقلية بلغ غرور الفرد مذاهب ، ووجد من يسابق فرعون في عتوه وطفواه .

قال عمرو بن هشام مللاً بكفره برسالة محمد : زاحنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرنسي دهان ، قالوا : مَتَا نَبِيٌّ يوحى إليه ؟ والله لا نؤمن به ، ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه !!

وزعموا أن الوليد بن المغيرة قال لرسول الله : لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك إلا أني أكبر منك سنأ وأكبر منك مالاً !

وهذه السفاهات العاتية لم تنفرد مكة بها . فإكان كفر عبد الله بن أبيّ في المدينة إلا لمثل هذه الأسباب .

ذهب رسول الله — بعد الهجرة — يعود سعد بن عباد في مرض أسابه قبل وقعة بدر . فركب حماراً وأردف وراءه أسامة بن زيد . وسارا حتى مرها بمجلس فيه عبد الله بن أبي . وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركون عبدة الأوثان واليهود . وفي المسلمين عبد الله بن رواحة فلما غشيت المجلس بحاجة العباة خر عبد الله أنفه بردائه ، ثم قال : لا تغبروا علينا . فسلم رسول الله ، ثم وقف ونزل . فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن . . فقال له عبد الله : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول ، إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا ! وارجع إلى رحلك . فمن جاءك فاقصص عليه . فقال ابن رواحة : بلى يا رسول الله فاعشنا به في مجالسنا . فإننا نحب ذلك . فاستب السلون والمشركون واليهود حتى كادوا يقتادرون . فلم يزل النبي يُخَفِّضُهُمْ حتى سكتوا . ثم ركب وسار حتى دخل على سعد بن عباد ، فقال النبي : ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب — يعني ابن أبي — ؟ قال سعد : وما قال ؟ قال رسول الله : قال كذا وكذا . فقال سعد : اعف عنه يا رسول الله ، فوالله أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي أنزل عليك ، ولقد اجتمع أهل هذه البعيرة — يعني المدينة — على أن يتوجوه . ويمصبوه بالمصابة . فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك ، شرقت بذلك . فذلك الذي فعل به ما رأيت . . .

إن ابن أبي غصن بالإسلام لأنه رآه خطراً على زعامته ، وكذلك فعل أبو جهل من قبل . ولئن كان هؤلاء قد ازوروا عن الحق بعد ما تبينوه ، فإن هناك ألوفاً غيرهم لا يدركون قبلاً ولا يهتدون سبيلاً ، كرهوا الإسلام وحاربوه .

ووسط هذه الجهالات البسيطة أو المركبة ، والعداوات المقصودة أو المضلّة ، وسط نماذج لا حصر لها من الصلال والغفلة ، أخذ الإسلام رويداً رويداً ينشر أشسته . فأخرج أمة من الظلام إلى النور ، بل جعلها مصباحاً وهاجاً يضيء ويهدي . والنسوس التي أحدثت هذا التحول الخطير والتي رفعت شعوباً وقبائل من السفوح إلى قمم بيات دراهم الدنيا أو مخصوماً ، هي علاج أسيل لطبيعة الإنسان إذا التفتت ، وسدلت ما بقي إلا أن يرتب الحياة تكريم الإنسان وتجدد الحياة

رسول معلّم

كانت الإشاعات قد فاضت بين أهل الكتاب الأولين أن نبياً قد اقترب ظهوره . ولهذه الإشاعات ما يبررها ، فإن عهد الناس بالرسول أن يتابعوا فلا تقول فترة الاقطاع بين أحدهم والآخر . وكثيراً ما تعاصر الرسلون لجمعهم أقطار واحدة أو متجاورة . لكن الأمر تغيّر بعد عيسى ، فكانت السائدة السادسة تم بعد بعثه ، ولما يأت نبى جديد .

فلما اكتظت الأرض بالفساد والضلالات زاد التطلع إلى مقدم هذا المصلح الرقيب ، وكان هناك رجال ممن ينكرون الجهالة السائدة يستشرفون للنصب الجليل ويتمنون لو اخبروا له منهم « أمية بن الصلت » الذى حفل شعره بالتحدث عن الله وما يجب له من محامد . حتى قال الرسول فيه : « كاد أمية أن يسلم » وعن عمرو ابن الشريد عن أبيه : ردف رسول الله يوماً فقال : هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت ؟ قلت : نعم . قال : هبه . فأنشدته بيتاً . فقال هبه ، حتى أنشدته مائة بيت . غير أن القدر الأعلى تجاوز أولئك المتطلعين من شعراء ونثرين . وألقى بالأمانة الكبرى إلى رجل لم يتطلع إليها ولم يفكر فيها « وما كنت أرجو أن يلقي إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكون ظهيراً للكافرين » .

إن الاسطفاء للرسالات العظيمة ليس بالأمل فيها ولكن بالطاقة عليها . وكم فى الحياة من طامعين لا يملكون إلا الجرأة على الأمل . وكم من راسخين يطويهم الصمت . حتى إذا كلّفوا أتوا بالمعجب المجاب .

ولا يعلم أقدار النفوس إلا بارئها . والذى يريد هداية العالم أجمع يختار لقناية العظيمة نفساً عظيمة . وقد كان العرب فى جاهليتهم يرمقون محمداً بالإجلال ، ومحترمون فى سيرته شارات الرجولة الكاملة . إلا أنهم لم يتخيّلوا قط أن مستقبل الحياة قد ارتبط بمستقبله ، وأن الحكمة ستفجر من ذلك القم الطهور ، تطوى السهوب والجندوب وتنب الوهاد والنجاد . .

لهم لا يرون منه إلا ما يراه الطفل من سطح البحر ، تشغله الصفحة المادنة عين الغور البعيد .

كان اسطفاء الله لحمد مفاجأة لم تلبث روعتها أن تكشفته عنه ، ثم ثبت الكاهل الجلد لما أتى عليه ، ومضى على النهج مسدداً مؤيداً . . .

ومكث الوحي ينزل ثلاثاً وعشرين سنة كانت الآيات تنزل خلالها حسب الحوادث والأحوال . وهذه الفترة الطويلة الحافلة هي فترة تعلم وتعليم . الله عز وجل يعلم رسوله ، والرسول يتلقى هذه المعارف الحية ، فيديرها في نفسه حتى يحيلها جزءاً من كيانه ، ثم يعلمها الناس ويأخذهم بها أخذاً . . .

وتزل القرآن على هذه الوتيرة مقصود للشارع الحكيم . فإن الزمن جزء من علاج النفوس وسياسة الأمم وقرير الأحكام . وانساق القرآن في أقراضه ومعانيه على طول الدة التي استغرقها في تجميعه يعتبر من وجوه إعجازه فإن خواتيمه — بعد ربع قرن — جاءت مطابقة مساوقة لفواتحه ، يصدق بعضها بعضاً ويكمله ، كأنما أرسلت في نفس واحد . . .

وقد تساءل الرب : لم نزل القرآن كذلك « وقالوا : لولا نزل عليه القرآن جلة واحدة . كذلك لثبَّت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً . ولا يأتوك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » .

إن القرآن يشرح حقيقة الدين عند الله ، وتاريخ هذه الحقيقة . وهو في دعوته المامة يبسط الشبهات المارضة ويفندھا . ويسوق أدلته وهو على بينة من آراء خصومه . ويتتبع أقصى ما يثار ضده ثم يكر عليه بالحجة فيمحقه . وقد بدأ القرآن بين قوم تشب الكفر في نفوسهم ومرتت على الجدل ألسنتهم . وكان القدر مخير هذه البيئة لتكون مجماً يمثل آخر ما يحيك في القلوب من رية وآخر ما يذله الباطل من التحدي ، فإذا أفلح الإسلام في تبديد هذه الرية وتذليل هذه العوائق فهو على ما دونها أقدر ! !

والأسئلة التي توجب للنبي أو التي يتظار أن توجه إليه في مختلف العقائد والأحكام

والحجج الشارحة ، أن . باعتبار أن السؤال لا يمثل حاجة صاحبه وحده

والله اعلم .

والله اعلم .

قل كذا . قل كذا . وما أكثر الآيات التي صُدِّرت بهذا الأمر إجابة لسؤال ورد أو مُفْتَرَض ...

وأنت تحس - إذ تقرأ هذه الأجوبة المستفيضة - فيضاً من اليقين ينساب إلى قلبك ، كأنها حسمت وساوس عرضت لك أوفى الإيمان أن تعرض ..
والرسالة الخالصة هي التي تصلها بضائر الناس هذه الأوامر الثابتة . إن القرآن وسول حتى تسأله فيجوابك ، وتستمع إليه فيقتنك .

انظر : كيف يؤسس عقيدة البعث والجزاء ، ويوفو بشمول الإرادة والقدرة في ثنايا إجابة على سؤال موجه . وكيف صيغت المعاني في أخذ ورد ، واعتراض ودفع . كأنها حوار سيال ، يتعدى أصحابه حتى يجمع الناس إلى آخر الدهر :
« أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ قَالَ : مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا . فَإِذَا أَنْتُمْ مُنْقَذُونَ أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَى . وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » . إنما أمره إذا أراد شيئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه تُرْجَعُونَ » .

إن هذا مثلٌ للاستدلال القائم على النظر الصائب ، لا يختص به زمان دون زمان ولا مكان دون مكان . فهو خطاب للعقل العام في البشر أجمعين . وهو بيان لحكمة نزول القرآن منجماً إذ جاءت الآيات للرسول : قل كذا ، ردّاً على ما عرض له من أسئلة في أثناء تطوافه هنا وهناك يدعو إلى الله . ثم ثبت السؤال والجواب ليكون منهما علم ينفع الناس آخر الدهر .

وقد استوقف الأمر « بقل » نظر العلماء . إنه تعليم من الله لرسوله ، وتعليم من الرسول للناس ، وقد سيقّت بمد هذا الأمر الأقوال التي تضمنت ما شاء الله من النصائح والعظات والأحكام ...

فعمد ما أحب المشركون - على عادتهم - أن ينقلوا ميدان الجدل من حقيقة الدين ، إلى شخص الرسول وأتباعه زلت الآية « قل : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ

وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمْتَكَ . فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ قل : هو الرحمنُ آمَنَّا بِهِ ، وعليه توكلنا ، فستملون من هو في ضلالٍ مبين . »

فانظر : كيف يُستخلص الباب وسط غبار الجدل ؟ ما يجديكم تنقص الرسول ومن معه ؟ فكروا في أنفسكم كيف أهلكتها الخرافات وشردت بها عن الجادة ! إنه ليس للرسول ومن معه تفكير في أنفسهم وحظوظها ، إنهم دعاة للرحمن ، آمنوا به ، وتوكلوا عليه . فإن شئتم فالطريق إلى الرحمن ميسرة ! !

وليس من الضروري أن يقع سؤال ما لتأتى الإجابة عليه من لدن الله « قل » ! !
 فربما يجيء السياق على هذا النحو ابتداء عند عرض أصول الدعوة وآدابها ، وتكون الغاية منه التحريف بالإسلام ونبية تعريفاً مشبهاً مقتناً يستأصل الرِّيبَ قبل أن تولد :
 « قل : إننى هدانى ربى إلى صراطٍ مستقيم ديناً قِيماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وما كان من المشركين . قل : إن صلاتى ونُسكى ونُحْيَايَ وَمَمَاتِى فُورَ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَاشْرِيكَ لَه . وبذلك أُبْرِتُ وأنا أولُ المسلمين . قُلْ : أَعِزَّ اللَّهُ أَبْنَى رَبِّاً وهو رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ؟ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ... »

فالخطاب للرسول هنا يتضمن أمراً إلى كل حى وجد فى عهده ، أو يوجد من بعده أن يتدبر — بقله — ما يلقى إليه ، وأن يحكم — بضميره — على مدى صحته وإخلاسه . فإذا تعلق بقله إيمان فهو إيمان برب كل شيء ! وحمل الرسول ينتهى عند هذا الحد ، عند وصل العقول والقلوب بيارحها وإيضاح الصراط المستقيم لها وعلى كل إنسان أن يحمل تبعته فى فعل الخير أو الشر بعد ذلك ، فليس الرسول وسيطاً يحمل لك خيرا قدمته ولا قرباناً يحمل عنك عقاباً استحقته ، لأنه لا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ... وهنا يبدو بعد الشقة بين المسيحية والإسلام .

الإسلام ينأت به در الإنسان ويعطيه حراء الحق على الرقة والضمه . أما النصرانية
 ... عنها أزل ... أن يتصل برب العالمين من لقاء نفسه ، لا بد من — آخر —
 ... ويتبل ... من ذلك الآخر ؟ شخص دعى ! ! فإذا اقتراف ذبا
 ... التي تعناه . إن الزيان ذبح قديماً من أجل خطيئته تلك ، وعليه
 ... بنجوا ... ذبا ...

هذا الخبط يحتاج إلى جرارات ثقيلة ! ليسير في الحياة مراغماً النطق والعدالة .
 أما الإسلام فإن الله يقول لتبیه قولاً تنفتح له الأعین والأفهام :
 « قل : من ربُّ السموات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفَتُخَذَ مِنْ دُونِهِ
 أولیاء لا یملکون لأنفسهم نفساً ولا غرضاً ؟ قل : هل یستوی الأعمی والبصیر ؟ أم :
 هل تستوی الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا تخلفه قشایه الخلق علیهم ؟
 قل : الله خالقُ كلِّ شیءٍ وهو الواحدُ القهارُ » .
 إن هذه الاستفهامات المترادفة سیاط تلذع الباطل ، وتجمل العقل النائم یصحو
 من سباته . وتحفز الإنسان إلى امتناع الحقيقة ، والتسامی بها . وذلك ما یملئه
 ویمل له رسول الإسلام .



وقد لقی الإسلام مقاومة عنيفة أشد العنف من الوثنية السائدة ، فهي لم تلفظ
 أنفاسها فی معركة أو معركةین . بل قاتلت یأس شدید علی كل شبر من الأرض ،
 وكان الظن أن قواها خارت وانماحت عندما أدى الرسول أمانته وذهب إلى الرفیق
 الأعلى . یبد أن الجزيرة انقضت بأسرها فی عهد أبي بكر ، وانحصر المسلمون وسط
 طوفان من الردة العمیاء شرعوا یكافحونه مرة أخرى فا استطاعوا كسر شوکته إلا بعد
 ماتكبدوا من الخسائر أكثر مما قدوا علی عهد النبی نفسه فی مقاتلة أولئك المشركین .
 إن الرجال القدین ثبتوا علی الحق بعد رحیل نبیهم هم المسلمون حقاً . فإن الإسلام
 رباط عیبادی لا بأشخاص . وقد علم الله نبیه ، وعلم المسلمین فی شخصه أن یلتزموا
 الحق القدی عرفوا . وأن یتشبثوا به مهما غولبوا وحوربوا . . .
 والدنيا طاغية بأسباب الزیغ ، وهي تحاول أولاً ألا تبقى للإیمان مكاناً بها ، فإذا
 ظفر بكسب بعد طول عناء حاولت أن تلابثه حتى یزل عن شیء ویكتفی بشيء . ولو
 أفلحت فی استدراجه إلى هذه المنزلة لأمكنها الإجهاز علیه ، ولذلك جاءت أوامر الله
 فی كتابه حاسمة تقضى بأن الإیمان كل لا یتجزأ ، وأن مناجزة الكافرین علی هذه
 الحقيقة لا یجوز أن تهدأ فلا بد من الاستمساک بهذه التالیمة المترابطة ، والحب والبض
 علیها ، والمسالمة أو المحاربة دونها . فإن نصیب العاطفة فی خدمة المقيدة لا یقل عن
 نصیب العقل .

والآيات الواردة في ذلك هي أوامر المسلمين تنزلت في شكل خطاب للرسول :
 « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ، وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالنَّافِقِينَ إِنْ أَفْهَكَانَ عَلِيَا حَكِيمَا . وَاتَّبِعْ
 مَا يَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنْ أَفْهَكَانَ بِمَا تَمْلُونَ خَيْرًا . وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ
 بِاللَّهِ وَكِيلًا » .

فليس الرسول مظنة أن يطيع الكافرين والمنافقين حتى يئنه إلى التصحرز منهم !
 ولكننا نحن الممتبون بهذا الإرشاد . ومن ذلك « ادع إلى ربك » ، ولا تكونن من
 المشركين ولا تدع مع الله إلهاً آخر . . . « لقد كان الرسول من بده دعوته حرباً على
 الشرك وعلى الآلهة الأخرى . ومنه تعلم الناس هذه الخصومة . ويستحيل أن يُتوقع
 منه غيرها .

ومن ذلك : « وَلَا تَدْنُ مِنْ عَيْنِكَ إِلَى مَا مَتَمَّنَّا فِيهِ أَزْوَاحًا مِنْهُمْ . وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
 وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ » .
 « وَلَا تُطْعِ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قَرْطًا . وَقُلْ :
 الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ » .

« فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ .
 لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا
 بَيِّنَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

قال المفسرون : خوطبت الأمة في شخص رسولها كما تصدر الأوامر إلى القائد
 مع أن الجند هم المنفذون .

وقيل : بل الخطاب « سول على طريق الإهاجة واستثارة الهمة . يقال للفقوى
 البادى المزم : لا تهين . ولما كان الصحيح القهن . لا تنفل . وليس يخاف عليهما
 دهن ولا عملة . ولكن الأمر تحريض على استدامة القوة والذكاء . والشجاع يزداد
 المرات إتباتاً فذو . لا تحين . . .

دراة كرسية . . . ان الرسول سناط الأسوة الحسنة ، ومن سلوكه يأخذ
 لئلا . . . بالرسول من الضالين ، والتثاني عن حاقهم

وذلك لأن هناك أحياناً شئ يضاف فيها الحق ويمزج التمسك به . ويقوى فيها الباطل وتكثر المفريات على مصادقته ، أو مهادنته .

ومن حق العقائد على أصحابها أن يتشددوا في دعم حانيتها وأن يتسكروا لها بحسبها من بعيد . والأوامر التي تنظم هذه الشاعر لن تنقصها الصرامة ، وماذا بمد أن يقول الله لنبيه : « لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » .

إن هذا الخطاب يقرع آذاننا وله مغزاه . كما قيل : « إياك أعنى واسمعى يا جارة » وقد كان لهذا الأسلوب أثره في تأليب السليين على الفساد وترهيبهم من الركون إليه به الوقوع فيه .

وأقوال المفسرين التي سردناها تنطبق أيضاً على الآية « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك . . . » .

الخطاب للقارىء أو السامع ، أو الرسول نفسه على حمة التهييج والتحريض كما علمت . إذ أن الرسول لن يقع منه شك في أمر نبوته ، والكلام هنا فرض للمستحيل . لكن ما معنى سؤال أهل الكتاب ؟

قالوا : المراد الثقات المصفون منهم . فهم لن يكتموا شهادة الحق إذا طلبت إليهم . وعندى أن المدول الصادقين من أهل الكتاب قلة لا يعول على حكمها وما أعلن الآية تمنى ذلك .

ولكن المرء يزداد بصراً بنفاسة ما عنده من خير إذا رأى ما عند غيره من خلط . ولما انتهت لحظة في أن القرآن من عند الله ، ثم تصفحت كتب العهد القديم والجديد ، لمدت على عجل إلى كتابك تنشئت به وتحمد الله ألف مرة أن هُديت إليه ! ! وأحسب أن هذا ما تفسر إليه الآية ، فإن تبين ما في الإسلام من حق يزداد قوة عند اكتشاف ما طرأ على الأديان الأولى من تشويه . وهذا يتفق مع قوله تعالى : « ولئن أثبتت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير » ويزكى فهمنا هذا في الآية الكريمة ما أخرجه البخارى عن ابن عباس قال : « يا مشرك المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب ؟ وكتابكم الذي أنزل على نبيكم أحدث كتب بالله ، تقرأونه محضاً لم يشب . وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدؤوا

کتابِ اللہ وغیرہ . وکتبوا بآیہم الكتاب وقالوا : هو من عند اللہ لیشتروا به
منا قليلا . ألا إنها کم ما جاءکم من العلم عن مسألتهم ؟ ولا ، واللہ ما رأینا منهم
رجلا قط یسألکم عن الذی أنزل علیکم » !!



لأن الإسلام من الناحية العقلية معرفة للحقيقة ، ومن الناحية العاطفية حب لها وإعزاز . وكراهية للباطل وعداء صريح .

إن هناك أناساً في مشاعرهم برودة يلقون بها الرأي وضده ! وقد يُتصور هذا في بعض المسائل النافعة . أما أن يطلق الأمر بالإيمان والإلحاد . والفجور والمغاف ، فلا . . .

إن الله علم رسوله الكتاب والإيمان ، فكان من عرفان الرسول بهذا الفصل الإلهي أن نال بإيمانه واعتز بقرآنه ، فماش بهما وطش لهما ، وخاصم وسالم فيهما وطلباً تمنى عذابه أن يركن إليهم شيئاً قليلاً ولكن هيبات ! « وَذُوالو تُذهِنُ قَيْدَهُنَّ » والأمة الجديرة بالانتماء إليه هي الأمة التي تقاوم على الحق فلا تسمح بانقصاص له ولا حيف عليه ، ومن خصائصها الأولى أنها أمة فكرة ومنهاج ، يقوم كيانها المادي والأدنى على ما تبذل في ذلك من جهد وتكسر من تقاض .

منزلة السنة من الكتاب الكريم

من حق المسلم أن يرب المصادر التي يأخذ منها دينه . وأن يدرك الوصف الصحيح للمعروف من قول النبي صلى الله عليه وسلم إلى حوار السجل الثابت للوحي الإلهي الذي خصت به الرسالة الحقة .

١٠. إن القرآن روح الإسلام . . . وفي آياته المحكمات شرع دستورهِ وسُطت
 دعوتهُ وقد تكفل الله بحفظه . . . في الدين وكتب لها الخلود أبداً الأبد .
 ١١. ليجل الذي استمد . . . (كان رآنا) . . . حب يسمي
 ١٢. كل داء . . . القرآن . . . وسوى وحده .
 ١٣.
 ١٤.
 ١٥.

إن الله اختاره ليتحدث باسمه ويبلغ عنه . فمن أولى منه بفهم مراد الله فيما قال ؟ ومن أولى منه بتعديد المسلك الذي يتواءم مع دلالات القرآن القريبة والبعيدة ؟ . إن تطبيق القانون لا يقل خطراً عن سياغته ، وللقانون نص وروح ، وعند علاج الأحداث المختلفة لتسير وفق القانون المتيد ، تجد فتاوى وتدوّن نصائح وتُحفظ تجارب وغير ، وتثبت أحكام بعضها أقرب إلى حرفية النص وبعضها أدنى إلى روحه . . . وهكذا .

والقرآن هو قانون الإسلام ، والسنة هي تطبيقه . والمسلم مكلف باحترام هذا التطبيق تكليفه باحترام القانون نفسه . وقد أعطى الله نبيه حق الاتباع فيما يأمر به وينهى عنه ، لأنه في ذلك لا يصدر عن نفسه بل عن توجيه ربه ، فطاعته هي طاعة الله ، وليست خضوعاً أسمى لواحد من الناس .

قال الله عز وجل : « من يطع الرسول فقد أطاع الله . ومن تَوَلَّى فَاوْرُسْنَاكَ عَلَيْهِمْ حِفْظًا » . وقال : « وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » وقال : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

على أن الإلهام الأهل لا يمتل مواهب الإنسان الراق : فمن الخطأ أن تصور المرسلين أساساً مسخرين تنطقهم اللاتكة أو تسكتهم . إنهم لو لم يكونوا أنبياء لكانوا رجالاً يُرمقون باحترام ويُقدّمون عن جدارة .

إن الوحي لا يصيب الناس اتفاقاً . بل يُرشح له أكل الناس رشداً وأسيفهم فضلاً وأنبلهم حلقاً وأنضجهم رأياً . وسيرة هؤلاء في الحياة ليست مما ينبذ ، وكلّهم ليس مما يهمل . فكيف إذا تأيدت هذه العراقة بالمصمة وهذا القكاء بالتصديد ؟ .

إن السير في ركاب المرسلين هو الخير كله ومن ثمّ كانت سنة محمد مصدراً لشريعته مع الكتاب الذي شرفه الله به . وجمهور المسلمين على هذا الفهم .

إلا أن السنن المأثورة عرض لها ما يوجب اليقظة في تلقيها ، فليس كل ما ينسب إلى الرسول سنة تقبل . ولا كل ما صحت نسبته صح فهمه ، أو وضع موضعه . . . والمسلمون لم يؤدّوا من الأحاديث الموضوعة قدر ما أودّوا من الأحاديث التي

أسىء فهمها واضطربت أوضاعها . حتى جاء أخيراً من ينظر إلى السنن جمساء نظرة رية واتهام . ويتمنى لو تخلص المسلمون منها . . .

وهذا خطأ من ناحيتين : إهمال الحقيقة التاريخية أولاً . فإن الدنيا لم تعرف بشراً أحصيت آثاره ، وتعدت بمخدر ، ومحصت بدقة ، كما حدث ذلك في آثار محمد بن عبد الله ؛ فكيف ترى بعد ذلك في مطارح الإهمال ؟ والناحية الأخرى أن في السنة كنوزاً من الحكمة العالمة لو نسب بعضها إلى أحد من الناس لكان من عطاء المصلحين ، فلماذا تضع على صاحبها وعمر الناس خيرها ؟ ؟

عندما درسنا تراث محمد في « الأخلاق » وذاكرنا أحاديثه التي تربو على الألوف في شتى الفضائل خيّل إلينا : لو أن جيشاً من علماء النفس والتربية اجتمع ليسوق للعالم مثل هذا الألب لعجز . والأخلاق شعبة واحدة من رسالة محمد الضخمة إلا أن الاشتغال بالسنة مع هذا يجب أن يحظر على من لم يستجمع الشروط التي يجعل مثل هذا الاشتغال مفيداً للإسلام والمسلمين .

١ — فلا يجوز أن يشتغل بالسنة من لم يدرس علوم القرآن ويضرب فيها بسهم وافر . فإن القرآن هو الدستور الأسيل للإسلام . وهو الذي يحدد للمسلم بدقة تامة واجباته وحقوقه ، ويرتب التكاليف المنوطة به ، ويوزع العبادات على حياته ، فلا تعطى عبادة على أخرى . ولا تعطى كلها على عمله للحياة ومكانه فيها .

والمرء الذي يمجز عن تحصيل هذه الحقائق من القرآن لن يموضه عن فقدانها شيء آخر ، والصورة التي تستقر في نفسه للإسلام — من غير القرآن — تضطرب فيها السب والألوان ، وربما لحقها اختلاف كبير .

ولذلك حرص أئمة الصحابة على أن يخلو الطريق للقرآن الكريم ليحتل مكاته الأولى في القلوب ، وحرسوا على ألا يزاحمه في موضع الصدارة شيء .

روى ابن عسالك في كتابه (جامع) أن علياً (رضي الله عنه) قال : قال : عن جابر بن عبد الله بن يسار قال : سمعت علياً يقول : عزم على كل من كان من كتاب الإرجع عهده . فأما هك ، أما عيث الله . أحاديثهم وركوا . . . وعن الزهر . من عردة أن ع . . . انتساب رسي الله منه أراد أن . . . صاحب . . . ليدير . . . فأساروا عليه بأن يكتبها . . .

فطلق عمر يستخير الله فيها شهراً . ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : إني كنت أريد أن أكتب السنن وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله . وإني والله لأشوب — وفي رواية — لأنسى كتاب الله بشيء أبداً .

وعن ابن سيرين قال : إنما ضل بنو إسرائيل بكتب ورثوها عن آبائهم . ودخل علقمة والأسود على عبد الله بن مسعود ومعهما صحيفة فيها حديث حسن فقال عبد الله ابن مسعود يا جارية عاتى بطشت واسكبي فيه ماء فجعل يحسوها بيده ويقول : نحن قص عليك أحسن القصص . فقالا له : انظر فيها حديثاً عجيباً ، فجعل يحسوها ويقول : إن هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره — كانت الصحيفة تضم طرفاً من علوم أهل الكتاب — .

وعن حاصر الشامي عن قرظة بن كعب قال خرجنا يزيد العراق فشى منا عمر إلى (صرار) ثم قال أتدرون لم مشيت معكم ؟ قالوا : نعم نحن أصحاب رسول الله ، مشيت معنا تريد أن تشيئنا وتكرمتنا فقال : إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوم بالأحاديث فتشغلونهم . جودوا القرآن وأقلوا الرواية من رسول الله . امضوا وأنا شريككم . فلما قدم قرظة قالوا : حدثنا . قال : نهانا عمر بن الخطاب

وعمر وعلي وغيرهما من الأئمة لا يحدون السنة . ولكنهم يريدون إعطاء القرآن حظه الأوفر من الحفاوة والإقبال . وذلك هو الترتيب الطبيعي . فلا بد من معرفة القانون كله معرفة سليمة قبل الخوض في شروح وتفاسيل لبعض أجزائه إذ أن هذه التفاسيل والشروح لا يحتاج إليها كل أحد ، وربما شغلت الأذهان فلم ترك بها فراغاً للأسول اللازمة والقواعد الهامة .

وخصوصاً لأن الطريقة التي تروى بها الأحاديث تجمع في صعيد واحد ما صدر عن الرسول متناثراً في أمكنة شتى وأزمنة شتى وملابسات شتى .

عن هروة بن الزبير عن عائشة قالت : ألا يعجبك أبو هريرة ؟ جاء يجلس إلى جنب حبرتي يحدث عن رسول الله ، يسمعي . وكنت أسبح . فقام قبل أن أقضى

سبحتي — أنهى صلاتي — ولو أدركته لرددت عليه ، أن رسول الله لم يكن يسرد الحديث كسردهم ... III

٢ — ويجيء بعد رسوخ القدم في فهم القرآن ، فهم ما يروى من السنن على وجهه الحق ، تغير لما يقصر من فهم السنن أن يحبس لسانه في فقه فلا يقول : قال رسول الله . ثم يسوق حديثاً لا يعرف ما المقصود منه ؟ وإن كان يفهم عبارته الظاهرة وحدها .

وقد بليت السنة من قديم عمن يحفظ منها الكثير ولا يسي إلا اليسير . وتمسح السبلة عائشة من أبي هريرة حين جلس يروي ليس لأنها تهمه بكنب ، بل لأن أسلوب محدثه يهدر الملابس التي قيلت فيها هذه الأحاديث بعدما طويت طياً في سرده الوصول . وقد روى مسلم في صحيحه أن عمر ضرب أبا هريرة لما سمعه يحدث عن رسول الله « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » ولعل عمر فعل ذلك لأنه وجد أبا هريرة ، يذكر الحديث لمن لا يسي منه أن الإسلام كلمة تقال باللسان ولا عمل وراها . ومنع الحديث — ولو صح — إذا أوحى بهذه الجمالة — أفضل من إباحة روايته . وروى ابن عبد البر عن أبي هريرة نفسه قال : لقد حدثتكم بأحاديث لو حدثت بها زمن عمر بن الخطاب لضربني عمر بالدرية !!

وقه عمر في هذا المنع أنه يريد — كما علمت — بناء المجتمع على تعاليم القرآن وشغل الأفكار بتدبرها والاستنباط منها . فإذا رويت السنن بعدئذ تلققتها أذهان نيرة فلم تعد بها معناها الصحيح .

يستطيع أبو هريرة — لجودة حفظه — أن يسرد مائة حديث في الصلاة مثلاً وعمر ربما لا يرى حرجاً من سرد هذه السنن في مدرسة خامة ، ولكنه يكره أن يشغل جمهور المسلمين بأمر يكفهم منه القليل ، ثم ينصرفون بعده إلى أعمال أجدى على الإسلام وأهل ..

وذلك سر سؤاؤة يروى عن المكثرين !

... من أن ... من الأحاديث في الوضوء . ولن شاء أن يتدبر ... من الم ... عامة المسلمين به حق ! فابق بعدئذ

للقرآن نفسه ؟ بل إن شغل المسلمين بالقرآن على هذا النحو ليس من الدين . قال رسول الله « اقرأوا القرآن ، ولا تملوا فيه ، ولا تحمقوا عنه ، ولا تأكلوا به » .. !! وإن يكن لهؤلاء الحفاظ فضل ، فلائهم حلوا العلم إلى من يحسن الاستفادة منه على نحو ما قال الرسول : « رب حامل فقه ليس بفقيه ، رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » من أبي يوسف قال : سألت الأعمش عن مسألة ، وأنا وهو لا غير . فأجبت ، فقال لي : يا يعقوب إني لأحفظ هذا الحديث من قبل أن يجتمع أبواك ، ما عرفت تأويله إلا الآن ... !!

وقد يبصر أبو يوسف الفقيه ما ينبى عن الأعمش الحافظ ، ولكن المحذور ليس في الحفظ بلا فهم . بل بفهم الأمر على غير وجهه ..

والترتيب الفنى للسنن — كما دوت وتلقيناها — يجعل ماورد في الإيمان بابا ، وما ورد في القضاء بابا .. وهكذا . .

ولما كان الإسلام جملة هذه الحقائق . فإن السنة أصبحت كتبر كبير للملابس وزعت فيه أنواعها على مختلف الجواب ؛ هنا أغطية الرأس ، وهنا سراويل وهنا قصان . وهنا حلل سابتة . الخ

والطبيى أن من يريد كسوة كاملة يمر بهذه الجواب كلها ليأخذ ماينطيه من رأسه إلى قدمه . ولكن يحدث كثيرا أن ترى من يشتري قلنسوتين ويخرج حاقيا أو من يشتري مندبلا ويخرج عاريا .!

إن هذا مثل طوائف اشتغلت بالسنة ، ثم بعد طول تطواف خرجت على الناس وفي يديها من السنن سواك ، وعمامة مقطوعة القنب اعتبروها شعار الإسلام ، وسر ذلك أنهم دخلوا المرض الحافل ثم خرجوا منه بعد أن ظنوا الدين كله في حديث فذ أو سنة محدودة فأساءوا بذلك إلى القرآن والسنة جميعا .

٣ — إن قصر الباع في السنة على كثرة الاشتغال بها أضر بتوجيه المسلمين ، وأشاع بينهم طائفة من الأحكام البتسرة والتقاليد الضيقة ، تلبو عنها روح القرآن والسنة ، وإن اعتمدت على حديث لم يفهم ، أو آثر لم يفقه ...

وذلك أن الإسلام في الشئون الهامة جاء بطائفة من الأحكام ، ذكرت في الكتاب

المزبور أو وردت على لسان النبي . وهي جميعاً متكاملة يصل بعضها بعضاً ويوثقه ، فإذا ظهر في دليل منها ما يمارض سائر الأدلة بحث في تأويله حتى يتم الجمع بينها كلها ، أو قيل الأرجح سنداً ورد الآخر .

ولذلك يرى المحققون أن سنن الأحاد ترفض إذا خالفت ظواهر الآي وعموم النص أو خالفت قياساً يعتمد على أحكام القرآن نفسه . وهم يفرقون بين الأحاديث التي يرويها رجال فقهاء ، والتي يرويها رجال حفاظ فحسب .. ولنضرب لك مثلاً يكشف عما يصيب الأمم من عقم وضياع نتيجة فهمها الخاطيء لأثر وارد .

كثير من المسلمين يحكمون على المرأة ألا ترى أحداً ولا يراها أحد . وفي المدينة نسيح النسوة في الطرق يرتدين خياماً مغلقة طامسة . بها خرفان من أعلى لإسكان الرؤية . وقد تختفي هذه الخروق وراء قطع من الزجاج أو البافا ...

وهذا التقليد السائد يعتمد على حديث سمعت إمام الحرم النبوي يردده من فوق المنبر في خطبة الجمعة ، أن رسول الله كره لنسوة أن يرين عبد الله بن أم مكتوم فلما احتججن بأنه أمي لا يراها ! قال لها : « أفعمياوان أننا » ؟

وقد استنكرت على الخطيب لإيراده لهذا الحديث . فإن علماء السنة تكلموا في معناه ومن الجمل بالسنة تقريره عند بيان وظيفة المرأة ، وأسلوب حياتها ، وقواعد اتصالها بالجمتمع العام . ولم لا تذكر السنن التي رواها البخاري في ذلك وهي أدق وأصح ؟!

أثبت البخاري تحت عنوان « باب غزو النساء وقاتلن مع الرجال » ... عن أنس رضي الله عنه قال : لما كان يوم « أحد » انهزم الناس عن النبي قال : ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر . وأم سليم . ولهما لشمرتان أرى خدَمَ سوقهما . تنقلان القرب على متونهما — ظهورهما — ثم تفرغاه — أي اللاء — في أفواه القوم ، ثم رجمان تهماً لهما ، ثم يجميان تفرغاتها في أفواه القوم .

وذكر تحت « باب غزو المرأة في البحر » .. سمعت أنساً رضي الله عنه يقول : دخل رسول الله على « بنت ملحان » فاتكأ عندها ثم ضحك . فقالت : لم تضحك يا رسول الله . قال : لا ، إنما ضحك من شدة ما أرى منكم في سبيل الله . مثلهم مثل الدابة من تروها . يذبحونها . ويذبحونها . ويذبحونها . قال : اللهم اجعلها

منهم . ثم ماد فضحك . فقالت له : ممّ ذلك ؟ فقال لها مثل ذلك فقالت : ادع الله أن يجعلني منهم ! قال : أفنت من الأولين ، ولست من الآخرين . قال أنس : فتزوجت عبادة بن الصامت فركبت البحر مع بنت قرظة . فلما قلقت ركبت دابتها ، فوقمت بها فسقطت عنها . فماتت . . .

وذكر تحت عنوان « باب حمل النساء القرب إلى الناس في الغزو » . . . أن عمر ابن الخطاب قسم مروطاً بين نساء من نساء المدينة . فبقى مرط جيد فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين أعط هذا ابنة رسول الله التي عندك — يريدون أم كلثوم بنت علي — فقال عمر : أم سَلَيْطٍ أَحَقُّ — وأم سليط من نساء الأنصار بمن بايع رسول الله — قال عمر : فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم أحد — أي تخطيها .

وذكر تحت عنوان « باب مداواة النساء الجرحى في الغزو » من الربيع بنت مُموذ . قالت كنا مع النبي نسي ، ونداوى الجرحى ، وزد القتلى إلى المدينة . . . الخ ولنفرض أن البخاري لم يرو هذه الأحاديث الصحاح . أفكان حديث العمياوين يسلط على المجتمع ويمنحجر به على النساء في دورهن فلا يخرجن من هذا السجن أبداً ؟ إن حكماً مثل هذا لا يعرف من القرآن . بل إن القرآن يجعل هذا الحكم عقوبة للنسوة اللاتي يرتكبن الفواحش « وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا » .

لكن المسلمين لما استوعروا سبل التربية المهذبة للذكور والإناث — بسبب انحرافهم عن القرآن — لحأوا إلى السجن والقصر فكان ما كان . . . هجر المسلمون القرآن إلى الأحاديث . . .

ثم هجروا الأحاديث إلى أقوال الأئمة . . .

ثم هجروا أقوال الأئمة إلى أسلوب المقلدين . . .

ثم هجروا المقلدين ورتبهم إلى الجهال وتخطيهم . . .

وكان تطور الفكر الإسلامي على هذا النحو وبالأعلى الإسلام وأهله . روى

ابن عبد البر عن الضحاك بن مزاحم « يأتي على الناس زمان يلقى فيه المصحف حتى

يمش على المنكبوت . لا ينفع بما فيه . وتكون أعمال الناس بالروايات والأحاديث .
وسبيل الرشد في هذه الهامة أن نود إلى القرآن ، فنجد دامة حياتنا العقلية
والروحية . فإذا وصلنا إلى درجة التشيع منه . نظرنا في السنة فانتفضنا بحكمة رسول
الله وسيرته وعبادته وخلقه وحكمه . . . ولا يجوز أن يتكلم في السنة رجل قليل
الخبرة بالقرآن . أو قليل الخبرة بالروايات أو ضعيف البصر بمواقعها ومناسباتها .

النبي وخوارق العادات

جرت حياة الرسول الخاصة والعامة على قوانين الكون المتادة ، فلم تخرج
— في مجلتها — عن هذه السنن القائمة الدائمة .

هو — من حيث إنه بشر — يجوع ويشبع ، يضح ويحزن ، ويتعب ويستريح
ويحزن ويسر . ولكن الناس أنفسهم في هذه الدواحي صنوف لا تجمعها قاعدة عامة ،
منهم التهاك على ضروراته ، فلو نقص حظه منها قليلاً طاش له وخارت قواه .
ومنهم الجلد الصبار يحزّه النذر اليسير . ويغضى لثأبته رافع الرأس موطن المزم . . .
إن الآلات التي تدار بالزيوت تتفاوت : منها الردي الذي يستهلك أفعال
الوقود ولا يجدي قليلاً ومنها الجيد الذي يروح إنتاجه على قلة إمداده .

والبشر كذلك مع أبدانهم وضروراتهم ومرفعاتها . .

والمطالع لسيرة محمد بن عبد الله يرى من طبيعة حياته الخاصة صلاية المعلن الذي
صنع منه يده صياغة أعجزت المارقة . وأمكنك صاحبه من أن يحمل أعباء الحياة
ومشاق الجهاد ولأواء الميش وهو متعصب مقدم .

نعم . هناك من المباشرة مميّ وصمّ وممودون ومصدورون . غير أن المبقرية^(١)
شأن دون النبوة . ومن تمام نعمة الله على امرئ ما أن يرزق المافية من هذه الأدواء
كلها . لتتم بهذه المافية العناصر التي تصحح نظره إلى الحياة ومسلكه فيها . . .
وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم من هذه الناحية بشراً كاملاً . وكانت حياته
متسقة مع سنن الله الكونية في البطولات المتأززة .



أما حياته العامة رسولا يبلغ عن الله ، ويرى المؤمنين ويقاوم الكافرين ويدأب على نشر دعوته حتى توثق ثمارها في الآفاق . فلا شك أن القرآن العزيز هو حياها وبنائها .

ومع أن القرآن كتاب معجز إلا أنه يقوم على إقناط المواهب المليا في الإنسان فهو أشبه بالأحداث الجليلة التي تمرض لك فصحك على التفكير بأسالة وبصر ومن ثم فهو كتاب إنساني يعين الوعي الملم على التضوج والسداد ؟
« إنا جللنا قرآننا هرياً لمسلم تقاون » « كتاب فُصِّلَتْ آياته قرآننا هرياً تقوم يملون . بشيراً ونذيراً » .

والفارق بين توجيه الرب بالقرآن . وتوجيه اليهود بنتق الجبل ، كالفارق بين صوت الإرشاد يهدي الماقل إلى الطريق ، وسوط المذاب يلسع الهابة البليدة لتمضى إلى الأمام ، فلا تسير خطوة إلا رمت بمعجزها إلى الوراء خطوات . . .
وكان عبد الله بن رواحة ينشد :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق مكنون من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد السى فقلوبنا به موقنات أن ما قل واقع
بيت يحاق جنبه من فرائه إذا استقلت بالشركين الضاج

ومن المحققين من يرى أن القرآن هو المعجزة الفريدة لرسول الله . وهم يلحظون في هذا الحكم التعريف اللفظي للمعجزة من أنها خارق للمادة مقرون بالتحدي ولم يعرف هذا التحدي إلا بالقرآن .

وقد ملنا إلى قريب من هذا الرأي^(١) ، لا بالنظر إلى التعريف اللفظي للمعجزة بل بالنظر إلى القيمة الذاتية للخوارق الأخرى بالنسبة إلى الأهداف الرفيمة التي جاء بها الإسلام .

على أنه لا صلة للمعجزة ولا للعمل بهذه البحوث ، فالرجل الفاسد لا ينفرد له فساد .

معناه بأن الرسول أظلمه غمامة، أو كله جاد. والرجل الصالح لا يغمض مكانته إنكاره هذه الطوارق . . .

على أنه ثبت بالتواتر المعنوي أن هناك خوارق جرت على يد رسول الله . وقد تكون الأحداث المفردة موضع أخذ ورد .

وهذه البحوث ترجع إلى التقدير العلمي لأدلة الإثبات ، والتقييم الحفص
لما في الوقائع نفسها من معان ، وليس للخطأ والصواب فيها مساس بإيمان .

وقد سرت في المسلمين لؤنة شماء في نسبة الخوارق إلى الصالحين منهم . حتى كادت جهرتهم بقرن بين علو المنزلة في الدين وخرق قوانين الأسباب والسيئات ؛ وحتى جاء من المؤلفين في علم التوحيد من يقول :

وأثبت للأولياء الكرامة ومن نقاها فأنبذ كلامه !!
وسلة هذا الإثبات بلم التوحيد كسلته بلم النحو أو علم الفلك !! أى أن حقيقة
الدين بعيدة عن هذه البحوث سواء انتهت بالسلب أو بالإيجاب .

والخوارق التي يتهاوس بها المفتونون لأوليائهم هي تعبير سيء من رذائل الكسل والحق التي تسكن في طوائم. كما أن الأحلام الطائشة التي تمرى النائم تعبير عن الاضطراب الذي يعلو نفسه ويهز أعصابه .

هذا فتح الباب الموصل من غير مفتاح ، وهذا طار في الهواء بغير جناح ، وهذا
بال على حجر فاقبل ذهباً . وهذا اطلع الغيب واتخذ عند الرحمن عهداً . . . !!
وأمثال هذه السخافات كثيرة . . . وهي تدل على جهل بمحقيقة الدين وحقيقة
الدنيا . وتدل على أن سرّوجها أضل عقولاً وقلوباً من أن يعرفوا سيرة رسول الله
وسير أحماءه .

ما كان محمد رجل خيال يتيه في مذاهبه ثم يبنى حياته ودعوته على الخرافة . بل كان رجل حقائق يبصر بعينها كما يبصر قريبا . فإذا أراد شيئا هيا له أسبابه . يباذل في تهيتها - على ضوء الواقع المرئي - أقصى ما في طاقته من حذر وجهد . لا يكره أن يسكن مع صحابته أن السماء تسمى له حيث يقعد ، أو تنشط له . أو ينجو منه . أو يمحض به . يرث يفرط : راها تكن خوارق العادات ، ونواقص النبوة .

إن محمداً وحجبه تعلموا وعلموا ، وخاصموا وسالوا ، وانتصروا وانهزموا ،
ومدّوا شمع دعوتهم إلى الآفاق ، وهم على كل شر من الأرض يكافحون ، ولم ينخرم
لهم قانون من قوانين الأرض ، ولم تلتن لهم سنة من سنن الحياة ، بل إنهم تعبوا
أكثر مما تعب أعداؤهم ، وحلوا المتارم الباهظة في سبيل ربهم . فكانوا في ميدان
تنازع البقاء أولى بالسوخ والتمكين .

ولقد لقنهم الله عز وجل هذه الدروس الحازمة حتى لا يتوقفوا عما به من القدرة
في أي سدام . وإن كانوا أحصاف رأياً من أن يتوقفوا هذا .

قال الله لرسوله : « وإذا كنتَ فيهم فأقت لهمُ الصلاة فلتقم طائفةٌ منهم معك
وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من وراءكم . ولتأت طائفةٌ أخرى
لم يُسَلِّوا فليُصلُّوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم . وذ الذين كفروا لو تفلحون
عن أسلحتِكُم وأمتنَّتكم قيميلون عليكم ميلةٌ واحدةٌ . ولا جناحَ عليكم إن كان
بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم . وخذوا حذرَكم » .

فانظر : كيف يكفون — وهم في الصلاة وبين يدي الله — بأشد الحذر
والانتباه ؟ إن الله لم يدع أملاً يخامر أنفسهم بأن اللاتكة سوف تنزل لعونهم !
إن لم يخدموا أنفسهم فلن يخدمهم أحد ! ذلكم هو خطاب الله للحمد وحجبه . . .
وعندما ذهل المسلمون عن هذا الدرس في غزوة أحد لطموا لطمه موجمة
جندلت من أبطالهم سبعة ، وأمضتهم خزي الهزيمة ، فوقف زعيم الكفر يومئذ
— أبو سفيان — يقول : اعلُ هبل . . .

وأبلى النبيُّ بلاء شديداً لينفذ الموقف ، وقاتل وقتل ، وأصيب في نفسه .
عن أبي هريرة قال : قال رسول الله يوم أحد : « اشتد غضب الله على قوم
فعلوا بنبية هكذا — ويشير إلى ربايته — اشتد غضب الله على رجل يقتله
رسول الله في سبيل الله » .

وعن أنس أن رسول الله كسرت ربايته يوم أحد وشج رأسه . فجعل يسأل
النبي عن وجهه ويقول : كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وكسروا ربايته وهو يدعهم

إلى الله ؟ . فأنزل الله عز وجل قوله : « ليس لك من الأمر شيء ، أو يتوب عليهم ، أو يستعذبهم فإنهم ظالمون » .

أرأيت التفريط في أسباب النصر جلب شيئاً غير المزعجة ؟ أو لو كان الذين انهزموا هم ممثلي التوحيد الحق ؟ أو لو كان الذين انتصروا هم سدنة الوثنية المحضة ؟ .



وكان النبي إذا أراد غزوة ورى بشيرها ويقول : الحرب خدعة . ومع قيامه بالأسباب على ما أوجب الله . واحترامه للقوانين الطبيعية التي تنظم حياة البشر . مع ذلك فقد استطاعت بعض قبائل العرب أن تخدعه ، وأن تستدرج طائفة من القراء من أفضل أصحابه ليقفوا معهم في بئر معونة ، فادلت على مصارعهم إلا الطيور تحلق في الجو مرفرفة على أشلاء الشهداء . . .

إن هؤلاء الرجال الذين ذهبوا ضحية الضد من أحب خلق الله إلى الله . ومع ذلك فما أذن لأحد منهم أن يطير بغير جناح ، أو يتحول عن هذا القدر المتاح كما يفكر متأخرة المسلمين اليوم . . .

ولئن كان الحذر والحيلة من سنن النبوة فإن الإعداد واستنفاد الجهد فيه من آكد هذه السنن . بماذا تحسب محمداً انتصر على الناس ؟ . لقد أنضج رجاله بالإيمان كما ينضج الصيف بلهبه البطيء أطايب ثماره . فلما أرسلهم إلى أنحاء الدنيا طوفوا بها ، ولهم زئير كزئير الماصفة المكتسحة المحتاجة .

بل إن الإسلام من يوم بدئه كان معركة يقودها الرحي ، ولذلك شبه الله برادره الهامية ، بصاصفة ذات صواعق ورعود :

« أو كسيب من السباء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجمعون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين » .

أرى للأراخي والتواكل ثمرة في هذه الصفوف المتراخفة ؟ يا ويل مسلمي اليوم من انتظروهم لخوارق العادات في دنيا كشرت عن أنيابها لاستئصال شأقتهم . . .

... لا تنكروا ... في جهنم خارقة تقع للناس . بيد أنها تقع للؤمن والكافر ... ذلكم رسالنا ... إلى الله ... أن تتل قدما : ما دل ذلك على ... عمل وإيمان فحسب ، وإثبات هذه الخوارق

لأصحابها مسألة تاريخية بحجة لمن شاء حصص المجائب ، ولا ارتباط لها بأصل الإيمان والتكليف ، وذلك بداية غير المعجزات الشاهدة للرسلين بصحة التبليغ عن الله ، على أن النبوات بما قارنهما من خوارق قد انتهت مع الماضي البعيد . فليس لتحكمك بها من جدوى — وقد علمت أن معجزة محمد بن عبد الله لم تكن على غرار ما سبقها ، بل كانت معجزة إنسانية عقلية دأمة . ثم نظم الله له حياته ودعوته وفق قوانين الأسباب والسيئات كما رأيت . . .

ولم يكن محمد يعرف النبي . كان كأي بشر آخر لا يدري ماذا يكسب غداً ؟ . ولا ينبغي أن يُنتظر منه شيء من ذلك بعد أن انتهى إليه أمر الله : « قل : لا أملك لنفسي نقماً ولا ضرراً إلا ما شاء الله . ولو كنت أعلمُ النبيَ لاستكثرت من الخير وما مسني السوء . إن أبا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقوم يؤمنون » .

وربما اقترب منه من يضره الشر ويظهر الود — وهو لا يعلم به — حتى تفضح التجارب « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » . وسيفاجأ يوم القيامة رجال تركهم وهو يمدح مؤمنين ثابتين . ثم تكشف الفتن عن سواد باطنهم وسوء عقابم . فيقول ما قال عيسى من قبل : « وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم فلما توفيتني كنتُ أنتَ الرقيبُ عليهم » .

وقد يطلعه الله على بعض السيوب لحكم خاصة . كما جاء في التنزيل الإنشاء بهزيمة الفرس أمام الروم بعد النصر الكبير الذي سبق لهم أن أحرزوه ، وسارت بحديثه الركبان ، وشمّت له الوثنيون وحزن له السلفون ، مظاهرة منهم لأهل الكتاب .

وقد وردت أحاديث سماح تُحسبُ على ظاهرها كأن الرسول يعرف ما يكون ! مثل ما ورد عن عدي بن حاتم قال . بينما أنا عند رسول الله إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل . فقال : يا عدي هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها . وقد أنبتت عنها . فقال : إن طالت بك حياة لترين الطمينة ترمحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله . قلت في نفسي : فأين دُعَا طيء الذين سَمَرُوا في البلاد ؟ ولئن طالت بك حياة لتفتعن كنوز كسرى . قلت : كسرى ابن هرمز ؟ قال : كسرى بن هرمز . . .

قال عدى : فرأيت الظعينة ترمحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله .
وكنتم قيمين اقتنع كنوز كسرى بن هرمز . . .
والحق أن هذه الأحاديث وأشباهاها لم تكن إخباراً بنبي ، إنما كانت تصديقاً
لوعده الله بأن المستقبل للإسلام . وبأن هذا الدين سيسود المشرق والمغرب . فكانت
تفسيراً من رسول الله لقول الله في كتابه « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين
الحق ليظهره على الدين كله » « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات
ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليكنن لهم دينهم الذي
ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » .
وقريب من ذلك الأحاديث المثبتة عن الفتن .

إن الرجل الخبير بالأسواق لا يلبث — من استمراض يسير لأحوالها — حتى
يصدر حكماً مائتياً عليها . والخبير بطوايا النفوس يستطيع من نظرة خاطفة أن يستشف
ما وراءها ويستكشف خباياها . ومن ذلك قول الشاعر :

والألمى الذى يظن بك الظن كأنه قد رأى وقد سما !

وقد كان محمد خبيراً بالنفوس ومعادنها ، والدنيا وأطوارها ، والزمان وقلبه ،
والأديان الأولى وما عانت وطأت رجائها وهم يشقون طريقهم في الحياة . وعقول الأنبياء
من ورائها فطر مجلوة وإلهام لحاح . فكيف بشيخ الأنبياء الذى تمهده القدر من
نشأته ليحمل رسالة معجزتها في أسلوبها . وأسلوبها يقوم على رقية الفطر وتفتيق
الألباب ؟ ؟ . . .

إن هذا يجعله أشد الناس تقديراً للواقع ، وانتظاراً لما يفد به أهل يستطيع
السائر في مناطق الشمال أن يقدر خلوة الجو من الضباب الداكن . أو هل يستطيع
السائر في مناطق خط الاستواء ألا يتوقع عواصف القبط ؟ فكيف يليق بصاحب دين
خطير أن يتناسى الفتن المارضة لتعاليم دينه ولرجاله ، ما قرب منها وما بعد ، ما ظهر
منها وما بطن . . .

لذلك كثر كلام الرسول عن الفتن ، وليس القصد الإخبار عنها بل التحذير منها .
تحدث عن الفتن التى تلحق الأشخاص من اختلاف أفكارهم وتنافر أمزجتهم . . .
وتحدث عن الفتن التى تصيب القلوب من إقبال الدنيا والتحاسد عليها . . . وتحدث

عن الفتن التي تصيب الأمة بمد أن يقوب الكفر من هول الهزائم التي مئى بها .
وتباسك مرة أخرى بمد ما انحلت عراه . . فكان أن خوف أمحابه من ذلك كله
فى أحاديث يطول سردها .

وأخطر هذا الفتن ما يصيب تعاليم الإسلام نفسها من ذبول واضمحلال .
فالصلاة تفقد روحها وهو الخشوع ، ثم يتآكل جسمها فتتحول قراً سخيفاً .
والجهاد يفقد روحه وهو الإخلاص ، ثم يتحول انهباً للفنائم ، واستعباداً
للأحرار ، ثم تفتر حدة ، ثم يطل . . .
والصيام ينتهى من صبر على الحرمان وتأديب للفرائز المتطلمة إلى استمداد للولائم ،
ومضاعفة للنفقة . . .

والحكم يتطور من خدمة للجمهور يرشاه ، إلى استملاء عليه ، من بنى واستكراه ،
ثم يسقط ، ويضيق الحاكم والمحكوم معا . . .
وحقبة المسلمين لرسولهم تتحول بمد موة إلى سوق حول قبره تضج بالصياح
النكر والمهمة الحائرة . . .



عندما زرت المدينة توجهت إلى قبر الرسول الجليل ، وكانت المشاعر التي تهبث
من قلبى قلن فى أذنى . فلما تبيئت لى معالم الضريح يمت شعره وأنا أنضاءل
فى نفسى . وكأنى كرة تندحرج تحت أقدام عملاق . . .

وسلئت بالبارة التي شرع الله . لم أزد عليها إلا بيتاً من الشعر لم أدر ما وراءه
لما رأتى من اضطراب غمغت به شفتاى ولم تسمعه أذناى :

ياخيرَ من دُفنتَ فى الترب أعظمه فطاب من طيبهن اتعاع والأكم . . .

ثم انصرفت . . .

بيد أنى لاحظت أمواجاً تند فصرخ بكلام طويل ، هنا يقرأ فى كتاب وهذا
يسمع من حافظ ، وهذا يشوش على ذاك والكل يشوش على المسلمين . وتتواكب
هذه الوفود فى هرج ومرج لا يتعلمان . . .

ألم يكن الرسول ينى تلك الحال عندما قال : اللهم لا تجعل قبرى بمدى
وثنأ بمد... .

وما إن تعرفت أحوال الماكفين في المسجد والبادين ، حتى كنت أدع الصلاة
فيه . فإني أكره أشد الكراهية البدع والفوضى والوساخة والجهل .

وتذكرت قصة هروة بن الزبير لما بنى له قصراً بوادى المقيق وابتمد عن المدينة .
فقال له الناس : قد جفوت عن مسجد رسول الله !! فقال : إني رأيت مساجدكم
لاهية ، وأسواقكم لافية ، والعاشة في لجاجكم طالية . وكان فيها هناك مما أنتم فيه
طافية . وقيل : إنه لما عتب في ذلك قال : وما بقى ؟ إنما بقى شامت ينكبة أو حاسد
على نعمة !! . . .

نسأل الله المغفر والمافية .

(٢)

من الميلا د إلى البعيت

ولد محمد من أسرة زاكية المدن نبيلة النسب ، جمعت خلاصة ما في العرب من فضائل ، وترفت مما يشتهون من أوصار . قال رسول الله عن نفسه : « إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » .

وعراقة الأصل لا تمنح الرجل الفاضل فضلاً . كالصلب إذا ترك للصدأ يمسى لاغناء فيه . أما إذا تمهده اليد الصنّاع فلها تبدع منه الكثير
ولذلك لما سئل النبي : أيّ الناس أكرم ؟ قال : « » فمن معادن العرب تسألوني ؟ « قالوا : نعم : قال : « نخبائهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » .

وكان منبت محمد في أسرة لها شأنها ، بعض ما أهدّ الله لرسالته من نجاح . فالجتمع العربي الأول كان يقوم على المصيبات القبلية الحادة . المصيبات التي تفتي القبيلة كلها دفاعاً عن كرامتها الخاصة ، وكرامة من يمت إليها . وقد ظلّ الإسلام حيناً من الدهر يبيت في حى هذه التقاليد الرهيبة حتى استغنى بنفسه كما تستغنى الشجرة عما يحملها بعد ما تملظ وتستوى .

وكان « لوط » يتمنى شيئاً من هذه التقاليد . عند ما أحس الخطر على الأضياف النازلين به . ولم يجد عشيرة تدفع أو أهلاً تهيجهم الحية . فقال لقومه : « اتقوا الله ولا تخرؤن في ضيفي أليس منكم رجلٌ رشيدٌ » ثم قال : « لو أن لي بكم قوة . أو آوى إلى ركنٍ شديدٍ » !!

لكن محمداً — على كرم عهده — لم يرزق حظاً وافراً من الثراء . فكانت قلة ماله مع شرف نسبه سبباً في أن يجمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات إن أبناء البيوتات الكبيرة تترهبهم الثروة بالسلوة ، فإذا فقدوا هذا السلاح ، كانت لهم تقاليد كريهة ، بذلوا جهوداً مضنية ليحتفظوا بمكانتهم وسمعتهم . ولذلك برز ماثلهم :

ربنا — عني الزمان انتهى بنا — فمالج من كره الخاوي الدواهي
ربنا لا يرى بعض الناس حرباً من أن يملن فاقته ويكشف صفحته . غير أن

هناك بمصاً آخر يطوون همومهم في همهم ثم يبرزون للدنيا مشمرين ، ومن هؤلاء
عبد الله بن عبد المطلب . . .

كان عبد المطلب سيد مكة ، بُيِّدَ أن هذه السيادة التي انتهت إليه انتهت به
ولم تستقر في عقبه إذ اشتد ساعد منافسهم في زمامة أم القرى . وبنا كان الأمر
سيؤول إليهم . بل إن هي إلا أعوام حتى تصدعت أسرة عبد شمس ، ثم غر أعوام
أخرى فإذا بأبي سفيان يتزعم مكة ، وبذلك تنتقل السيادة عن بني هاشم .

وعبد الله أصغر أبناء عبد المطلب وله في قلبه منزلة جليلة ، وقد زوجه بأمنة
بنت وهب . ثم تركه يسعى في الحياة وحده . فخرج وهو هروس ، بعد أشهر من
بنائه بأمنة ، خرج يضرب في مناكب الأرض ابتغاء الرزق وذهب في رحلة الصيف
إلى الشام ، فذهب ولم يمد . . . عادت القافلة تحمل أبناء حمزه ثم جاء
بعد قليل نبيه .

وكانت أمنة تنتظر رجلها الشاب الجلد لهنأ بمعياها معه ، ولتشعره بأن
في أحشائها جنيناً يوشك أن تهر به عينيها . غير أن القدر — الحكمة عليا —
حسم هذه الأمانى الحلوة ، فأمست الزوج المحسودة أيماً .

تمد الليالي لتودع الحياة الوحشة « بئيمها » الفريد

قال الزهري : أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله إلى المدينة يبتار لهم تمرأ فأت بها .
وقيل بل كان بالشام ، فأقبل في غير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض ، فتوفى بها .
ودفن في دار النابتة الجعدى وله خمس وعشرون سنة . وتوفى قبل أن يولد
رسول الله .

ولد محمد بمكة ولادة متادة ، لم يقع فيها ما يستدعى العجب أو يستألف النظر ،
ولم يكن المؤرخين تحديد اليوم والشهر والعام الذي ولد فيه على وجه الدقة . وأغلب
الروايات تنجبه إلى أن ذلك كان عام هجوم الأحباش على مكة سنة ٧٥٠ م في الثاني
عشر من ربيع الأول ٥٣ ق . هـ .

وتحديد يوم الميلاد لا يرتبط به من الناحية الإسلامية شيء ذو بال . فالأحفال
بني تقام لهذه المناسبة تقليد دنيوى لا صلة له بالشريعة .

وقد روى البعض أن إرهامات بالبثة وقعت عند الميلاد . فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى . وغدت النار التي يبسها الجوس . وأنهت الكنائس حول بحيرة « ساوة » بعد أن غاضت . قال البوصيرى :

أبان مولده من طيب عنصره ياطيب مبعداً منه وغتم
يوم تفرس فيه الفرس أنهم قد أندروا بحلول البؤس والقم
وإت إيوان كسرى وهو منصدع كشم أحماب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف عليه . والنهر ساهى العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها وردَّ واردةا بالنيط حين ظمى

وهذا الكلام تبير غلط عن فكرة صحيحة . فإن ميلاد محمد كان حقا إيدانا بزوال الظلم وانتثار عهدده واندكائه . وكذلك كان ميلاد موسى . ألا ترى أن الله لما وصف جبروت فرعون واستكائة الناس إلى بنيهِ ثم أعلن عن إرادته في تحرير العبيد واستنقاذ المستضعفين قص علينا قصة البطل الذى سيقوم بهذه الأعمال فقال :

« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه . . . »

وقد كانت رسالة محمد بن عبد الله أخطر ثورة عرفها العالم لتحرر العقلى والمادى وكان جند القرآن أعدل رجال وطام التاريخ وأحصى ضالهم في تدويخ المستبد بن وكسر شوكتهم طاغية إرطاغية .

فلما أحب الناس بعد انطلاقتهم من قيود المسف تصوير هذه الحقيقة تخيلوا هذه الإرهامات وأحدثوا لها الروايات الواهية . ومحمد غنى عن هذا كله . فإن نصيبه الضخم من الواقع المشرف زهدنا في هذه الروايات وأشباهها .

استقبل « عبد المطلب » ميلاد حفيده باستبشار وجذل ، ولعله رأى في مقدمه عرضا عن ابنه الذى هصرت المنون شبا به ، فحول مشاعره عن الراحل القاهب إلى الوافد الجديد يكلؤه وينال به .

ومن المواقفات الجلية أن يُلهم « عبد المطلب » تسمية ^(١) حفيده « محمدا » إنها تسمية أحانه عليها ملك كريم ! ولم يكن الرب يألفون هذه الأعلام ، فذلك سألوه : لم

(١) سباه كذلك بعد ما حته في يومه السابغ .

رغب عن أسماء آياته ؟ فأجاب : أردت أن يحمده الله في السماء وأن يحمده المخلق في الأرض . لئلا هذه الإرادة كانت استشفافاً فنيب فإن أحداً من خلق الله لا يستحق إزجا عواطف الشكر والثناء على ما أدى وأسدى كما يستحق ذلك النبي العربي المجد .

عن أبي هريرة قال رسول الله : ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم ؟ يشتمون مذمماً ، ويلعنون مذمماً . وأنا محمد ! .

لكن الحقيقة القاسية — يرغم حفاوة الجذ الحنون — باقية . فإن «عمدا» يتم برز إلى الدنيا بعد ما غادر أبوه الدنيا . ليكن !! ولنفرض عبد الله بقى حياً !! فإذا عسى كان يفعل لابنه ؟ أكان يرثيه ليهبه النبوة . ما كان له ذلك . إن الأب عنصر واحد من عناصر شتى تتحكم في مستقبل الطفل وتتحفز له في الحياة مجراه . ولو كانت النبوة إلا كتناسب ما قربتها حياة الوالد شبرا . فكيف وعى اسطفاء ؟ .

كان «يعقوب» حياً يرزق ، له شيوخوخه وتجربته وحكمته ، يل له نبوة . وقد نظر يوماً ما فلم يجد يوسف قريباً منه . إنه قد قد في أخطر فترات العمر ، فترة الصبا اللدن واليغاغة الغضة . ومع فساد البشاش التي احتوت يوسف قد كان باطنه ينضج بالثقي والعتاف كما يتقد الصباح في أمعاء الليل اللطم فلما التقى الابن بوالده بعد لأى رأى يعقوب ابنه نبياً صديقا . .

قد ولي عبد الله وترك ابنه يتقيا بيده أن هذا اليتيم كان يمد من اللحظة الأولى لأمر جلل ، أمر يصبح به إمام المصطفين الأخيار . وما الأب والجذ ، ما الأقربون والأبعدون ، ما الأرض والسماء إلا وسائل مسخرة لإتمام قدر الله ، وإبلاغ نعمة الله من اسطنمه الله .



أقبلت «آمنة» على ابنها تحنو عليه في انتظار المراضع القبلات من البادية بتلمس تربة أولاد الأشراف . والأعرابيات اللاتي يقصدن مكة لهذه التاية هن طالبات رزق ويسار . ولم يكن لمحمد أب رقب عطايه أو غنى تترى جدواه فلا عجب إذا زهدت فيه المراضع وتطلعن إلى غيره .

وكانت حليمة ابنة أبي ذؤيب من قبيلة بني سعد إحدى القادمات إلى مكة ابتناء

المودة يرزيع تستعين على الميتى بمحضاته ، ولم يرز طموحها أول الأمر طفل يتيم إلا أنها لم تجد طلبتها واستحييت أن تمود صغر اليدين فرجعت إلى « آمنة » تأخذ منها « محمدا » .

وكانت البركة فى مقدمه معها ، كانت سنواتها عجافا من قبله . فامتن الله عليها بخير مضاعف . درت الضروع بمد جفاف . ولان الميتى وأخصب . وشمرت حليلة وزوجها وولدها بأن أوتهم من مكة كانت باليمن والنم لا بالفقر واليتم مما زاد تملقهم بالطفل وإعزازهم له .

وتنشئة الأولاد فى البادية ، ليرحوا فى كنف الطبيعة ويستمتوا بجوها الطلق وشماها للرسل . أدنى إلى تركية الفطرة وإنماء الأعضاء والشاعر . وإطلاق الأفكار والمواطف .

إنها لتماسه أن يميش أولادنا فى شقق ضيقة من بيوت متلاصقة كأنها غلبت أعلقت على من فيها . وحرمتهم لثة التنفس العميق والهواء النعش .

ولا شك أن اضطراب الأعصاب الذى قارن الحضارة الحديثة يمود — فى يوم إليه — إلى البعد عن الطبيعة والإغراق فى التصنع . ونحن نقدر لأهل مكة انجاءهم إلى البادية لتكون عرصات الفساح مدارج طفولتهم . وكثير من علماء التربية يود لو تكون الطبيعة هى المهد الأول للطفل حتى تتسق مداركه مع مقتضى الكون الذى وجد فيه . ويبدو أن هذا حلم عسر التحقيق .

شق الصدر

مكت « محمد » فى مضارب « بنى سعد خمس سنوات صح فيها بدنه وأطرد نأؤه . وهذه السنوات الخمس هى عمر الطفل . فلا ينتظر أن يقع فيها شيء يذكر . غير أن المن الصجاح سجلت فى هذه الفترة ما عرف بعد بمحدث شق الصدر .

عن أنس أن رسول الله أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه ، فصرعه فشق عن قلبه ، فاستخرجه منه علة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك . ثم غسله فى طشت من ذهب بماء زمزم . ثم لأمه . ثم أعاده إلى مكانه . وجاء الغلمان يسعون إلى أمه — انتهى مرضته — أن محمداً قد قتل . فاستقبلوه . وهو منتقع اللون »

وهذه القصة التي روعت حليلة وزوجها — ومحمد مسترضع فيهم — نجدها قد تكررت مرة أخرى ومحمد رسول جاوز الخمسين من عمره . فمن مالك بن سمصة أن رسول الله حذسهم عن ليلة أُسرى به قال : بينما أنا في الحطيم — وربما قال في الحجر — مضطجع بين النائم واليقظان . أتاني آت . فشق ما بين هذه إلى هذه . — يعني ثغرة نحره إلى شعرته — قال : فاستخرج قلبي . ثم أنيتُ بطشت من ذهب مملوءة إيماناً ، ففسل قلبي ، ثم حُشى ، ثم أعيد ... »

ولو كان الشرّ إفراز غدة في الجسم ينحسم بانحسامها ، أو لو كان الخير مادة يزود بها القلب كما تزود الطائرة بالوقود فتستطيع السمو والتحليق .. قلنا : إن ظواهر هذه الآثار مقصود . ولكن أمر الخير والشر أبعد من ذلك بل من البديهي أنه بالناحية الروحية في الإنسان أعمق . وإذا اتصل الأمر بالحدود التي يعمل الروح في نطاقها ، أو بتعبير آخر عندما ينتهي البحث إلى ضرورة استكشاف الوسائل التي يسيّر بها الروح هذا الغلاف للنسوج من اللحم والدم يصبح البحث لاجدوى منه لأنه فوق الطاقة .

وشيء واحد هو الذي نستطيع استنتاجه من هذه الآثار ، أن بشر أعمتازاً كـ محمد لاندعه العناية غرضاً للوساوس الصغيرة التي تناوش غيره من سائر الناس . فإذا كانت الشر (موجات) عملاً الآفاق ، وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين — بقول الله لها — لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتر لها . وبذلك يكون جهد المرسلين في متابعة الترقى لافي مقاومة التدثلي ، وفي تطهير العامة من المنكر لافي التطهر منه ، فقد عاقم الله من لوثاته .

عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك يا رسول الله . قال : وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير » :

وفي حديث عائشة ، قال لها رسول الله : أغررت ؟ قالت : وما لك لا ينار على مثلك ! فقال لها رسول الله : لقد جاءك شيطانك ! قالت : أو معي شيطان ؟ قال : ليس أحد إلا و معه شيطان قالت : ومعك ؟ قال : نعم ولكن أعانني الله عليه فأسلم «
أي اتقاد وأذهن فلا يستطيع أن يهيجس بشر .

ولعل أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الحماقات التي أضفاها الله على محمد فجعلته من طفولته بنجوة قصية عن مزالق الطبع الإنساني ومفان الحياة الأرضية وقد أورد الخازن في تفسيره القصة الأولى — أيام الرضاعة — عند تفسيره لقول الله عز وجل : « ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الذي أقبض ظهرك . »

وشرح الصدر الذي عنته الآيات ليس نتيجة جراحة يجريها ملك أو طبيب . ويحسن أن نعرف شيئاً عن أساليب الحقيقة والمجاز التي تقع في السنة . عن عائشة أن بعض أزواج النبي قلن : يا رسول الله أينما أسرع بك لحوقاً ؟ قال : أطولكن يدا . فأخذن قصة يذرعهن (١) فكانت سودة أطولهن يدا . فملنا بمد أنما كان طول يدها الصدقة . وكانت تحب الصدقة وكانت أسرعنا لحوقاً به ...



آب « محمد » إلى مكة بمد أعوام طيبة قضاها في البادية ، آب ليجد أما كريمة حبست نفسها عليه ، وشيخاً مهيباً يلتبس في مرآء المزاء عن ابنه الذي خلى مكانه في شرخ الشباب . وكان الأيام آبت له قراراً بين هذه الصدور الرقيقة فأخذت تحرمه منها واحداً بعد الآخر .

رأت « أمينة » وفاء لذكرى زوجها الراحل أن تزور قبره « يثرب » فخرجت من « مكة » قاطمة رحلة تبلغ خمسمائة كيلو متر في الذهاب غير مثلتها في الإياب . ومعهما في هذه السفرة الشاقة ابنها « محمد » وخادمتها « أم أيمن » وعبد الله لم يمت في أرض غريبة ، لقد مات بين أخواله من بني النجار . قال ابن الأثير إن هاشما شخص في تجارة إلى الشام . فلما قدم المدينة نزل على عمرو بن لبيد الخزرجي ، فرأى ابنته « سلمى » فأعجبته ، فتزوجها ، وشرط أبوها ألا تلد ولداً إلا في أهلها . ثم مضى هاشم لوجهه . وعاد من الشام فبنى بها في أهلها ثم حملها إلى مكة فحملت . فلما أقلت ردّها إلى أهلها ومضى إلى الشام فأت « بنزة » . وولدت له « سلمى » عبد المطلب فسكن في المدينة سبع سنين .

وقد ظل محمد لدى أخواله قريباً من فبر أبيه نحو شهر . ثم قفل عائداً إلى مكة . وإذا المرض يلاحق أمه ويلج عليها في أوائل الطريق فأت « بالأبواء » وتركته

وحيدام الخادم الشدوهة لحال طفل يفقد أباه وهو جيتين ويفقد أمه وهو ابن خمس سنين .

إن للصاب الجديد نكأ الجروح القديمة مما جعل مشاعر الحنو في قواد « عبد المطلب » تربو نحو الصبي الثاني ، فكان لا يدهه لوحده الغروضة ، بل يؤثر أن يصطحبه في مجالسه العامة . كان إذا جلس على فراشه يجوار الكعبة أدناه منه في حين يجلس الأشياخ حوله .

وقد تأخرت سن عبد المطلب حتى قيل : توفي وله مائة وعشرون سنة إلا أنه فارق الحياة وعمر « محمد » يناهز الثمانية . فرأى قبل وفاته أن يعمد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب .

ونفض أبو طالب بحن ابن أخيه على أكل وجهه ، ضمه إلى ولده وقدمه عليهم ، واختصه بفضل احترام وتقدير . وظل فوق أربعين سنة يُمرّ جانبه ويسط عليه حاجته ويصادق ويخاصم من أجله .

ودرج محمد في بيت أبي طالب والسن تحضى به قدما إلى بواكير الإدراك والبصر المتيق بما حوله . فأصر على أن يشارك عمه مهموم العيش — إذ كان أبو طالب على كثرة أولاده قليل المال — فلما قرر أن يمضى على سنن آباءه في متابعة الرحيل إلى الشام ابتغاء الاتجار والريح قرر أن يكون معه . وكان عمره نحو الثلاث عشرة سنة .

بجيرا الراهب

ولا نجد في السنن الصباح أنباء تصف هذه الرحلة . إن الأسفار من أخصب أبواب المعرفة ، وأعمقها أورا . ومثل محمد في صفاء ذهنه وبقاء قلبه ، لا يعزب عنه وجه العبرة فيما يرى : في حله أو رحاله ، على أن من القطوع به أنه لم يخرج لدراسة دين أو فلسفة ، ولم يلتق من يتعدت معه في ذلك . وقد روت كتب الأخبار بعض خوارق ، ذكرت أنها وقعت له ، من ذلك التقاؤه بالراهب « بجيرا » الذي تفرس فيه ورأى معالم النبوة في وجهه وبين كتفيه : فلما سأل أبا طالب : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني . قال : ما ينبغي أن يكون أبوه حيا ! قال : فإنه ابن أخى مات أبوه وُمه حبلى به . قال : صدقت ، ارجع به إلى بلدك واحذر عليه يهود .

وقد تكون هذه القصة صحيحة . فإن البشارة بنبي يحيى بعد عيسى موجودة في الكتاب المقدس عند النصارى ؛ وهم منذ تكذيبهم برسالة محمد يرقبون هذا النبي المنتظر . ولن يحيى أبداً . . . لأنه جاء فعلاً . . . ! !

وسواء صحت قصة « بحيرا » هذه أم بطلت فمن القاطع أنها لم تخلف بمدها أراً ، فلا محمد تشوف للنبوة أو استمد لها — لكلام الراهب — ولا أصحاب القافلة تذكروا هذا الحديث أو أشاعوه . لقد طويت كل من لم تحدث عما يرجع استبعادها .
وقيل أيضاً : إن كوكبة من فرسان الروم أقبلت على « بحيرا » كأنها تبحث عن شيء فلما سألتها : ما جاء بك ؟ قالت : جئنا لأن نبيا يخرج هذا الشهر . فلم يبق طريق إلا بُمِتَ إليها ناس — لقبض عليه (١) فجادلهم « بحيرا » حتى أقنعتهم ببطل ما يطلبون .
والحقائق على أن هذه الرواية موضوعة مضاهاة لما يذكره الإنجيليون من أن ناساً طلبوا المسيح عقب ولادته لقتله ، وهي عند المسيحيين مضاهاة لما عند الوثنيين من أن « بوذا » لما وضعت أمه المذراء (١) طلبه الأعداء لقتلوه . . .

إن علماء السفة يهتمون بالأخبار الواردة — من ناحيتي المتن والسند — فإذا لم تجد علماً ثابته أو ظناً راجحاً لم يكتفوا بها . وقد انصمت أساطير كثيرة إلى سير الرسلين . وعندما تعرض على القواعد المقررة في فن التحديث يظهر عوارها ويساغ أطرافها .

حياة الكدح

عاد محمد من هذه الرحلة ليستأنف مع عمه حياة الكدح ، فليس من شأن الرجال أن يقدوا . ومن قبله كان الرسالون يأكلون من عمل أيديهم ، ويحترفون مهناً شتى يعيشوا على كسبها . وقد صرح أن محمداً اشتغل صدرحياته برعى الغنم . وقال : كنت أرحاها على قراريط لأهل مكة . كما ثبت أن عدداً من الأنبياء اشتغل برعايتهم ، أرى ذلك تمويدها لهم على بركة الدابة والرفق والضغاء والسهر على حياتهم ؟ ؟

وقد تسأل : أين ذبح الأضحية بالكرن وما رواه ، والناس ربما يفيضون عليه . فليس من شأنهم أن يذبحوا الأضحية ، بل من شأنهم أن يذبحوا الأضحية ، وذاك من شأنهم

من سلامة فكرهم واستقامة نظرهم ما يجعلهم في طليعة العلماء وإن لم يتعلموا بما نهد من أساليب .

ما العلم الذى ترقى به النفس ؟ أهو حفظ الفروض واستيعاب القواعد والقوانين ؟ إن هناك بناوات كثيرة تردد ما تسمع دون وعى . وقد نرى أطفالاً سفاراً يلقون بإتقان وتغثيل خطباً دقيقة لأشهر الساسة والقادة .

فلا الأطفال — بما استحضفوا من كلام الأئمة — أصبحوا رجلاً ، ولا البنات تحولت بشراً .

وقد نجد من يحفظ ، ويفقه ، ويجادل وبغلب ، ولكن العلم فى نفسه كمروق الذهب فى الصخور المهملة . لا يمت على خير ولا يزرع من شر . وقد شبه القرآن أحبار اليهود — الذين يحملون التوراة ولا يتأدبون بها — بالخير « مثل الذين تحلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » .

وهذه الطبائع التى تحمل العلم ولا تصلح به إنما تسيء إليه ولذلك يحسن الضن به عليها . وفى الأثر « واضح العلم عند غير أهله كقلل الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب » .

ثم هناك الخرافيون الذين يتاطلون فى الحقائق أنفسهم كأن عقولهم ميزان تقلت إحدى كفتيه — لغير سبب — فهو لا يضبط وزناً أبداً ، ينبسطون للمستحيلات ويقبلونها . ويتجهمون للوقائع ويرفضونها .

وقد بلونا أناساً يتعلمون قرابة عشرين سنة تعرض عليهم القضية فيخبطون فيها خطب عشواء . فإذا عرضت القضية نفسها على أسمى سليم الفطرة نقى العقل سدع فيها بالحق لأول وهلة . ومعنى ذلك أن هناك من تبذل فى إقامة عوجه العقلي عشرين سنة حافلة بالبحث والدرس فتخرج عن الوصول به إلى مرتبة رجل أوتى رشده بأصل الخلق .

ونحن موقنون من مطالبة سيرة محمد بأنه طراز رفيع من الفكر الصائب والنظر السديد . وأنه — قبل رعى النعم وبمده ، وقبل احتراف التجارة وبعدها — كان يعيش يقظ القلب فى أعماق الصحراء ، صاحباً بين السكارى والنافلين .

وجو الجزيرة العربية يزيد غمول الخامل وحدة اليقظان ، كالشماغ الذى ينمى الأشواك

والورود مما ، وقد كان محمد يستعين بصمته الطويل صمته الموصول بالليل والنهار صمته الطيق على الرمال الممتدة والممران القليل كان يستعين بهذا الصمت على طول التأمل وإدمان الفكر واستكناه الحق . ودرجة الارتقاء النفسى التى بلنها من هذا النظر القائم أرجح يقينا من حفظ لا فهم منه ، أو فهم لا أدب منه . ومثله فى احترام حقائق الكون والحياة أولى بالتقديم من أولئك الذين اعتنقوا الأوهام وعاشوا بها ولها . ولا شك أن التقدر حاطه بما يحفظ عليه هذا الانجاء القذ . فمما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا — وذلك من قبيل الصنائع التافهة — تتدخل العناية للحيلولة بينه وبين هذه الأمور .

روى ابن الأثير قال رسول الله : ما هممت بشيء مما كان الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك ، يحول الله بينى وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمى برسالته . قلت ليلة للنلام الذى يرمى منى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غدى حتى أدخل مكة وأمر بها كما يسمر الشباب ! فقال : أقبل . فخرجت ، حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت حزفا ، قلت : ما هذا ؟ فقالوا : مرس فلان بفلاة ، فجلست أسمع ، فضرب الله على أذنى ، ففتمت . فما أيقظنى إلا حر الشمس . فعدت إلى صاحبي ، فسألنى ، فأخبرته . ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة . . . ثم ما هممت بعده بسوء . . .



إن مراتب التلميم المختلفة هى مراحل جهاد متصل تهذيب العقل وتقوية ملكاته ، وتصويب نظرته إلى الكون والحياة والأحياء ، فكل تلميم يقصر بأصحابه من هذا الشاؤ لا يؤبه له ، مهما وسع بالشهادات والإجازات ! وأحق منه بالحفاوة ، وأسبق منه إلى الناة السوداء ، أن ينال الرء حظاً وافراً من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف . وقد أشار القرآن الكريم الى نصيب « إبراهيم » من هذه الحصص عندما قال : « رآنا آيينا إبراهيم رضى من قبل وكنّا به طالين . إذ قال لأبيه وقوه . . . » . آيينا التى اتهم لها ما كنوز ؟ .

وشدنى . ذاك نهج كنهه راسد . انه لم يتأن علماً على راهب أو كاهن أو فيلسوف

من ظهروا على عهد ولكنه بقله الحمب وقطرته الصافية طالع صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات . فناف ما سادها من خرافة ونأى عنها . ثم ناثر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم ، فاجده حسناً شارك فيه بقدر ، وإلا نادى إلى عزله المتبدة ، يتابع النظر الدائم فى ملكوت السموات والأرض . وذلك أجدى عليه من علومه بالجهل المركب أشبه ، ومن مجتمع قد الهداة من قرون ، فهو يضم ضللاً جديداً إلى الضلال القديم كلما مرت ليلة وطلع صباح . .

وقدرأى أن يشهد بعض الأفعال العامة التى اهتم بها قومه ، لأنه لم يجد أى حرج إذ يشارك فيها . ومن ذلك خوضه مع عمومته وقبيلته « حرب الفجار » ثم شهوده من بعد « حلف الفضول » .

حرب الفجار

كانت حرب الفجار بالنسبة إلى قريش دفاعاً عن قداسة الأئمة الحرم ، ومكانة أرض الحرم . وهذه الشائى بقية مما احترمه العرب من دين إبراهيم . وكان احترامها مصدر نفع كبير لهم ، وضماناً لانتظام مصالحهم وهدوء عداواتهم . كان الرجل يلقى قاتل أبيه خلالها فيحجزه عن إدراك ثأره شعوره بهذه الحرمات . . وقد جاء الإسلام بعد فأقر هذه المكانة التوارثية من ديانة إبراهيم : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم . ذلك الدين القيم فلا تظلموا فىهن أنفسكم » . . .

ولكن أهل الجاهلية ما لبثوا أن ابتلوا بمن استباحها ، فظلموا أنفسهم بالقتال فيها ، وكانت حرب الفجار من آثار هذه الاستباحة الجائرة . وليس هنا تفصيل خبرها وقد ظلت أربعة أعوام ، كان مرمم فى أثنائها بين خمسة عشر والتسعة عشر ، قيل : قاتل فيها بنفسه . وقيل : بل أتان للقاتلين . . .

حلف الفضول

أما حلف الفضول فهو دلالة على أن الحياة مهما اسودت صحائفها ، وكالحت شروورها ، فلن تخلو من نفوس تهزها مآنى النبى ، وتستجيشها إلى النجدة والبر ...

ففي الجاهلية النافذة نهض بعض رجال من أولى الخبير ، وتواتقوا بينهم على إقرار العدالة وحرر الظالم ، وتجديد ما أندرس من هذه الفضائل في أرض الحرم ! .

قال ابن الأثير : ... ثم إن قبائل من قريش تداعت إلى ذلك الحلف ، فتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان لشرقه وسنه . وكانوا بني هاشم وبني المطلب وبني أسد ابن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة . . فتحالفوا وتماقدوا ألا يجهدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه ، حتى ترد مظلمته . فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول فشاهده رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال حين أرسله الله تعالى : « لقد شهدت مع ممومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت » .

إن يريق الفرح — بهذا الحلف — يظهر في ثنايا الكلمات التي عبر بها رسول الله عنه . فإن هذه الحجة للحق ضد أي ظالم مهما عز ، ومع أي مظلوم مهما هان . هي روح الإسلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الواقف عند حدود الله . ووظيفة الإسلام أن يحارب البني في سياسات الأمم وفي صلات الأفراد على السواء . . .

وقيل في سبب الحلف : إن رجلاً من « زيد » أتى بتجارة إلى مكة ، فاشتراها الماسي بن وائل السهمي . ثم حبس حقها وأبى أن يدفعه ! فاستمدى عليه قبائل قريش والأحلاف فلم يكتفوا له . فوقف الغريب المظلوم عند الكعبة وأنشد :

يا آل فهرٍ لظلمٍ . بضاعته يعطن مكة . فأنى الدار والذعر !
ومُعْزَمٍ أشعثٍ لم يقضِ عُمرته يالرجل — وبين الحجر والحجر — ؟
إن الحرامَ لَمَنْ تَمَّتْ كرامته ولا حرام يثوب الفاجر النذير

فقام الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك . فاجتمع الذين ذكرهم ابن الأثير آفاً . وذهبوا إلى الماسي بن وائل . واستخلصوا منه حق الزبيدي . بعد ما أبرموا حلف الفضول .

ويظهر أن الماسي هذا رجل مماثل سمج . فهو صاحب القصة كذلك مع حباب بن الأرت . وكان خباب قيناً ، فصنع سيقاً للماسي وأتاه به لينقذه عنده . فقال له الماسي : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد . فقال له خباب : لا أكفر حتى يبيتك إذ ثم تب . قال الماسي : وإني لمت ثم مبعوث ؟ قال : بلى . قال :

دعني حتى أموت وأبث . فأوتى مالا وولداً ، فأفضيك — حق السيف —
فزلت الآيات :

« أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ : لَأُوتِينَ مَالاً وَوَلَدًا أَأُطْلَعُ النَّيْبَ أَمْ اتَّخَذَ
عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ؟ . كَلَّا . سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا وَنَرِيَّهٗ
مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا » .

وأمثال الماسي هذا في ميدان التجارة والسياسة كثير . ومحمد أولى الناس
بخصوصتهم . وأولى الناس الناس بمحمد من أعلن عليهم ووافق على حربهم .

قوة ونشاط ..

هندما انتهت حرب الفجار وأبرم حلف الفضول كان محمد يستقبل المرحلة الثالثة
من عمره . وهذه الفترة وما قبلها هي عهد الشباب الحار ، والفرارز الفائرة ، والطاح
البعيد . ومحمد رجل قوى البدن على الهمة رفيع المسكاة . وقد لوحظت طاقته الواسعة
حتى بعد هذه السن بنحو أربعين سنة . قال أبو هريرة : ما رأيت أحسن من رسول
الله ! كأن الشمس تجري في وجهه ! وما رأيت أحدا أسرع في مشيته من رسول الله !
لكأنما الأرض تطوى له ! كأننا إذا مشينا معه نجهد أنفسنا وإنه لنهر مكثر » .

ومثل هذا الرجل يُقبل عليه الحياة ولم يُقبل هو عليها . وعلى مَنْ تُقبل الحياة
بمنه ؟ على الواهين والنكسين والتشاغين ؟

لكن محمداً على ما يملك من وسائل المتاع ما أثرت عنه قط شهوة عارضة أو نزوة
خادشة . أو حكيت عنه مغامرة لنيل جاه أو استعلاء رُوة بل على العكس بدأت
سيرته تومض في أحماء مكة بما امتاز به على أقرانه — إن صححت الإضافة — من حلال
عذبة ، وبمائل كريمة ، وفكر راجح ، ومنطق صادق ، ونهج أمين . .

وليس شرف النفس أن تمتقي شهوة الإنسان إلى الحياة . أو توحده الشهوة
وتنتقي وسائل بلوغها . بل للشرف أن تكون قوة المقاب أربى من نوارع الهوى .
فإذا ظلت النفس في حال سكون فلتعادل القوى السالبة والموجبة فيها . وقد نجد رجلا
تافها هزिला لا ينفخ له طمع ولا تنحبس له شهوة لو قست غراؤه المنفلة بفرار غير

المضبوطة ما بلغت عشر قوتها لكن هذه وجدت زماما من الرشد فكظم عليها .
وتلك لم نجد عقلا يردع ولا خلقا ينصم ثارت وتمردت . . .

وقد كانت رجولة محمد في القمة بيد أن قواه الروحية وصفاء النفس جعلت هذه
الرجولة تردان بمعامد الأدب والاستقامة والفتنوع . ثم إنه كان مُعَانٍ من المُعَدِّ
الكريمة التي تُزِين للشباب تمشق المظلمة عن طريق التظاهر والرياء . أو تطلب
الرياسة عن طريق المداهنة واشتراء المواطف فإذا انضم لهذا كرهه الشديد للأستنام
التي حكف عليها قومه ، وازدراؤه للأوهام والأهواء التي تسود الجزيرة وماوراءها .
وإدراكه أن الحق شيء آخر وراء هذه الخرافات الغالبة . . تبينا السر في استثنائه
للجبال والقضاء ، واستراحته إلى رمي النعم في هذه الأنحاء القصية مكتفيا بالقليل
الذي يسود عليه من كسبها .

أهذا زهد في المال ، أو إعراض عن الحياة الدنيا ؟ لا . إنما هو انشغال بالحقائق
العليا التي تصلح بها الحياة وتُسَخَّرُ فيها المال . والرجال الكبار لا تشبعهم كنوز الذهب
والفضة إذا ظمئوا إلى الحق . ولا يريهم أن يكونوا ملوك قومهم أو ملوك الحياة .
إذا وأوا الساخر الشائنة تسير بالحياة كلها إلى منحدر تسقط فيه أقدار الناس ،
وتتعمر في الدنيا جمعا من كل خير وير .

كذلك استقبل محمد الرحلة الثالثة من عمره ، وهي الرحلة التي تمرق فيها إلى
زوجه الأولى « خديجة بنت خويلد » .

خديجة

و « خديجة » مثل طيب للمرأة التي تكمل حياة الرجل العظيم . إن أصحاب
الرسالات يحملون قلوبا شديدة الحساسية . ويلقون غبنا بالنا من الواقع الذي يريدون
تفسيره ، ويقاسون جهادا كبيرا في سبيل الخير الذي يريدون فرضه . وهم أحوج
ما يكونون إلى من يتمهد حياتهم الخاصة بالإيناس والترفيه ، بله الإدراك والمونة !
رذ كانت خديجة سبابة إلى هذه الخصال وكان لها في حياة محمد أثر كريم .

ب : الأنبياء : « كانت — خديجة — امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر
الرعاة ، وتزاورهم إياه حتى تجعله لهم منه . فلما بلغها عن رسول الله صدق

الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتسطيع أفضل ما كانت تعطى غيره . ومنه غلامها ميسرة .

وقد قبل محمد هذا العرض ورحل إلى الشام طملاً في مال السيدة التي اختارته ، ويظهر أن التوفيق حالفه في هذه الرحلة ، أكثر من سابقها مع عمه أبي طالب فكان ربحها أجزل ، وسرّت خديجة بهذا الخير الذي أحرزته . ولكن إعجابها بالرجل الذي اختبرته كان أعمق

إنها امرأة عريقة السب ممدودة الثروة . وقد عرفت بالحزم والعقل . ومثلها مطمح لسادة قريش لولا أن السيدة كانت تحقر في كثير من الرجال أنهم طلاب مال لا طلاب نفوس . وأن أبصارهم تنزّوا إليها بنية الإفادة من ثرائها وإن كان الزواج عنوان هذا الطمع ! لكنها عندما عرفت محمداً وجدت ضرباً آخر من الرجال . وجدت رجلاً لا تشهوه ولا تدنيه حاجة . ولعلها عندما حاسبت غيره في تجارتها وجدت الشح والاحتيال . أمام محمد قد رأت رجلاً قفّه كرامته الفارعة موقف النبيل والتجاوز ، فما تطلع إلى مالها ولا إلى جمالها ! لقد أدى ما عليه ثم انصرف راضياً مرضياً .

ووجدت خديجة خالتها المشوذة . فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منية . وهذه ذهبت إلى محمد تفاتحه أن يتزوج من خديجة ، فلم يبطئ في إعلان قبوله . ثم كلم أعمامه في ذلك فذهب أبو طالب وحجرة وغيرهما إلى عم خديجة عمرو بن أسد — إذ أن أباهما مات في حرب الفجار — وخطبوا إليه ابنة أخيه ، وساقوا إليها الصداق عشرين بكرة . ووقف أبو طالب يخطب في حفل الزواج قائلاً : إن محمداً لا يؤزن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلاً ، وفضلاً وعقلاً . وإن كان في المال قللاً فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة . وله في خديجة بنت خويلد رغبة . ولها فيه مثل ذلك . فكان جواب وليّ خديجها — عمها عمرو — هو الفحل الذي لا يقدر أنفه ! وأنسكحها منه ...

وقيل : إن العبارة الأخيرة جرت على لسان أبي سفيان عندما تزوج محمد رسول الله ابنته أم حبيبة . وكانت الحرب بينهما على أشدها . فاعتذر أبو سفيان عن ذلك بأن محمداً الرجل من الكفاءة بحيث يستبر الإصهار إليه منقبة ! والحصومة القائمة

بينهما لا نزل بقدر محمد أبداً ، ونكاحه لبنت أبي سفيان لا يشين أبا سفيان أبداً ،
وإن كان يومئذ الله عدو له



كان محمد في الخامسة والمشرين عندما تزوج خديجة . وكانت هي قد تاهزت
الأربعين . وظل هذا الزواج قائماً حتى ماتت خديجة عن خمسة وستين عاماً . كانت
طوالها محل الكرامة والإعزاز . وقد أنجب رسول الله أولاده جميعاً منها --
ما عدا إبراهيم .

ولدت له أولاً « القاسم » وبه كان يكنى بعد النبوة . ثم زينب ورقية وأم كلثوم
وفاطمة وعبد الله . وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر . ومات القاسم بعد أن بلغ
سناً تمكنه من ركوب الدابة والسير على التجبية . ومات عبد الله وهو طفل . ومات
سائر بناته في حياته . إلا فاطمة فقد تأخرت بمدة ستة أشهر ثم لحقت به

كان قرآن محمد بخديجة خير آله ولها . ولا شك أن هذا البيت الجديد قد اصطبغ
بروح رب البيت ، روح التطهر من أدران الجاهلية والترفع عن تقديس الأوثان .
وقد استأنف محمداً ألفه قبل زواجه من حياة التأمل والمزلة . وهجر ما كان عليه العرب
في أحفالم الصاخبة من إدمان ولغو وقار وتفاخر . وإن لم يقطع ذلك عن إدارة تجارته
وتدبير معاشه والضرب في الأرض والمشي في الأسواق . إن حياة الرجل الماقل
وسط جماعة طائشة تقتضي ضرورياً من الحذر والروية ، وخصوصاً إذا كان الرجل
على خلق عظيم يتقاضاه لين الجانب وبسط الوجه .

ولم يكن ثمة ما يقلق في هذه الزيجة الموقفة إلا ألم خديجة لهلاك الله كور من بنينا .
مع ما لذكران من منزلة خاصة في أمة كانت تتد البنات وتسود وجوه آبائهن عندما
يُبشرون بهن ١١

والغريب أن العرب بعد البعثة كانوا يُمَيِّرون محمداً بهذا ، ويملنون ارتقابهم
لاقطاع أثره وانتهاء ذكره . فمن ابن عباس ، أن قريشا تواصلت بينها بالتأدي
في النى والكفر . وقالت : الذى نحن عليه أحق مما عليه هذا المنبور المُنبَر ؟ —
والمنبور النخلة التى اندق أصلها — يمتنون أن محمداً إذا مات لم يرثه عقب ، ولم يحمل

رسالته أحد « أم يقولون : شاعر قريص به ريب النون ؟ قل ترَبُّصُوا . فإنى معكم من التربُّصين » ! !

ومحمد ورسالته فوق هذه الأمانى الصغيرة . إلا أن الأسى كان ينفزو قلب الوالد الجليل وهو يودع أبناءه الثرى ، فيجدُّ التشكل ما رسب في أحماقه من آلام اليم . إن غصنه تشبث بالحياة ، فاستملح البقاء والنماء برغم قنائه أبويه . وها هو ذا يرى أغصانه المنبسقة منه تذوى مع رغبته العميقة ورغبة شريكه حياته في أن يراها مزهرة مثمرة . وكان الله أراد أن يحمل الرقة الحزينة حزاء من كيانه ! فإن الرجال الذين يسوسون الشعوب لا يمنحون إلى الجبروت إلا إذا كانت نفوسهم قد طبعت على القسوة والأثرة ، وطاشت في أفراح لا يخامرها كدر . أما الرجل الذى خبر الآلام فهو أسرع الناس إلى مواساة المحزونين ومداواة المجرحين .

الكعبة

ومن بقايا ملة إبراهيم التى أجمع العرب فى جاهليتهم على احترامها « الكعبة » وهى أشبه بفرقة كبيرة مشيدة من أحجار قوية ، يعتمد سقفها من الداخل على أعمدة من الخشب الثمين . وأول من قام فى بنائها أبو الأنبياء إبراهيم وابنه إسماعيل والفرض من بنائها أن تكون معبداً لله ، ومسجداً يذكر فيه اسمه وحده . فإن إبراهيم لقى العناء الأليم فى حرب الأصنام وهدم المعبود التى تنصب فيها . ثم ألهمه الله أن يبنى هذا البيت ليكون أساساً للتوحيد وركناً ، ومثابة للناس وأماناً ، ومن البديهي أنه لا يسع القصاد جيماً فألحق ما حوله به وصار حرماً مقدساً .

ومعنى ذلك أن الكعبة نفسها حجارة لا تضر ولا تنفع ، وأن الحرمة التى اكتسبتها هى من التكريات والماعى التى حققت لها . ولذلك أكد رسول الله أن تأمين الأعراس والأموال والسماء أقدس عند الله من هذه الكعبة ، وأعظم حرمة وأكبر حقاً . ومن الوثنية التى يماضيها الإسلام إلى آخر الدهر الظن بأن الكعبة أو شيئاً منها له أثر من تقع أو ضرر .

وأنت خير بأن الرؤساء والقادة والجنود عندما يحيمون أعلام بلادهم ويتفانون دونها فليس هذا عبادة لقطع مينة من القماش إنما هو تقديس لمه'ن مينة ارتبطت بها

ومن الأمور التي يسهل فهمها أن تكون لأول مسجد في الأرض مكانة تاريخية خاصة . وأن يكون قبلة لما يستجد بتمده من مساجد .

أما الوجهة في كل صلاة والتقصود في كل خشوع فهو الله وحده .

عن أبي ذر سألت رسول الله عن أول مسجد وضع في الأرض ؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أي ؟ قال المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون عاماً ثم الأرض لك مسجد . فحيثما أدركتك الصلاة فصل ، فإن الفضل فيه .

وقد تعرضت الكعبة — باعتبارها أثراً قديماً — للموادى التي أوهت بنيانها وصدمت جدرانها . وقيل البعثة بسنوات قلائل جرف مكة سيل عرم انحدر إلى البيت الحرام فأوشكت الكعبة منه على الانهيار فلم تر قريش بدءاً من أن تعبد ببناء الكعبة حرصاً على مكانتها . وقد اشترك سادة قريش ورجالها الكبار في أعمال التجديد ونقل الأحجار بعدما هدموا الأقباض الواحية وشرعوا يبيدونها كما كانت :

وبناء رفع إبراهيم وإسماعيل من قواعده قبل قرون سحيقة لا يوكل أمره لصغار القملة ، فلا غرو إذا أقبل عليه الشيوخ وأهل النهى والصدارة ومن بينهم محمد وأمامه ...

عن عمرو بن دينار سمعت جابر بن عبد الله يقول : لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله والعباس يفتلان الحجارة . فقال العباس للنبي : اجعل إزارك على رقبتي قبلك الحجارة . ففعل ، كان ذلك قبل أن يمت — نغزاً إلى الأرض فطمعت عيناه ، إلى السماء . قال : إزارى إزارى ، فشد عليه فما رؤى مرئياً ...

وتنافست القبائل في هذا المضمار . كل يبني الصدارة فيه والذهب بفخره ، حتى كاد هذا السباق يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم . واستفحل الشر بين المشتغلين بالبناء عندما بدأوا يستمدون لوضع الحجر الأسود في مكانه من أركان الكعبة . لولا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي اقترح على المتطاعين أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل من باب الصفا . وشاء الله أن يكون ذلك محمداً . فلما رأوه هتفوا : هذا الأمين ، ارتضيناه حكماً ...

وطلب محمد ثوباً ، فوضع الحجر وسطه ، ثم نادى رؤساء القبائل المتنازعين ،

فأسكوا جميعاً بأطراف الثوب حتى أوصلوا الحجر إلى الكعبة ، فحمله محمد بيديه ثم وضعه مكانه المتيد .

وهذا حل حصيد رضى به القوم . ومن قبل كانت رؤيتهم لحمد مثار تيمنهم واطمئنانهم . وهذا يدل على سناء المنزلة التى بلتها فيهم .

ومع جهد قريش فى بناء الكعبة ، فقد عجزت عن إبلاغها قواعد إبراهيم . ولكن رسول الله بعد أن استقر له الأمر فى الجزيرة لم يجد ضرورة لتجديد زيادة بها . وأثر تركها على ما انتهت إليه . عن عائشة قالت : قال لى النبى : ألم ترى أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ قلت : يا رسول الله ، ألا تردّها إلى قواعد إبراهيم ؟ فقال : لولا حدثان قومك بالفسك لفعلت ! قال ابن عمر : لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ، ما أرى أن رسول الله ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم . قال العلماء : والمراد بقول الرسول الآف قرب العهد بالجاهلية . وضمف استمكان الإيمان . مما يجعل العرب ينفرون من همم الكعبة وتسير هيقها .

ولو كانت إعادة الكعبة كما بناها إبراهيم فريضة ما تركها رسول الله . ولكن الأمر أخف من أن تثار لأجله مشاكل عويصة .

باحثون عن الحق

قلنا : إن الوثنية ترين باطلها بطلاء من الحق ليسهل على النفوس ازدراد ما فيها من مرارة . فعلى ترحم الإيمان بالله خلق السموات والأرض . وفى الوقت نفسه تشرك منه آلهة أخرى هى مزدلف إليه ووسيلة . ولما كان خالق السموات والأرض بعيداً عن رأى الأعين قد أنسى المعباد المشركون بالآلهة القريبة من أيديهم والتى يترددون عليها صباحاً ومساءً . حتى صارت ملتهم بها أحكم من الصلة بالإله الأسيل . وأصبح ذكر هذا الإله — التوسل إليه بشيئه — لا يرد إلا فى مرض الجدال والاعتذار : « ولئن سألتهم : مَنْ خَلَقَهُمْ ؟ ليقولنَّ : الله . فأنى يؤفكون ؟ وقيلو : يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، فاصفع عنهم . وقل : سلامٌ . فسوف يعلمون . » . غير أن التعصب لهذا السفخ جاوز الحدود . فأما العامة فهم بهم ، أحلاس

ما توارثوا ، فقدموا نعمة العقل الحرّ ، بل العقل المدرك . وعاشوا يهرفون بما لا يعرفون .
وأما الذين آوتوا حظاً من التفكير ، فإن تفكيرهم يرتطم بمحدود شهواتهم ، وربما
كثمتوا ما عرفوا ، بل ربما حاربوا ما عرفوا . وقليل من الناس من يتجرأ على التقاليد
المستحكمة ، ويجهز بالحق . وأقل من ذلك من يمشي له ويضحى في سبيله .

وقد وجد قبل البعثة من نظر إلى وثنية العرب نظرة استهزاء . ومن عرف أن
قومه يلتفتون على أباطيل مفتراة . ولكنه لم يجد الطريق أو الطاقة على كفهم .

أخرج البخاري أن ابن عمر حدث عن رسول الله أنه لقى زيد بن عمرو بن نفيل
بأسفل « بلدح » — وذلك قبل أن ينزل الوحي على النبي — فقدم إليه رسول الله
سُفْرَةً فيها لحم . فأبى أن يأكل منها . ثم قال زيد : إني لا آكل مما تذبجون^(١)
على أنصابكم ، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه . وكان يصب على قريش ذبائحهم .
ويقول : الشاة خلقها الله ، وأنزل لها من السماء الماء ، وأنبت لها من الأرض الكلاء .
وأنتم تذبجونها على غير اسم الله — إنكاراً لذلك — .

وفي رواية أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين وبيته .
فلقى طالاً من اليهود . فسأله عن دينهم . وقال : لعل أن أدين دينكم ! فقال : لا تكون
على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ! قال زيد : ما أفر إلا من غضب الله ،
ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأما أستطيعه ! . . . فهل تدلني على غيره ؟ . فقال :
ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً . قال زيد : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم . لم يكن
يهودياً ولا نصرانياً . ولا يعبد إلا الله . فخرج زيد ، فلقى طالاً من علماء النصارى .
فذكر له مثل ذلك ، فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لينة الله !
قال : ما أفر إلا من لينة الله ، ولا أحمل من لينة الله شيئاً أبداً . وأنا أستطيع ! . . .
فهل تدلني على غيره . فقال : لا أعلمه إلا أن تكون حنيفاً . قال : وما الحنيف ؟ قال :
دين إبراهيم ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، ولا يعبد إلا الله . فلما رأى زيد قوله
في إبراهيم خرج . فلما برز رفع يديه . فقال : اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم ..

(١) توم زيد أن الله القديم إليه من جلس ما حرم الله . ومن اللطوح به أن بيت محمد
لا يعلم ذائع الأسماء ، ولكن زيدا أراد الاستيثاق لنفسه والإعلان عن مذهبه . وقد حفظ
محمد ذلك رسماً به .

وهذا الحديث يبين مقدار الحيرة التي سادت الدنيا . وغطت بضبابها الكثيف على الأديان الظاهرة . اليهود يشعرون بأنهم مطاؤدون في الأرض منبذون من أقطارها . فلي الداخل في دينهم أن يحمل وزراً من اللقت المكتوب عليهم . والنصارى وقع بينهم شقاق رهيب في طيعة المسيح ، ووضعه ، ووضع أمه ، من الإله الكبير ، وقد أثار هذا الخلل بينهم الحروب الهلكة ، وقسمهم فرقاً يملن بعضها بعضاً .

وكان نصارى الشام الذين سألهم زيد يعاقبة يخالفون الذهب الرسمي لكنيسة الرومان . فلا غرابة إذا أشمروا زبداً بما يقع عليه من عذاب لو دخل في دينهم أو لمل هذه اللعنة الرهوبة هي تبعات الخطيئة التي اقترفها آدم واستحقها من بعده بنوه كما يدعى ذلك النصارى وهم يبررون سلب المسيح ومن حق زيد أن يدع هؤلاء وأولئك ، ويرجع إلى دين إبراهيم يبحث عن أسو له وفروعه .

وأخرج البخارى عن أسماء بنت أبى بكر قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يا مشر قريش ، والله ، ما معكم على دين إبراهيم غيرى . وكان يحمى الرودة . يقول للرجل — إذا أراد أن يقتل ابنته — : أنا أكفيك مؤنتها ، فيأخذها . فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها .

إن زيدا واحداً من للفكرين القلائل الذين سخطوا ماعليه الجاهلية من نكر . وإنه ليَشْكُرُ على تحريره الحق . ولا يُمَط هو ولا غيره أقدارهم بين قومهم . لكن القدر كان يتخير رجلاً يصير الحق وعكسك من الطاقة ما يدفعه إلى آفاق العالمين . في وجه مقاومة تسترخس النفس والنفيس للإبقاء على الضلال والإمساك ببليله البارد الثقيل . .

كان القدر يُريدُ لهذه الرسالة الضخمة رجلاً الضخم ، والمظالم كفوها المظالم !

في خار حراء

أخنت سن محمد تصعد نحو الأربعين . وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه فأمتست نظرتهم إليهم نظرة عالم الفلك — في عصرنا — إلى

جماعة يؤمنون بأن الأرض محمولة على قرن نور ، أو نظرة عالم القدرة إلى جماعة يتراشقون بالحجارة إذا تحاربوا ، ويتنقلون بالمطايا إذا سافروا . .

ذاك من الناحية الفكرية . أما من الناحية النفسية فإن الإلحاد الذى شاع فى الجاهلية . وجعل أهلها يقسمون بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . هذا الإلحاد المفرق الطامس عزا نفوس الأخيار بالقلق البالغ . إلى أين تصير هذه القافلة الحائرة ؟ لأن كان الوجودأولاً ولا آخر أهذه الأعمار المستنفدة على ظهر الأرض فإن الفناء خير وأجدى ! !
أما من بصيص نور خلال هذا الظلام الخيم ؟

وكان محمد يهجر مكة كل عام ليقضى شهر رمضان فى غار حراء . وهو غار على مسافة بضعة أميال من القرية الصاخبة ، فى رأس جبل من هذه الجبال المشرفة على مكة والتي ينقطع عندها لغو الناس وحديثهم الباطل ، وليبدأ السكون الشامل المستغرق . فى هذه القمة السامقة المزوية كان محمد يأخذ زاد اليبالى الطوال ثم ينقطع عن العالمين متجهاً بفؤاده المشوق إلى رب العالمين !

فى هذا الغار المهيب المحجّب كانت نفس كبيرة "تطل" من عليائها على ما تموج به الدنيا من فتن ومفارم واعتداء واسكسار ، ثم تتلوى حسرة وحيرة لأنها لا تدرى من ذلك غرجا ، ولا تعرف له علاجاً ! !

فى هذا الغار النائي كانت عين نفاذة محصية تستعرض تراث الهداة الأولين من رسل الله ، فتجده كالنجم المغم لا يستخلص منه المعدن النفيس إلا بعد جهد جهيد ، وقد يختلط التراب بالتبر فما يستطيع بشر فصله عنه . . .

فى غار حراء كان محمد يتعبد ، ويصقل قلبه ، ويتقى روحه ، ويقترّب من الحق جهده ويبتعد عن الباطل وسعه . حتى وصل من الصفاء إلى مرتبة عالية ، انكست فيها أشعة النيوب على صفحته الجلوة ، فأمسى لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح .
فى هذا الغار انصل محمد بالملأ الأعلى .

ومن قبله شهد بطن الصحراء أخا لحمد يخرج من مصر فاراً مستوحشاً . ويحتاج لتقارب متلصاً الأمن والسكينة والهدى ، لنفسه وقومه ، فبرقت له من شاطئ الوادى الآمن . دار مؤنسة . فلما تيممها إذا بالنداء الأقدس ينمر . سامعه ويتخلل مشاعره :
« يا عيسى بن مريم ! أما الله لا إله إلا أنا فاعبدنى . وأقم الصلاة لذكري » .

إن شعلة من هذه النار احتازت القرون لتتجدد مرة أخرى في جوانب النار التي حوى رجلا يتحنن ويظهر نائياً يجسمه وروحه عن أرجاس الجاهلية ومساوئها . لكن الشعلة لم تكن ناراً تستدرج الناظر بل كانت نوراً ينبسط بين يدي وحى مبارك يسطع على القلب العاني ، بالإلهام والهداية ، والتثنية والعناية ، وإذا بمحمد يصنى - في دهشة وانهار - إلى صوت الملك يقول له :

اقرأ . فيجيب - مستفسراً - ما أنا بقارىء ويتكرر الطلب والرد لتنساب بعده الآيات الأولى من القرآن العزيز : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » .

ورقة بن نوفل

إن محمداً بشر مثلنا . لكن الوجود لا يعرف تفاوتاً بين أفراد جنس واحد كما يعرف ذلك في جنس الإنسان . إن بعضهم أرق من الأفلاك الزاهرة ! وبعضهم الآخر لا يساوى برة . . . وإن كان الكل بشراً ! !
وذاك التفاوت واقع بين من لم يؤيدوا بحسى . فكيف إذا اصطفىٰ إنسان ما . وزيت أطوار كاله المتداد طوراً آخر تومض فيه أشعة التصديد والتوفيق والإرشاد والإمداد ؟ ؟

إن الوحي روح يفد على المختارين بحياة جديدة ، وهمة جديدة ورسالة جديدة . « يُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ . أَنْ أَنْذِرُوا : أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ » . . .

إن الجنين بعد نفخ الروح فيه يشهه الله خلقاً آخر ، ينابر الأطوار الستة الأولى التى مرّ بها ، سلاطة الطين ، فالنطفة ، فالعلقة ، فالضنة ، فالعظام ، فالجسم المكسو بالدم . . . ! !

والأنبياء - بعد اتصال الوحي بهم وسريان روحه الجديدة في أرواحهم - يتحولون بشراً آخرين ، لا يبدانهم غيرهم أبداً في عبادة وإشراق .
وهذا التغير الملحوظ سر تذكير الله لحمد بالقدره التى خلقت الإنسان من علق ، إن القدرة التى خلقت هذا الإنسان المجيب من عاقمة طفيلية . هى التى سنناقش

بنعمة الله إلى جعل محمد بشراً رسولاً يقرأ بعد ما كان أمياً « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا . ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان . ولكن جعلناه نوراً تهدي به من نشاء من عبادنا . وإليك التهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض . »

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدى به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُببَ إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه — وهو التبتد — إلىالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله يتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء . فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارى . قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني . فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارى . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارى . فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق الخ .

فرجع بها رسول الله ترجف بوادره ! حتى دخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني : زملوني . فزملوه حتى ذهب منه الروح ثم قال لخديجة : أى خديجة . مالى ؟ وأخبرها الخبر ! ثم قال : لقد خشيت على نفسى . . .

قالت له خديجة : كلا ، أبشر فوالله لا يعزبك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل — وهو ابن عم خديجة — وكان امرأ تنصر في الجاهلية . وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب . وكان شيخاً كبيراً قد عمى . فقالت له خديجة : أى ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ! فقال له ورقة : يابن أخى ما ترى ؟ فأخبره رسول الله . فمارأر . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى . ياليتني عيب حذو . ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله : أوخرجني ؟

قال : نعم ! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى . وإن يدركنى يومك حياة
أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي .

لكن الأربعين عاماً السابقة يوم واحد ، وبدء الوحي صبيحة يوم جديد !
إن العقل الجواب الباحث المستفسر أخذ يشم أنوار الحق .
والصدر المهرج المتقل بالتشاؤم والارتباك أخذ يحس برد اليقين وفسحة الأمل . . .
والفلة الطارئة بميدة المدى . إنها النبوة .

ألا ما أجل هذا الفصل القبل . وما أعظم ما يواجه عمداً فيه من شئون
وشجون . . . !

لذلك سرعان ما تراجعت إليه نفسه . وكان موقف زوجته خديجة منه من أشرف
المواقف التي تحمد لامرأة في الأولين والآخرين . طمأنته حين قلق ، وأراحته حين
جهد . وذكرته بما فيه من فضائل ، مؤكدة له أن الأبرار أمثاله لا ينفلون أبداً :
وأن الله إذا طبع رجلاً على المكارم الجزلة والمناقب السمحة فلصفاً يجمه أهل
إمرازه وإحسانه . وبهذا رأى الراجح والقلب الصالح استحققت خديجة أن يمجّتها
رب العالمين ، فيرسل إليها بالسلام مع الروح الأمين . . .

(٣)

جَهَّ دَائِمَ الدَّعْوَةِ

تخلصت ظلال الحيرة ، وثبتت أعلام الحقيقة . وعرف محمد معرفة اليقين أنه أنهى نبياً لله الكبير التمثال . وأن ما جاءه سفير الوحي ينقل إليه خبر السماء . . . إلا أن الروعة التي انتابته من هذه الصلة بين إنسان وملاك تركت في نفسه أثراً من الجهد ، كأنما كان يطالع عملاً مرهقاً صعباً . ولا عجب فقد ظل يمانى من التزليل شدة أمداً طويلاً . وشاء الله أن يقتر الوحي بعد ابتدائه على النحو الذى أسلفنا حتى يكون تشوُّف الرسول وارتقابه لمحيطه سيباً في ثباته واحتماله عند ما يعود . ومع ذلك فإن الطاقة البشرية ناءت أمام وطأته . . .

جاء جبريل للمرة الثانية ، قال جابر بن عبد الله : سمعت رسول الله يحدث عن فترة الوحي فقال لى في حديثه . فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسى . فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالساً على كرسى بين السماء والأرض . فقزعت منه حتى هويت إلى الأرض . فبحثت إلى أهلى ، فقلت : زملونى زملونى ، فذئرونى . . . فأزل الله عز وجل : « يا أيها المدثر قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . . . » .

كانت هذه الأوامر المتتابعة القاطمة إيذاناً للرسول بأن الماضى قد انتهى بتمامه ، وهودنه وسلامه ، وأنه أمام عمل جديد يستدعى اليقظة والتشهير والإنذار والإعذار فليحمل الرسالة وليواجه الناس . وليأس بالوحي وليتقو على عنائه ، فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته .

والوحي إلهام ينضج على القلب بمراد الله في صورة واضحة لا تحتل الرية . وله مراتب شتى بعضها أيسر من بعض . فمن صر : « كان رسول الله إذا نزل عليه الوحي ، يسمع عند وجهه كدوى النحل » .

وكان أحياناً يأتي في مثل صدسة الجرس — وكان أشده عليه — فيلتبس به الملك ، حتى أن جبينه ليتفصدُّ عرقاً في اليوم الشديد البرد . وحتى أن راحلته لتبرك به حين الأرض إذا كان راكبها . ولقد جاءه الوحي مرة كذلك ونفذه إلى نخذ زيد بن ثابت فتقلت عليه حتى كادت ترثها وقد يأتي أيسر من ذلك وأخف .

رءٌ قيل : لماذا كانت أوائل الوحي بهذه اللثابة من الشدة . ولماذا لم يبدأ ترر ترر في منامه . أو إلهاماً في يقظة على نحو ما قال الرسول : « إن روح

القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب . . . » . أو ليس هذا أبعد عن دواعي القزع والإحياء ؟
والجواب أن نزول القرآن اتخذ هذه الطريقة أول الأمر . ونزل الملك به في هذا المظهر^(١) . قطعاً لكل شبهة في أنه - ألفاظاً ومعاني - من عند الله . وأن عمداً مُجمله تحميلاً بمدان اسطغى له واختص به . فهو ليس افتعال عابد منقطع تخيل فقال ، ولا صناعة فيلسوف ماهر يجيد سوق الأدلة وتنميق اللقال ، إنما هو كلام الأحده الحق الكبير المتعال . « إن هو إلا وَحْيٌ يُوحَى . علته شديد القوى . ذو مِرَّةٍ ، فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دَنَا فَتَدَلَّى . فكان قابِ قَوْسَيْنِ أو أَدْنَى . فأنوحى إلى عبده ما أوحى . ما كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَفَتُهَارُونَ عَلَى مَا يَرَى » ؟

إلام يدعو الناس ؟

شرع محمد يكلم الناس في الإسلام ويمرض عليهم الأخذ بهذا الدين القدي أرسله الله به .

وسور القرآن القدي نزل بمكة تبين العقائد والأعمال التي كلف الله بها عباده وأوصى رسوله أن يشهد قيامها ونعائها . وأول ذلك :

١ - الوحدانية المطلقة . فالإنسان ليس عبداً لكائن في الأرض أو عنصر في السماء ، لأن كل شيء في السماء والأرض عبد لله ، يمتثل لجلاله وينزل في ساحته وينحضع لحكمه . وليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء . ومن حق كل امرئ أن يهرع إلى ربه رأساً غير مستصحب معه خلقاً آخر كبيراً أو حقيراً . وحق على كل امرئ أن ينكر من أقاموا أنفسهم أو أقامهم غيرهم زلفى إلى الله ، وأن ينزل بهم إلى مكانهم المحدود إن كانوا بشراً أو حجارة أو ما سوى ذلك ويجب أن يتبنى جميع الصلات الفردية والجماعية على أساس تفرد الله في ملكوته بهذه الوحدانية التامة . ونتيجة هذه العقيدة أن الحجارة التي يعبدها العرب أصبحت لا تزيد عن الحجارة

(١) إن اتصال الأبدان بالم القلب يرهق الطلحة البصرية . واعتبر لذلك بما يمايه الوسطاء من حالات التورم الفناطيسى .

التي تبقى بها البيوت أو ترصف بها الطرق . وأن البشر الذين ألهموا في ديانات أخرى صُحِّحَتْ أوضاعهم . ففرخوا على أنهم عبيد لمن خلقهم ورزقهم يتقدمون عنده بالطاعة ويتأخرون بالمصيبة . ولا شأن لهم في خلق أو رزق . . .

٢ — الدار الآخرة . فهناك يوم لا شك في قدومه ، يلقي الناس فيه رهيم فيحاسبهم حساباً دقيقاً على حياتهم الأولى . « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . فإما نعيم ضاحك يرح فيه الأخيار ويستريحون وإما جحيم مشثومة يشق فيها الأشرار ويكتثبون . . .

والنظر إلى الدار الآخرة في كل عمل يأتيه للمرء أو يندره من أصول السلوك الصحيح في الإسلام . فكما أن راكب القطار موقن بأنه سينزل في عطل قادم فكذلك المسلم يعلم أن الأيام الجارية به ستقف حتماً لترتبه إلى مولاه حيث يلقي جزاء العمر ، ويجني ما غرست يده . . .

٣ — تزيك النفس . وذلك بلزوم عبادات معينة شرعها الله عز وجل ، وترك أمور أخرى حذر من منبتها :

« قل : تمالوا أنزل ما حرم ربكم عليكم . ألا تشركونا به شيئاً . وبإلوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إلاق نحن رزقكم وإيتام . ولا تقرّبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون . ولا تقرّبوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قرى وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه . ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون » .

قال أكنم بن صيفي : إن ما جاء به محمد لو لم يكن ديناً لكان في خلق منس حسناً .

— حظ كيان الجماعة المسلمة باعتبارها وحدة متماسكة تقوم على الأخوة والعدل . وذلك بتفويض امره أطول وإعطاء المحروم وتقوية الضعيف . وفي سورة

« الدثر » وهي أول سورة أمر الرسول فيها بالبلاغ تقرأ قول الله تبارك وتعالى « كل نفس بما كسبت رهينة » . إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون ، عن الجرمين ، ما سلككم في سقر ؟ قالوا لم نك من الصالحين ولم نك نعلم السكين وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين فما تفهمم شفاعة الشافعين » .

وكان أبو بكر لا يرى مستضعفا يمتد من المسلمين إلا بذل جهده وماله في سبيل فك إسماره وإفاده مما به . وذلك حق الفرد على الجماعة .

الرعي الأول

أخذت البداية للإسلام تنتشر في مكة وتعمل عملها في أصحاب الأئمة الكبيرة ، فسرعان ما يطرحون جاهليتهم الأولى ويخفون إلى اعتناق الدين الجديد . وكانت آيات القرآن تنزل على القلوب التي استودعت بذور الإيمان كما ينزل الوابل على التربة الخصبة « فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج »
كان أصحاب العقائد يجمعون في تودة حول عقائدهم ، ويلتفون في حب وإعجاب حول إمامهم ويشرحون في حذر أصول فكرتهم .

والإيمان قوة ساحرة إذا استمكنت من شباب القلب وتغللت في أعمائه تكاد تجعل المحتحيل ممكنا . وقد رأينا شباباً وشيوخاً يلتقون عند فكرة من الفكر ، ويحملونها من أنفسهم على العقائد الراسخة . ومع أنها فكر مادية بحتة إلا أنهم يحملون من حياتهم وقود حركتها ، ويتحملون أقيح الأذى في سبيل نصرتها . وفي السجن الآن رجال نخرجوا من جامعات الغرب يقضون شطرا من أعمارهم مع القتلة وتجار المخدرات . ويرون ذلك بعض المجد الواجب لإنجاح بآدئهم ودفعا إلى الأمام . فكيف إذا كان الإيمان القوي ظهر في صدر الإسلام إيمانا بالله رب السموات والأرض وإيمانا بالدار الآخرة حيث يفتل الإنسان من هذه الدنيا لتستقبله في جوار الله الحدائق الفناء والقصور الزهر من تحتها الأشجار الجارية والنعيم القيم ، إن الرعي الأول أخذ يتكون ويتزايد على مر الأيام . .

ومن الطبيعي أن يمرض الرسول أولا الإسلام على ألسن الناس به من آل بيته

وأصدقائه . وهؤلاء لم تخالجهم ريبة قط في عظمة محمد وجلال نفسه وسدق خبره ،
خلا جرم أنهم السابقون إلى مؤازرته واتباعه .

آمنت به زوجته خديجة ومولاه زيد بن ثابت ، وابن عمه علي بن أبي طالب
— وكان سببا يحيا في كفاية الرسول — وصديقه الحميم أبو بكر ثم نشط أبو بكر
في الدعوة إلى الإسلام فأدخل فيه أهل ثقتة ومودته ، عثمان بن عفان ، وطلحة بن
عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص . وآمن القس ورقة بن نوفل وقد روى أن الرسول
رآه في المنام — بعد مماته — في هيئة حسنة تشهد بكرامته عند الله . وأسلم الزبير
ابن العوام وأبو ذر الغفاري وعمر بن عتبة وسعيد بن العاص وقشا الإسلام في مكة
بين من نور الله قلوبهم . مع إن الإعلام به كان يتم في استخفاء ، ودون مظاهرته من
التحسس المكشوف أو التحدى السافر ...

وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تمرها اهتماما ولملها حسبت محمدا أحد أولئك
الديانين الذين يتكلمون في الأهوية وحقوقها كما صنع أمية بن الصلت وقس بن ساعدة
وعمر بن قنيل وأشباههم . إلا أنها توجست خيفة من ذبوع خبره وامتداد أثره
وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته .

واستمر هذا الطور السري للدعوة ثلاث سنين . ثم نزل الوحي يكلف الرسول
بعمالة قومه ومجاوبة باطلهم ومهاجة أسنانهم جهارا . . .

إظهار الدعوة

قال ابن عباس : لما نزلت الآية « وأنذر عشيرتك الأقربين » صمد النبي على
الصفا فجعل ينادي : يا بني فهر ، يا بني عدى — لبطون قريش — حتى اجتمعوا ،
فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا لينظر ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش ،
فقال النبي : أرايت لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم
من دقي ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب
شديد . . . فقال أبو لهب : تبأ لك سائر اليوم ! ألهذا جمعتنا ؟ فنزل قوله تعالى :
تبت — تبت وتبت . . . »

رسول الله حين أنزل الله عليه « وأنذر عشيرتك الأقربين »

فقال : « يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبدالمطلب لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا صفية همة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا فاطمة بنت رسول الله سلبني ما شئت من مالي لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

هذه الصيغة العالية هي غاية البلاغ . فقد قاسل الرسول قومه على دعوته ، وأوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلة بينه وبينهم . وأن عصية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله .

لقد كان محمد كبير المنزلة في بلده ، مرموقاً بالثقة والهيبة ، وها هو ذا يواجه مكة بما تكره . ويعرض لخصام السفهاء والكبراء . وأول قوم ينامر بخسران مودتهم هم عشيرته الأقربون . لكن هذه الآلام تهون في سبيل الحق الذي شرح الله به صدره . فلا عليه أن يبيت بعد هذا الإنذار . ومكة تموج بالقرابة والاستنكار . وتستمد لحسم هذه الثورة التي اندلعت بشتة ونحش أن تأتي تقاليدها وموروثاتها .

وبدأت قريش تسير في طريقها ، طريق الددد ومجانبة الصواب . ومضى محمد كذلك في طريقه ، يدعو إلى الله . ويتلطف في عرض الإسلام ويكشف النقاب عن غايات الوثنية ، ويسمع ويحجب ويهاجم ويدافع . . . غير أن حرصه على هداية آله الأقربين جعله يجدد مسماه محاولاً عرض الإسلام عليهم مرة أخرى . فإن منزلتهم الكبيرة في العرب تجعل كسبهم عظيم النتائج . وم — قبل ذلك — أهله الذين يود لهم الخير ويكره لهم الوقوع في مساخط الله .

روى ابن الأثير ، قال جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم . لما أنزل الله على رسوله « وأندر عشيرتك الأقربين » اشتد ذلك عليه وضاق به ذرعاً . فجلس في بيته كالريض ، فأثته عمانته يمدنه . فقال . ما اشتكيت شيئاً . ولكن الله أمرني أن أندر عشيرتي ، فقلن له : فادعهم ، ولا تدع أباً لرب فيهم ، فإنه غير محميك . فدعاهم ، فحضروا ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين رجلاً . فبادره أبو لهب وقال : « هؤلاء هم عمومك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة ! واعلم أنه ليس لقومك بالرب قاطبة طاقة ! وأنا أحق من أحذك ! تحسبك بنو أيك . وإن أقت على

ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش ، وتُمدُّهم العرب . فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشرٍ مما جئتهم به .

فسكت رسول الله ولم يتكلم في ذلك المجلس . ثم دعاهم ثانية . وقال : « الحمد لله أحمد وأستعينه . وأومن به وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . ثم قال : إن الزائد لا يكذب أهله . والله الذي لا إله إلا هو . إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة . والله ليموتن كما تنامون . ولتبعثن كما تستيقظون . ولتحاسبن بما تعملون . وإنها الجنة أبدا . أو النار أبدا . »

فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاومتك . وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقنا لحديثك !!

وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون . وإنما أنا أحدم . غير أني أسرعهم إلى ما نحب . فامض لما أمرت به .

فوافقه لا أزال أحوطك وأمنك . غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوءة !! خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم ... فقال أبو طالب : والله لنمنعه ما بقينا .

أبو طالب

إن أباطال — برغم بقاءه على الشرك واستمساكه بدين الآباء — ظل حتى الماطفة ظاهر الحذب على ابن أخيه . وهو مدرك كل الإدراك ما سوف تجرّه هذه الدعوة من متاعب عليه وعلى أسرته ، بيد أن إعزازه لحمد وتأذيه من مواجهته بما يكره عملاء على ضمان الحرية له ، بل على التمسك بمجاوبته وهو يبلغ عن ربه !!

وأبو طالب من رجال مكة المدودين . كان معظاً في أهله معظاً بين الناس . في يحسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته . وكان بقاؤه مع أهل مكة محترماً بلاذنين من أسباب امتداد نفوذه ورعاية حقوقه ...

أما أبرئ فصوره لأرباب الأسر التهالكين على مصالحهم وسمتهم من غير

نظر إلى حق أو باطل . فأى حمل يمرض مصالحه للبوار أو يחדش ما لاسمه من منزلة
يهيج نائزته ويدفعه لاقتراف الحماقات ...
وفى طبيعة أبي لعب قسوة تفره باقتراف الدنيا . كان أبناؤه متزوجين بينات
محمد فأمرهم بفراقهن . فطلق عتبة وعتيبة رقية وأم كلثوم ...
ولعل أبا لعب كان متأزراً فى هذه البنضاء المتزنية بزوجه أم جميل بنت حرب
أخت أبي سفيان . وهى امرأة سليطة ، تؤزها على كراهية محمد ودينه علل شتى .
ولذلك بسطت فيه لسانها . وأطالت عليه الافتراء والفساد
وإذا كانت أهواء الجاهلية تدفعهم محمد إلى الإغلاظ منه على هذا النحو الوضع .
فكيف يكون مسلك الأباعد الذين يتمنون المثار للسليم والهمة للبرء ؟؟



لكن ما أبو لعب ؟ وما قريش ؟ وما العرب ؟ وما الدنيا كلها ؟ ياذا رجل
يحمل رسالة من الله التى له ملك السموات والأرض يريد أن يعيد بها الرشد لعالم
قدّ رشده ، وأن يححو بها الأوهام فى حياة مرغتها الأوهام فى الزمان . ما تجدى
وقفة جهول ؟ أو غضبة مرور ؟ فى منع هذه الرسالة الكبيرة من الضى
إلى هدفها البعيد .

إن الطحالب المائعة لا تقف السفن الماخرة . ولئن قم الجاهليون على المسلمين
مروقتهم من بين قوسهم بهذه الدعوة — حتى ليسمونهم الصباة — إن المسلمين لأشد
ثقة عليهم أن سفهوا أنفسهم وحقروا عقولهم وتشبثوا بخرافات ما أنزل الله بها
من سلطان .

إن الدعوة التى بدأ بها محمد من بطن مكة لم تكن لبناء وطن صغير بل كانت
إنشاء جديداً لأجيال وأمم تظل تتوارث الحق وتدفع به فى زحاب الأرض إلى أن
تنهى من فوق ظهر الأرض قصة الحياة والأحياء . فإذا تصنع خصومة فرد أو قبيلة
لرسالة هذا شأنها فى حاضرها ومستقبلها ؟

ومن أولئك الخصوم ؟
متمصبون تحجرت عقولهم ، زين لهم سطوتهم البطش بمن يخالفهم « وإذا تُنلى

عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا النكير . يكادون يسطرون بالدين يتلون عليهم آياتنا ... » II -

أَمْ مَتَرَفُونَ سِرَّتِهِمْ ثَوْتِهِمْ يَجْعَلُونَ الْبَاطِلَ لِأَنَّهُ عَلَى أُولَئِكَ وَثِيرَةٌ وَيَكْرَهُونَ الْحَقَّ لِأَنَّهُ عَاطِلٌ عَنِ الْحَقِّ وَالْمَنَافَعِ « وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » II

أَمْ مَتَمَتُّونَ يَحْسِبُونَ هِدَايَةَ الرَّحْمَنِ حَبِثَ سَيِّئَةٍ . أَوْ أَزْيَاءَ غَايَةِ فَهْمٍ يَقُولُونَ : دَعِ هَذَا وَهَاتِ هَذَا « وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا : إِنَّا بُرْءَانٌ غَيْرُ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ... » .

أَوْ مَهْرُجُونَ يَتَوَاسَوْنَ بَيْنَهُمْ بِاقْتِمَالِ ضَجَّةٍ عَالِيَةٍ وَمِصْيَاحٍ مُنْكَرٍ عِنْدَ مَا تَقْرَأُ الْآيَاتِ ، حَتَّى لَا تَسْمَعَ فَتَفْهَمُ فَتَتَرَكُ أَتْرَافِي هَقْلٍ تَقِي وَقَلْبٍ طِيبٍ « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوْأُ فِيهِ لَمَلَكٌ تَغْلِبُونَ » .

لَوْ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ تَرَدَّدُوا فِي تَصْدِيقِ مُحَمَّدٍ حَتَّى يَبْعَثُوا أَمْرَهُ وَيَحْصُوا رِسَالَتَهُ وَزَنُوا - عَلَى مَهْلٍ - مَا لَدَيْهِمْ وَمَا جَاءَ بِهِ ، لَمَا عَلِمَهُمْ عَلَى هَذَا عَاقِلٍ . وَلَكِنْهُمْ نَفَرُوا مِنَ الْإِسْلَامِ نَفَرًا مَذْمُومًا مِنْ سَاحَةِ الْقَضَاءِ بَعْدَ مَا انْكَشَفَتْ جَرِيمَتُهُ وَثَبَّتْ إِدَاتَتُهُ ... وَقَدْ حَزَنَ رَسُولُ اللَّهِ لِهَذَا الْإِعْرَاضِ الْقُرُونِ بِالتَّكْذِيبِ وَالتَّحْدِي . وَمِنْ حَقِّ كُلِّ رَجُلٍ سَدُوقٌ ذِيلٌ أَنْ يَأْسَفَ وَيَأْلَمَ إِذَا أَلْفَى نَفْسَهُ مَكْذُوبًا مَهْجُورًا .

إِلَّا أَنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ فَابَّانٌ لَهُ بِوَاطِنِ أُولَئِكَ الْمَكْذِبِينَ التَّالِيِينَ « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ . فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ » . إِنْ الْمَتَوَّءُ إِذَا اعْتَرَضَ طَرِيقَكَ وَوَقَعَ فِي هَرَضِكَ بِلِسَانٍ حَادٍ ، سَمِعْتَ مِنْ يَقُولُ لَكَ : هَذَا لَا يَقْصِدُ الْمَدِينَةَ عَلَيْكَ وَلَكِنَّهُ يَسْتَجِيبُ لِنَوَازِعِ الْجَنُونَ فِي دَمِهِ . وَكَذَلِكَ أُولَئِكَ الْمُشْرِكُونَ ، إِنْ فُظِّظَتْهُمْ وَإِنْ كَارَهُمْ تَمَشَّحَ مَعَ دَوَاعِي الْجَحُودِ فِي طِبَاعِهِمْ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ انْتِقَاصًا لِرَجُلٍ الَّذِي يَحْدِثُهُمْ أَوْ طَعْنًا فِي خَلْقِهِ « إِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ » .

وَمِنْ تَمَّ فَعَلَى مُحَمَّدٍ أَنْ يَعْضِيَ فِي سَبِيلِ الْبَلَاحِ ، وَأَنْ يَجْتَازَ مَا يَلْقَى أَمَامَهُ مِنْ صَعَابٍ وَهَلْ يُؤْمِنُونَ رِسَالَتَهُ أَنْ يَقْبَلُوا . وَلَيْسَ ثَبَاتُهُمْ لِمَصْلَحَتِهِمْ الْخَاصَةِ فَقَطْ وَتَرْتِيبُهَا عَلَيْهِمْ وَكَفَى . إِنَّ هُوَ لِمَصْلَحَةِ الْأَجْيَالِ الْقَبْلَةِ ؛ إِنَّ الْبَنِيَانَ الشَّامِخَ

التي لا يرتكز على سطح الأرض إنما يرتكز على دعائم غائرة في الثرى . هي التي تحمل قله وترفع عمده . وقد كان أصحاب محمد الأولون — بصلاة يقيهم وروعة استمساكهم — دعائم رسالته وأصول امتدادها من بمد في المشرق والمغرب .

الاضطهاد . . .

قرر المشركون ألا يألوا جهداً في معارضة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه ، والتعرض لهم بألوان النكال والإيلام . ومنذ جهر الرسول بالدعوة إلى الله . وعالن قومه بضلال ما ورثوه عن آباؤهم انفجرت مكة بمشاعر الغضب وظلت عشرة أعوام تمد المسلمين عصاة ثائرين فزكزت الأرض من تحت أقدامهم ، واستباححت في الحرم الآمن دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، وجعلت مقامهم تحملاً للضمير وتوقفاً للويل . . .

وساحبت هذه السخائم المشتعلة حرب من السخيرة والتحقير قصد بها تخذيل المسلمين وتوهين قوام المنوية ، فرى النبي ومحابته بهم هازلة وشتائم سفينة . وتألفت جماعة للاستهزاء بالإسلام ورجاله . على نحو ما تفعل الصحافة المعارضة عندما تنشر عن الخصوم نكتاً لازمة وصوراً مضحكة للحط من مكانتهم لدى الجماهير .

ويهذين اللونين من المداوة وقع المسلمون بين شقي الرحي . فرسولهم ينادي بالجنون « وقالوا : يأبها الذي نزل عليه الذكر ، إنك لمجنون » .

ويوصم بالسحر والكذب « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم . وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب » .

ويشيع ويستقبل بنظرات ملهمة ناقة وعواطف منفعة هائجة « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر » : ويقولون : إنه لمجنون » .

وليس حظ سائر المسلمين بأفضل من هذه المعاملة ، فهم في غدوم ورواحهم محل التندر واللمز « إن الذين أجروا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا اتقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهم . وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون ، وما أرسلا عليهم حافظين » .

وانقلبت هذه الحرب إلى تشكيل وسفك دم بالنسبة إلى المستضعفين من المؤمنين فمن ليست له عصبية تدفع عنه لا يمسه من الهوان والقتل شيء . بل يحبس على الآلام حتى يكفر أو يموت أو يسقط إحياء .

عمار بن ياسر

من هؤلاء عمار بن ياسر ، وهو من السابقين الأولين في الإسلام ، وكان مولى لبنى مخزوم . أسلم هو وأبوه وأمه فكان الشركون يخرجونهم إلى الأبطح إذا حيت الرمثاء فيمذبونهم بحرها . ومرضهم النبي صلى الله عليه وسلم وهم يمدُّون . فقال : صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة فات ياسر في العذاب . وأغلظت امرأته « سُمية » القول لأبي جهل فظننها في قبليها بحرية في يديه فانت . وهي أول شهيد في الإسلام وشددوا العذاب على عمار بالحرق تارة ، ووضع الصخر الأحمر على صدره أخرى ، وبالتفريق أخرى ، وقالوا : لا تترك حتى نسب محمداً أو تقول في اللات والعزى خيراً ففعل ، فتركوه . فأثنى النبي بيكي . فقال ما وراءك ؟ قال : شرٌّ يارسول الله ، كان الأمر كذا وكذا . قال : فكيف تجد قلبك ؟ قال : « أجده مطمئناً بالإيمان . فقال : يا عمار إن عادوا فعد . فأنزله الله تعالى : « لا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » . وقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله .

بلال

ومن هؤلاء بلال بن رباح كان سيده أمية بن خلف إذا حيت الشمس وقت الظهيرة يقلبه على الرمال للتهبة ظهراً لبطن . ويأمر بالصخرة الجسيمة فتلقى على صدره ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتبذل اللات والعزى . فما يزيد بلال عن ترديد : أحد أحد

خباب

ولما اشتدت ضراوة قريش بالاستضعفين ذهب أحدهم — خباب بن الارت — إلى رسول الله يستنجد به . قال خباب شكونا إلى رسول الله وهو متوسد بردة في ثلج السكبة . فقام : ألا ننصر لنا ألا تدعونا ؟ قال : « قد كان من قبلكم يؤخذ رسول سيحفر في الأرض فيجعل فيها . ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجول سائر . ثم يمشي بأهله على الجدران ما دون الحمة وعظمه ما يصد ذلك عن دينه .

والله لَيَكْتُمَنَّ اللهُ تَعَالَى هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَ مَوْتٍ
فَلَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَاقْتَبَ عَلَى غَنَمِهِ . وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَجْلُونَ » .

ماذا عسى بفعل محمد لأولئك البائسين ؟ إنه لا يستطيع أن يبسط حمايته على أحد
منهم لأنه لا يملك من القوة ما يدفع به عن نفسه . وقد كان في صلاته يُرَى عليه — وهو
ساجد — بكرش الجرور أو رحم الشاة المذبوحة . وكانت الأنجاس تلقى أمام بيته .
فلا يملك إلا الصبر .

إن محمد ألم يجمع أحمائه على منضم عاجل أو آجل . إنه أزاح النشاة عن الأعين
فأبصرت الحق القدي حُجِبَتْ عنه دهرًا . ومسح الران عن القلوب فعرفت اليقين القدي
فُطِرَتْ عليه وحرمها الجاهلية منه . إنه وصل البشر بربهم فربطهم بنسبهم المريق
وسببهم الوثيق ، وكانوا قبلًا حيارى محسورين . إنه وازن للناس بين الخلود والقناء
فأثروا الدار الآخرة على الدار الزائلة . وخيّرهم بين أسنام حقيرة وإله عظيم ، فازدروا
الأوثان النحوة وتوجهوا للذي فطر السموات والأرض ...

حسب محمد أن قدم هذا الخير الجزيل . وحسب أحمائه أن ساقته العناية لهم .
فإذا أودوا فليحتسبوا . وإذا حاربهم عبيد الرجس من الأوثان فيلزموا ما عرفوا .
والحرب القاعة بين الكفران والإيمان سينجلي غبارها يوما ما . ثم تكشف
عن شهداء وعن هلكى . وعن مؤمنين قائمين بأمر الله . ومشركين مدحورين بإذن
الله . « وقل للذين لا يؤمنون : أعمالوا على مكاتكم ، إنما عملون . وانظروا إنا منتظرون
والله غيبُ السموات والأرض . وإليه يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ . فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ .
وما رَبُّكَ بغافل عما يعملون » .

وكان رسول الله يث عناصر الثقة في قلوب رجاله . ويفيض عليهم بمض ما أفاضه
الله على فؤاده من أمل رحيب في انتصار الإسلام ، واقتشار مبادئه ، وروال سلطان
الطغاة أمام طلائمه الظفرة في الشارق والنارب . وقد اتخذ المستهزئون من هذه الثقة
مادة لسخريتهم وضحكهم ؛ كان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أحماب النبي

يتنازرون بهم ويقولون : قد جاءكم ملك الأرض الذين سيطلبون قدا على ملككم كسرى
وقيصر . ثم يصفرون ويصفقون . . .



وتواصى المشركون بمد مصادرة الدعوة بهذا الأسلوب أن يمنوا الوافدين إلى مكة
من الاستماع إليها . قال الوليد بن المغيرة لرجال قريش : إن الناس يأتونكم أيام
الحج فيسألونكم عن محمد ، فتختلف فيه أقوالكم . يقول هذا : ساحر . ويقول هذا
كاهن . ويقول هذا : شاعر . ويقول هذا : مجنون . وليس يشبه واحداً مما يقولون .
ولكن أصلح ما قيل فيه : ساحر ، لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته . وقد اقتسم
هؤلاء المتآمرون مداخل مكة أيام الموسم يحفدون الناس من الداعية الخارج على قومه .
ويعتونه بما تواصوا به من سحر مفرق !

ولكن الرسول كان يذهب إلى الحجيج في مجامعهم . ويحدثهم عن الإسلام .
ويطلب منهم النصرة . عن جابر بن عبد الله كان رسول الله يمرض نفسه بالوقوف
فيقول : « ألا رجل يحملني إلى قومه ! فإن قريشا ممنوني أن أبلغ كلام ربّي » .

مفاوضات

ظن المشركون أن بطشهم بالمستضعفين ، ونيلهم من غيرهم سوف يصرف الناس
عن الاستجابة لداعى الله . وظنوا أن وسائل السخرية والهكم التي جنحوا إليها
ستهد قوى المسلمين العنوية فيتوارون خجلاً من دينهم ويعودون كما كانوا إلى دين
آبائهم . غير أن ظنونهم سقطت جميعاً فإن أحداً من المسلمين لم يرتد عن الحق القى
شرفه الله به . بل كان المسلمون يتزايدون ! ولم تقلح طرق الاستهزاء في الصد عن سبيل
الله أو تشويه معالمها . إنها زادت شعور المسلمين بما تزره الوثنية من مرعات وغايز
تستحق الفضيحة والاستئصال . ما تصنع سخرية الجهول بالعالم ؟ « إن تسخروا منا
فإننا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل
عليه عذاب مقيم . . . » .

رأت قريش أن تجرب أسلوباً آخر . تجمع فيه بين الترغيب والترهيب فترسل

إلى محمد تعرض عليه من الدنيا ما يشاء . ولترسل إلى محم القدي يحميه تحذره منبهة هذا التأنيـد . حتى يكلم هو الآخر محمداً أن يسكت فلا يجرّ المتاعب على كافله ووليـه .

أرسلت قريش « عتبة بن ربيعة » — وهو رجل رزين هادي — فذهب إلى رسول الله يقول له : يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم . فاسمع مني أعرض عليك أموراً لملك تقبل بعضها . إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا فلا تقطع أمراً دونك .

وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا . وإن كان هذا القدي يأتيك رشيماً تراه لا تستطيع رده من نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرأ .

فلما فرغ من قوله . تلا رسول الله عليه صدر سورة المجنة « حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً . فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ، فأهل إتنا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما ألهمكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه : وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون . . . » :

حتى وصل إلى قوله تعالى « . . . فإن أعرضوا فقل أنذرتكم ساعةً مثلَ ساعةِ عادٍ وثمود . » .

تخير رسول الله هذه الآيات من الوحي المبارك . ليعرف محدثه حقيقة الرسالة والرسول . إن محمداً يحمل كتاباً من الخالق إلى خلقه يهديهم من ضلال وينقذهم من خيال . وهو قبل غيره مكلف بتصديقه والعمل به والنزول عند أحكامه . فإذا كان الله يطلب من عباده أن يستقيموا إليه ويستغفروه . فحمد ألحج الناس بالاستغفار وألزمهم للاستقامة وما يطلب ملكاً ولا مالا ولا جاهاً ، لقد أمكنه الله من هذا كله فصف عنه ورفع أن يعد يده إليه : وبسط الطاء ممّا سيق إليه من خيرات . فأثقف رادياً من المال في ساعة من نهار . وترك الحياة غير معقب لذريته درهما .

إن عتبة — باسم قريش — يريد أن يترك محمداً الدعوة إلى الله وإقامة المدالة بين الناس !

ماذا نصير إليه الحياة ؟ لو أن صخرة من الأرض انخلت عنها وصعدت إلى دارات
الفلك تطلب من الشمس أو أى كوكب آخر أن يقف مسيره وإشعاعه ويحرم الوجود
من ضيائه وحرارته . ! !

ألا ما أغرب هذا الطلب ! وما أجدر صاحبه أن يرتد إلى مكاته لا يمدوها
ولذلك . بعد ما استمع عتبة إلى آيات القرآن توقف ما كان ناعماً من فكره . استمع
إلى الوعيد يهدد فيحرك ما كان حاجماً من عاطفته « فَإِنْ أَرْضُوا قُلَّ أَنْذَرْتَكُمْ
صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » لقد وضع عتبة يده على جنبه وقام كأن الصواعق
ستلاحقه . وعاد إلى قريش يقترح عليها أن تدع عمداً وشأنه !

أما وفد قريش إلى أبي طالب فقد أخذ يقول : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب
أهلتنا وعاب ديننا وسفه أعلامنا وضلل آبائنا . فلما أن تكفنه عنا وإما أن نخلي
بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه . فقال لهم أبو طالب قولاً جليلاً
وردم رداً رقيقاً فانصرفوا عنه . ومضى رسول الله بما هو عليه ثم استشرى الأمر بينه
وبينهم حتى تباعد الرجال فتضاغنوا وأكثر قريش ذكر رسول الله وتآمروا فيه
فشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا : يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ، وإنا
قد استهينناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم
أهلتنا وآبائنا وتسفيه أعلامنا حتى تكفنه عنا أو ننازله وإياك في ذلك إلى أن يهلك
أحد الفريقين . ثم انصرفوا عنه .

عظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم له ولم تطب نفسه بإسلام رسول الله
وخذلانه . وبث إلى رسول الله فاعلمه ما قالت قريش وقال له : أبق على نفسك
وعلى ، ولا تحملني من الأمر مالا أطيع . فظن رسول الله أنه قد بدا لعمه رأى ،
وأنه خذله وضعف عن نصرته . فقال رسول الله : يا عماء والله لو وضعوا الشمس
في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك
فيه مآركه .

ثم بكى رسول الله وقام . فلما ولى ناداه أبو طالب فأقبل عليه وقال : اذهب .
يا ابن أخى قتل ما أحببت ، فوالله لا أسلك لثى أبداً : وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

وهكذا أخفق الإغراء والإرهاب في ترويق الدعوة . وأدركت قريش أن ما تنصبو إليه بعيد النال . فمادت سيرتها الأولى نصب جلم فضنها على المؤمنين وتبذل آخر ما في وسعها لتفكيك بهم ومحاولة قتلهم عن دينهم . وحزن الرسول الكريم للمآسى التي تقع لأصحابه وهو عاجز عن كفها . فأوعز إلى من قل نصيره ونياحه القام في مكة أن يهجرها إلى الحبشة . وكان ذلك لخمس سنين من مبثته . أو بعد سنتين من جهره بالبلاغ .

المهجرة إلى الحبشة

كان الرحيل إلى الحبشة تسليلاً في الخفاء ، حتى لا تستيقظ قريش للأمر فتعبطه ولم يبدأ كذلك على نطاق واسع ، بل كان الفوج الأول مكوناً من بضعة أسر فيهم رقية ابنة النبي وزوجها عثمان بن عفان ، ونفر آخر من المهاجرين لم يزيدوا جيماً عن ستة عشر . وقد عمو شطر البحر حيث قيصت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرنا بهم إلى الحبشة . فلما خرجت قريش في آثارهم إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين . ولم يمكث أولئك المهاجرون طويلاً حتى ترامت إليهم الأخبار بأن الشركيين هادنوا الإسلام وتركوا أهلهم أحراراً ، وأن الإيذاء القديم انقطع فلا بأس عليهم إن مادوا .

وتركت هذه الإشاعة أثرها في قلوب المؤمنين فقررروا العودة إلى وطنهم . حتى إذا اقتربوا من مكة تبينت لهم الحقيقة المحزنة وعرفوا أن الشركيين أشد ما يكونون خصاماً لله ورسوله والمؤمنين ، وأن عدوانهم لم ينقطع يوماً . . . وزعم بعض المغفلين أنه وقعت هدة حقاً بين الإسلام والوثنية أساسها أن محمداً تقرب إلى الشركيين بمدح أسنامهم والاعتراف بمنزلها [١] وأن هذه الهدنة الراقصة هي التي أعادت المسلمين من الحبشة . . .

وماذا قال محمد في مدح الأسنام ؟ يجيب هؤلاء المغفلون بأنه قال : تلك الفرائق الملا . وإن شفاعتهن لترجي [١] .

وأين وضع هذه الكلمات ؟ . وضعا في سورة النجم مقحمة وسط الآيات التي جاء فيها ذكر هذه الأصنام . فأصبحت هكذا « أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . تلك الفرائق الملا وإن شفاعتهن لترجي . السكم الله ذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى . إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتيمون إلا الظن وما تهوى الأنفس . . . » .

ويكون معنى الكلام على هذا خبروني عن أصنامكم : أهى كذا وكذا ؟ إن شفاعتها مرجوة إنها أسماء لا حقائق لها إنها خرافات ابتدعت وأثبتت . ما لكم جعلتموها إياتا ونسبتموها لله وأنتم تسكرون نسبة الإثبات لكم ؟ تلك قسمة جائزة ١١
فهل هذا كلام يصدر عن قائل فضلا عن أن ينزل به وحى حكيم .

ولكن هذا السخف وجد من يكتبه وينقله
إن محمدا لو كذب على الله باختلاق كلام عليه لقطع عنقه بنص الكتاب الذي جاء به . قال الله جل شأنه « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين » .
يبدو أن كتب التاريخ والتفسير التي تركت للوراقين والزنادقة يشعرونها بالمفتريات ، اتسمت صفحتها قد ذكر هذا القنو القبيح . ومع أن زيفه وفساده لم يخفيا على عالم إلا أنه ما كان يجوز أن يدون مثله . . .

إليك فتحة الخازن في تفسير القرآن [سورة هود] فقرأ ما يلي : لا كثرت الأرواث في سفينة نوح أوحى الله إليه أن اغمز ذنب الفيل ، فغمزه فوقه منه خنزير وخنزيرة ، ومسح على الخنزير فوقه منه الفأر فأقبلوا على الروث فأكلوه . فلما أفسد الفأر في السمينة وجعل يقرضها ويقطع حبالحا ، أوحى الله إليه أن اضرب بين عيني الأسد ، مضرب فخرج من منخره قط وقطة فأقبلا على الفأر فأكلاه . .

أرايت هذا الكلام العارح ؟ أرايت من قبله حديث الفرائق ؟ إن كثيرًا من هذه الخرافات المصنوعة ترصد في كتب شتى عندما . ولا ندرى متى تنظف هذه الكتب المنيئة بها . هـ لا ريب مسؤولية عليها أيام ففلة السليمان وغلبة الساسات
البربرية . . .

و

وخواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب . فلما أخذ صوت الرسول يهدر بها ، ويرعد بئذرها حتى وصل إلى قول الله « . . . وَالْوَقْتُكَ أَهْوَى فَفَشَّاهَا مَا فَشَّى . فَبَأَى آلاءَ رَبِّكَ تَنَادَى . هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأَوَّلِ . أَزِمَّتِ الْأَزْفَةُ . لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ . أَفَنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَتَجَبَّوْنَ ؟ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ؟ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ! »

كانت روعة الحق قد صدعت السناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين ، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين ، مع قيرم من المسلمين .

فلما نُكسوا على رءوسهم . وأحسوا أن جلال الإيمان لوى زمامهم ندموا على ما كان منهم وأحبوا أن يمتدروا عنه بأنهم ما سجدوا مع محمد إلا لأن عمداً عطف على أَسْنَانِهِمْ بكلمة تقدير [كذا] وليس يُستغرب هذا من قوم كانوا يؤلفون النكت للضحك من المسلمين . ولا يستحي أحدهم — وهو ابن خال النبيؐ — أن يقول له ساخراً : أما كلمت اليوم من السماء يا محمد ؟

وليس أسمع من اعتذار المشركين عن سجودهم إلا تصديق هذا الاعتذار . وقد حاول المشركون أن يشرروا فريتهم هذه ليمكروا على الرسول ويشوشوا على الوحي وليوهوا بأن عمداً في بعض أحيائه مال إليهم . وهيئات فإن الحرب التي شنها محمد على الوثنية لم تزدها القبال إلا ضراماً ولم تزده من عبيدها إلى خصاماً .

عاد من هاجر إلى الحبشة لياغت بأن الاضطهاد الواقع على الإسلام أحد وأشد فدخل بعضهم مكة مستجيراً بمن يعرف من كبارها . وتوارى الآخرون .

لكن قريباً أتت إلا أن تنفل بالقادمين وأن تنرى سائر القبائل بمضاعفة الأذى للمسلمين . فلم ير الرسول بداً من أن يشير على أصحابه بالهجرة مرة أخرى إلى الحبشة . وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها ، فقد تيقنت لها قريش وقررت إحباطها . بيد أن المسلمين كانوا أسرع . فخرج منهم في هذا الفوج ثلاثة وعشرون رجلاً وتسع عشرة امرأة . ويسر الله لهم السمر ، فانحاروا إلى نجاشي الحبشة . ووجدوا عنده ما ينفون من أمان وطيب جوار وكرم وعادة .

والظاهر أن هذا النجاشي كان رجلاً راشداً نظيف العقل ، حسن المعرفة لله ،

الأوثان . فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادكم ، واخترناك على من سواك ورجونا أن لا نظلم عندك . . .

قال النجاشي : هل ملك مما جاء به عن الله شيء قال نعم . فقرأ عليه سطرًا من كهمص . فبكى النجاشي وأسأفته وقال النجاشي إن هذا الذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة . انطلقا والله لا أسلمهم إليكأ أبداً — يخاطب عمرو ابن الماص وصاحبه — فخرجا وقال عمرو لعبد الله بن أبي ربيعة : والله لآتيته غداً بما يبئد خضراءم .

فلما كان الند قال للنجاشي : إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيما . فأرسل النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح . فقال جعفر : قول فيه الذي جاءنا به نبينا هو عبد الله ورسوله وروحه — وكلته ألقاها إلى مريم المذراء البتول .

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال : ماعدا عيسى ماقلت قدر هذا العود^(١) . فنخرت بطارقه ا فقال : وإن نخرتم ا وقال للمسلمين : اذهبوا فأنتم آتون ، ما أحب أن لي جبلا من ذهب وأننى آذيت رجلا منكم ا ورد هدية قريش . وقال : ما أخذ الله الرشوة منى حتى آخذها منكم . ولا أطلع الناس فى حتى أطيهم فيه . وأقام المسلمون عنده بخير دار . . .

أخفت حيلة عمرو . واد الوفد إلى مكة يمرر أذيال الخيية . وعرفت قريش أنها لن تشيع ضغيتها على الإسلام وأهله إلا فى حدود سلطانها فزمت أن تشق فيظها ممن يقع تحت أيديها .

إسلام حمزة وعمر

إن الأفق الملبد بالسحب قد يتولد منه برق يضئ . لقد عبرت على المسلمين فى مكة أيام غلاظ اضطرت بيوتا عديدة أن تفر يدينها . وبقى من بقى منهم يكابد

(١) اختلف الصارى قديما فى طبيعة المسيح على مذاهب شتى . وكان هناك مذهب يقوم على اعتباره بهما رسلا ، وليس إلها ولا ندا فه . ولا يزال فى الغرب لليسعى أماس يحتقون هذا 'الدم اللوحى' . ونعتقد أن نجاشى المحبسة على هذا الرأى . وإن كان بطارقة الكنيسة يستكرونها أشد الاستنكار .

العت من شطط المشركين وكيدهم إلا أن عناصر جديدة دخلت في الإسلام جعلت قريشا تروى في أمرها قبل أن تقدم على إساءتها البيئة .

أسلم حمزة بن عبد المطلب . عم النبي وأخوه من الرضاع . وهو رجل أيد جلد قوى الشكيمة . وسبب إسلامه الغضب لما بلغه من تهجم أبي جهل على رسول الله تهجما بذينا . قالت له أمة لعبد الله بن جهمان : يا أبا عمارة لو رأيت مالتى ابن أخيك محمد من أبي الحكم بن هشام ؟ فإنه سبه وأذاه ثم انصرف عنه . ولم يكلمه محمد — وكانت المرأة قد شهدت هذا الحادث في مسكن قريب — فأسرع حمزة محققا لا يلوى على شيء . وصعد إلى أبي جهل وهو في مجلسه من قومه ، ثم ضرب رأسه بالقوس فشجه شجرة منكورة . وقال : أنشتمه وأنا على دينه ؟

وكما يقول البمض : طلبنا العلم للدنيا فأبى الله إلا أن يكون للدين ! كان إسلام حمزة أول الأمر أنفة رجل أبي أن يهان مولاه . ثم شرح الله صدره فاستمسك بالمرءة الوثقى . واعتز به المسلمون أيما اعتزاز . . .

أما عمر بن الخطاب فكان من أول الفتانين المستهزين بالإسلام ؟ وكان معروفا بمحبة الطيم وقوة الشكيمة وطالما لقي المسلمون منه ألوان الأذى .

روت زوجة عامر بن ربيعة قالت : إننا لرحل إلى أرض الحبشة ، وقد ذهب عامر لبمض حاجته ، إذ أقبل عمر — وهو على شركه — حتى وقف على ، وكنا نلقى منه البلاء . فقال : أنتطلقون يا أم عبد الله ؟ قالت : نعم والله لنخرجن في أرض الله فقد آذيتونا وقهرتونا ، حتى يجعل الله لنا فرجا . قالت : فقال عمر : صحبكم الله ، ورأيت له رقة وحزنا . . . ! قالت : فلما عاد عامر أخبرته وقلت له : لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا . . .

قال : أطمعت في إسلامه ؟ قلت : نعم . قال : لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب ! ! ! — لما كان يراه الرجل من شدته وغلظته على المسلمين —

سكن قلب المرأة كان أصدق من رأى الرجل . فإن غلظة عمر كانت قشرة حسنة تكبر وراءها يتابع من الرقة والعطف والسباحة .

رائد زهر كانت تتعارض فيه مشاعر متناقضة . احترامه للتقاليد التي منعت ربه ، واحترامه له حذات السكر والهمو التي ألغتها

ثم إجماعه بصلابة المسلمين واحتمالهم البلاء في سبيل عقيدتهم ، ثم الشكوك التي تساوره — كأي قائل — في أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أجل وأزكى من غيره . ولهذا ما إن يشور حتى ينجور . ذهب ليقول عمداً ثم نثته عن عزمه كلمة ! ولما علم بإسلام أخته وزوجها اقتحم عليهما البيت ساخباً متوعداً . وضرب أخته فضجها وأعادته منظر الدم المراق إلى صوابه فرجعت نواحي البر والخير في نفسه ، وتناول ورقة كتبت فيها بعض الآيات وتلاها . ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . . ! واستكان عمر فالحق فشى إلى رسول الله يملن إسلامه . .

فلما خلعت نفسه من شوائبها وتمحضت للإسلام كان مدداً عظيماً لجند الله فازداد المسلمون به منعة . ووقت في نفوس الكافرين منه حسرة . ورأت قريش أن أمر الإسلام ينمو ويملو . وأن وسائلها الأولى في محاربتة لم تمنع انتشاره أو تنفر أنصاره . فأعادت النظر في موقفها كله لترسم خطة جديدة أسمى وأحكم ، وأدق وأشمل . . .

المقاطعة العامة

وتغضض حقد الشركين عن عقد معاهدة تعتبر المسلمين ومن يرضى بدينهم أو يعطف عليهم أو يحمي أحداً منهم حزياً واحداً دون سائر الناس . ثم اتفقوا ألا يبيعوم أو يبتاعوا منهم شيئاً ، وألا يزوجوم أو يتزوجوا منهم . وكتبوا ذلك في صحيفة ، وعلقوها في جوف الكعبة توكيداً لنصوصها .

ولاشك أن المتطرفين من ذوى النزق والحدة نجحوا في فرض رأيهم وإشباع ضغنتهم . فاضطر الرسول ومن معه إلى الاحتباس في شعب بني هاشم . وانحاز إليهم بنو المطلب . كافروهم ومؤمنهم على سواء . ما عدا أبألهب فقد آزر قريشاً في خصومتها لقومه .

وضيق الحصار على المسلمين ، واقطع عنهم الدون ، وقل الغذاء حتى بلغ بهم الجهد أقصاه . وسمع بكاء أطفالهم من وراء الشب ، وعضتهم الأزمت المصيبة حتى رنى لحالم الخصوم . ومع اكفهرار الجو في وجوههم فقد تحملوا في ذات الله الويلات . ولم تقتر حدة الوثنيين في الحملة على الإسلام ورجاله وفي تأليب العرب عليهم من كل فج .

قال السهيلي : كانت الصحابة إذا قدمت غير إلى مكة يأتي أحدهم السوق ليشترى شيئاً من الطعام قوتاً ليلته فيقوم أبو لهب فيقول : يا مشر التجار ظالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا ممكهم شيئاً . وقد علمت مالي ووفاء ذمتي فأنا ضامن أن لا خسار عليكم فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضماً حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع . وليس في يده شيء يعلمهم به . وينفذ التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس . حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعاً وعرياً . وروى يونس عن سعد بن أبي وقاص قال : خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت قعقة تحت البول فإذا قطعة من جلد بئر يابسة فأخذتها وغسلتها ثم أحرقتها ورضختها وسفقتها بالماء قهوت بها ثلاثاً . فأنظر كيف انتهى الحصار بالمسلمين . وكيف أضمام الحرمان والأجأم أن يعلموا ما لا مساغ له . وقد أحزنت تلك الآلام بعض ذوي الرحمة من قريش . فكان أحدهم يوقر البئر زاداً ثم يضربه في اتجاه الشعب ويترك زمامه ليصل إلى المحصورين ، فيخفف شيئاً مما بهم من إعياء وفاقة . . .

كم بقيت هذه الضائقة ؟ ثلاث سنين كالحلة . كان رباط الإيمان وحده هو الذي يحسك القلوب ويصبر على اللأواء .

ومن الطبيعي أن يستعجل المسلمون الخروج من هذه المآرق ، لطالما وعدوا بالنصر والتكفين . فما وجدوا إلا الرُّوع والسَّغب وهام أولاء محرجون في أرض تنكرت لهم واقشعرت تحت أقدامهم . ولا ريب أن قلوبهم امتلأت غيظاً على أولئك المشركين الذين سخروا من جميع القيم الفاضلة ، وكفروا باتتصارها في الدنيا كفرهم بحجى اليوم الآخر . ولو لم يطلب أولئك المذبذبون النصر لينتقم من بأسائهم لطلبوه كي يخزوا به المكذبين ويؤدبوا المتوقحين ! بيد أن الوحي كان ينزل فيطالب المسلمين باليقين والثبات دون ارتقاب لهذه النتائج المتوقعة ؛ يجب أن يجمدوا على حقائق الإيمان التي عرفوها وأن يستمدوا من سموها وصدقها ما يراغون به الأيام والأحداث « وإما زينك بعض الذي ندم أو نتوفيتك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يعملون . ولكل أمة رسولٌ فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » .

وكان المشركون أيضاً يتمجلون خاتمة الصراع بينهم وبين أولئك المسلمين ،

يتمحلونها لأنهم يضحكون منها فما يتقون يمت أو جزاء ، ولا يظنون أبداً أن يوماً قريباً أو بعيداً سينشق فجره ، فإذا مكث خالية من الأستام ، وإذا أذان التوحيد يرن في أرجائها ، وإذا المصورون في الشعب هم أصحاب الأمر والنهي ، والسادة الحاكون بأمرهم اليوم أسرى يرجون العفو !!! وكان يقينهم من أن اليوم والفد لهم يزين لهم الاستهزاء بهذا الوعد والتعريض به « ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل : لا أملك لنفسي ضرراً ولا نقماً إلا ما شاء الله . لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . قل . أرايتم إن أنا كم عذابه بيئاتاً أو نهراً . ماذا يستعمل منه المجرمون . أنتم إذا ما وقع آمنتم به ؟ الآن وقد كنتم به تستمعلون ؟ » وكان الدخول في الإسلام والبقاء عليه أبعد ما يكون عن التهمة . ربما اعتنق فريق من الناس مبدأ ما — عن صدق واحتجاج — وليس يمنعهم ذلك من التماس النفع به والتقدم من ورائه . أما أولئك السابقون الأولون فقد علموا أن فقدان للنافع وهلاك المصالح الخاصة أول ما يلحقون من تضيعة في سبيل عقيدتهم .

ولا أحسب شيئاً يرى النفوس على التجرد كهذا التفاني في الحق ، للحق ذاته ثم إن القرآن كان صارماً في قبح التجارة بالمقائد والإضرار على حسابها والعلو في الأرض باسمها « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون .

وقد أفاد الصحابة من ذلك عفة وبقاء وإخلاصاً لا يعرف لها في التاريخ نظير فلما ثمرت تيجان الملوك بأقدامهم ، واستسلمت الأفطار المكتظة بالخير لجيوشهم كانت دوافع العقيدة وأهدافها هي التي تشغل بالهم قبل الفتح وبمده . فلم يكتروا ذهب أو فضة ... إنما عناهم — أولاً وآخر — إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وفي أيام الشعب كان المسلمون يلقون غيرهم في موسم الحج . ولم تشغلهم آلامهم عن تبليغ الدعوة وعرضها على كل وافد . فإن الاضطهاد لا يقتل الدعوات بل يزيد جذورها عمقاً وفروعها امتداداً . وقد كسب الإسلام أنصاراً كثيراً في هذه المرحلة

وكسب إلى جانب ذلك أن الشركين قد بدأوا يقسمون على أنفسهم ويتساءلون عن صواب ما فعلوا . وشرع فريق منهم يعمل على إبطال هذه المقاطعة ونقض الصحيفة التي تضمنتها . وأول من أبل في ذلك بلاء حسنا هشام بن عمرو . فقد ساءته حال المسلمين ورأى ما هم فيه من عناء ، فثنى إلى زهير بن أبي أمية وكان شديد النفرة على النبي والمسلمين وكانت أمه حاتكة بنت عبد المطلب . فقال : يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت ؟

أما إنى أحلف بالله : لو كانوا أخوال أبي الحكم - يعنى أباجهل - ثم دعوته إلى مثل مادماك إليه ما أجابك أبدا ! فقال : فإذا أصنع وإنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معي رجل آخر لنقضتها ! فقال قد وجدت رجلا . قال : ومن هو ؟ . قال : أنا قال زهير : أيننا ثالثا . فذهب إلى المطعم بن عدي فقال له : أرضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد ذلك موافق فيه ؟ أما والله لئن أمكنتموم من هذه لتجدينهم إليها منكم أسرع !! قال ما أصنع ! إنما أنا رجل واحد . قال : قد وجدت ثانيا . قال : من هو ؟ قال أنا . قال أيننا ثالثا . قال : قد فلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية قال : أيننا رابعا . فذهب إلى أبي البختري بن هشام وقال له نحوا بما قال للمطعم . قال : وهل من أحد يمين على هذا ؟ قال : نعم . قال : من هو ؟ قال : أنا وزهير والمطعم . قال : أيننا خامسا . فذهب إلى زمعة بن الأسود ، فكلمه وذكر له قرابته ، قال : وهل على الأمر معين ؟ قال : نعم وسعى له القوم .

فاتمدوا « خطم الحجون » الذي بأعلى مكة ، فاجتمعوا هناك ونهضوا على القيام في نقض الصحيفة . فقال زهير : أنا أبذوكم . فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير فطاف بالبيت . ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة أنا كل الطعام وتلبس الثياب وبنو هاشم هلكني لا يتتاعون ولا يتتاع منهم ؟ والله لأقعد حتى تشق هذه الصحيفة المقاطعة الظالة !! قال أبو جهل : كذبت والله لا تشق . قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، مارضينا بها حين كتبت !! قال أبو البختري : صدق زمعة لا ترضى ما كتب فيها . قال المطعم بن عدي : صدقنا وكذب من قال غير ذلك !! وقال هشام ابن عمرو : نموا من هذا . فقال أبو جهل : هذا أمر قضى لبليل ! فقام المطعم إلى الصحيفة ليشتوا . فوجدت الأرض قد أكترا إلا كلمة باسمك اللهم .

وكتبت . لعرب فتتبع ما كتبها .

عام الحزن

انطلق المسلمون من الشعب يستأنفون نشاطهم القديم بمد ماقطع الإسلام في مكة قرابة عشرة أعوام مليئة بالأحداث الضخمة . وما إن تنفس المسلمون من الشدة التي لاقوها حتى أصيب الرسول بوفاة زوجه خديجة ثم بوفاة عمه أبي طالب .
أى أنه نكب في حياته الخاصة والعامة معاً . . .

إن خديجة من نعم الله الجليلة على محمد . فقد آزرته في أخرج الأوقات وأمانته على إبلاغ رسالته : وشاركته منارم الجهاد المر . وواسته بنفسها ومالها . وإنك تحصي قدر هذه النعمة عندما تعلم أن من زوجات الأنبياء من خُنَّ الرسالة وكفروا برجالهن وكنَّ مع المشركين من قومهن وآلهن حرباً على الله ورسوله « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً . وقيل : ادخلا النار مع الفاضلين » .

أما خديجة فهي صديقة النساء . حَثَّتْ على رجلها ساعة قَلْبَيَّ ، وكانت نسمة سلام وبرِّ رطبت جبينه التمتعُّ من آثار الوحي . وبقيت ربع قرن معه ، تحترم قبل الرسالة تأمله وعزلته وشماله ، وتحمل بمد الرسالة كيد المحصوم وآلام المحصار ومتاهب الدعوة ، وماتت والرسول في المحسين من عمره ، وهي تجاوز الخامسة والستين ، وقد أخلص لذكرها طول حياته .

أما أبو طالب فإن المرء يحار في أمره ! وبقدر ما ينحني إعجاباً لنبه في كفالة محمد ثم لبطولته في الدفاع عنه حين نُبئُ وحين صدع بأمره وأنذر عشيرته الأقربين . إنه بقدر ذلك يستغرب المصير الذي ختم حياته . وجعله يصرح قبل موته أنه على ملة الأشياخ من أجداده .

وقد حزن رسول الله لموت أبي طالب حزناً شديداً . ألم يكن الحصن الذي تحتمى به الدعوة من هجمات الكبراء والسفهاء ؟ وهاتذ وَلَّى الرجل الذي سخر جابه وسلطاناه في الذود عن ابن أخيه وكفَّ الموائد أن تناله . إن قريشا أصبحت لا تهاب في محمد أحداً بعده . .

روى أن رسول الله قال : ما نالت من قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب وذلك أنهم تجرعوا عليه حتى نثر بعضهم التراب على رأسه .

وعن ابن مسعود قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي عند البيت وأبو جهل وأصحابه جالوس وقد نحرمت جزور بالأمس . فقال أبو جهل : أيتكم يقوم إلى سلا جزور بنى فلان فيضمه بين كتفي محمد إذا سجد . فابيض أشقى القوم فأخذه . فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه . فاستضحكوا . وجعل بعضهم يعيل على بعض . وأنا قائم أنظر ، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهره . والنبي ساجد ما يرفع رأسه . حتى يطلق إنسان فأخبر فاطمة . فجاءت وهي جارية فطرحته عنه . ثم أقبلت عليهم تشتتهم .

فلما قضى رسول الله ﷺ سلاته رفع صوته ثم دعا عليهم . وكان إذا دعا دعا ثلاث مرات وإذا سأل سأل ثلاثاً ثم قال : « اللهم عليك بقریش » ثلاثاً فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته . ثم قال : اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعتبة بن أبي معيط . وذكر السابغ ولم أحفظه .

فوالدی بمثل عمداً بالحق . لقد رأيت الذين می صرعی یوم بدر ، ثم سجدوا إلى القلب قلب بدر ۶ .

لقد مضت مكة في طريق الكفر حتى أوغلت فيه وبلنت نهايته هي الآن تستسرى' تلوّث الساجدين بالأفكار . وتمايل ضحكا من منظر الأنجاس وهي تسيل على كفتي المصلي . لم يبق في هذه التلويح مكان لذرة من الخير .

والبالت في المجتمع العربي تعيش في كنف أبيها وتفخر بقوة وتأنس بمحابهة . فما
يجزى قلب الرجل أن يرى نفسه في وضع تدفع منه ابنته . وتشعر بالمجز وقله الناصر
و... في ذات الله مانى . إلا أنه أخذ يفكر في التوجه
... أحسن قبولاً وأقرب استجابة ، فاستجاب
... نصرتها ...

في الطائف

ذهب رسول الله إلى الطائف حيث تعطلت قيف . وهي تبعد من مكة نحو الخمسين ميلاً سارها محمد على قدمه جبهة وذوياً . فلما انتهى إليها قصد إلى نفر من رجالها الذين ينتهي إليهم أمراً ثم كلمهم في الإسلام ودعاهم إلى الله . فردوه جميعاً رداً منكراً وأعطوا له الجواب . ومكث عشرة أيام يتردد على منازلهم دون جدوى . .

فلما يئس الرسول من غيرهم قال لهم : إذا أبيتم فاكتموا على ذلك — كراهية أن يبلغ أهل مكة فتزداد عداوتهم وشتمهم — لكن القوم كانوا أخس مما ينتظر . قالوا له : اخرج من بلدنا وحرشوا عليه الصبيان والرامع فوقفوا له صفيين يرمونه بالحجارة . وزيد بن حارثة يحاول عبثاً الدقاع عنه حتى شجَّ في ذلك رأسه . وأصيب الرسول في أقدامه فسات منها النداء واضطره الطارئون أن يلجأ إلى بستان لبتة وشيبة ابني ربيعة حيث جلس في ظل كرمة يلمس الراحة والأمن . وكان أصحاب البستان فيه فصرفوا الأوياش عنه . واستوحش الرسول لهذا الحاضر المرير ، وثابت إلى نفسه ذكريات الأيام التي عاهاها مع أهل مكة ، إنه يمرر وراء سلسلة ثقيلة من المكاسي المتلاحقة فهتف يقول :

اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ...
أنت أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي .

إلى من تسكني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمي ؟؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي .
أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علي غضبك ، أو أن ينزل بي سخطك . لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك ..

وتحركت طائفة القرابة في قلوب ابني ربيعة فدفعوا غلاماً لها نصرانياً يدعى « عداساً » وقالوا له : خذ قطفاً من هذا الثوب واذهب به إلى هذا الرجل . فلما وضعه بين يدي رسول الله مد يده إليه قائلاً : باسم الله . ثم أكل .
فقال عداس : إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ! فقال له النبي : من أي

البلاد أنت ؟ قال : أنا نصراني من « نينوى » . فقال رسول الله : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال له : وما يدريك ما يونس ؟ قال رسول الله : ذلك أخي ، كان نبياً وأنا نبي . فأكب عداس على يدي رسول الله ورجليه يقبلهما .

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك ! فلما جاء عداس قال له : ويحك ما هذا ! قال : ما في الأرض خير من هذا الرجل . فحاول الرجلان توهين أمر محمد وتسيك الرجل بدينه القديم . كأنما عزّ عليهما أن يخرج محمد من الطائف بأي كسب .



وقفل الرسول عائداً إلى مكة ، إلى البلد الذي لفظ خيرة أهله فهاجر بعضهم إلى الحبشة . وأكره الباقي على معاناة العذاب الواسع أو الفرار إلى شَمَف الجبال . وقال زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ فقال الرسول : يا زيد إن الله جاهر لا ترى فرجا .

ولا بد أن أخبار ثقيف قد سبقت إلى قريش . ومن ثم رأى رسول الله ألا يدخل مكة حتى يستوثق لنفسه ودعوته . فبعث إلى المطعم بن عدى يعرض عليه أن يُخبره حتى يُبلّغ رسالة ربه ! فقبل المطعم . واستنفض أبناءه فحملوا أسلحتهم ووقفوا عند أركان البيت الحرام . وتسمّ المطعم ناقته ثم نادى يا مشر قريش قد أجرت عمدا . فلا يهجه أحدٌ منكم ! فلما انتهى رسول الله إلى الكعبة صلى ركعتين ثم انصرف إلى بيته . ومطعم وأهله يحرسونه بأسلحتهم ...

وقيل : إن أبا جهل سأل مطعماً : أبحير أم متابع - مسلم - ؟ قال : بل بحير قال : قد أجرنا من أجرت ... !

وحفظ رسول الله للمطعم هذا الصنيع . فقال يوم أسرى بدر : لو كان المطعم حياً لتركته هؤلاء الننتى .

كان المطعم - كآبي طالب - على دين أجداده ، وكان كذلك مثله في المروءة و نجدة . وقد أُرِيدَ أبوجهل أن يهكم بنبي محتاج إلى جوارا وكأنه يتساءل : ألم لم تنزرك ركية من انزلكة لحظه ؟ ولذلك قال لما رآه : هذا نبيكم يا بني عبد مناف ؟

فرد عليه حبة بن ربيعة : وما يُنكر أن يكون منا نبي * وملاك ؟ فلما أخبر رسول الله
بسؤال أبي جهل وردَّ حبة قال :

أما أنت يا حبة فما حيت لله ، وإنما حيت لنفسك - وذلك أنه قالها عصبية
لا إيماناً -

وأما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتي عليك غير بسيد حتى تضعك قليلاً
وتبكي كثيراً .

وأما أنتم يا معشر قريش فوالله لا يأتي عليكم غير كثير حتى تدخلوا فيها تكفرون .
وفي هذا التطبيق ما يدل على ثقة الرسول من المستقبل بهما اكتنفته
في الحاضر من الآلام .

ماد الرسول إلى مكة ليستأنف خطته الأولى في عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله .
وبينا هو ماضٍ في جهاده إذ وقعت له قصة الإسراء والمعراج .

الإسراء والمعراج

يقصد بالإسراء الرحلة العجبية التي بدأت من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد
الأقصى بالقدس . ويقصد بالمعراج ما أعقب هذه الرحلة من ارتفاع في طباق السموات
حتى الوصول إلى مستوى تنقطع عنده علوم الخلائق ولا يعرف كنهه أحد إلا الله ،
ثم الأوبة بعد ذلك إلى المسجد الحرام بمكة . وقد أشار القرآن الكريم إلى كلتا
الرحلتين في سورتين مختلفتين . ذكر قصة الإسراء وحكمته بقوله :

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِمَبْنًى لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى
الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .
وذكر قصة المعراج وعمرته بقوله :

« وَلَقَدْ رَآهُ - يعني جبريل - نَزَّلَهُ أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَها
جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَنْفُثُ السُّودَ مَا يَنْفُثُ . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَى مِنْ
آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » .

تتميل الإمراء - كما نصت الآية - أن الله يريد أن يُرى عبده بمض آياته .
ثم أوضحت آيات المراج أن الرسول شهد بالفعل بمض هذه الآيات الكبرى .
وقد اختلف العلماء من قديم : أكان هذا الشرى الخارق بالروح وحده .
أم بالروح والجسد جميعاً ؟ والجمهور على القول الأخير .
ولذلك تور هيكل رأى غريب . فقد اعتبره استجماعاً ذهنياً ونفسياً لوحدة
الوجود من الأزل إلى الأبد ، في فترة من فترات التألق النفساني الغد ، الذي اختص
به بشر نقي جليل مثل محمد . وفي إبان هذا التألق الذي استعمل به على كل شيء -
استعرض حقائق الدين والدنيا ، وشاهد سور الثواب والعقاب الخ .
غالباً حق .. وهو عنده روي لامادي . ولكنه في اليقظة لاقى المنام .
فليس رؤيا صادقة كما يرى البعض . بل هو حقيقة واقعة على النحو الذي سوره ،
ثم قال فيه بديئذ : « وليس يستطيع هذا السمو إلا قوة فوق ماتعرف الطبائع
الإنسانية » .

والحق أن الحدود بين القوى الروحية والقوى المادية أخذت تضيع وتزول
وأن ما يراه الناس ميسوراً في عالم الروح ليس بمستوعب في عالم المادة . وأحسب
أنه بعد ما مزق العلم من أستار عن أسرار الوجود فإن أمر المادة أضحت كأم الروح
لا يعرف مداه إلا قيوم السموات والأرض .
وإن الإنسان ليقف مشدوها عندما يعلم أن القدرة تمثل في داخلها نظام المجموعة
الشمسية الدوارة في الفلك . وأنها - وهي هباءة تافهة - تسكن فيها حرارة
هائلة ، عندما أطلقت أحرقت الأخضر واليابس ..
إن الرسول أُسرى به وعُرج . كيف ؟ هل ركب آلة تسير بأقصى من سرعة
الصوت كما اخترع الناس أخيراً ؟

لقد امتلأ البراق - وهو كائن يضع خطوه عند أقصى طرفه - كأنه يمشي
بسرعة الضوء . وكلة براق تسير بأصل اشتقاقها إلى البرق ، أي أن قوة الكهرباء
سخرت في هذه الرحلة .

لكن لجسم في سائه المتادة يتعذر عليه التنقل في الآفاق بسرعة البرق
لخاطف ، لا بد من إعداد خاص محض أجزته ومسامه لهذا السفر البعيد . وأحسب

أن ما روى عن 'شق الصدر، وغسل القلب وحشوه'، إنما هو رمز هذا الإعداد المحتوم... وقصة الإسراء والمراج مشحونة بهذه الرموز ذات الدلالة التي تدق على السنج.

إن الإسراء والمراج وقما للرسول بشخصه. في طور بلغ الروح فيه قمة الإشراف وخفت فيه كثافة الجسد حتى تفصى من أغلب القوانين التي تحكمه.

واستكناء حقيقة هذه الرحلة، وتتبع مراحلها بالوصف الدقيق، مرتبط بإدراك العقل الإنساني لحقيقة المادة والروح، وما أودع الله فيهما من قوى وخصائص! ولذلك سنتجاوز هذا البحث إلى ما هو أيسر وأجدى. أي إلى تسجيل العالم المتصلة بالإسلام باعتباره رسالة عامة وتشاريع عديدة. وقصة الإسراء والمراج تهمنا من هذه الناحية.

ألم تر أن علم النفس لم يستبهر وينطلق إلا يوم تحرر من البحث في الروح والتخبط في مدلولها؟؟.



لماذا كانت الرحلة إلى بيت المقدس ولم تبدأ من السجدة الحرام إلى سدة النهى مباشرة؟

إن هذا يرجع بنا إلى تاريخ قديم. فقد ظلت النبوات دهوراً طوالاً وهي وقف على بني إسرائيل. وظل بيت المقدس مهبط الوحي، ومشرق أواره على الأرض، وقعبة الوطن المحبب إلى شعب الله المختار. فلما أهدر اليهود كرامة الوحي وأسقطوا أحكام السماء حلت بهم لعنة الله وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد! ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد انتقالاً بالقيادة الروحية في العالم من أمة إلى أمة ومن بلد إلى بلد ومن ديرة إسرائيل إلى ديرة إسماعيل.

وقد كان غضب اليهود مشتتاً لهذا التحول مما دعاهم إلى المسارعة بإسكاره «بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أرسل الله نبياً أن نرسل الله من فضله على من يشاء من عباده. فبادوا بنصبي على غضبي».

ولكن إرادة الله مضت. وحملت الأمة الجديدة رسالتها. وورث النبي العربي من إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب. وهم يكافح لشركها وجمع الناس عليها.

فكان من وصل الحاضر بالماضي وإدماج الكل في حقيقة واحدة ، أن يعتبر المسجد الأقصى ثالث الحرمين في الإسلام ، وأن ينتقل إليه الرسول في إسرائه . فيكون هذا الانتقال احتراماً للإيمان الذي درج قديماً في رحابه . . . :

ثم يجمع الله المرسلين السابقين من حملة الهداية في هذه الأرض وما حولها ليستقبلوا صاحب الرسالة الخاتمة ، إن النبوات يصدق بعضها بعضاً ، ويعهد السابق منها للأحق وقد أخذ الله الميثاق على أنبياء بني إسرائيل بذلك .

« وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ : أَلَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ؟ قَالُوا : أَلَقْرَرْنَا . قَالَ : فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » :

وفي السنة المسيحية أن الرسول صلى بإخوانه الأنبياء ركعتين في المسجد الأقصى . فكانت هذه الإمامة إقراراً مبيناً بأن الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى خلقه أخذت تمامها على يد محمد بعد أن وطأ لها المباد الصالحون من رسل الله الأولين . والكشف عن منزلة محمد ودينه ليس مدحاً يساق في حفل تكريم . بل هو بيان حقيقة مقررة في عالم الهداية منذ تولت السماء إرشاد الأرض ، ولكنه جاء في إبانته المناسب .

فإن جهاد الدعوة الذي حمله محمد على كواوله عرصة لعواصف تاتية من البغضاء والافتراء . ومزق شمل أتباعه فما ذاقوا مذآمنتوا به راحة الركون إلى الأهل والمال . وكان آخر العهد بمشاق الدعوة طرد هفيف له ثم دخوله البلاد الحرام في جوار مشرك . إن هوانه على الناس منذ دحاهم إلى الله جعله يجأر إلى رب الناس شاكياً راجياً . . . فن تظلمين الله له ، ومن نعمائه عليه أن يهيئ له هذه الرحلة السبوية لتمس قواده المنى يبرد الراحة . وليشعر أنه بعين الله مذاقاً يوحده ويبعده ويعلم البشر توحيداً وعبادته . . .

كان يقول : « إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي » قاليلة علم أن حظه من رضوان الله جزيل وأن مكنته — بين المصطفين الأخيار — موطدة مقدمة .

إن الإسماء والمراج يهين تريباً من منتصف فترة الرسالة التي مكثت ثلاثة وعشرين عاماً ، وبذلك كانا علاجاً مسح متاعب الماضي ووضع بذور النجاح للمستقبل .

إن رؤية طرف من آيات الله الكبرى في ملكوت السموات والأرض له أثره الحاسم في توهين كيد الكافرين وتصغير جوعهم ومعرفة عقابهم . وقد عرف محمد في هذه الرحلة أن رسالته ستنتاح في الأرض وتتوطن الأودية الخصبة في النيل والفرات وتنتزع هذه البقاع من محوسية الفرس وتثليث الروم .

بل إن أهل هذه الأودية سيكونون حلة الإسلام جيلا في أعقاب جيل . وهذا معنى رؤية النيل والفرات في الجنة وليس معناه أن مياه النهرين تنبع من الجنة كما يظن السذج والبلهاء .

تقد روى الترمذى مثلا أن رسول الله قال : « إذا أُعْطِيَ أحدكم الریحان فلا يردّه فإنه خرج من الجنة » . فهل ذلك يدل على أن الریحان من الجنة ونحن نقطف أزهاره من الحقول والحداثق ؟

حكمة الإسراء

ذلك . والله عز وجل يتيح لرسله فرص الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته حتى يملأ قلوبهم ثقة فيه واستناداً إليه إذ يواجهون قوى الكفار الثألة ويهاجمون سلطانهم القائم .

قبل أن يرسل الله موسى شاء أن يُريّه عجائب قدرته فأمره أن يُلقى عصاه قال : « ألقها يا موسى ، فألقاها ، فإذا هي حيةٌ تسمى ، قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى . واضم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آيةٌ أخرى . لنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى » .

فلما ملأ قلبه إعجاباً بمشاهد هذه الآيات الكبرى قال له بعد : « اذهب إلى فرعون إنه طغى . . . » .

وقد علمت أن ثمرة الإسراء والمراج إطلاع الله نبيه على هذه الآيات الكبرى . وربما تقول : إن ذلك حدث بعد الإرسال إليه بقريب من اثني عشر عاماً على عكس ما وقع لموسى ، وهذا حق . ومروء ما أسلفنا بيانه من أن الحواري في سيرة الرسلين الأولين قصيد بها قهر الأم على الاقتناع بصدق النبوة فهي تدعيم لجانبهم أمام اتهام الخصوم لهم بالادعاء . وسيرة محمد فوق هذا المستوى فقد تكفل القرآن الكريم

إيقاع أولى النهى من أول يوم ، وجاءت الخوارق في طريق الرسول ضرباً من التكريم لشخصه والإيمان له غير ممكنة ولا معطلة للمنهج العقلي العادى اتقى اشترعه القرآن^(١) .

وقد اقترح الشتركون على النبي أن يرقى في السماء فجاء الجواب من عند الله « قل : سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟ فلما رقى في السماء بمد لم يُدكر قط ، أن ذلك ردٌّ على التحدى أو إجابة على الاقتراح السابق . بل كان الأمر كما قلنا محض تكريم ومزيد إعلام ، من الله لبيده . .

إكمال البناء

وفي قصة الإسراء والمراج تلمح أواصر القربى بين الأنبياء كافة . وهذا للمنى من أصول الإسلام .

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحدٍ من رسله »

والتحيات التبادلة بين النبي وإخوته السابقين توثق هذه الآصرة . ففي كل سماء أحلَّ الله فيها أحد رسله كان النبي يستقبل فيها بهذه الكلمة : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ! .

والخلاف بين الأنبياء وهم صنفته الأم الجائرة عن السبيل السوى . أو بالأحرى صنعه الكهان والتاجرون بالآديان .

أما محمد فقد أظهر أنه مرسل لتكملة البناء الذي تعهده من سبقوه ، ومنع الزلازل من تصديده . قال رسول الله « مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه . فجعل الناس يطوفون به ويمعجبون له ! ويزولون : هلا وصارت هذه اللبنة ؟ فأما تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

والله اعلم بالصواب .

ما ابتدع أخيراً من نحر احتضنها الاستعمار الغربيّ وكثّر الأنصار حولها ليشدهم الخناق على مقاتل الشرق ويهوق المسلمين الأحرار عن حلم قيوده وإقحاذ عبيده ، وذلك كالبهاية والقاديانية . . .

ومن الممكن لو خلعت النيات ونشد الحق أن توضع أسس مادية لوحدة دينية تقوم على احترام البادئ المشتركة . وإبعاد الهوى عن استغلال الفروق الأخرى إلى أن تزول على الزمن أو تنكسر حدتها .

والإسلام الذي يعدّ تعاليمه امتداد النبوات الأولى وَلَيِّنَةً مضافاً إلى بنائها المتبدد أول من يرحب بهذا الاتجاه ويذكره .

سلامة الفطرة

وفي ليلة الإسراء والمراج تأكدت الصفة الأولى لهذا الدين . وهي أنه دين الفطرة في الحديث « . . . ثم أتيتُ بإناء من خمر وإناء من لبن . فأخذت اللبن فقال : هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك . . . »

إن سلامة الفطرة لب الإسلام . ويستحيل أن تفتح أبواب السماء لرجل فاسد السريرة عليل القلب . إن الفطرة الفاسدة كالعين الحجة لا تسيل إلا قدراً وسواداً . وربما أخفى هذا السواد الكره وراء ألوان زاهية ومظاهر مزوّقة : بيد أن ما ينطلي على الناس لا يمتدح به رب الناس . . . ! !

ويوم تكون المبادات نفسها ستارا لفطرة فاسدة فإن هذه المبادات الخبيثة تعتبر أنزل رتبة من المعاصي الفاجرة . . . ! !

والناس كلما تقدمت بهم الحضارات أمعنوا في التكلف والمصانعة ، وقيّدوا أنفسهم بمبادات وتقاليد قاسية . وأكثر هذه التكلفات حجب تعظم وهي الفطرة^(١) وتمسك تقاوتها وطلاقتها . وليس أبغض إلى الله من أن تقتري هذه القيود بإسم الدين ، وأن تُترك النفوس في سجونها مغلولة كثيبة . . .

(١) خلق المسلم ؛ والإسلام والنماذج الاشتراكية للوفاء .

فرض الصلاة

وفي المراج شرعت الصلوات الخمس . شرعت في السماء لتكون معراجا يرقى
بالناس كلما نزلت بهم شهوات النفوس وأعراض الدنيا .

والصلوات التي شرع الله غير الصلوات التي يؤديها الآن كثير من الناس .
وعلمة صدق الصلاة أن تعمم صاحبها من الدنيا ، وأن تحجّله من البقاء عليها
إن ألم بشئ منها : فإذا كانت الصلاة مع تكرارها لا ترفع صاحبها إلى هذه الدرجة
فعلى صلاة كاذبة . . .

الصلاة طهور ، كما جاء في السنة ، إلا أنها طهور الإنسان إلى لا للجنة المفقنة
إن التطهير يزيل ما يعلق بالقلب إلى من غبار مراض . والأمراض التي تلحق
المرء في الحياة فتصدى قلبه كثيرة . ومطهراتها أكثر . . .

وفي الحديث « تفتت الرجل في أهله وماله وولده ونفسه وجاره ، يكفرها الصيام
والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

أما أصحاب القلوب الميتة فالصلاة لا تجديهم نصيلا . . . ولن يزالوا كذلك حتى
تحيا قلوبهم أو يواربها الثرى . . .



وقد رويت سنن أن رسول الله رأى في هذه الرحلة صورا شتى لأجزية الصالحين
والطالحين . وتناقلت كتب السيرة رواية هذه الصور الجليلة على أنها وقعت ليلة
الإسراء والمراج .

والحق أن ذلك كان رؤيا منام في ليلة أخرى من الليالي المعتادة كما ثبت ذلك
في الصحيح .

قرئش والإسراء

ولما كانت صبيحة هذه الليلة المشهودة حدث رسول الله الناس بما تم له وما شهد
من آيات ربه الكبرى : والذين كذبوا أن يقع وحى على الأرض أترامهم يصدقون به
في أنفسهم . . . صاروا يجمع بمفهمهم أيضا ليسمع هذه الأعجوبة فيزدادوا إنكارا لرسالة

محمد وريية من أمره . ونحمداه بمضمهم أن يصف بيت القدس إن كان رآه هذه القيلة حقاً ؟ .

عن جابر قال رسول الله : لا كذبتنى قريش قت في الحجر ، فجلى الله لى بيت المقدس فطلقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه ! !

ويقول الدكتور هيكل : « أحسبك لو سألت الذين يقولون بالإسراء بالروح في هذا لما رأوا فيه عجبا . بمد القدى عرف العلم في وقتنا الحاضر من إمكان التنويم المغناطيسى للتحدث عن أشياء واقعة في جهات نائية . . . فإياك بروح يجمع وحدة الحياة الروحية في الكون كله ؟ ويستطيع بما وهبه الله من قوة أن يتصل بسر الحياة من أزل الكون إلى أبده » ! .

ونحن لا نعلق كبير اهتمام لمرمة الطريقة التى تم بها الإسراء والمراج . كلا الأمرين حق ، ترك ثماره في نفس الرسول . فاستراح إلى عهد الخالق وقل اكترائه لقم الحمل من الجاحدين والجاهلين . ثم نشط إلى متابعة الدعوة مؤقتاً أن كل يوم يمر بها هو خطوة إلى النصر القريب . . .

وزعم بعض الكتاب أن فريقاً من المسلمين ارتد عقب الإسراء والمراج إنكاراً لها . بل يزيد الدكتور هيكل ، أن المسلمين تضرعوا على أثر انتشار القصة على الأمواه واستبعاد الشركين لوقوعها . وهذا كله خطأ . فلا الآثار التاريخية تدل عليه ولا الاستنتاج الحصيف ينتهى به . ولا ندرى كيف يقال هذا ؟

مضى رسول الله على نهجه القديم ، يندثر بالوحى كل من يلقي ، ويخوض بدعوته الجامع ويفشى المواسم ، ويقبج الحجيج في منازلهم ، ويفير قدميه إلى أسواق عكاظ ومجنة ودى الحجاز داعياً الناس إلى نبذ الأوثان والاستماع إلى هدى القرآن وكان يسأل عن منازل القبائل قبيلة قبيلة ويعرض عليهم نفسه ليؤمنوا به ويتابعوه ويعنموه . . .

وكان معه أبو لهب يمشى وراءه ويقول : لا تطيعوه فإنه سابى كذاب ! فيكون جواب القبائل : أسرتك وعشيرتك أعلم بك ! ثم يردونه أقبح الرد .

ومن القبائل التي أتاه الرسول ودعاها إلى الله فأبى الاستجابة له قزارة ، وغسان ،
وسرة ، وحتيقة ، وسليم ، ، وعبين ، وبنو النضر ، وكندة ، وكنب ، وعذرة ،
والحضرارة ، وبنو طاهر بن ضمصة ، ومحر بن حفصة . . الخ

ما وجد في هؤلاء قلباً مفتوحاً ولا صدرأ مشروحاً بل كان الراحلون والقيمون
يتواصون بالبعد عنه ويشيرون إليه بالأصابع . وكان الرجل يجيء من الآفاق البعيدة
فيزوده قومه بهذه الوصاة : احذر غلام قريش لا يفتنك !!!

ومع ذلك فإن الرسول في هذا الجو المقبض لم يخامر اليأس قلبه واستمر متابراً
في جهاد الدعوة حتى تأذن الحق أخيراً بالفرج .

(٤)

الهجرة العامة مقدماتها ونتائجها

حُرِّمَ مشركو مكة الخير كله مذبحدوا الرسالة وقعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن بموعينونها عوجاً .

ولئن نجحت دعايتهم الكاذبة في منع قبائل كثيرة من دخول الإسلام فإن الحق لا بد أن يملأ ، وأن يثوب إليه المضللون والمخدوعون ، على شرط أن يظل أهله أوفياء له حراساً عليه صابرين محسبين .

وقد قبض الله للإسلام من استغفذه من البيئة التي صادته فأنس بمد وحشة واستوطن بمد غربة . وشق طريقه في الحياة بمد أن زالت الجلايد الصلابة الملقاة في مجراه .

وبدأ هذا التحول على أيدي الوفود القادمة من يثرب إلى مكة في مواسم الحج . .



كان أهل يثرب يمتازون عن سائر العرب بمحارم لليهود . وألفهم عقيدة التوحيد وريما حورم اليهود في شأن الأديان ونموا عليهم عبادة الأوثان فإذا اشتد الجدل وطالت اللجاجة قال لهم اليهود : يوشك أن يبعث الله نبياً فنتبعه وشتلكم معه قتل عاد وإرم . . . ١١

والغريب أن اليهود كانوا أول من كفر بهذا النبي يوم ظهر فيهم واقترب منهم ، ولذلك ندد القرآن بمسلكهم المتناقض « ولا جاءهم كتابٌ من عند الله مُصدِّقٌ لما همهم - وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا - فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به . . . »

أما العرب الأميون الذين هُدُّوا بمبعثه فقد فتحوا مسامعهم له ! فمدا ما وافى الموسم وقدمت قبائل يثرب ورأوا الرسول يدعو الناس إلى الله قال بعضهم لبعض : تملكون والله يا قوم أن هذا الذي توعدكم به يهود ، فلا يُسَبِّقَنَّكم إليه . . . ١١ وأخذ ذكر الإسلام بشيع في المدينة رويداً رويداً . فإن لم يُستقبل بترحيب ! يستقبل بالحباب والحراب .

إن عناصر النفور والاثامة التي همها في مكة تحولت هنا إلى عناصر احترام وحب . لم تمض ثلاثة أعوام على تسامع الأنصار الجدد بالإسلام حتى أصبحوا كثر - الحسنيين رمزاً له الترحيب . .

فروق بين البلدين

طاشت مكة في مجبوحة من الحياة أمداً طويلاً ، آمنة مطمئنة يأتيها رزقها وغداً من كل مكان . وترجع هذه السعة إلى عاملين ، مهارة أهلها التجارية ، ومكانة الحرم الدينية . كلا الأمرين درّ عليها أخلاف الخير فأثرت حتى بطرت ، وشبعت حتى أنحمت . ثم عراها ما يمرّو كل جماعة تواتبها الحظوظ ويصيفها الترف . من تكبر وقسوة وجعود . فلما ظهر فيها الإسلام ، ودعا محمد إلى الحق ، ردّت يده في فمه ، وأحدقت به ومن معه ، وملكها العناد من أول يوم ، وأعلنت أن مركزها ماحصة للوثنية وبجماً للأستنام ومثابة للحجيج ، سيزول إن هي استمعت إلى هذا الدين وأمكنته من البقاء . وحاول الرسول جاهداً أن يقنع أهل مكة بأن قبولهم للحق لن يحرّمهم ذرة من الخير الذي مُتّعوا به فأبى الظالمون إلا كفّروا .

« وقالوا : إن تتبع الهدى منك تتخطف من أرضنا . أولم نمكن لهم حرماً آمناً يُنبئهم إليه ثمرات كل شيء ؟ رزقاً من لدنّا ولكن أكثرهم لا يعلمون » .
ومن هنا اختبك سادة مكة في حرب مع الإسلام اعتبروها دفاعاً عن كيانتهم المادى ووضعهم الاقتصادى إلى جانب ما هنالك من عوامل أخرى . وهذه الحروب معروفة النتائج « وكم أهلكنا من قرية بطرت مبيتها . فتلك مساكنهم لم نُسكن من بعدهم إلا قليلاً . وكنا نحن الوارثين » .

أما الأمر في يثرب فكان على النقيض ، إن الشحنة التناسلة بين أهلها استنزفت دماءهم وقطعت سبلهم وشغلت بعضهم بالبعض حتى أوصلتهم الحروب الدائرة إلى يدرك أسف له المقلد وتحمّوا الإيقاد منه . كان الأوس والخزرج — وهم في الأصل قرابة واحدة — يمانون في يثرب آصار هذا الخصام الشنيف . ويورثونه أبناءهم حتى يشبوا وهم في مهادم أعداء ! والذى وضع جرثومة هذا الشقاق هم اليهود . .

صنع اليهود

واليهود الذين استقروا في المدينة وأرباضها هبطوا صحراء الجزيرة فارين بدينهم من الاضطهاد المصليبي الذي عمل من قديم على تنصيرهم أو إغنائهم ، ذلك لأن رأى

اليهود في عيسى وأمه شنيع . والنصارى يعتقدون أن اليهود هم قتلة عيسى والمزعزون بصلبه

ولا شك أن اليهود شعب نشيط . وأنهم حيث حلوا يفتنون جهوداً مذكورة للسيطرة على زمام التوجيه المالى ، ولا يبالون بأساليب الختل والمكر لبلوغ أهدافهم ، وقد ألقوا أنفسهم قلة بين العرب أصحاب البلاد . وخشوا أن يفنوا إذا اشتبكوا معهم فى صراع سافر . فاحتالوا حتى زرعوا الضغائن بين الأقرباء . وما زالوا يباحثون آتت ثمرها الر ، فأخذ العرب يأكل بعضهم بعضاً فى سلسلة متصلة من الممارك التى لا مبرر لها ، على حين قوى اليهود وتكاثروا ونمت ثروتهم ، واستحكمت حصونهم وخيف سلطانهم .

وقبل الهجرة يوضع سنين وقت بين الأوس والخزرج معركة بامت كان النصر قبلها للخزرج ثم عاد للأوس ، وبلغ من حدة الخصام بين الفريقين أن كليهما فكر في استئصال الآخر وإبادة خضرائه لولا أن تدخل أولو النعمى بالنصح أن يُيقوا على أنفسهم وإخوانهم ، فجوارهم أفضل من جوار الثعالب - يعنى اليهود - !
هذه الفتن المتلاحقة جعلت أهل المدينة - عندما ترامت إليهم أنباء الإسلام - يؤمنون من ورائه الخير ، من يدري ؟ لعله يجدد حياتهم فيعيد السلام إلى سفوفهم ويهبهم حياة روحية ترجح بكفهم على اليهود .

قال ابن اسحاق : فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه وإنباز مواعده له
خرج رسول الله في الموسم الذي تقيه فيه النفر من الأنصار ، فرض نفسه على قبائل
العرب كما كان يصنع في كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج
أراد الله بهم خيراً فغدثنى حاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا : لما تقيهم
رسول الله قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : أمن موالى يهود ؟
قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلهم ؟ قالوا : بلى ! فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله ،
فرض عليهم الإسلام ونزل عليهم القرآن

زل : فأجابه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام
 رضي له : تركنا قومتهم - رأتهم بينهم من الدلالة والشر ما بينهم ، وعسى
 أن يذهبوا - نسحقهم فذبحهم إلى ربك - فعرض عليهم التي أجبناك

إليه من هذا الدين . فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ! ! ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا . . .

كان أولئك النفر طليعة الدعاية الموقفة للإسلام في يثرب . وقد أثمرت جهودهم على مجل ، فلم تبق دار إلا دخلها الإسلام .

حتى إذا استدار العام وأقبل موسم الحج خرج من المدينة اثنا عشر رجلاً من الذين أسلوا — فيهم الستة الذين كلّمهم الرسول في الموسم السابق — وهزموا على الاجتماع برسول الله ليؤثّقوا معه إسلامهم .

بيعة العقبة الأولى

وقد لقبهم النبيُّ بالعقبة وعقد معهم بيعة على الإيمان بالله وحده والاستمساك بفضائل الأعمال والبعد عن منكرها .

عن عبادة بن الصامت بايضا رسول الله ليلة العقبة الأولى « أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا تقتل أولادنا ، ولا نأثى بهتان نفتره بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف » .

قال : فإن وفيتم فلكم الجنة . وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتكم بحدة في الدنيا فهو كفارة له . وإن سترتكم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله . إن شاء هذب وإن شاء غفر » .

هنا ما كان محمد يدعو إليه ، وكانت الجاهلية تنكره عليه . أيكره هذه اليهود إلا مجرم يحب للناس الريبة ويود للأرض الفساد ؟ ؟

أم وقد أنصار هذه البيعة ثم قفل عائداً إلى يثرب . ورأى النبيُّ أن يبعث معهم أحد الثقات من رجاله ليتعهد غاء الإسلام في المدينة ويقرأ على أهلها القرآن ، ويفقههم في الدين ، ووقع اختياره على مصعب بن عمير ليكون هذا العلم الأمين .

ونجح مصعب أياً نجاح في نشر الإسلام وجمع الناس عليه ، واستطاع أن يتخطى الصعاب التي توجد دائماً في طريق كل نازح غريب يحاول أن ينقل الناس من

موروثات ألفوها إلى نظام جديد يشمل الحاضر والمستقبل ، ويمم الإيمان والعمل
والخلق والسلوك . . .

ولا تحسبن مصعباً كأولئك المرتزقة من المبشرين الذين دسهم الاستعمار الغربي
بين يدي زحفه على الشرق . فترى الواحد منهم يقبع تحت سرير مريض ليقول له :
هذه القارورة تقدمها لك المناء ! وهذا الرغيف يهديك إياه المسيح ! وربما فتح
مدرسة ظاهرها الثقافة المجردة ، أو ملجأ ظاهره البر الخالص ، ثم لوى زمام الناشئة
من حيث لا يدرون ومال بهم حيث يريد . . . ! !

هذا ضرب من التلمص الروحي يتوارى تحت اسم الدعوة إلى الدين . والذين
يمثلون هذه الساخر يمدون المرأة على عملهم من الدول التي تبت بهم . فإذا رأيت
إصرارهم ومغامراتهم فلا تس القوي التي تساند ظهورهم في البر والبحر والجو . .

أما مصعب فكان من ورائه نبي^١ مضطهد ورسالة معتبرة ضد القانون السائد
وما كان يملك من وسائل الإغراء ما يطعم طلاب الدنيا ونهازي القصر ، كل ما لديه
ثروة من الكياسة والفتنة قبسها من محمد ، وإخلاص لله جلله يضحى بمال أسرته
وجاهها في سبيل عقيدته ثم هذا القرآن الذي يتألق في تلاوته ويتخير من
دوائمه ما يفزوه الأبواب ، فإذا بالأفئدة ترق له وتتفتح لدين الجديد .

وعاد مصعب إلى رسول الله بمكة قبيل الموسم الحافل بخبره بما لقي الإسلام من
قبول حسن في يثرب ويشره بأن جموعاً غفيرة دخلت فيه عن اقتناع مس شفافهم ،
وبصر أنار أفكارهم ، وسوف يرى من وفودهم بهذا الموسم ما تقربه العين . .

١ بيعة العقبة الكبرى

إن الرجال الذين اعتنقوا الإسلام عرفوا — دون شك — تاريخه القريب والصعاب
الهائلة التي نقيها . وحزناً فزغهم أن يستضيف إخوانهم في مكة وأن يخرج نبيهم
وهو يدعو إلى الله فلا يجيب إلا آثم أو كافر . . . ! !

وهذا تساءلوا — وهم حارسين من المدينة ناصبون أبيت اليتيم — حتى متى
تترك رسول الله يطوف ويظهر في جبل مكة ويخاف ؟

تقد بلغ الإيمان أوجه في هذه القلوب الثقية . وآن لها أن تنفّس من حاسها ،
وأن تفك هذا الحصار الخانق المضروب حول الدعوة والداعية . . .

قال جابر بن عبد الله : فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم ،
فواعدناه شِعب العقبة . فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين . حتى توافينا . قلنا :
يا رسول الله . علام نبأيك ؟ قال : تبأيموني على السمع والطاعة في النشاط والكسل
والنفقة في السر واليسر . وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأن تقوموا
في الله لا تخافون لومة لائم . وعلى أن تنصروني فتمنوني إذا غمت عليكم بما تمنون
منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة . . .

قمنا إليه . وأخذ يده أسد بن زراراة — وهو أصغر السبعين بمدي — فقال :
رويداً يا أهل يثرب ، فإنما لم تضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ،
وأن إخراجهم اليوم مناواة للحرب كافة . وقتل خياركم ، وأن تمضكم السيوف . فإنما
أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله ! وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم
خيفة فذروهم ! فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله ! فقالوا : يا أسد امطأ عنا يدك
فوالله لا نذر هذه البيعة ولا ستقيها . فقمنا إليه رجلاً رجلاً فبايعناه . . .

وعن كعب بن مالك : نمنا تلك الليلة — ليلة القعدة — مع قومنا في رحالنا ،
حتى إذا مضى ثلث الليل حرحرنا من رحالنا ليماد رسول الله تسلسل تسلسل القطا مستخفين
حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من
نساءنا ، نسيية بنت كعب . وأسماء ذات عمرو بن عدى .

فلما اجتمعنا في الشعب ينتظر رسول الله حادها ومعه السبا من عبد المطلب .
وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له .
فلما جلس كان أول متكلم قال : يا مضر الخزرج^(١) إن محمداً منا حيث عدلتم .
وقد منّنا من قومنا ممن هو على مثل رأيائنا فيه . فهو في عزة من قومه ومنمة
في بلده . وإنا قد أبى إلا الاحتيال إليكم والحق بكم . فإني كنتم ترون أنفسكم
واقفون له بما دعوتهم إليه وما نموه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك . . .

(١) يصد أهل يثرب جيماً من أوس وخزرج .

وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدهموه
فإنه في عزة ومنمة من قومه وبلاءه .

قال كعب : قتلناه : قد سمعنا ما قلت . فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك وربك
ما أحببت . فتكلم رسول الله . فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام .
ثم قال : أيايكم على أن تمنوني مما تمنون منه نساءكم وأبناءكم . قلل كعب ،
فأخذ البراء بن معرور بيده وقال : نعم . فوالقى بشك بالحق لتفتمك مما تمنع منه
أزونا فبايتما يا رسول الله فضعن والله أبناء الحروب ورتناها كابرأ عن كابر .
فاعترض هذا القول — والبراء يكلم رسول الله — أبو الهيثم بن التيهان فقال :
يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال — يعني اليهود — حبالا . وإننا فاطموها . فهل
سميت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟
قال : تنبسم رسول الله ! ثم قال : بل اللهم والمهم والمهم الحمم . أنا منكم وأنتم
معي . أحارب من حاربتهم وأسالم من أسلمهم . .

وأمرهم رسول الله أن يخرجوا منهم اثني عشر قهيباً يكونون على قومهم بما فيهم ،
فأخرجوا منهم النقباء تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فقال لهم الرسول :
أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحوارين ليعسى ابن مريم . وأنا كفيل
على قومي .

تلكم بيعة العقبة ، وما أبرم فيها من موافق ، وما دار فيها من محاورات . .
إن روح اليقين والقداء والاستبسال سادت هذا الجمع وتمشّت في كل كلمة
قيات ، وبدأ أن المواطف الفائرة ليست وحدها التي توجه الحديث أو تملئ اليهود
كلا . فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم والمغرم للتوقمة نظر إليها قبل
للتفانم الموهومة .

مفانم ؟ أين موضع المفانم في سورة البقرة ؟ لقد قام الأمر كله على التجرد المحض
والبند الحليص .

مزيلا اسميعون من البشارة لإسراهم من الذين الفسكر الحر والافتناع الخالص
نقد . . . من حرب مؤثر . . . لمؤيد والمؤيد في الحقيقة مع أن معرفتهم
بالبشرية من حارة رت . . . ردة عن رب زورن

لكننا لا يجوز أن نضي مصدر هذه الطاقة للتأججة من الشجاعة والثقة ،
إنه القرآن !! لأن كان الأنصار قبل بيعتهم الكبرى لم يصحبوا الرسول إلا لما
إن الوحي المُنشع من السماء أنشأ لهم الطريق وأوضح الناية ..

لقد نزل بمكة قريب من نصف القرآن ، سال على السنة الحفاظ وتداولته صحائف
السفرة الكرام البررة . والقرآن النازل بمكة سور جزاء الآخرة رأى العين ، فتوشك
أن تعد يدك قطف من أشجار الجنة ، ويستطيع الأعرابي التمشق للحق أن ينتقل
في لحظة فداء من رمضان الجزيرة إلى أنهار النعيم والرحيق المختوم !

وحكى القرآن أخبار الأولين وكيف أخلص المؤمنون لله فنجوا مع رسلهم ،
وكيف طنى الكفار ، وأسكروا الإمهال فتمنتوا وتجبروا ثم حل المدد الإلهي ،
فذهب الظالمون بددا وتركوا وراءهم دنيا مدبرة ودوراً خربة .

فأدبروا ووجوه الأرض تلثمهم كباطل من جلال الحق منهزم .. !!
ثم إن الرسول جعل من هذا الإيمان بالحق رباطاً يعقد من تلقاء نفسه صلة الحب
والتناصر بين أشقات المؤمنين في الشرق والغرب . قالس في المدينة — وإن لم ير
أخاه المستضعف في مكة يحنو عليه ويقمص له وينصب من ظالمة ويقاقل دونه — وذلك
ما استندم الأنصار من يثر تبجيش في حناياهم مشاعر الولاء لمن أجوبهم بالغيث
في ذات الله . . .

عن أبي مالك الأشمري أن رسول الله قال : يا أيها الناس اسمعوا واعتلوا .
واعلموا أن الله عباداً ليسوا بأبياء ولا شهداء ينبطعهم النيران والشهداء على منازلهم
وقربهم من الله . فجئنا رجل من الأعراب من قاصية الناس وأوى بيده إلى النبي
صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ناس من الناس ليسوا بأبياء ولا شهداء
ينبطعهم الأبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله !! اسمعهم لنا حلهم لنا
— يعني صفهم لنا — فسر وجه النبي سؤال الأعرابي وقال : هم ناس من أفتاء
الناس وتوازع القبائل لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا في الله وتصافوا ، يضع الله
لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسون عليها . فيجمل وحوهم نوراً وثيابهم نوراً ،
يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

الإيمان بالله والحب فيه والأخوة على دينه والتناصر باسمه . ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيها ، يتدافع ليعلم أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم . وسوف يعمونهم بأرواحهم فلا يتخلص إليه أذى وم أحياء .

إن مشركي مكة حسبوا أنهم حصروا الإسلام في نطاق لا يمدوه . وأرهقوا المسلمين حتى شغلهم بأنفسهم . فقاموا نومة المجرم الذي اقترف الإثم وأمن القصاص . حسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر وسالتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر أجل . ففي هذه الليلة تحالف جند الحق أن يقسموا ظهر الوثنية ، وأن ينتهوا بالجاهلية ورجالها إلى الفناء .



واستمع شيطان من الشركين كان يجول في مضارب الخيام ومنازل الحجيج إلى الضجة النبعثة فرياً من العقبة واستطاع أن يقف على جلية الخبر . فصرخ يندب أهل مكة : أن محمداً والعبياء معه قد اجتمعوا على حريمكم . وكان صوته جهوراً يوقظ النيام .

وشمر المبایمون كأن انهارم بالشركين قد انكشف . فلم يكثرُوا للتأنج . وقال العباس بن عباد : يا رسول الله والذي بمثك بالحق إن شئت لنيلن على أهل منى غدا بأسياقنا . قتال رسول الله : لم تؤمر بذلك . ولكن ارجعوا إلى رحالكم .

قال كعب : فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا في منازلنا فقالوا : يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جثتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايمونه على حربنا . وإنه والله ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم . نكروا . من : فابيت من هناك من مشركي قومنا يحلفون ما كان من هذا شيء . وسامعاه . صدقوا . لم يعلموا . قال كعب : وبعضنا ينظر إلى بعض .

بعد أن اتفقت المحمديون على أن يخرجوا قريشاً يطلب الأنصار ، فاتفقوا . ولم يزلوا يترددون . من : بدو . ادعوا به مغلوله بداه إلى عنقه وأخذوا

يحبذونه من شره ويلكزونه ، فأقنذه منهم جبير بن مطعم والحارث بن حرب
إذ كان سعد يجير لها قوافلها السارة بالمدينة .

طلاليع الهجرة

إن نجاح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة هو
أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة له . وقد تنادى المسلمون من كل مكان :
هلموا إلى يثرب !! فلم تكن الهجرة تخلصاً فقط من الفتنة والاستهزاء ، بل كانت
تماوناً عاماً على إقامة مجتمع جديد في بلاد آمن . وأصبح فرضاً على كل مسلم قادر أن
يسهم في بناء هذا الوطن الجديد وأن يبذل جهده في تحصينه ورقمته شأنه . وأصبح
ترك المدينة بعد الهجرة إليها نكوساً عن تكاليف الحق وعن نصرة الله ورسوله .
فالخيار بها دين . لأن قيام الدين يعتمد على إعرازها .

وفي عصرنا هذا أعجب اليهود بأعضهم ، وعانق بعضهم بعضاً مهتلاً لأنهم
استطاعوا تأسيس وطن قوى لم يبد أن تاشوا مشردين قروناً طويلاً .
ومعن لا ففكر جهد اليهود في إقامة هذا الوطن ولا حماس المهاجرين من كل فج
للميش به ومحاولة إحيائه وإعلائه .

ولكن ما أبعد اليون بين ما صنع اليهود اليوم — أو بتعبير أدق ما صنّع لليهود
اليوم — وبين ما صنع الإسلام وبتوه لأنفسهم يوم هاجروا إلى يثرب نجاة بدعوتهم
 وإقامة لدولتهم .

إن اليهود جاءوا على حين فرقة من العرب وغفلة وضعف ، وحاكوا مؤامراتهم
 في ميدان السياسة الفرية الناقصة على الإسلام وأهله . فإذا بالعالم كله يهجم على
 فلسطين بالمال والسلاح والنساء والدعاء ، فلم يستطع مليون عربي حصرتهم انكبات
 في مآزق ضيقة أن يضمنوا شيئاً ، فهاجموا على وجوههم في الأرض نتيجة اتفاق
 أمريكا وروسيا وإنجلترا وفرنسا و... ملوك العرب على حذلان أولئك العرب
 التمساء ، وبذلك قام الوطن القوي لليهود ، وبقت الدعاية لتشجيع الهجرة إليه ،
 وإسداء العون له من دهاقين السياسة والمال في أنحاء الدنيا !!..

أين هذا الحضيض من رجال أحلصوا لله طواياهم وترفعت عن المآرب مهمهم

وذهلوا عن التاع للذنول والأمان التاع . واستهوتهم التل العليا وحدها فى طلم يسج
بالعم البكم ، وربطوا مستقبلهم بمعتقل الرسالة البراة التى اعتنقوها وتبعوا صاحبها
التجرد المكافح وهو لا ىنى يقول : « قل هذه سبلى أدعو إلى الله على بصيرة
أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين ؟! » .

إن المدينة الفاضلة التى تمسقها الفلاسفة وتخيلوا فيها الكمال ، جاءت فى سطور
الكتب دون ما صنع المهاجرون الأولون وأثبتوا به أن الإيمان الناضج يحيل البشر
إلى خلائق تباهى الملائكة سناء ونضارة .

إن المسلمين — بإذن رسول الله — هرعوا من مكة وغيرها إلى يثرب يحدوم
اليقين وترفع رءوسهم الثقة .

ليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد باء ، ولا ارتحال طالب
قوت من أرض مجدية إلى أرض غصبة . إنها إكراه رجل آمن فى سربه ممتد
الجنود فى مكانه على إهدار مصالحه وتضحية أمواله والنجاة بشخصه فحسب .
وإشعاره — وهو يصفى مركزه — بأنه مستباح منهوب قد يهلك فى أوائل الطريق
أو نهايتها . وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم لا يدرى ما يتمخض عنه من قلاقل
وأحزان . ولو كان الأمر مفامرة فرد بنفسه لقليل : مفامرة طياش ، فكيف وهو
ينطلق فى طول البلاد وعرضها يحمل أهله وولده ؟ وكيف وهو بذلك رضى الضمير
وضاء الوجه !! .

إله الإيمان القدى يزن الجبال ولا يطيش ! وإيمان بمن ؟ بالله القدى له ما فى السموات
وما فى الأرض . وله الحمد فى الأولى والآخرة . وهو الحكيم الخبير .

هذه الصماب لا يطبقها إلا مؤمن ! أما الهياج الخوار القلق فاستطيع شيئا
من ذلك . أولئك الذين نال الله فيهم : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم
أو ترحلوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم .. » .

هذه الرجال من نذر بمحمد وكتة . ونسوا منه أنوار الهدى ، وتواصوا
بـ أسد : تير . هاجروا إلى حيث تدعون الإسلام .

هذه الرجال قد أتفرت ، ومحال أمحات .

مرَّ حبة والبباس وأبو جهل على دار طمر بن ربيعة بعدما غُثَّت . فقد هاجرَ ربُّ الدار وزوجه وأخوه أحد - وكان رجلاً ضريراً البصر - ونظر حبة إلى الدار تحقّق أبوابها ياباً ، ليس بها ساكن ! فلما رآها تصفرّ الريح في جنباتها قال : وكل دار وإن طالت سلامتها يوماً ، ستدركها النكباء والحوب

ثم قال : أصبحت الدار خلاء من أهلها ، فقال أبو جهل للبباس : هذا من عمل ابن أخيك ، فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وقطع بيننا . . .

وأبو جهل بهذا الكلام تبرّز فيه طبائع الطغاة كاملة ، فهم يجرمون ويرمون الوزر على أكتاف غيرهم ، ويقهرون المستضعفين فإذا أبوا الاستكانة فإياهم ملة للشا كل ومصدر اقلال . . . !

ومن أول المهاجرين أبو سلمة وزوجه وابنه ، فلما أجمع الخروج قال له أصهاره هذه نفسك فلبتنا عليها ، أرايت صاحبتنا هذه ؟ علام تترك تسير بها في البلاد ؟ وأخذوا منه زوجته ، فنضب آل أبي سلمة لرجلهم ، وقالوا لا تترك ابنتنا معها إذ تزعموها من صاحبنا ، وتجاوزوا الغلام بينهم فغلموا يده وذهبوا به ، وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة ، فكانت أم سلمة بعد ذهاب زوجها وضياع ابنها تخرج كل غداة بالأبطح تبكي حتى تسمى نحو سنة ، فرق لها أحد ذويها وقال : ألا تخرجون من هذه المسكينة ؟ فرقم بينها وبين زوجها وولدها ، فقالوا لها : الحق يزوجك إن شئت ، فاسترجعت ابنها من عصبتة وهاجرت إلى المدينة . . .

ولما أراد صهيب الهجرة قال له كفار فريش : أئتنا سلوكاً حقيراً فكثرت مالك عندنا وبلغت التي بلغت . ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك . والله لا يكون ذلك قال لهم صهيب : أرايتم إن جعلت لكم مالى أنتمخون سبيلى ؟ قالوا : نعم ! قال : فإني قد جعلت لكم مالى . فبلغ ذلك رسول الله فقال : ربح صهيب ربح صهيب ! وهكذا أخذ المهاجرون يتركون مكة زرافات ووحدانا . حتى كادت مكة تنخلو من المسلمين . وشعرت فريش بأن الإسلام أضحت له دار يارز إليها وحسن يحتمى به . وتوجست خيفة من عواقب هذه الرحلة الخطيرة في دعوة محمد . وهاجت في دماغها غرائر السبع المفترس حين يخاف على حياته .

إن محمداً لا يزال في مكة وهو لا يد مدرك أصحابه النوم أو غداً . فلتسجل به قبل أن يستدير إليها . . .

في دار الندوة

واجتمع طواغيت مكة في دار الندوة ليتخذوا قراراً حاسماً في هذا الأمر . فرأى بعضهم أن توضع القيود في يد محمد ، ويشد وثاقه ، ويرى به في السجن لا يصله منه إلا الطعام ، ويترك على ذلك حتى يموت . . . ورأى آخر أن يُتْنى من مكة فلا يدخلها . وتنفض قريش يديها من أمره . . . وقد استبعد هذان الاقتراحان لدم جدواهما ، واستقر الرأي على الاقتراح الذي أبداه أبو جهل . قال أبو جهل : أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شاباً نسياً وسطاً فتياً ، ثم نطلى كل فتى سيفاً صارماً ، ثم يضربونه جميعاً ضربة رجل واحد . فإذا قتلوه تفرق دمه في التباثل كلها . ولا أظن بني هاتم يقوون على حرب قريش . كافة فإذا لم يبق أمامهم إلا الدية أديناها . . .

ورضى المؤمنون بهذا الحل للمشكلة التي حيرتهم . وانصرفوا ليقوموا على إنفاذه وقد أشار القرآن إلى تدبير هذه الجريمة بقوله : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ . وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ . وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » . إن هذا الحكم لم يتخذ في مجلس سرّ بل في اجتماع عام . ومن الطبيعي أن يعلم به رسول الله . وأن يعرف حقيقة وضعه في مكة . إنهم لا ينتظرون به إلا موعد التنفيذ . ثم يقدمه الطعام قرباناً للأصنام . . . ! !

على أن رسول الله لم يكن ليوعز إلى أصحابه بالهجرة ويتخلف عنهم ، لتد رسم الخطة التي يذهب بها إلى يثرب حين نذب المسلمين للهجرة إليها . روى الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله — وهو يومئذ بمكة — للمسلمين « قد رأيت دار هجرتكم ، أريت سبعة ذات نخل بين لابتين » فهاجر من هاجر . قبل المدينة حين ذكر رسول الله . ورجع^(١) إلى المدينة من كان هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين .

(١) بدءاً رجوعه رطاح حتى السنة السادسة للهجرة العامة .

هجرة الرسول

حين عزم رسول الله على ترك مكة إلى المدينة أتى الوحي الكريم في قلبه وعلى لسانه هذا الدعاء الجميل « وقل : رب أدخلى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق . واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً » .

ولا ننرف بشراً أحق بنصر الله وأجدر بتأييده مثل هذا الرسول الذى لاقى فى جنب الله ملاقى . ومع ذلك فإن استحقاق التأيد الأعلى لا يعنى التفريط قيد أعلة فى استجباأ أسبابه وتوفير وسائله . ومن ثم فإن الرسول أحكم خطة هجرته وأعد لكل فرض عدته ولم يدع فى حسبانته مكاناً للحفظوظ العمياء . وشأن المؤمن مع الأسباب المعتادة أن يقوم بها كأنها كل شىء فى النجاح . ثم يتوكل بعد ذلك على الله لأن كل شىء لا قيام له إلا بالله .

فإذا استفرغ المرء جهوده فى أداء واجبه فأخفق بعد ذلك ، فإن الله لا يلومه على هزيمة لى بها . وقلما يحدث ذلك إلا عن قاهر يمد الرء فيه ! !
وكثيراً ما يرتب الإنسان مقدمات النصر ترتيباً حسناً ، ثم يحمى عون أعلى يحمل هذا النصر مضاعف الثمار . كالسفينة التى يشق عباب الماء بها رُبانٌ ماهر . فإذا بالتيار يساعدها والريح تهب إلى وجهها . فلا تمكث غير بعيد حتى تنتهى إلى غايتها فى أقصر من وقتها المقرر .

وهجرة رسول الله من مكة إلى المدينة جرت على هذا النمط . فقد استبق رسول الله معه علياً وأبا بكر وأذن لسائر المؤمنين بتقدمه إلى المدينة .

فأما أبو بكر فإن الرسول قال له حين استأذنه لهاجر : لا تمجل لعل الله أنزى ! يحمل لك صاحباً . وأحسن أبو بكر كأن الرسول يعنى نفسه بهذا الرد ! فابتاع راحلتين فخبسهما فى داره يلفهما إعداداً لذلك .

وأما على فإن الرسول هبأه لنور خاص يؤديه فى هذه المغامرة المحفوفة بالأخطار ! قال ابن اسحاق : فحدثنى من لا أنهم عن عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت كان لا يخطئ رسول الله أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار ، إما بكرة وإما عشياً ، حتى إذا كان اليوم الذى أذن الله فيه رسوله فى الهجرة والمخرج من مكة

من بين ظهري قومه أنا رسول الله بالمهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها . قالت : فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله في هذه الساعة إلا لأمر حدث . فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله وليس عند رسول الله أحد إلا أنا وأختي أسماء . فقال رسول الله : أخرج مني من عندك ! قال : يا رسول الله إنما ما ابتأى . وماذا لك ؟ — فذاك أبي وأمي —

قال : إن الله أذن لي في الخروج والمهاجرة . فقال أبو بكر : الصعبة يا رسول الله ؟ قال : الصعبة .. !

قالت عائشة : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً ييكني من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ ييكني .. ! ثم قال : يا بني الله إن هاتين الراحلتين كنت أعدتهما لهذا . فاستأجرا عبد الله ابن أريقط — وهو مشرك — [١] يلهما على الطريق . ودفعنا إليهما راحلتيهما فكافتا عنده برماهما ليمادها . . .

قال ابن إسحاق : ولم يعلم — فيما بلغني — بخروج رسول الله أحد حين خرج — يقصد نوى الخروج — إلا علي* وأبو بكر وآله . أما علي* فإن رسول الله أمره أن يتخلف حتى يؤدي منه الودائع التي كانت عنده للناس . وكان رسول الله ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضحه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته . .

درس في سياسة الأمور

ويلاحظ أن النبي* كتم أسرار مسيره . فلم يطلع عليها إلا من لهم صلة ماسة بها . ولم يتوسع في اطلاعهم الا بقدر العمل اللزوم بهم . وقد استأجر دليلاً خبيراً بطريق الصحراء . ليستعين بخبرته على متابعة الطاردين . ونظر في هذا الاختيار الى الكفاية وحدها . فإذا اكتملت في أحد ولو مشركاً استغلمه واتفغ بموهبته .

ومع هذه المروية في وضع الخططة فإن النبي* أصر أن يدفع عن راحلته . وأبى أن يتضرع أبو بكر به لأن البذل في هذه المهاجرة ضرب من العبادة ينبغى الحرس عليه وتتمتع انتباه فيه .

واففق الرسول مع أبي بكر على تقاسيل الخروج ، وتخبروا النار التي يأوون
إليه ، تخبروه جنوباً في اتجاه اليمن لتضليل الطاردين . وحددوا الأشخاص الذين
يتصلون بهم في أثناء اللجأ إليه ، وصمة كل شخص . .

ثم عاد الرسول إلى بيته فوجد قريباً بدأت تضرب الحصار حوله ، وبشت بالفتيان
الذين وكل إليهم اغتيال محمد وتفريق دمه بين القبائل !!

وأوعز الرسول إلى علي بن أبي طالب في هذه الليلة الرهيبة . أن يتنذى برده الذي
يتنام فيه وأن يتسجى به على سريره : وفي همة من الليل وغفلة من الحرس انسل
الرسول من بيته إلى دار أبي بكر . ثم خرج الرجلان من خوخة في ظهرها ... إلى غار
نور .. إلى النار الذي استودعته العناية مصير الرسالة الخاتمة ومستقبل حضارة كاملة
وتركته في حراسة السموت والوحشة والاقطاع . . .

في النار

وسارت الأمور على ما قدّرا ، وكان أبو بكر أمر ابنه عبد الله أن يتسمع لها
ما يقول الناس فيها ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من أخبار . وأمر
عمر بن حفصة ، ولده أن يرعى عنقه نهاره ثم يريهما عليهما إذا أمسى في النار . فكان
عبد الله بن أبي بكر في فريش يسمع ما يأترون به وما يقولون في شأن رسول الله
وأبي بكر . ثم يأتيهما إذا أمسى فيقص عليهما ما علم ، وكان عمر في دُعيان أهل مكة
فإذا أمسى أراح عليهما فغم أبي بكر فاحتابا وذبحا . فإذا غدا عبد الله من عندهما إلى
مكة أتبع عمر بن حفصة أثره بالنم يُعفى عليه . .

وتلك هي الحيلة البالغة . كما تفرضا الضرورات المتادة على أي إنسان . . .

وانطلق مشركو مكة في آثار المهاجرين يرصدون انطرق ويفتشون كل مهرب
وراحوا ينقبون في جبال مكة وكهوفها حتى وصلوا في دأبهم غرباً من غار نور ،
وأصت الرسول وصاحبه إلى أقدام الطاردين تخفق إلى جوارهم . دُحذاروع أبابكر
دمس يحدث رسول الله : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا . فقال الرسول : يا أبا بكر
ما ظنك بالثنين الله ثالثهما ؟ .

ويظهر أن الطاردين داخلهم القنوط من الشرور عليهما في هذا الفج قرا كنوا
 مائدين وروى أحد : « أن المشركين اقتفوا الأثر حتى إذا بلغوا الجبل — جبل ثور —
 خطط عليهم ، فصعدوا الجبل ففروا بالنار ، فأروا على بابهم نسج المنكبت . فقالوا :
 ودخلها هنا أحد . لم يكن نسج المنكبت على بابهم .. فكث فيه ثلاث ليال :
 ورواية أحمد حسنة ، وإن لم ترد بها السنن الصحيح ، ولم يرد كذلك ذكر
 الحاتم باضت على قم النار أو غير ذلك .

قال الله تعالى في ذكر الهجرة : « إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ، إِذْ أَخْرَجَهُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هَا فِي النَّارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : لَا تَمَحِزْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا
 فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا . وَجَعَلَ لِكُلِّ الْفِرْقَةِ السَّفْلَى
 وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

والجنود التي ينفذ بها الباطل وينصر بها الحق ليست مقصورة على نوع معين
 من السلاح ولا سورة خاصة من الخوارق . إنها أعم من أن تكون مادية أو معنوية ،
 وإذا كانت مادية فإن خطرها لا يمثل في ضخامتها ، فقد فتكت جبرئيلة لا تراها
 العين يبعث ذى لب « وما يعلم جنود ربك إلا هو » .

ومن صنع الله لنبيه أن تمتلئ عنه عيون عدائه وهو منهم على مد الطرف ولم يكن
 ذلك محاباة من القدر لقوم فرطوا في استكمال أسباب النجاة ، بل هو مكافأة
 من القدر لقوم لم يدعوا وسيلة من وسائل الحذر إلا اتخذوها ، وكم من خلة يضمها
 أصحابها فيلتمون بها نهاية الإتيان تمر بها فترات عصيبة لأمر فوق الإرادة أو وراء
 الحسبان . ثم تستقر أخيرا وفق مقتضيات الحكمة العليا وفي حدود قوله تعالى :
 والله غالب على أمره . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

في الطريق إلى المدينة

مرت ثلاث ليال على ميث الرسول في النار وخمد حماس المشركين في الطلب .
 وتأهب المهجران لاستئناف رحلتهم الصعبة . وجاء عبد الله بن أريقط في موعده
 ومعه زواجله قد دلفها لاستقبال سفر بعيد ، وتزوّد الراكب ثم سار على اسم الله .

غير أن قريشا ساءها أن تحقق في استرجاع محمد وصاحبه ، فجملت دبة كل واحد منهما جائزة لمن يبيء بهما أحياء أو أمواتا ، ومثتان أو مئة من الإبل في الصحراء ثروة تفرى يركوب المخاطر وتحمل الشاق . وقد قدر رسول الله أن الشركين لن يأثروا جهدا في الإساءة إليه ، فالتزم في سيره جانب المحاذرة وأعاتهم مهارة الدليل على سلوكه دروب لم تمتدحها القوافل ، ثم أطلق الزمام للرواحل ففضت تصل النهار بالليل .

رى بصدور العيس مُنْخَرَقَ الصَّبَا فلم يدُر خلقٌ بعدها أين يَمَّا ؟
فلما مروا بجيٍّ مدلج مُصْعَدِين ، بَعُثَ بهم رجل من الحَيِّ قال : لقد رأيت آغا أسورةً بالساحل ، ما أظنها إلا محمداً وأصحابه ، ففطن إلى الأمر سراقة بن مالك ، ورغب أن تكون الجائزة له خاصة فقال : بل هم فلان وفلان قد خرجوا لحاجة لهم .. ومكث قليلا ثم قام فدخل خباءه وقال لخادمه : اخرج بالفرس من وراء الخباء وموعدهك خلف الأكمة .

قال سراقة : فأخذت رمحي وخرجت من ظهر البيت وأنا أخط بزججه الأرض ، حتى أتيت فرسي فركبتها ، فدفعتها ففرت بي حتى دنوت منهم . فمئرت بي فرسي فحمرت عنها ! فمئرت ..

وامتطى سراقة فرسه مرة أخرى وزجرها فانطلقت حتى قرب من الرسول وصاحبه . وكان أبو بكر يكثر الالتفات يتبين هذا العدو الجسور ، فلما دنا عرفه . فقال لرسول الله — وكان ماضيا إلى غايته — : هذا سراقة بن مالك قد رفقنا ! وما أتم كلامه حتى هوت الفرس مرة أخرى ملقية سراقة من على ظهرها ، فقام مسفرا ينادى بالأمان !!

ووقع في نفس سراقة أن الرسول حق فاعتذر إليه وسأله أن يدعو الله له . وعرض عليهما الزاد والمتاع . فقالا : لا حاجة لنا ولكن عمّ عنا الطلب ، فقال : قد كفيتم ، ثم رجع فوجد الناس جادين في البحث عن محمد وصاحبه ! فجمل لا يلقى أحداً من الطلب إلا ردّه وهو يقول : كفيتم هذا الوجه !

أصبح أول النهار جاهدا عليهما ، وآمسى آخره خرسا لهما !

دعاء

إن أسفار الصحراء توحى الهلابة الأمنين . فكيف يركب مهند المم
مستباح الحق ؟ .

ما يحس هذه المتاعب إلا من صلى نارا . قد برزنا لوهج الظهيرة يوماً فكادت
الأشعة البيضاء المنكسة على الزمال تخطف أبصارنا . قدنا منمضين نستبق
من هيوننا ما خفنا ضياعه .

وعندما تصبح وتمسى وسط وهاد ونجاد لا تنتهى حتى تبدأ ، تخال المالم كله
مهامة منيرة الأرباء ذا كنة الأرض والسماء .

وجرت عادة المسافرين أن يأووا فى القيلولة إلى أى ظل ، فى بطاح ينتمل
كل شئ فيها ظله . حتى إذا جنحت الشمس للمنيب ، تحركت الطايا اللافية
تغالب الجفاف والكرى .

وللمرب طاقة على احتمال هذا الشظف . مع قلة الزاد والرى . وقد مر بك
أن الرسول وهو طفل قطع هذه الطريق . ذهب مع أمه لزيارة قبر أبيه ثم عاد وحده !
وإنه الآن ليقطعها وقد بلغ الثالثة والخمسين لزيارة أبيه الذين ماتا بالمدينة ،
بل لزيارة رسالته التى تششت بأرض يثرب جذورها بعد ما تبرمت مكة بها
وبصاحبها وبمن حوله ...

إنه أرسخ أهل الأرض يقينا بأن الله ناصره ومظهر دينه ، بيد أنه أسيف
لفظاظته التى قوليل بها ولججود الذى لاحقه من بدء رسالته حتى اضطره إلى الهجرة
على هذا النحو المنيف . هاهو ذا يخرج من مكة وقد أعلن سادتها عن الجوائز
الغرية لمن يمتناه .

روى أبو نعيم أن رسول الله لما خرج من مكة مهاجراً إلى الله قال :
« الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئاً . اللهم أعننى على هول الدنيا وبوائق الدهر ،
ومصائب الليالى والأيام . اللهم اصحبنى فى سفرى ، واخلفنى فى أهلى ، وبارك لى
به رزقى . ذلك فذللتى ، وعلى صالح خلقى قوؤمنى . وإليك رب غيبتى .
والى الله لا تسكنى . رب المستضعفين وأنت ربي . أعوذ بوجهك الكريم

الذى أشرفت له السموات والأرض ، وكشفت به الظلمات وصلاح عليه أمر الأولين
والآخرين أن يُعْمِلَ على غضبك ، وتُنْزِلَ بسخطك . وأعوذ بك من زوال نعمتك
وجفأة همتك ونحوك ما فيتك وجميع سخطك . لك العتي عندى خير ما استطعت .
ولا حول ولا قوة إلا بك .

ومما يلفت النظر أن انطلاق الرسول من مكة شاع في جوانب الصحراء وكان
أسلاك البرق طيرة إلى أقصى البقاع . فلم به البدو والحضر على طول الطريق
حتى يثرب . بل إن الحال التي خرج بها وسل نبؤها إلى أهل مكة بعد أن
انصرف عنها !

والناس يمجنون بقمص البطولة ، وتستثيرم ألوان التحدى . وهم يتناقلون
الأخبار السبالة على الألسن ، فيضغون عليها ثياب الأساطير . وقد سُرَّت قلوب
كثيرة بقلب محمد على من تبوءه ، وترجت عواطفها هذه شرراً يُتَنَسَّقَى به
ولا يعرف قائله . . .

من ذلك ما روى عن أسماء بنت أبي بكر قالت : مكثنا ثلاث ليال ما ندرى :
أين وجه رسول الله حتى أقبل رجل من أسفل مكة يتنفي بأيات من الشعر :
جزى الله رب الناس خير جزائه رفيق حلاً خيمتى أم معبد
ها تولا بالبر ثم تروها . . . فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن يى كعب مكان قلوبهم ومقصدها للمؤمنين بمحمد .
قالت أسماء : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ، وأن وجهه إلى المدينة !
من القائل ؟ تذكر الرواية أنه من الجن ! وتلك عادة العرب في نسبة شعرها ،
فلكل شاعر عديم شيطان ! . .

والراجع أن الأبيات المذكورة من إنشاد مؤمن يكتم لإيمانه بمكة . ويسمع
أخبار المهاجرين فيبدي فرحه بما يلقون من توفيق ، ويمجد متنفسا لمشاعره القوارية
في هذا التفاء للرسول . .

والأبيات تشير إلى واقعة عرضت للرسول في أثناء رحلته . قد مر على منازل
خزاعة ، ودخل خيمة أم معبد ، فاستراح بها قليلا ، وشرب من لبن شاتها .

الوصول إلى المدينة

وكذلك تزامت أخبار المهاجر العظيم وساحبه إلى المدينة ، فكان أهلها يخرجون كل صباح يمدون أبصارهم إلى الأفق البعيد ، ويتشوقون إلى مقدمه بلهفة . فإذا اشتد عليهم الحرّ عادوا إلى بيوتهم يتواعدون الند وملء جوانحهم الترقّب والتعلق والرجاء .

وفي اليوم الثاني عشر من ربيع الأول ثلاث عشرة سنة من البعثة برز الأنصار على عادتهم منذ سمعوا بمخرج الرسول إليهم ، ووقفوا بظاهر المدينة ينتظرون طلعه ويودون رؤيته . فلما حيت الظهيرة وكادوا يأسون من مجيئه ويقبلون إلى بيوتهم صعد رجل من اليهود على أطم من آطامها ، ليمض شأنه ، فرأى الرسول وصحبه يتقاذفهم السراب ، وتدنيهم الراجل رويداً رويداً إلى المدينة ، إلى وطن الإسلام الجديد ، فصرخ اليهودي بأعلى صوته : يا بني قيلة ، هذا صاحبكم قد جاء هذا جدكم الذي تنتظرون . . .

فأسرع الأنصار إلى السلاح يستقبلون به رسولهم . ومع التكبير يرفع أنحاء المدينة . ولست نثر حلة المد ومواجهه .

قال البراء : أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، فجملاً بقرآن الناس القرآن . ثم جاء عمار وبلال وسعد . ثم جاء عمر ابن الخطاب في عشرين راكباً . . ثم جاء رسول الله . فما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرهم به ، حتى رأيت النساء والصبيان والإماء يقولون : هذا رسول الله قد جاء .
يا عجباً لتفاض الحياة واختلاف الناس ! إن الذي شهرت مكة سلاحها لتقتله ، ولم ترجع عنه إلا مقهورة استغلتته المدينة وهي جذلانة طروب ، وتنافس رجالها يمرضون عليه النعمة والمدة والعدد . . ومن الطريف أن كثيراً من أهل المدينة لم يكن رأى رسول الله ، فلما قدم الركب لم يعرفوه من أبي بكر لأول وهلة حتى أن الله إتق كن يترأى به نوق السموت يقلن : أنهم هو ؟

وتنزل النبي ١٠ بيو، عمرو س، ووف حانم ديه أربع عشرة ليلة أسس خلالها مسجد

قباء . وهو أول مسجد أسس في الإسلام ، وفيه نزل قوله تعالى : « لَسَجْدُكَ أُسْوَ
على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه . فيهرجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا . . »
الاستقرار بالمدينة

رجل العقيدة يسير طوعاً لها ، ويجد طمأنينته حيث تفر عقيدته وتلقى
الرحب والسمة . .

والناس يشدون سعادتهم فيما تعلقت به همهم وجاشت به أمانتهم وهم ينظرون
إلى الدنيا وحظوظهم منها على ضوء ما رسب في نفوسهم من عواطف وأفكار . .
فطالب الزمالة يرضى أو ينقم ، وينشط أو يكسل ، بمقدار قربه أو بُعْده من
أمله الحبيب .

انظر إلى التنبي كم مدح وهجا ؟ وكيف اهتل من الشام إلى مصر ، ومن مصر
إلى غيرها وانظر إلى ذكره أحاديث الناس عنه وعن بنيته .

يقولون لى : ما أنت ؟ فى كل بلدة وما تبتنى ؟ ما أبتنى جل أن يُسمى
والذى جل أن يسمى صرّح به فى مكان آخر فطلب أن تُنَاط به ضيمة أو ولاية !!
أى بمضى ما وضعت الخطوط فى أيدي الملوك والملاك . وإنه ليتجمل هذا الأمل من
كافور فيقول :

أبا السك هل فى الكأس فضل أناله ؟ فإن أغنى منذ حين وتشرب !
والتبى - فى نظرى - أهل - بكفايته - للناسب الرقعة . ولكن التطلع
إلى الدنيا بهذا الزق والإلحاح ، محكوم بالشبهة التى ذكرتها الآية الكريمة « من
كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد . . »
ومن الناس من يتمشق الجمال ويمجرى وراء النساء ويمجد فى اللثة يهن نهمة
التي يسكن بعدها ويستكين ، ويقول :

لا أرى الدنيا على نور الضحى بل أرى الدنيا على نور الميرون
ومنهم من يبعث عن المال ويقضى سحابة نهارة وشطر ليله يتبع الأرقام
فى دفاتره ، يحصى ما وقع فى يده ويتربص بما لم يقع . وربما ذهل عن طعامه ولباسه
فى غريزة الاقتناء التى سدت عليه المنافذ .

إلى جانب هذه الأسناف تجد فرقة آخر من البشر لا يطيق الكف عن إساءة الجليل وبذل النصيحة ورعاية الصالح العام وإفناء ذاته في سبيل الفضائل التي ملكت له ومهرت قلبه ...

إنه يبيت مُسَهَّدًا لو فرط في واجب ... راحته الكبرى في نشدان الكمال .
وسعادته القصوى يوم يدرك منه سهما ...

وأحباب الرسائل وهناء ما تحملوا من أمانات ضخمة ، فنانهم ومنازمهم وحلمهم وترحالمهم وسداقهم وخصومتهم ترجع كلها إلى الماني التي ارتبطوا بها .
وحياو لأجلها . .

وساحب الرسالة المظلي محمد بن عبد الله ضرب من نفسه الثلث الفذ للكافرين فنذا أخذ على عاتقه تمزيق الأسداف التي ألقت على العالم ليلا كشيئا من الشرك والخرافة . لم يفلح أحده في نفيه عن عزمه أو تمويق مسيره أو ترضيته برغبة أو ردهه برهبة ، وفنيت أمام عينيه فوارق الزمان والمكان ، فالغريب منه — إذا عرف الحق — قريب ووطنه إذا تنكر للهدى فهو منه بىء . والمؤمنون به آخر الدهر هم إخوته وإن لم يشاهدوه . . .

ولقد عاش في مكة ثلاثة وخمسين عاما حتى أنفها وألفته لكنه اليوم يخرج منها إلى وطن جديد يرى فيه امتداد قلبه وثمار غرسه .

والرجال الذين تنبع سعادتهم من قلوبهم ويرتبطون أمام ضمائرهم بمبادئهم لا يكرمون بيئة بعينها إلا أن تكون سدى لما يريدون ...

فلا غرو إذا دخل محمد المدينة دخول الوامق المعز . واستبشر بما آتاه الله فيها من فتح . وتوسم من وراء هذه الحجره بشائر الخير والنصر .

نوى في قريش بضع عشرة حجة	يذكر لو يلقى حبيبا مواتيا
ويرض في أهل المواسم نفسه	فلم ير من يؤوى ولم ير واعيا
طما أنانا واستترت به النوى	وأصبح مسرورا بطيبة راضيا
وأصبح لا يخشى ظلالة ظالم	بميد ولا يخشى من الناس باغيا
يدلنا له الأموال من جر الن	وأعشنا عند الوغى والتأسيا

نمادى اتقى مادی من الناس كلهم جيماً وإن كان الحبيب المصافيا
ونسلم أن الله لا رب غيره وأن كتاب الله أصبح هاديا



إن تنظيم الهجرة واستقبال اللاجئين الفارين يدينهم من شتى البقاع ليس بالعمل
المهين . وفي عصرنا الحاضر تعتبر هذه الحال مشكلة تحتاج إلى الحل السريع !
ومتى خلت حياة الرجل العظيم من المشكلات ؟ .

وسادف إبان الهجرة أن كانت المدينة موبوءة بمحمى اللاريا . فلم تمض أيام حتى
مرض بها أبو بكر ، وبلال . واستوخم الصحابة جوّ المهجر الذى آوأم . ثم أخذت
تستيقظ غرائز الحنين إلى الوطن الفقد . . فكان النبىُّ يُصَبِّرُ الصحابة على أحمال
الشدائد . ويطلبهم بالزيد من الجهد والتضحية لنصرة الإسلام وقال : « لا يصبر على
لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتى إلا كفت له شفيماً وشهيدا يوم القيامة ، ولا يدعها
أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه » .

وهذا ضرب من جمع القلوب على المهجر الجديد حتى تطيب به وتنفر من مفارته .
وعن عائشة قالت : لما قدم النبىُّ المدينة وعك أبو بكر وبلال ، فدخلت عليهما
قلقت : يا أبت كيف تجمدك ؟ وبأ بلال كيف تجمدك ؟ وكان أبو بكر إذا أخذه
الحمل يقول :

كل امرئ مصبّح في أهله وللموت أدنى من شركاء معه
كان بلال إذا أقبل عنه يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعرى هل أيتنّ ليله بوادٍ ، وحولى إذخر وجليل ؟
وهل أردين يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل ؟^(١)

قالت : فأخبرت رسول الله بذلك فقال : « اللهم حبّب إلينا المدينة كحبنا مكة
أو أشد ، اللهم وصحبها وبارك لنا في مدّها وصاعها ، وانقل عُصّاه واجعلها بالجنّة »
وعن أنس قال رسول الله : « اللهم اجعل بالمدينة ضِعْفَى ما جعلت بمكة
من البركة » .

ومن أبي هريرة قال : « كان رسول الله إذا أتى بأول الثمر قال : اللهم بارك لنا في مدينتنا وفي ثمارنا وفي مُدُننا وفي صاعنا ، بركة مع بركة ، اللهم إن إبراهيم عبدك ونبيك وخليفك وإنى عبدك ونبيُّك وإنه دعاك لمكة ، وأنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه » ثم يعطيه أسفر من يحضر من الولدان . . .

بهذه التشويق والإقبال ارتفع الروح المنوى بين المسلمين ، وانجذبت القوى الفنية إلى البناء ، متناسبة لماضى وما يضم من ذكريات ، إن الهجرة الخالصة لا تنود في هبة ولا ترجع عن تضحية ولا تبكى على فائت ، بل هي كما قال الشاعر :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تنكد إليه بوجه آخر الدهر تُقبِلُ 11...

(۵)

اِسِّسْ لِبِنَاءِ الْجَمْعِ الْحَبْدِيدِ

ليست الأمة الإسلامية جماعة من الناس مهما أن تبيض بأى أسلوب ، أو تختط طريقها في الحياة إلى أى وجهة . ومادامت تجد القوت واللذة فقد أراحت واستراحت . كلا كلا قال المسلمون أصحاب عقيدة محمد صلّهم الله وتوضع نظرتهم إلى الحياة وتنظم شئونهم في الداخل على أنحاء خاصة وتسوق صلاتهم بالخارج إلى غايات معينة ... وفرق بين امرئ يقول لك : همى في الدنيا أن أحيا فحسب ! وآخر يقول لك : إذا لم أحرس الشرف وأسن الحقوق وأرض الله وأعضب من أجله فلا سمت بي قدم ولا طرفت لي عين ... !!

والماجرون إلى المدينة لم يتحولوا عن بلدهم ابتغاء راء أو استملاء . والأنصار الذين استقبلهم وناسبوا قوسهم القماء وأهدفوا أعتاقهم للقاسى والذانى لم يفعلوا ذلك ليمشوا كيفما اتفق ...

إنهم جميعا يريدون أن يستضيئوا بالوحي ، وأن يحصلوا على رضوان الله ، وأن يحققوا الحكمة العليا التي من أجلها خلق الناس وقامت الحياة . وهل الإنسان إذا جسد ربه وتبع هواه إلا حيوان ذميم أو شيطان رجيم ؟؟

من هنا شغل رسول الله أول مستقره بالمدينة بوضع الدعائم التي لا بد منها لقيام رسالته . وتبين معالمها في الشئون الآتية :

١ — صلة الأمة بالله .

٢ — صلة الأمة بعضها ببعض الآخر .

٣ — صلة الأمة بالأجانب عنها . ممن لا يدينون دينها .

المسجد

ففي الأمر الأول بادر الرسول إلى بناء المسجد لتظهر فيه شعائر الإسلام التي طالما حورت . ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين ، وتنتقى القلب من أدران الأرض ودسائس الحياة الدنيا .

... ثم أن رسول بني مسجد الجامع حيث بركت ناقته ، في مرید لفلامين ... بن ذرّة . وكان "فلامان يريدان النزول عنه لله فأبى الرسول إلا ابتياعه

بشمته ! وكان الريد يُتخذ مصلى كهذه المصليات التي تنتشر في ريفنا . كانت تنبت فيه نخيل وشجر غرقد . وتحتفى في ترابه بعض مجبور للشركين .

فأمر الرسول بالنخل ققطع ، وبالقبور^(١) فنبشت ! وبالحرب فسميت . وصفوا النخل قبة للمسجد — والقبة يومئذ بيت للقدس — وجعل طوله مما يلي القبة إلى المؤخرة مائة ذراع والجانبان مثل ذلك تحريماً . وجعلت عضاداته من الحجارة ، وحفر الأساس ثلاثة أذرع ، ثم بنى بالطين . واشترك الرسول وأصحابه في حمل اللبنة والأحجار على كواهلهم .

وكانوا يروّحون عن أنفسهم عناء الحمل والنقل والبناء . . . بهذا التناء .

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فأغفر للأنصار والمهاجرة !
وقد ضاعف حماس الصحابة في العمل رؤيتهم النبي يجهّد كأحدهم . ويكره أن يتميّر عليهم . فأرتجز بعضهم هذا البيت :

لئن قمداً والرسول يعمل لذاك منا العمل المضلل !
وتم المسجد في حدود البساطة ، فراشه الزمال والحصاء وسقفه الجريد وأعمدته الجنود . وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه . وقد نقلت الكلاب إليه فتخدو وتروح . هذا البناء التواضع الساذج هو الذي ربّى ملائكة البشر ومؤدبي الجبارة وملوك الدار الآخرة . في هذا المسجد أذن الرحمن لنبي يؤم بالقرآن خيرة من آمن به يتمهدم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل .

إن مكانة المسجد في المجتمع الإسلامي تجعله مصدر التوجيه الروحي والهادي . فهو ساحة للمباداة ومدرسة للعلم وندوة للأدب . وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليدهى لباب الإسلام لكن الناس لما أعيام بناء النفوس على الخلائق الجليلة ، استعاضوا عن ذلك ببناء المساجد السامقة تضم مصليين أقزاما ! أما الأسلاف الكبار فقد انصرفوا من زخرفة المساجد وتشيدها إلى تركية أنفسهم وتقويمها فكانوا أمثلة صحيحة للإسلام .

والمسجد اتقى وجه الرسول همته إلى بناءه قبل أى عمل آخر بالمدينة ليس أرضاً تحتكر العبادة فوقها . فالأرض كلها مسجد . والسلام لا يتقيد في عباده بمكان .

(١) من أجدث أتى عليها إلى حتى هجرت فلا يدفن بها أحد .

إنما هو رمز لما يكثر له الإسلام أعظم اكترت وتثبت به أشد تثبت وهو وصل العباد برهم وصلا يتجدد مع الزمن ويتكرر مع آناء الليل والنهار . فلا قيمة لحضارة تذهل عن الإله الواحد ، وتجهل اليوم الآخر ، وتخلط المروف بالانكرا والحضارة التي جاء بها الإسلام . تذكر أبدأ بالله وبقائه وتتمسك بالمروف وتبفض في التكر وتقف على حدود الله .

ولقد شاهد يهود المدينة ومشركونها هذا الرسول الجديد يحتشد مع صبه في إقامة المسجد يمهده للصلاة فهل رأوا سيرة تريب أو مسلكا ينمز ؟ ؟

روى البيهقي عن عبد الرحمن بن هوف قال : كانت أول خطبة خطبها رسول الله بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد أيها الناس قدموا لأنفسكم . تملن والله ليصقن أحدكم . ثم ليدعن غنمه ليس لها راع . ثم ليقولن له ربّه — ليس له ترجان ولا حاجب يحجبه دونه — ألم يأتك رسول فيملك ؟ وآتيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً . ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم . فن استطاع أن يبق نفسه من النار ولو بشق تمره فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة . فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام عليكم وعلى رسول الله

الأخوة

أما عن الأمر الثاني — وهو صلة الأمة بعضها ببعض الآخر — فقد أقامه الرسول على الإخاء الكامل ، الإخاء الذي تحي فيه كلمة «أنا» . ويحرك الفرد فيه بروح الجماعة ومصالحها وآمالها . فلا يرى لنفسه كياناً دونها ، ولا امتداداً إلا فيها . ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبية الجاهلية فلا حية إلا للإسلام . وأن تسقط فوارق السب واللون والوطن . فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروده وتقواه وقد حمل الرسول هذه الأخوة عقداً دقداً لا لفظاً فارغاً ، وعلا يرتبط بالعماء والأمم لا تحية تثرثر بها الأنسة ولا يقوه لها أثر . . . !

وكت خواطف الإيثار والنواصة والمؤسسة تتيج في هذه الأخوة وتعلو المجتمع حميد بروح لأمة .

حرّص الأنصار على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين . فما نزل مهاجر على أنصارى إلا بقرعة ! ! وقدّر المهاجرون هذا البذل الخالص فهاستغلوه ، ولا نالوا منه إلا بقدر ما يتوجهون إلى العمل الحر الشريف .

روى البخارى أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع : فقال سعد لسعد الرحمن : إلى أكثر الأنصار مالا ، فأقسم مالى نصفين ، ولّى امرأتان فانظر أتعجبهما إليك ! فسمّاهما إلى ألقابها ، فإذا انقضت عتباتها تزوجها ، قال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، أين سوقكم ؟ ؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع ، فاقلب إلا ومعه فضل من أقطر ومن ! ! ثم تابع القُدُوء ... ثم جاء يوماً ، وبه أثر سفرة^(١) ، فقال النبي ﷺ^(٢) ؟ قال : تزوجت ! قال : كم سقت إليها ، قال : فوأة من ذهب ! !

وإعجاب الرء بساحة سعد لا يمدله إلا إعجابه ببذل عبد الرحمن ، هذا الذى زاحم اليهود فى سوقهم ويزّم فى مدينتهم . واستطاع بعد أيام أن يكسب ما يفيض به نفسه ويحصن به فرجه . إن علو الهمة من خلائق الإيمان . وقبح الله وجوه أقوام انتسبوا للإسلام فأكلوه . وأكلوا به . حتى أضاعوا كرامة الحق فى هذا العالم . . . وكان رسول الله الأخ الأكبر لهذه الجماعة المؤمنة . لم يتميز عنهم بقلب إعظام خاص وفى الحديث « لو كنت متخذاً من أمى خليلاً لآخذته — يعنى أبا بكر — خليلاً ولكن أخوة الإسلام أفضل » .

والإخاء الحق لا يثبت فى البيئات الخسيسة حيث يشيع الجهل والنقص والجبن والبخل والجشع لا يمكن أن يصح إخاء أو ترعرع محبة . ولولا أن أصحاب رسول الله جياروا على شمائل قية ، واجتمعوا على مبادئ رضية ما سجلت لهم الدنيا هذا التأخى الوثيق فى ذات الله . فسمو الناية التى تقوا عليها . وجلال الأسوة التى قادتهم إليها تميها فيهم خلال الفضل والشرف ولم يبتا مكاناً لتجوع خلة رديئة ! !

ذلك . ثم إن محمداً كان إنساناً تجمع فيه ما تفرق فى طام الإنسان كله من أعجاب ومواهب وخيرات ، وصورة لأعلى قة من السكّال يمكن أن يبلغها بشر ، فلا غرو إذا

كان الذين قبسوا منه ، وداروا في فلكه ، رجالا يميون بالتجعة والوفاء والسخاء .
إن الحب كالنبيج الدافق يسيل وحده ، ولا يتكلف استخراج به بالآلات والأثقال
والأخوة لا تفرض بقوانين ومراسيم وإنما هي أثر تخلص الناس من نوازغ الأثرة
والشع والضمّة . وقد تبودلت الأخوة بين المسلمين الأولين لأنهم ارتقوا بالإسلام
في نواحي حياتهم كلها فكانوا عباد الله إخواناً . ولو كانوا عبيد أنفسهم ما بقي
بعضهم على بعض ١١ .

على أن تنزهنا بقيمة التماسي النفساني في تأسيس الإخاء لا يمنع الحاكم من
فرضه على الناس نظاماً يؤخذون بحقوقه أخذاً ، فإذا لم يؤدوها طوعاً أذوها كرهاً .
وذلك كما يجبرون على العلم ، والجندية ، وأداء الضرائب ، وغير ذلك .

وقد ظلت عقود الإخاء مقدمة على حقوق القرابة في توارث التركات إلى موقعة
بدر . حتى نزل قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » .
إن الله بكل شيء عليم » فالنبي التوارث بعقد الأخوة ودجع إلى ذوى الرسم .
وروى البخاري عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى : « ولكل جملنا موالى »
مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم . . .

قال : كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرون الأنصارى ذوى رحمة
للأخوة التي آخى النبي بينهم . فلما نزلت « لكل جملنا موالى . . . » نسخت ذلك
ثم قال : « والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم . . . » من النصر والرفادة
والنصيحة وقد ذهب الميراث ويوصى له .

وروى في تفصيل هذا الإخاء ، أن النبي « آخى مع علي : وتآخى حمزة مع زيد ،
وأبو بكر مع خارجة ، وعمر مع عتيان بن مالك . . الخ
ومن العلماء من يشك في أخوة الرسول مع علي . ولكن ما سح أن رسول الله
جس طياً منه بمنزلة هرون من موسى يؤيد هذه الرواية . وليس يخدش هذا من
منزلة النبي كبر ولا استحقاقه الصدارة .

غير المسلمين

أما الأمر الثالث . وهو صلة الأمة بالأجانب عنها الذين لا يدينون بدينها ، فإن الرسول قد سنّ في ذلك قوانين السّلم والتّجاوز التي لم تمهد في عالم مليء بالتّصعب والتّخالي ، وأقوى يظن أن الإسلام دين لا يقبل جوار دين آخر ، وأن المسلمين قوم لا يستريحون إلا إذا انفردوا في العالم بالبقاء والتّسلط ، هو رجل مخطيء بل متعامل جرى

عندما جاء النبي ﷺ إلى المدينة وجد بها يهود توطئوا ، ومشركين مستقرين : فلم يتجه فكره إلى رسم سياسة للإبادة أو المصادرة والخصام ، بل قبل عن طيب خاطر وجود اليهودية الوثنية وعرض على الفريقين أن يهادم يهادم معاهدة التّد لند على أن لهم دينهم وله دينه ونحن نشتط فقرات من نصوص المعاهدة التي أبرمها مع اليهود دليلاً على اتّجاه الإسلام في هذا الشأن .

جاء في هذه المعاهدة أن المسلمين من قرش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة . . .

وأن المؤمنين الصّيق على من بنى منهم أو ابنتى دسيمة^(١) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ؛ وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم
وأنه لا يجير مشركٌ مالا قرش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن
وأنه لا يحمل المؤمن أقر بما في هذه الصّحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُعذّباً^(٢) ولا يؤويه ، وأنهم نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين .

لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .

وأن لليهود بني النّجار والحارث وساعدة وبني جشم وبني الأوس الخ .

مثل ما لليهود بني عوف . . .

وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .
وأنه لم يأتهم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ... !
وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .
وأن من خرج آمن ، ومن قعد بالمدينة آمن إلا من ظلم وأنهم ...
وأن الله جاز لمن بر واتقى ...

وهذه الوثيقة تنطق برغبة المسلمين في التعاون الخالص مع يهود المدينة لنشر السكنية في ربوعها ، والضرب على أيدي الماديين ومدبري الفتن أباً كان دينهم . وقد نصت — بوضوح — على أن حرية الدين مكفولة . فليس هناك أدنى تفكير في عاربة طائفة أو إكراه مستتصاف . بل تكاثفت المبرات في هذه الماهدة على نصرة المظلوم وحماية الجار ورعاية الحقوق الخاصة والعامة . واستنزل تأييد الله على أرض ما فيها وأتقاء كما استنزل غضبه على من يخون ويفش ...

واتفق المسلمون واليهود على الدفاع عن يثرب إذا هاجمها عدو . وقررت حرية الخروج من المدينة لمن يبتغي تركها ، والقعود فيها لمن يحفظ حرمتها .

ويلاحظ أن الرسول في هذه الماهدة أشار إلى العداوة القائمة بين المسلمين ومشرك مكة . وأعلن رفضه الحاسم لموالاةهم وحرّم إسداء أى عون لهم . وهل يتظر إلا هذا الموقف من قوم لا تزال جروحهم تقطر دماً لبنى لقريش وأحلافها عليهم

كان اليهود سادقين في ، و تبيته على هذا العهد ؟

أعاب الذين أنهم لم يكونوا جادين حين ارتضوه وقبلوا بإفادته . وآفة اليهود أن رتبط لوفده بها بمدى المنفعة المرحوة منها . بيد ما أن المعاهدة المبرمة لا تحقق الطامع منها . فتمسك به ، واستمسك به ، ثم لم يتحمل منها ...

وهكذا كان يهود يثرب يذوقون عذابه دية : سب . ثم على تنريق العرب ببائل متناحرة .

فلما دخل العرب في الإسلام وأخذت الحزازات القديمة تتلاشى . وتمايت الأيام
تؤكد أن الإسلام سوف يصنع من العرب أمة واحدة . . . استشعر اليهود القلق
وساورتهم المموم ، وشرموا يفكرون في الكيد لهذا الدين والتربص بأتباعه ...
ثم إن اليهود في المدينة يكوّنون البيئة التي تتوافر فيها سوءات التدين المصنوع .
والاحتراف السميع بعبادى السماء . وأبرز خلال هذه البيئات الحقد والنفاق والتمسك
بالقشور والولع بالجدل . ومن وراء ذلك قلوب خربة ونفوس مموجة .
وربما اقتبسوا من جوارم العرب بعض فضائل الصحراء كالكرم والشجاعة .
بيد أن انطواءهم المنصرى غلب على سيرتهم . فالتصقت هذه الفضائل بنفوسهم كما
تلتصق أوراق الزينة بالجدران المشوهة ...

وكان المتوقع أن يرحب اليهود بالإسلام ، فإذا لم يرحبوا به فليكونوا أبطاً من
الوثنيين في مخاصمته . فإن عمداً يدعوا إلى توحيد الله وإصلاح العمل والاستعداد لحياة
أرقى في الدار الآخرة والدين القى جاء به وقر موسى وأعلى شأنه ونوه بكتابه .
وطلب من اليهود أن يتغذوا أحكامه ويلزموا حدوده . لكن اليهود صمتوا أولاً صمت
المستريب . ثم بدا لهم قروروا المائلة بالبحود !!

وهذا الترحيب المتوقع تلمح دلالة في كثير من الآيات . فإن عبدة الأصنام إذا
أنكروا النبوة فأهل الكتاب يجب أن يشهدوا بها « ويقول الذين كفروا : لست
مرسلاً . قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » .
وعبدة الأصنام إذا رفضوا التكبير بالله فأهل الكتاب أحق بأن ينخسوا إذا
وجدوا من يذكرهم به « ولقد وصلناهم القول لمعلم يتذكرون . الذين آتيناهم
الكتاب من قبله هم به يؤمنون » .

غير أنك تدهش إذ تجد الجرأة على الله والنفور من أحكامه ووصفه بما لا يليق
شائعة بين اليهود شيوعها بين المشركين !!

فإذا غضب الإسلام على من ينسب إلى الله ولداً ، بشراً أو حجراً ، فإذا ترى
فيمن يصف رب السموات والأرض بالفقر والبخل ؟

« وقالت اليهود : يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ! ولعنوا بما قالوا .. »

« لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء . سمعنا ما قالوا ، وقتلهم الأنبياء بنير حق . وتقول : ذوقوا عذاب الحريق » .



على أن الإسلام يدع أولئك المجردة في ضلالهم فلا يستأصل كفرهم بالسيف ، ويكتفى بأن يعلن دعوته ويكشف حقيقته وعلا الجوابات ومعاله . فمن استراح إليها فدخل فيها . فيها ونعمت . وإلا فهو وشأنه . ولا يطالبه الإسلام بشيء إلا الأدب والمسالمة وترك الحق يسير من غير عائق أو تكسير ..

ولقد جاء رسول الله إلى المدينة فد يده إلى اليهود مصالفاً ، وتحمل الأذى مسامحا حتى إذا رآهم مجمعين على التنكيل به وعو دينة ، استدار إليهم ، وجرت بينه وبينهم من الوقائع ما ستقص أخباره في موضعه ..



بتقوى الله والإخلاص له دعت الناحية الروحية في هذا المجتمع الجديد ، وبالإخاء الحق تماسك بنيانه وتوثقت أركانه .. وبالمعدل والمساواة والتعاون رسمت سياسة الأجانب وعومل أتباع الأديان الأخرى .

ومن ثم استقرت الأوضاع ووجد المسلمون متمساً لتجديد قوامهم وترتيب شئونهم

المصطفون الأخيار

إن المؤمنين الذين صحبوا الأنبياء واقتربوا من حياتهم أتيح لهم ما لم يتح لغيرهم من منافع الصفاء ووسائل الارتقاء .

إن مشاعرك ترق عندما تسمع النغم العذب ، وعواطفك تسمو عندما تقرأ البطولة الزامة ، بل إن الذين يحضرون تخيل بعض الروايات المثيرة يصيغهم حوافر القصة لفتنة فيضحكون ويكون ويهدأون ويضعون .. فما ظنك بقوم يتبعون رجلاً تسكلمه السماء ويتفجر من جوانبه الكمال ويسكب على من حوله آيات انصهر؟ فإذا ثقلت نفوسهم عن خير دفع بها إلى الأمام ، وإذا علقت بمسالكتهم شهوة قها فرد عليها سناءها ؟ إن لعتلاء إشعاء ينمر البيئة التي يظهرون فيها

وكما يقترب الصباح الخالد من الصباح المشتعل فيضئ منه ، تقترب النفوس المتادة من الفرد المتناز فتطوى في مجاه وتمشى في آثاره ! !

وقد التفت بمحمد فريق من الربانيين الأتقياء ، كانوا له تلاميذ مخلصين فزكت بمحبته نفوسهم وشفقت طباعهم حتى أشرق عليها من أنوار الإلهام ما جعلها تنطق بالحكمة وفصل الخطاب .

ولا تحسبن العقل الجبار — مهما أوتي من نفاذ — يستطيع إدراك السكال بقوته الخاصة . فإذا لم تسدده عناية عليا فإنه سيجوب كل أفق دون أن يبصر غاية أو يهتدى طريقا ، كالطيار الذي يضل في الجو عندما يتكاثر أمام عينه الضباب ، إنه يحكم القيادة ويضبط الآلات ويرسل أنوار مصابحة في أحشاء النجوم المتراكمة . فإذا لم يلق إرشادا يحدد له مكانه ويؤده وكيف يهبط ... فإنه سيظل يخلق عبثا .. ثم تهوى به الريح في مكان سحيق . . . !

وكم من فلاسفة الجواشئون الكون والحياة : فهم من ضل عن الحق على طول بحثه عنه ، فلم يصل إليه قط ! ومنهم من استغرق في الوصول إليه أعواماً طوالا : ولو مشى وراء الرسل لانتهى إليه في أيام قصار ، وهو في مأمن من الشرود والفتار ! ثم إن الإنسان ليس عقلا غسب ، إنه — قبل ذلك — قلب ينبغي أن يسلم من الأهواء والآثام ، وأن ينجو من الشقاوة والظلام وأن يكون في حنايا صاحبه قوة تسوق إلى الخير والحب ، وحاديا يهفو إلى الجلال والرحمة ...

والرسولون الكرام يمهّدون ضمائر البشر بالتعليم والتربية ، وأشبه الناس بهم من اقتنى آثارهم وأخذ في طريقهم . وأول أولئك قاطبة من محبوبهم في حياتهم ، وقاسمهم أعباء دعوتهم ومنازم جهادهم ...

قال عبد الله بن مسعود : من كان مستنئاً فليستن بمن ملت . فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة . أولئك أصحاب محمد . كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً . اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه . فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على أثرهم ونمّسكوا بما استطعتم من أخلافهم وسيرهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم ...

ولا شك أن أصحاب محمد يرجعون أصحاب موسى وهيسى . فإن تاريخهم في الإيمان والجهد وإبلاغ الدعوة إلى الأخلاف كاملة مضبوطة ، غير منقوسة ولا معرفة لا يشبه أى تاريخ آخر ...

ونحن نسوق هذه المقدمة بين يدي الكلام عن الأذان ، وكيف شرع ؟ فإن ميلاد هذه الشميرة العظيمة يحمل معه آيات بينة عن عظمة النفوس إذا صفت فنضحت بالحق ، وسكن إليها الإلهام ...

قال ابن إسحاق : وقد كان رسول الله حين قدم المدينة إنما يجتمع الناس إليه للصلاة حين موافقتها بغير دعوة . فهم رسول الله أن يحمل بوقا كبوق يهود القى يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه . ثم أمر بالناقوس . فنتحت ليضرب به للمسلمين للصلاة . فبينما هم على ذلك رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة أخو بني الحارث النداء . فأتى رسول الله فقال : يا رسول الله ، أنه طاف بي هذه الليلة طائف ؟ مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده ، قلت : يا عبد الله ، أنبئ هذا الناقوس ؟ فقال : وما تصنع به ؟ قال : قلت ندعوه إلى الصلاة ... قال ألا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قال : تقول : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله . حتى على الصلاة حتى على الصلاة ، حتى على الفلاح حتى على الفلاح . الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله . فلما أخبر بها رسول الله قال : إنها لرؤيا حق إن شاء الله ! فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها ، فإنه أئدى صوتاً منك . فلهذا أذن بها بلال سمعه عمر وهو في بيته ، فخرج إلى رسول الله وهو يمر رداءه يقول : يا نبي الله ، والذي بمثلك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى !! فقال رسول الله : فله الحمد . وفي رواية . فمضى رسول بلالاً فأذن به . قال الزهري : وزاد بلال في نداء النداء : الصلاة خير من النوم مرتين . فأقرها رسول الله .

وفي رواية أخرى رأى عمر في المنام : لا تجملوا الناقوس ، بل أذنوا للصلاة . فنسب عمر إلى النبي ليخبره بما رأى وقد جاء النبي الوحى بذلك فما راح عمر

إلا بلال يؤذن . فقال رسول الله — حين أخبره بذلك — : قد سبقك بذلك الوحي وهذا يدل على أن الوحي قد جاء بتقرير ما رآه عبد الله بن زيد ...

هذه الكلمات الطيبة التي ترتفع بين الحين والحين تفرح الأذان وتوقظ القلوب وتصحح بالناس : حلوا إلى الله ... وماها في رؤيا سالحة ذهن نير ، فأسرع بها إلى رسول الله ، يرويها كما ألقيت في روعه ، لتكون نداء المسلمين إلى الصلاة ما أقيمت على ظهر الأرض صلاة ...

وتجاوب النفوس مع الوحي هو غاية التألق وقة الحق ، وهو أمانة على أن الهدى أصبح غريزة فيها ، فهي تستقيم عليه في البقطة والنوم وتوجه إليه على البديهة وبعد التروى ، وكان رسول الله يربط أصحابه بالوحي النازل عليه من السماء ربطاً موقفاً ، يقرؤهم عليهم ، ويقرأونه عليه ، لتكون هذه الدارسة إشعاراً بما على الصعاب من حقوق الدعوة وتيمات الرسالة فضلاً عن ضرورة الفهم والتدبر !!

عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله : اقرأ على القرآن ! قلت : يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب أن أسمه من غيري ! قال : فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » قال : حسبك الآن ، فالتفت إليه ، فإذا عيناه تذرفان ...

زاد في رواية « شهيداً ما كنتُ فيهم ... » .

وإذا كان الاهتمام إلى ألفاظ الأذان قد ترشحت له سريرة مصفاة مشفوعة بالعبادة مشفوعة بالحق ، فإن من أصحاب محمد كذلك من اندمجوا في معاني الإيمان وخلصوا لمعنى الرسالة ، حتى إن الله أمر رسوله أن يقرأ عليهم بعض سور القرآن ، تنويرها بإمكانهم عند الله ورسوخهم في آياته .

عن أنس بن مالك قال رسول الله لأبي بن كعب : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين ... » ، قال أبي : وسماني ؟ قال : نعم . وفي رواية « الله سماني لك ؟ قال : نعم . قال : وقد ذكرتُ عند رب العالمين ؟ قال : نعم : قال : فذكرت عيناه ...

معنى العبادة

وسر الارتقاء الروحي والجماعي الذى أدركه صحابة محمد أنهم كانوا موصولين بالله على أساس صحيح . فلم يشعروا فى العمل له بما يشعر به الكثير من عنت وتكلف ، ولا بما يمانون من شروء وحيرة . . !

هناك طبيعتان فى الإنسان غير متكورتين . الإعجاب بالمعظمة والعرفان للجميل . فعندما ترى آلة دقيقة أو جهازاً عجيباً أو سورة رائعة أو مقالا بليغاً فإنك لا تنتهى من تبين حسنه حتى تنطوى جوارحك على الإعجاب بصاحبه ، فإن الذكاء المبين والاعتدال البارز يجعلانك تنسحق من تلقاء نفسك احتراماً للرجل الذكى القدير . . ؟ وكذلك عندما يسدى إليك معروف أو تمتد إليك يدٌ بنعمة إنك تذكر هذا الصنيع لمن تقطوع به وعلى قدر ضخامة ما نلت من خير ، يلهمج لسانك بالثناء ويمتلئ فؤادك بالحمد كما قال الشاعر :

أفادتكم السماء منى ثلاثة يدي ، ولسانى ، والضمير المحجّب !!
ورسول الإسلام جاء بشير هاتين الطبيعتين نحو أحق شيء بهما . ألسنتُ تُعجب بالمعظمة وتمتحن بصاحبها ؟ ألسنتُ تقدر النعمة وتشكر مُسديها ؟ .

إنك ترمى بإجلال مخترع الطائرة ، وكلما رأيتهما تشق الفضاء زدت إشادة بسبقريته ! فأرايك فيمن يدفع الأثوف المؤلفة من الكواكب تطير فى جو السماء من غير توقف ولا عوج ؟ ما رأيك فيمن خلق عقل هذا المخترع ، وأودع فى تلافيف مخه الذكاء الذى وصل به إلى ما راحك واستنار إعجابك ؟ .

أليس ربك ورب كل شيء أحقّ بأن تعرف عظمته وتفتح هيونك على آثار قدرته ؟ فإذا عرفت عظمته من عظمة الوجود الذى يحيط بك خجلت من الهجوم عليه ونسبة ملا يلقى إليه !! ! وقت مع العارفين « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقت عذاب النار » .

بك لو استضافت شخص كريمة ورأيت البشاشة فى وجهه والسماحة فى قراءه خدعت له — ما حييت — هذه اللة . وسعيت — جهدك — كي تكافئه عليها . وحدت من تعرف بمسحيد هذا المضيف الكريم ، فما رأيك فيمن تولى أمرك

جنمائه من الهد إلى الاعد ؟ فأت لا تطعم إلا من رزقه ، ولا تكسى إلا من ستره ، ولا تأوى إلا إلى كنفه ، ولا تنجو من شدة إلا بإحذاه ... !!

إن محمداً وصل الناس برهم على ومضات لطف من تقدير العظمة ورعاية النعمة. فهم إذا انبثثوا لطاعته كانوا مدفوعين إلى أداء هذه الطاعات بأشواق من قوسهم ورغبات كامنة تجيش بتوقير العظيم وحمد النعم ...

والعبادة ليست طاعة القهر والسخط ، ولكنها طاعة الرضا والحب .

وليست طاعة الجبل والنفقة ، ولكنها طاعة المعرفة والحصافة !!

قد تصدر الحكومة أمراً بتسمير البضائع فيقبل التجار كارهين . أو أمراً بخفض الرواتب فيقبل الموظفون ساخطين ...

وقد تشير إلى البهيمة السجاء فتتقاد إليك لا تدري إلى مرتها أم إلى مصرعها . تلك أنواع من الطاعات بعيدة عن معنى العبادة التي شرع الله للناس . فالعبادة التي أجزاها الله على الأسته في الآية الكريمة « إياك نعبد وإياك نستعين » والتي جعلها حكمة الوجود وغاية الأحياء في قوله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » تعنى الخضوع القرون بالمعرفة والحب . أى الناشء عن الإعجاب بالمظمة والرفق الجميل .

وقد اطردت آيات القرآن تبين سلوك المؤمنين على هذه العمى الراسية فعى إذ تعرف الناس بالله ، تزيهم محائف مشرقة من خلقه البديع ، وفضله الجزيل ، تمزق ما نسجته النفلة على الأعين من جهالة وجهود .

« الله الذى خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجروا فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآنا كم من كل ما سألتموه ، وإن تمدوا نعمة الله لا تحصىها ، إن الإنسان لظالم كفار . » إن الرجل لا يقوم بالعمل العظيم وهو منساق إليه بالسياط السكاوية ، وإنما تولد الإجابة ويبلغ الشئ درجة الإحسان بما يقارنه من رغبة ورضا فإذا أقبل المرء بفكره وقلبه على معتقد ، وهبة نفسه وحسه . وعاش يحلم به فى منامه وينشط له فى يقظته وذلك ىرقى به سعدا فى فهم مبدئه وإجادة خدمته .

ومن ثم فإن الإسلام لا يحفل بالإيمان النظري البحت ، ولا يقبله إلا ليكون
سُلماً إلى ما بعده وهو الإيمان بالنقل والمحافظة مآ .

لا بد من تلوين الوجدان في قضايا الإيمان . ليس بمسلم من يعرف الله ويكرهه .
ولا قيمة لمسلم يعرف الله ووجدانه خال باهت فلا إيجاب فيه ولا شكران ، كما أنه
لا غمط فيه ولا جحود ::

والمسلم كل المسلم هو القى يعرف الله معرفة اليقين ويضم إلى هذه المعرفة إحساساً
بمتروك بمجادة الجيد ونماء المنعم ، تباركت أسماؤه ! !

والإيمان بهذه الثابتة هو الإيمان المتج . وهو سانع الجائب وباني الدول ومقيم
الحضارات السنية . هو القى يعمل الفرد يستعمل التكاليف المنوطة بنفسه ، فيقبل
على أدائها وكأنها رغبات نفس لا واجبات دين ..

أتظن أن رسول الله عندما قام يصلى حتى تورمت أقدامه . كان يقابل الألم الناجم
في بدنه كما يقابله التلميذ المذنب عندما يوقف الساعات الطوال معذباً مهاناً ؟

كلا كلا . إن استمذابه للمناجاة واستغراقه في الخشوع أذهله عما به ، وغلبا
على بواجر الألم الناشئ من طول الوقوف ...

والرجل الموقور الحساس الفائر الماطقة قد يظل يعمل ويدأب حتى يصل في عمله
ودأبه إلى درجة يصعب منالها على القاعدين الباردن ...

ووزن الأمور عند أصحاب الإيمان والهمم غير وزنها عند أصحاب الريبة والمعجز !
أترى حذيفة بن اليمان عندما انطلق يصرف أحوال الشركين في غزوة الخندق ،
في يمة باردة قارسة الحو لافحة السبرات :

لا يسح "سكلب فيها غير واحدة حتى يلف" على خيشومه الدنيا !

لقد انضق وهو يقول عن نفسه : كأنما أسير في حمام . ! ! هذه حرارة الإيمان
غمرت بصفه أرجل ، وجسته ينفذ في كبـد الليل البارد وكأنه سهم مسدد ، هذا
"لبيـز" تركـز على المواقف المتشدة هو القى أشمل المارك الطاحنة وقاد إلى النصر
المطمـر . وهو القى هذه ماركـر قرونا طويلة من سلطان الظلم والبنى ، بعد ما ظن
نه بن السبيح أبداً ...

وأساسه ما علمت من تغلغل الإيمان في العقل والمحافظة مما ، يندو شجرته
الباسقة مزيد من معرفة الله ، والشعور بمظلمته ونعمته . . .

ذلكم أسلوب القرآن في تعريف الناس بالله . إنه أسلوب يقيمهم على عبودية
الحب والتفاني لا على عبودية التحقير والمهوان ، عبودية الإعجاب بالعظمة والإقرار
بالإحسان لا العبودية المهمة التي تصدر الإرادة وترى بالإنسان .

« قل : الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اسطى الله خيرٌ أما يُشركون ؟
أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدائقَ ذَاتِ
بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ قَوْمٍ يَعْلَمُونَ !
أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ، وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيً ، وَجَعَلَ
بَيْنَ الْبَحْرِ حَاجِزًا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ قَوْمٍ يَعْلَمُونَ !

أَمْ مَنْ يَجْبِيبُ الضُّطْرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خِلْفَاءَ الْأَرْضِ ،
أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ قَوْمٍ يَعْلَمُونَ !

أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ
رَحْمَتِهِ ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ قَوْمٍ يَعْلَمُونَ !

أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ قَوْمٍ يَعْلَمُونَ !
قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »

إن هذا التساؤل للتواصل السريع يفتح على النفس آفاقاً بعيدة من الإيمان
الذكي ، ويحطها نهرع إلى الله متجردة تنفر من شوائب الشرك نفور الرجال
الكبار من عبث العبيدة . . .

وآبأت النظر والتفكير يدور أغلبها على هذا المحور الثابت ، وربما احتاجت
النفس - في ساعات غرورها - إلى لون من أدب القمم والتوعد بكبح جماحها ،
وهذا لا يتنافى البتة مع الأصل الذي قرناه آنفاً فإن قسوة الأب مع ولده حيناً
لا تنير من طبيعة الحنان فيه .

والقرآن إذ يحرك المواهب السامية في الإنسان بعرض آثاره العظيمة عليها
قد يردف ذلك بوخزات توقظ الإحساس المخدر ، ليلتفت وبقل لا ينكش ويحين .
قال الله تبارك وتعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ نَزِيلًا يُنْبِتُ
الْحَبَّ وَالنَّخْلَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّارَ وَالسَّيْنَةَ وَالْأَنْجُونَ وَالْأَلْجُفَ وَالْأَكْثَارَ وَالْأَكْثَارَ وَالْأَكْثَارَ »

في الأرض ، ثم يُخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ، ثم يهيجُ قترأه مُصغراً ، ثم يجعله حطاباً إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب .

ويقول بعد ذلك : أفنِ شرح الله صدره للإسلام فهو على نورٍ من ربه ، فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ من ذكر الله ، أولئك في ضلالٍ مبين .



وقد سلك رسول الله النهج نفسه في فرس الإيمان ورعاية ثماره . وكانت سيرته في الإقبال على الله درساً حياً يغم الأتقنة بإجلال الله وإعظامه والمسارة إلى طاعته والنفور من عصيانه .

وكانت القلوب تفتتح على هدى الله ورسوله فما تسع بعده شيئاً . عن جابر ابن مطعم عن أبيه سمعت النبي قرأ في المغرب : « الطور » . فلما بلغ الآية « أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لا يوقنون ! . أم عندكم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟ » . كاد قلبي أن يطير . . . !! ومدَّ الإيمان من فكرة في الرأس إلى عاطفة في القلب تجمل الرجل ينبض باليقين والإخلاص ، هو من صميم السنة . وهو مهد الخلال الفاضلة التي سادت المسلمين وأعلت شأنهم . وهو معنى الحديث المشهور « ثلاث من كنَّ فيه وجد بهنَّ طعم الإيمان . من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما . ومن أحبَّ عبداً لا يحبه إلا الله . ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » . . . ومن ذلك أيضاً أن يتنخلل الإيمان بالرسالة والمقالة بصاحبها إلى حد ينسى الإنسان معه نفسه . فهو — عن حب واندفاع لا عن تكليف ورهبة — يفدى الرسالة وصاحبها بالنفس والنفيس .

عن عبد بن هشام قال : كنا مع النبي وهو آخذٌ بيد عمر . فقال عمر : يا رسول الله ، لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا نفسي ! فقال الرسول : لا — والنبي نفسى بيده — حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك فقال عمر : فإنه الآن لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي ! فقال رسول الله : الآن يا عمر . أى الآن فقط تم إيمانك . وهذا حديث يحتاج إلى إيضاح . إن الفضائل لا يجوز أن تطيش بها كفة . وقد

احترم الناس خلق الوفاء في السموات لا ترك ابنه يذبح مؤثراً أن تسلم ذمته ورد إلى من أتمنته ودينته .

والمرء إذا ضحى بنفسه فداء شرفه قد أدى واجبه
ومحمد لم يطلب من الناس أن يقدسوا فيه سورة اللحم والدم . ولا أن يرغبوا بنفسه عن أنفسهم ليموتوا كي يحيا ، أو ليهوتوا كي ينظم أو ليفتدوا أعباده الخاصة بأرواحهم وأموالهم أو ليتجبر فوقهم كما تجبر فرعون وأمثاله من الجبارين .
كلا كلا فمحمد يريد من المؤمنين أن يقدسوا فيه معنى الرسالة . وأن يفتدوا فيه مثلها المالية وأن يصونوا في شخصه معالم الحق المنزل ومآثر الرحمة العامة . . .
إن الأنبياء لم يحميوا لأنفسهم . وللمصيبة فيهم لا تنزل بهم أو بأهلهم خاصة لهم يحميهم للعالم كله . أليسوا مناط هدايته التامة وسعادة العامة فلا غرو إذا كانت تقديبتهم من أصول الإيمان ومعاقد الكمال .
وقد كان محمد أهلاً لأن يُحِبَّ . وما تعرف الدنيا رجلاً قاضت القلوب بإجلاله وتغاني الرجال في حياته وإكباره ، مثل ما يُعرف ذلك لصاحب الرسالة المظلي محمد بن عبد الله .

قيادة تهوى إليها الأفئدة

عن عبد الله بن سلام قال : أول ما قدم رسول الله المدينة انجفل الناس إليه . فكنت فيمن جاءه . فلما تأملت وجهه واستنبتته علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب . قال . وكان أول ما سمعت من كلامه أن قال : « أيها الناس أفسحوا السلام . وأطمعوا الطعام . وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » .
إن أضواء الباطن تنضج على الوجه فتقرأ في أساوره آيات الطهر . وقد ذهب عبد الله يستطلع أخبار هذا الزعيم المهاجر . فنظر إليه يحاول استكشاف حقيقته . فكان أول ما أطمأن إليه بعد التثبت من أحواله أن هذا ليس بكاذب ، والملاحق العقلي والخلقي لشخص مالا تعرف بنظرة خاطفة . ولكن الطابع المادي الذي يُضفي على الروح الكبير كثيراً ما يكون عنواناً صادقاً على ما وراءه . على أن الذين ماثروا محمداً أحبهوا إلى حد الهيام وما يبالون أن تتنق أعناقهم ولا يتخذه ظفر وما أحبهوا كذلك إلا لأن أنصبتهم من الكمال الذي يمشق عادة لم يرزق بمثله بشر .

كان نوبان مولى رسول الله شديد الحب له قليل الصبر عنه . فأثناء ذات يوم ، وقد تغير لونه ، يُمرِف الحزن في وجهه ، فقال له رسول الله : ما غيّر لونك ؟ فقال : يا رسول الله ، ما بى مرض ولا وجع ، غير أنى إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى أفاق . ثم إنى إذا ذكرت الآخرة أخاف ألا أراك . لأنك ترفع إلى عليين مع النبيين ؛ وإنى إن دخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من منزلتك ، وإن لم أدخلها لم أرك أبدا . فنزل قوله تعالى : « ومن يُطع الله والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وحَسُنَ أولئك رفيقا » .

وفي الحديث : « المرء مع من أحب » والقصود حب الأسرة لا حب الهوس . فإن الرجل إذا أحب من هم مثله أو أعلى منه . فأساس هذا الحب تفتح قلبه لخلال النبيل الذى يُحسّنها وعظمة المواهب التى ميّزهم بها القدر . وآثار الشجاعة والكرم لا يرحب بها الجبان الشحيح ، إنما يجيئها فى أصحابها من أوقى حظا منها . وهو بسبيله إلى استكمال ما قاته من تمامها . فمن نعمة الله أن يلحق بالعطاء من يشقون فهم جال العظمة . ولذلك قال بعد الآية السابقة : « ... ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليا » .

والحق أن التابع المحب شخص فاضل . ففي الدنيا كثير من الأخساء الذين إن علو حقروا من دونهم . وإن دنوا كرهوا من فوقهم ! فما تدرى متى تخلو نفوسهم من أحاسيس البغضاء والغلظة ؟

أما عشاق السادى الجردة فما إن يمدوا رجلا النشود حتى يمحيطون به ، وتلعغ عيونهم حباله . أى حبا للبدائى التى حيت فيه وانتصرت به . وما كان ربك ليضيع هذا اليقين ولا أصحابه الأبرار .

من أنس قال لما كان اليوم الذى دخل النبي فيه المدينة أضاء منها كل شيء فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شيء . وما نفطنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا .

فاطر بن بشاشة الماطقة الناضرة : كيف صبغت الإفاق بألوانها الزاهية ، وانظر بنى حسرة العند : كيف تُخلّف سوادها الكابى على كل شيء ١١

هكذا كانت دُرُ الحجرة . لقد أحبت الله وأحبت رسوله فكان هذا المحب

السكين سر اقتصارها الرائع للإسلام ، ومبعث التضحية عن طيب نفس بكل مرتخص وقال . وقوم يربطهم بقائدهم هذا الإعزاز المائل فندك أمام عزائمهم الأطواد الراسية . . .

سأل الحسن بن علي هند بن أبي هالة عن أوصاف رسول الله . فوصف له يده فكان مما قال « ... يمشى هونا ، ذريع المشية -- واسع الخطو -- إذا مشى كأنما ينحط من صلب -- يهبط بقوة -- وإذا التفت التفت جميعا . خافض الطرف . نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء . جل نظره الملاحظة -- لا يحدق -- يسوق أحماجه ويبدأ من آتية بالسلام .

قلت : صف لي منطقه . قال : كان رسول الله متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ولا يتكلم في غير حاجة . طويل السكوت . يفتح الكلام ويختمه بأشداقه -- لا بأطرافه -- ويتكلم بمجوامع الكلم ، فصلا لا فضول فيه ولا تقصير . دمثا ليس بالجافي ولا الممين . يعظم النعمة وإن دقت لا يثم شيئا ولم يكن يثم ذواقا -- ما يطعم -- ولا يمدحه . ولا يقام لغضبه إذا سُرّض للحق بشيء حتى ينتصر له . لا ينغضب لنفسه ولا يتصر لها -- سحاحة -- إذا أشار أشار بكفه كلها . وإذا تمعجب قلبها . وإذا غضب أمرض وأشاح ، وإذا فرح غص طرفه . جل ضحكه التبسم ويفتر من مثل حب النعام . . .

وقال ابن أبي هالة يصف مخرجه -- على الناس -- : كان رسول الله يخزن أسنانه إلا مما يئنيه . يؤلف أحماجه ولا يفرقه . بكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم . ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره .

يتفقد أحماجه ويسأل الناس عما في الناس ويحسن الحسن ويصويه . ويقبح القبيح ويوقته متمتد الأمر غير مختلف . لا يقفل غمافة أن ينفلوا أو يملوا . لكل حال عنده عتاد . لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره . . . الذين يولونه من الناس خيارهم . وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة . وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مؤاساة ومؤازرة .

ثم قال يصف مجلسه : كان رسول الله لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر . ولا يوطن

الأماكن — لا يميز لنفسه مكاناً — إذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينهى به المجلس ويأمر بذلك . ويسعى كل جلسائه نعليه حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه . من جالسه أو قاومه حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه . ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول . قد وسع الناس بسطه وخلقه . فصار لهم أبا ، وصاروا عنده في الحق متقاربين ، يتفاضلون عنده بالتقوى . مجلسه مجلس حلم وحياء ، وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤن فيه الحرم — لا تخشى فلتاته — يعطافون بالتقوى . يوقرون الكبير ويرحمون الصغير ، ويرفدون ذا الحاجة ويؤنسون الغريب .

وقال — يصف سيرته — : كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب ، ولا غشاش ، ولا عتاب ، ولا مدحاح ، يتناقل عمالاً يشتهى ولا يمتنع منه ، قد ترك نفسه من ثلاث ، الرياء ، والإكثار ، ومالا يمتنيه . وترك الناس من ثلاث . لا ينم أحداً ، ولا يمتيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه . إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير . وإذا سكت تكلموا . لا يتنازعون عنده الحديث . من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ . حديثهم حديث أولهم . يضحك مما يضحكون منه . ويعجب مما يعجبون منه . ويمسك للغريب على الجفوة في النطق ويقول : إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه . ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ . . .



هذه خطوط قصار لما يراه الناس من مظاهر الكمال في سيرة النبي « الحمد » أما حقيقة ما بنى عليه هذا الرسول الكريم من أعجاذ وشمال فأمر لا يدرك كنهه ومعرفة المظالم لا يطيقها كل أحد فكيف بمظلم خلاقه القرآن ؟
إن الأمة التي أخرجت للناس في المدينة بلغت الأوج .

كانت تعمل وتجاهد لله وحده . وتسمى إلى غايتها المومقة في جنل وثقة .
تفتت حول نبيها المتفاف التلامذة بالملم والجند بالقائد والأبناء بالوالد الحنون

وتساننت فيما بينها بالأخوة المتباذلة المتناصرة فهم نفس واحدة في أجسام متعددة .
ولبنات مشدودة في بناء منسق صلب .
وأدارت علاقاتها بالآخرين على العدل والبر . فليس يظلم في جوارم برئء أو يحرم
من أطفاهم مانٍ .

وبرغم ما وقع عليها من بنى قليم .. فقد جعلت الإسلام يجباً ما قبله فن تطهر
من جاهليته وتاب إلى ربّه فلا نظر إلى ماضيه . بل ينضم إلى الأمة المسلمة عضواً
كرماً فيها . تنفر سيئاته ليستقبل — بصالح عمله — كتابه الجديد .

أما الذين بقوا يكفرون ويصدّون فلا بدّ من الإعداد لهم حتى تخلص الأرض
من كفرهم وصدّهم . « إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم
طريقاً . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً . وكان ذلك على الله يسيراً » .

كانت هذه الأمة تكدح لله وتصل مساهداً بصباحها في عبادته ، وقد حازمت أمرها
على واحد من اثنين ، إما أن تحيا لله وإما أن تموت فيه !

ولو ذهبت توازن بين المسلمين يومئذ وبين سائر العالم لرأيت عناصر القلب
والامتياز تتجمع لديهم ساعدة على حين نفور في كيان الملل الأخرى زلازل حاطمة .
فلاغرو إذا ساروا — بمدّستين معدودات — دولة فتية تقضى لربها ولنفسها ما تشاء .

ثم إن الشرائع المفصلة أخذت تنزل في المدينة منقطة أحوال المسلمين الخاصة والعامة .
ومبينة قواعد الحلال والحرام على تدرج إلى أن وصلت إلى وضعها الأخير . كما سجلها
تاريخ التشريع .

فقامت الحدود . وفرضت الزكاة ، والصيام ، وزيدت ركعات الصلاة لأول
المهد يثرب .

عن عائشة فرضت الصلاة أول ما فرضت ركعتين فأقرت صلاة السفر . وزيد
في صلاة الحضر . . .

ومما يذكر أن النبيّ بنى بالسيدة عائشة في غضون السنة الأولى للهجرة وكان
قد عقد عليها قبل الهجرة . . .

وستحدث عن تمدد الزواج ، وزوجات الرسول في موضع آخر .

(٦)

الكفاح الدامي

دخل الإسلام المدينة وأحزاب الكفر تطارده من كل ناحية . فأوى المسلمون إلى مهجرهم كما بأوى الجنى إلى قلعته الشاغة . وأخذوا يستمدون حتى لا تقتحم عليهم من أقطارها وهم قد تملوا من السنين النبر التي مرت عليهم في مكة أن الضف مدرجة إلى الحوان مزقة إلى الفتنة . والرء لا يقدر المافية حتى قدرها إلا بسد الإبلال من المرض ، ولا يعرف قيمة النفى إلا عند التخاص من ذل الحاجة . ومن أولى من المهاجرين والأنصار بالإفادة من عبر الماضي ؟

ذلك فيهم تقبى القتل ألف ميل ليقتالوه . وذلك سواد المهاجرين نهب ما لهم وسلبت دورهم وشرّدوا من البلد الحرام . إن « حالة الحرب » قاعة يقيناً بين طغاة مكة وبين المسلمين في وطنهم الجديد ، ومن السفه تحميل المسلمين أوزار هذا الخصام . على أن المداوة للنبي^ص ومحبته تجاوزت قريشاً إلى غيرهم من مشركى الجزيرة الضالة ولن تذهب الفروض بنا بعيداً . فإن عبدة الأصنام من أهل المدينة نفسها شرعوا يهاجرون بخصومتهم الإسلام . وانضم إلى هؤلاء وأولئك اليهود الذين أوجسوا من خيفة انتشار هذا الدين . واندحار الوثنية العربية أمامه . . .

فايداً إذاً من التأهب لكل ضارى . والتربص بكل هاجم ، وتجهيز القوة التى تؤدب الجرمين يوم يتناولون !

والقتال الذى شرعه الإسلام وخاض مماركه ازسول وصحابته هو أشرف أنواع الجهاد . وقد بينا فى كتيبة^(١) الأخرى بالاستدلال العلمى والاستقراء التاريخى أن الحروب التى اشتبك فيها الإسلام — على عهد الرسول وحلفائه — كانت فريضة لحماية الحق ورد المظالم وقمع العدوان وكسر الجباية .

أما منحرفى المستشرقين والحققة على الإسلام من أهل الأديان الأخرى والآداب بأن المسلمين جنحوا إلى القرّة حيث لا مبرر لها فذلك كـ « اترو عاتق وهو جزء من شية المبررة لمحر الإسلام من الأرض » ، واستبقاء أهله عيباً رسمياً و « عيبية »

١٦٣

(١) « عود المبرر » عيسى . اعصب و « سلع بين شبيعة والإسلام » .

وما من أيام القتال فيهن أوجب على المسلمين من أيام يُهدّد فيها الإسلام وآله بالقضاء .

وتتألب عليه شتى القوى ، بل يصطليح ضده المصوم الألقاء . محاولين سحقه إل الأبد .

قد وقع ذلك في صدر الإسلام قبل الهجرة وبدعها . ووقع في هذه الأيام فسقطت أوطان الإسلام في أيدي لصوص الأرض . ثم رحمت أخبت السياسات للذهاب به رويداً رويداً . . .

فكيف تستغرب الدعوة إلى التسليح والإهابة بأهل النجدة أن يوطنوا أنفسهم على التضحية في سبيل الله ؟ وكيف تستنكر صناعة الموت في أمة يتوالت حولها الجزارون من كل فج ؟

كلا كلا « ولا يحسبنّ الذين كفروا سبِقُوا . إنهم لا يعجزون . وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون » عدوّ الله وعدوّكم . وآخرين من دونهم لا تعلمونهم . الله يعلمهم . وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنّحوا للسلم فاجنّح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله » .



تمشياً مع توجيه الرّوحى وسياسة الواقع ، وحفاظاً على حق الله وحق الحياة . درّب النبيّ رجاله على فنون الحرب . واشترك معهم في التمارين والناورات والمعارك . وعدّ السعى في هذه الميادين خطوات إلى أجلّ القرب وأقدس العبادات ، لعله بذلك يفلّ شوكة الكفر ، ويكسر عن المسلمين أذاه : « فقاتل في سبيل الله لا تكلّف إلا نفسك ، وحرّض المؤمنين ، عسى الله أن يكفّ بأسّ الذين كفروا ، والله أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً » .

عن عتبة بن عامر قال : سمعت رسول الله — وهو على المنبر — يقول : وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة . ألا إن القوّة الرّمى . ألا إن القوّة الرّمى . ألا إن القوّة الرّمى .

والحديث يقوه بما لإصابة الأهداف من أثر حاسم في كسب المارك .
والرأى أهم من أن يكون بالسهم أو بالراسخ أو بالقنابل .

وعن قديم النخعي قال : قلت لعقبة بن عامر : تختلف بين هذين الفرعين
— تتردد بينهما — وأنت شيخ كبير يشق عليك ؟ قال عقبة : لولا كلام
سمعت من رسول الله لم أعانه ، قال : وما ذاك ؟ قال : سمعته يقول : « من تعلم
الرمي ثم تركه فليس منا » .

فانظر كيف يتيق الشيوخ السنون على دربتهم في إصابة الهدف ومهارة اليد
ونشاط الحركة . إن الإسلام يفترض المقدرة على القتال فيوجها على الشباب
والشيوخ جميعاً

وعن أبي نجيح السلمي قال : سمعت رسول الله يقول : « من بلغ بسهم
فهو له درجة في الجنة » فبلغت يومئذ عشرة أسهم ؛ وسمعت يقول : « من رمى
بسهم في سبيل الله فهو عدل رقبة محررة »

وعن عقبة بن عامر سمعت رسول الله يقول : إن الله عز وجل ليدخل بالسهم
الواحد ثلاثة أمة الجنة : صانعه يحتسب في عمله الخير ، والرامي به ، ومنبله — المدببه —
قارموا واركبوا ؛ وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا ، كل لحو باطل ؛ ليس من
اللهو عمود إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته أهله ، ورميه بقوسه ، فإيهن
من الحق ؛ ومن ترك الرمي بعدما علمه رغبة عنه فإنها نعمة تركها أو كفرها
وعن ابن عمر « الحيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة »
وهذا ترعيب من رسول الله في تعليم الفروسية ، وإبراز لون معين من ألوان
قتال لا يحيط من قيمة الألوان الأخرى ، أو يؤخر منزلتها ؛ ألا ترى كيف حفى
نسى في تعلم القتال في البحر فقال : « عزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر ؛
ومن أدار البحر فكأنما أجاز الأودية كلها ؛ والمائد فيه — القى يصيبه الدوار
واقىء كاستحط في دمه »

« من يحتاج إلى السائب في البر والأساطيل في البحر والجو ؛ وكل سلاح
عون لأحد : في يد من نصر ، وأسبق أجند إلى رضوان الله أعظمهم نبلاً من المدو
بزره . . . »

سرايا . . ١

فلما استقر أمر المسلمين أخذوا يرسلون سراياهم المسلحة تجوس خلال الصحراء الجاورة ، وتخترق طرق القوافل السارة بين مكة والشام . وتستطلع أحوال القبائل الضاربة هنا وهناك .

١ — ففي رمضان من السنة الأولى التقى حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين من المسلمين بأبي جهل يقود قافلة لقريش ومعه ثلاثمائة راكب . وقد حجز بينهما عجدى ابن عمرو الجهنى فلم يقع قتال .

٢ — وفي شوال من السنة نفسها سار عبيدة بن الحارث في ستين راكباً إلى وادى رايع . فالتقى بمائة مشرك على رأسهم أبو سفيان . وقد ترامي الفريقان بالنبل ولم يقع قتال .

٣ — وفي ذى القعدة خرج سعد بن أبي وقاص في نحو عشرين رجلاً يمترض هيراً لقريش فقاتته .

٤ — وفي سفر من السنة الثانية خرج الرسول بنفسه بمد أن استخلف سعد ابن عباد على المدينة . وسار حتى بلغ ودان يريد قريشاً وبني ضمرة . فلم يلق فريشاً . وعقد حلفاً مع بني ضمرة .

٥ — وفي ربيع الأول من السنة نفسها خرج الرسول على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى بواط ممترضاً هيراً لقريش يقودها أمية بن خلف ومعه مائة من المشركين فقاتته .

٦ — وفي جمادى خرج إلى المشيرة من بطن ينبع . وأقام بها شهراً صاخ فيه بنى مدج .

٧ — ثم أغار كرز بن جابر الفهري على المدينة واستق سرحها ففرج النبي في طلبه حتى بلغ وادى سفوان قريباً من بدر فم يدركه ويسمى «بؤرخون هذه غزوة بدر الأولى» .

والحكيم في توجيه هذه السرايا على ذلك النحو المتتابع تتلخص في أمرين :
أولها : إشعار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربة حولها بأن

السلمين أقوياء . وأنهم تخلصوا من ضيقهم القديم . ذلك الضيق الذي مكن قريشا في مكة من مصادرة عقائدهم وحرمانهم واغتصاب دورهم وأموالهم . ومن حق المسلمين أن يُمنّوا بهذه المظاهرات العسكرية على ضلّة شأنها . فإن المتربصين بالإسلام في المدينة كثر . ولن يصدمهم عن النيل منه إلا الخوف وحده . وهذا تفسير . قوله تعالى : « ترهبون به عدو الله وعدوكم . وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » .

والصف الأخير هم المناقون الذين يطنون البغضاء للإسلام وأهله . ولا ينتمهم من إعلان السفط عليه إلا الجبن وسوء النية . أما الأولون فهم الشركون ولصوص الصحراء وأشباههم ممن لا يبالون — لولا هذه السرايا — الهجوم على المدينة واستباحة مآها .

وقد كان من الجائز أن تتكرر حادثة كرز بن جابر السابقة . ويتجرأ البدو على تهديد المدينة حيناً بعد حين . غير أن هذه السرايا الزاحفة قتلت نبات الطمع وحفظت هيبة المسلمين .

والأمر الآخر — في حكمة بعث السرايا — إنذار قريش بقي طيشها . فقد حاربت الإسلام ولا تزال تحاربه ، ونكلت بالمسلمين في مكة ثم ظلت ماضية في غيها لا تسمح لأحد من أهل مكة أن يدخل في دين الله . ولا تسمح لهذا الدين أن يحد قراراً في بقعة أخرى من الأرض فأحب الرسول أن يشعر حكام مكة بأن هذه الخطوة الجائرة ستلحق بهم الأضرار الفادحة ، وأنه قد مضى إلى غير عودة ذلك المصر الذي كانوا يتدنون فيه على المؤمنين وهم بمأمن من القصاص ..

والمستشرقون الأوروبيون ينظرون إلى هذه السرايا كأنها ضرب من قطع الطريق . وهذه النظرة صورة للحقد الذي يعنى عن الحقائق ، ويتيج لهوى أن يتكلم وبحكم كيف شاء .

وقد ذكرني هذا الاستشراق المفرض بما حكوه عند قع الإنكليز لثورة الأهليين في أفريقيا الوسطى — مستعمرة كينا — وم يطلبون الحرية لوطنهم ومحاولون إجلاء الأجنبي عنه ...

فإن جندي مكليزي آخر — يصف هؤلاء الإفريقيين — : إنهم وحوش ، نصر أن أحدهم عنى وأب أقتله !!!

إن هذه الأضحوكة سورة من تفكير المستشرقين في إنصاف أهل مكة والنبي
على الإسلام وأهله . . .

سرية عبد الله بن جحش

وفي رجب من السنة الثانية بعث رسول الله عبد الله بن جحش في رهط من
المهاجرين ، وكتب له كتابا . وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره . فإذا
نظر فيه ووعى ما كلفه الرسول به مضى في تنفيذه غير مستكره أحدًا من أصحابه
فسار عبد الله ثم قرأ الكتاب بعد يومين فإذا فيه : امض حتى تنزل نخلة بين مكة
والطائف فترصد بها قريشًا وتعلم لنا من أخبارهم فقال عبد الله سمعًا وطاعة وأطلع
أصحابه على كتاب الرسول قائلا : إنه نهاني أن أستكره أحدًا منكم فمن كان يريد
السمادة ويرغب فيها فليطلق ممي ، ومن كره ذلك فليرجع . . . فلم يتخلف منهم أحد ،
غير أن البعير الذي كان يستقبه سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان نذرا منهما فشخلا
طلبه ومضى عبد الله برفاقه حتى نزل أرض نخلة فمرت عبر قريش فهاجما عبد الله
ومن معه قتل في هذه المعركة عمرو بن الحضرمي وأسر اثنان من الشركين وماد
عبد الله بن جحش بالفاقة والأسيرين إلى المدينة .

ويظهر أن هذا القتال وقع في آخر رجب أي في الشهر الحرام فلما قدمت السرية
على رسول الله قال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ووقف التصرف
في المعير والأسيرين .

وَوَجَدَ الْمُشْرِكُونَ فِيهَا حَدَثَ فَرَسَةٍ لَأَتَاهُمُ السَّلَاحُ بِأَنَّهُمْ قَدْ أَحْلَوْا مَا حَرَّمَ اللَّهُ
وَكَثُرَ فِي ذَلِكَ الْقَبِيلِ وَالْقِتَالِ حَتَّى نَزَلَ الْوَحْيُ حَاسِمًا هَذِهِ الْأَقْوِيلُ وَمُؤَيِّدًا مَسَكًا
عَبْدَ اللَّهِ تَجَاهَ الشَّرْكَينَ .

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل : قتال فيه كبير . وصعد عن
سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة
أكبر من القتل » .

إن الضجة التي افضلتها المشركون لإثابة الرية في سيرة المقاتلين المسلمين

لامساخ لها ، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام واضطهاد أهله !
فما اتقى أعداء هذه الحرمات قداستها فجأة فأصبح انتهاكها معرة وشناعة ؟

ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين قرر قتل نبينهم وسلب أموالهم ؟

لكن بعض الناس يرفع القوانين إلى السماء عندما تكون في مصلحته . فإذا رأى هذه المصلحة مهددة بما ينتقضها منهم القوانين والساتير جميعاً . فالقانون المرعى عنده في الحقيقة هو مقتضيات هذه المصلحة الخاصة فحسب . وقد أوضح الله عز وجل أن المشركين لن يحجزهم شهر حرام أو بلد حرام من الضى في خطيهم الأسيئة ، وهي سحق المسلمين حتى لا تقوم لدينهم قاعة فقال : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم من دينكم إن استطاعوا ... » .

ثم حذر المسلمين من المزعجة أمام هذه القوى الباغية والتفريط في الإيمان الذي شرفهم الله به ، وناط سعادتهم في الدنيا والآخرة بالبقاء عليه قال : « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة . وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وزكى القرآن عمل عبد الله وصحبه . فقد نفذوا أوامر الرسول بأمانة وشجاعة . وتوغلوا في أرض العدو مسافات شاسعة ، متعرضين للقتل في سبيل الله . متطوعين لذلك من غير مكره أو عرج . فكيف يجزون على هذا بالتقرب والتخويف ؟ قال فيهم :

« إن الذين آمنوا ، والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله ، أولئك يرجو رحمة الله . والله غفورٌ رحيم » .

والقرآن الذي نزل في فدادين هذه السرية لم يدع مجالاً للهوادة مع المشركين المعتدين .

فبعد أن كان البعيد لدى المسلمين وخصرهم .

فبعد أن كان أغلب المكتتبين في السرايا السابقة من المهاجرين . أخذت البعوث حاضرة تتألف من مهاجرين ولأنصارهم .

وزاد الشعور بأن الكاذب ترتب أنه يطول مداه وتكثر تماته لكنه كفاح مستعذب مفرور بإمبراطور من دناجول .

وأدركت مكة أنها مؤاخنة بما جدد أو يجد من سيئاتها . وأن تجارتها مع الشام
أُست تحت رحمة المسلمين .

وهكذا اتسعت الهوة ، وزادت بين الفريقين الجفوة . وكان هذه الأحداث الشداد
هي المقدمة لما أعده القدر بمد شهر واحد من وقوعها . عندما جمع رجال مكة .
وخيرة أهل المدينة على موعد غير منظور في « بدر » . . .

معركة بدر

ترامت الأنباء إلى يثرب أن قافلة ضخمة لقريش تهبط من مشارف الشام عائدة
إلى مكة . تحمل لأهلها الثروة الطائلة . ألف بئر موقرة بالأموال بقودها أبو سفيان
ابن حرب مع رجال لا يزيدون عن الثلاثين أو الأربعين !

إن الضربة التي تنزل بأهل مكة — لو فقدوا هذه الثروة — موجعة حقا . وفيها
عوض كامل لما لحق بالمسلمين من خسائر في أثناء هجرتهم الأخيرة . لذلك قال الرسول :
هذه غير قريش ، فيها أموالهم . فاخرجوا إليها . لعل الله ينفلكنوها . . .

ولم يعزم الرسول على أحد بالخروج ولم يستحث متخلفاً . بل ترك الأمر للرغبة
الطلقة . ثم سار بمن أمكنه الخروج . وكان الذين صحبوا الرسول هذه المرة يحسبون
أن مضيقهم في هذا الوجه لن يعدوا ما ألفوا في السرايا الماضية . ولم يدركوا بخلد واحدهم
أنه مقبل على يوم من أخطر أيام الإسلام ! ولو علموا لا تخذوا أهبيتهم كاملة ولما سمح
لهم أن يبقى في المدينة لحظة ! لذلك فترت المهم عندما وردت أخبار أخرى بأن القافلة
الطلوبة غيرت طريقها . واستطاع قائدوها أبو سفيان أن ينجو من الخطر المحدق به . لكن
بمد أن أرسل إلى أهل مكة يستنفرهم لحماة أموالهم ، ويستثير هميتهم للخروج في تعبئة
رد كل هجوم . . .

وقال النبي ﷺ هذا الفتور المارض ، وحذر صحابته من عقبى العود السريع إلى المدينة
أن قاتهم مال مكة وخرج إليهم رجالها ! وأصر على ضرورة تمقّب لمشركين كيف كانوا
وذلك قوله تعالى : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » ، وإن فريقاً من المؤمنين
لكارهون . يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون » .
والذين كرهوا لقاء قريش ما كانوا إليها الموت . ولكنهم لم يعرفوا الحكمة

في خوض معركة مباغتة دون إلتاحان ما ينبغي لها من عُدّة وعدد . بيد أن رسول الله وزن الظروف اللابسة للأمر كله فوجد الإقدام خيراً من الإحجام . ومن ثم قرر أن يمضي . فإن الحكمة من توجيه هذه البعوث المسلحة تضع سدى لو عاد على هذا النحو . وقد اختفت على مجمل مشاعر التردد وأطلق الجميع خفافاً إلى غايتهم .

والسير بإزاء طريق القوافل إلى بدر ليس سفراً قاصداً أو زهرة لطيفة . فالسافة بين المدينة وبدر نحو ١٦٠ كيلو متراً ولم يكن مع الرسول وحجبه غير سبعين بعيراً يستقونها .

روى أحمد عن عبد الله بن مسعود . قال : كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير — أي يتماقبون — وكان أبو لبابة وعليّ بن أبي طالب زميلي رسول الله . قال : فكانت عُقبة رسول الله - قلالا له : نحن نمشي عنك — ليظل راكباً — فقال : « ما أتا بأقوى مني ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما » ١١٠ »

وبث المسلمين عيونهم يتعرفون أخبار قريش : أين القافلة ؟ وأين الرجال الذين قدموا لحمايتنا ؟



حين أحس أبو سفيان الخطر على قافلته بمت ضخم بن عمرو النفازي إلى مكة يستصرخ أهلها حتى يسارعوا إلى استنقاذ أموالهم . . .

واستطاع ضخم هذا إزواج البلاد قاطبة . فقد وقف على بعيره بعد أن جدع أنفه وحول رحله وشق قبضه بصيح يامشر قريش الطليعة الطليعة ! أموالكم مع أبي سفيان عرض لها محمد وأصحابه لا أرى أن تدركوها . النوث النوث ! فتجهز الناس جميعاً فهم إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً . وانطلق سواد مكة وهو ينل ، يمتطي الصمب والذلول فكابوا تسمة وحسين مقاتلاً معهم مائتا فرس يقودونها . ومهم القيان يضربن بالدفوف ويفننن بجهاد المسلمين . . .

ووتوا وجوههم في دهر المارة تجاه يقرب هابطة إليهم .

سكن أيا سفيان : ستمتني أتم دجدة لمتة . بل بذل أقصى ماله من حذر ودهاء عاتقة لمدين زينة

وهو يستدعون في مدحهم

روى أنه لقي مجدى بن عمرو فسأله : هل أحسست أحداً فقال : ما رأيت أحداً أنكره إلا أنى رأيت راكبين أماخا إلى هنا التلّ ، ثم استقيا في شئ لهما ، ثم انطلقا . فأتى أبو سفيان مئانها وتناول بمرات من فضلات الراحلتين ثم فقها فإذا فيها النوى . فقال : هذه والله علائف يثرب ! وأدرك أن الرجلين من أصحاب محمد وأن جيشه هنا قريب !

فرجع إلى المير يضرب وجهها عن الطريق . شاردأ نحو الساحل ، تاركا بدرا إلى يساره . . . فنجبا .

ورأى أبو سفيان أنه أحرز القافلة فأرسل إلى قريش يقول : إنما خرجتم لتمنوا ميركم ورجالكم وأموالكم . وقد نجهاها الله . فارجعوا . فقال أبو جهل : والله لا رجع حتى نرد بدرا . فتقيم فيه ثلاثا تنحر الجزور وتطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ويمسرينا وجعنا فلا يزالون يهابونا أبداً . . .

وهذا الذى عاين به أبو جهل هو ما كان يحاذره الرسول . فإن دعم مكانة قريش وامتداد سلطوتها في هذه البقاع بعد أن فعلت بالمسلمين ما فعلت يعتبر كارثة للإسلام ووقفا لنفوذه . وهل كانت السرايا تخرج من المدينة إلا لإعلاء كلمة الله وتوهين كلمة الشرك وإظهار عبدة الأصنام بمظهر الذى لا يملك نفعا ولا ضرا ؟

لذلك لم يلتفت الرسول لفرار القافلة التفاته لضرورة التجوال المسلح في هذه الأنحاء إرازا لهذه المعانى القوية وتمكيننا لصداها في القلوب .



ومضت قريش في مسيرها مستجيبة لرأى أبى جهل حتى نزلت بالمدوة القصوى من وادى بدر . وكان المسلمون قد انتهوا من رحيلهم المضى إلى المدوة الدنيا . وهكذا اقترب كلا الفريقين من الآخر وهو لا يدري ما وراء هذا اللقاء الرهيب .

وهبط الليل فأرسل النبي عليا وأثير وسعدا يتحسسون الأحوال ويلتمسون الأخبار فأصابوا علامين لقريش كانا يمدانهم بالماء . فأثابهما . وسأتهما — ورسول الله قائم يصلى — فقالا : نحن سقاة قريش يمدوننا نسقيهم من الماء فكركم القوم هذا الحبر ، ورجوا أن يكونا لأبى سفيان — لا تزال في تدويمهم بقايا أمل في الاستيلاء على القافلة ! — فضربوا ضربا موجعا . حتى اضطرا التلامان أن يقولوا : نحن لأبى سفيان !

فتركوها . وركع رسول الله وسجد سجديته وسلم وقال : إذا صدقكم ضربتموها وإذا كذبكم تركتموها .

صدق الله وإلهما قريش . ثم قال للثلاثين : أخبراني عن قريش ! قالوا : هم وراء هذا الكتيب الذي ترى بالمدوة القصوى . فقال لها : كم القوم ؟ قالوا : كثير ! قال : ما حديثهم ؟ قالوا : لا ندري ! قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالوا : يوما تسما ، ويوما هشرا . فقال رسول الله : القوم مابين التسمئة إلى الألف . ثم قال لها : فن فيهم من أشرف قريش ؟ قالوا : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو البختری بن هشام ، وحكيم ابن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدی ، والنضر ابن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، ومهر بن هشام ، وأمية بن خلف . . . الخ

فأقبل رسول الله على الناس فقال : هذه مكة قد أقت إليكم أفلاذ كبدها . . . وانكشف وجه الجد في الأمر . إن اللقاء المرتقب سوف يكون مر المذاق . لقد أقبلت قريش تخب في خيلاتها تريد أن تعمل العمل الذي يروه القصيد ، وتذرع الطايا به البطاح ، ونعمم به صراع خمسة عشر عاما مع الإسلام لتنفرد بمدها الوثنية بالحكم النافذ . . .

ونظر الرسول حوله فوجد أولئك المؤمنين بين مهاجر باع في سبيل الله نفسه وماله وأنصادي ربط مصيره وحاضره بهذا الدين الذي افتداه وآوى أصحابه ؛ فأحب أن يشعر القوم بحقيقة الموقف حتى يمسروا على ضوئه ما يفعلون . .

إن المرء قد نفجؤه أحداث عرة وهو ماض في طريقه — يحتاج في مواجهتها لأن يستجمع موهبه وأن يستحضر تجاربه ، وأن يقف أمامها حاد الانتباه مرهف الأعصاب . وهذه الامتحانات الباغثة أدق في الحكم على الناس وأدل على قيمهم من الامتحانات التي يعرفون ميعادها ويتقسمون إليها واثقين مستعدين .

والسهمون الذين خرجوا لأمر يسر ما لبثوا أن ألغوا أنفسهم أمام امتحان شاق تفتت به مشاعرهم ، فشرعوا يتجبنون حتى يحل تكاليفه ونتائج . وثار منطلق اليقين . يه فدهج القوم إلى خطفة نفثة لتي لا يحصى عنها المؤمن .

استشار رسول الله الناس . فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن . ثم قام عمر بن الخطاب وقال وأحسن . ثم قام التذاد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض لما أراك الله

ففتحن معك ، والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون — فوالذى بمثك بالحق — لو سرت بنا إلى بركِ العهد لجألتنا معك من دونه حتى تبلةنه . فقال له الرسول خيراً ودعاه .

ثم قال : أشيروا على أيها الناس — وإنما يريد الأنصار — وذلك أنهم كانوا عدد الناس ، وأنهم حين يأموه بالقبّة قالوا : يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما تمنع منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا عن دمه بالمدينة .

فلما قال ذلك قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل . فقال : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك ، فامض يا رسول الله لما أردت ، ففتحن معك ، فوالذى بمثك بالحق لو استعرضت بنا البحر نفخته لغلغلتنا معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا . إنا لصبرٌ في الحرب صدقٌ عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله .

وفي رواية : لعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره فانظر الذى أحدث الله إليك فامض ، فصل جبال من شئت ، واقطع جبال من شئت ، وماذ من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أحدث منا كان أحب إلينا مما تركت .

فسر رسول الله بقول سعد ونشطه ثم قال : سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم ..



تأهب المسلمون لخوض المعركة ، وعسكروا في أدنى ماء من بدر ، فجاء الحباب ابن المنذر إلى رسول الله فقال : أرايت هذا التزل ، أم تزلأ أزلـكه الله نيس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بر هو الرأى والحرب والمكيدة ! قال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، امض بالناس حتى نأق أدنى ماء من القوم فنمسكر فيه ، ثم نغور ما وراءه من الآبار ، ثم نبنى عليه حوض فملاؤه ماء ،

ثم قاتل القوم فقتلوا ولا يثرون ؛ فقال رسول الله : لقد أشرت بالرأى ، ثم أمر بإفغاده فلم يبق نصف الليل حتى تحوّلوا كما رأى الجباب ، وامتلكوا مواضع الماء ، وقضى المسلمون ليلا هادئاً الألقاس منير الآفاق ، فمرت الثقة قلوبهم وأخذوا من الراحة قسطهم ، وتساقط عليهم مطر خفيف رطب حولهم الجو وجعل نسائم الصباح تهب عليهم فتتمش صدورهم وتجدد أملهم ، وكان الرمل تحت أقدامهم دهساً قليلاً وتماسك ، وجعل حركتهم عليه ميسرة « إذ ينشيك النّاس أمنةً منه ، ويُزَلُّ عليكم من السماء ماء ليطهركم به وينهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » .

وكان رسول الله يتفقد الرجال وينظم الصفوف ويسدى النصائح ويذكر بالله والدار الآخرة ، ثم يعود إلى عريش هيبة فيسترق في الدماء الخاشع ، ويستنثي ما أمداً الرحمن .

ووقف أبو بكر إلى جوار الرسول وهو يكثر الالتئال والتضرع ويقول فيما يدهو به : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض » ، وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول : « اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم نصرك » ويرفع يديه إلى السماء حتى سقط رداؤه عن مسكبيه ، وجعل أبو بكر يلتمه من ورائه ويسوى عليه رداءه ويقول - مشفقاً عليه من كثرة الالتئال - : يا رسول الله بعض مناشدتك ربك ، فإنه سئع عز لك ما وعدك .

* * *

وراحب الخمان ؟ وبدأ المحوم من قبيل الشركين ، إذ هم الأسود بن
بدأسد على الخوض ادى بناء اسمون قائلا : أعاهد الله لأشربن من حوضهم
ولأهمنه أو لأموتن دونه ! فتسلىه حمزة بن عبد المطلب ، فضربه ضربة أطارت
صفحه منه ، ومع ذلك ، إلى الخوض ابني اقتحامه ، وتمه حمزة يقاؤه حتى
يقتله . فمر من شرك عقد وشيده ، الفاربيعة والويد بن عتبة . فخرج لقاتلهم
فخرجوا من حرج ربيعة كعابا من قومنا ، وقيل : إن الرسول
سأله عن سترجه ، فاستأذنه أن يسار ربيعة منه أن تكون مشيته أول من
يسار ربيعة ، فاستأذنه أن يسار ربيعة منه أن تكون مشيته أول من
يسار ربيعة ، فاستأذنه أن يسار ربيعة منه أن تكون مشيته أول من

يا هلى . فبارز عبدة عتبة ، وبارز حمزة شية ، وبارز على الوليد . فأما حمزة فلم يحمل شية أن قتله ، وكذلك فعل على مع خصمه . وأما عبدة وعتبة فقد جرح كلاهما الآخر مكر حمزة وعلى بأسياهما على عتبة فأجهزا عليه ، واحتملا صاحبهما ، فجاءوا به إلى رسول الله فأقرشه الرسول مدسه ، فوضع حده على قمم الشريفة وقال : يا رسول الله لو رأي أبو طالب لعم أبي أحق بقوله :

ونسلمه حتى نصرّح دونه ونذهل عن أبنائنا والحلائل . .

ثم أسلم الروح ...

واستشاط الكفار غضباً للبداية السيئة التي صادفتهم ، فأمطروا المسلمين وابلا من سهامهم ثم حمى الوطيس وتهاوت السيوف . وتصايح المسلمون : أحد أحد . وأمرهم الرسول أن يكسروا هجرات المشركين . وهم يرابطون في مواقعهم . وقال : إن اكتنعمكم القوم فانضحوم عنكم بالنبل ولا تحملوا عليهم حتى تؤذونوا

فلما اتسع نطاق المعركة واقتربت من قتها كان المسلمون قد استنفدوا جهد أعدائهم وألحقوا بهم خسائر جسيمة . وانتهى في عريشه يدعو الله ويرقب بطولة راحله وحلدهم . قال ابن إسحاق : « حقق النبی حقيقة في العريش ثم انبته فقال : أشر يا أبا بكر أنت خير الله ، هذا حبريل أحد مئان مرسه يقوده على ثمان الفقع ... !! »

قد انعقد الغار فوق رؤوس القتالين وهم يكررون ويرمون . جند الحق يستبطلون لنصرة الرحمن . وجند الباطل قد ملكهم الفرور فأمرهم أن يغالوا القدر .

فلا عجب إذا ترات ملائكة الحبر تفت في قلوب المسلمين روح اليقين ونحضمهم على الثبات والإقدام . وخرج رسول الله من مكانه إلى الناس فحرضهم قائلا :

« والذي نفس محمد بيده لا يقاسمهم اليوم رجل يقتل ، صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » .

إن التأميل في الآخرة هو نصاعة الأسماء . وهل لأصحاب الفداء وفاء أسى من راحة إلا هناك ؟ . وعمل هذا التحريض عمه في غروب الزمعة .

روى أحد أن المشركين لما دوا عن رسول الله لأصحابه : فوهو في جنة عرضها السموات والأرض . فقال عمير بن الحنبل الأحمري : يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض أقل : نعم . هل : معجج . دن . رب . الله . وما يحملك

على قول بخر بخر ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها أقال :
فإنك من أهلها ..

فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن . ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل
تمرأتى هذه إنها حياة طويلة . فرى ما كان منه من التمر ثم قاتلهم وهو يقول :
ركضا إلى الله بنير زاد إلا التقى وعمل الماد
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النقاد
غير التقى والبر والرشاد :

فما زال حتى قتل ...

ووهت صفوف الشركين تحت مطارق هذا الإيمان الزاهد في متاع الحياة
الدنيا . وراهم محمد وقد نزل بنفسه إلى الميدان يقاتل أشد القتال ومعه أصحابه
يشدون نحو عدوهم لا يبالون شيئاً فانكسرت قريش وأخذها الفزع وصاح
النبي وهو يرى كبراء الكفر تُمرَّخُ في التراب — : « شامت الوجوه ... » .
فانهزمت قريش ...

وذلك قول الله في كتابه : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أئني معكم فتيبوا
الذين آمنوا سألني في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا
منهم كلَّ بئان ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن
الله شديد العقاب . ذلكم فذوقوه . وأن للكافرين عذاب النار » .



وحاول أبو جهل أن يقف سيل المزعجة النازل بقومه ، فأقبل يصرخ بهم وغشاوة
الفرور لا تزال ضاربة على عينيه : « واللات والعزى لا أرجع حتى نفرقهم
في الجبل .. خذوهم أخذاً ... » .

وساذا فعل مسيحات الطيش يئزء الحقائق المكتسحة ؟ لكن أبا جهل —
والحق يقال — كان تشللاً لثغاد في آخر رمق . والطمس للنسوج على بصيرته
جزء من كيانه لا ينفث عنه أبداً لذلك أقبل يقاتل في شراسة وغضب وهو يقول :

ما نفع الحرب انشموس مني ؟ بزل طمين حديث سني !

لئن هذا ولدتني أي

وأحاطت به قلوب المشركين يقولون : أبو الحكم لا يُخلص إليه . فكان بينهم وسط غابة ملتفة . بيد أن هذه الغاية لم تليث أن صهارت جذعاً جذعاً أمام حماس المؤمنين الذين اشتد بأسهم وأغرثهم بشار الفوز . وساد هتافهم الوقعة وهم يقولون أحد أحد ... !!

قال عبد الرحمن بن عوف : إني لفي الصف يوم بدر . إذ التفتُ فلذا من يميني وعن يساري فتيان حديثا السن ، فكأنني لم آمن بمكانهما ، إذ قال لي أحدهما سرّاً من صاحبه : يا عم ، أرى أبا جهل ، قُلت : يا بن أخي ما تصنع به ؟ قال : ما هدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه !! وقال لي الآخر سرّاً من صاحبه مثله . قال : فاسرني أنفي بين رجلين مكانهما .

فأثرت لها إليه . فشدّاً عليه مثل الصقرين فضرباه حتى قتلاه ، وهما ابنا عفراء ويظهر أنهما تركاه بين الحياة والموت . وقد استشهد البطلان في هذه الوقعة . ووقف رسول الله على مصرعهما يدعو لها ويدكر سنينهما .

أما أبو جهل قد سقط مكانه يلفظ أنفاسه . وتفرق المشركون بعده بدداً ، وتركوا سيقانهم للريح تيمّتهم في لجج الصحراء كما تيمّثر كثيباً من الرمل النهار . ومر عبد الله بن مسعود بالقتلى فوجد أبا جهل فيهم لا يزال به رمق فجثم على صدره يبنى الإجهاز عليه . وتحرك أبو جهل يسأل : لمن الدائرة اليوم ؟ قال عبد الله : لله ورسوله ، ثم استلقى عبد الله : هل أخزأك الله يا عدو الله ؟ قال : وبماذا أخزأتني ؟ هل أحمّد من رجل قتله قومه ؟ وتفرس في عبد الله ثم قال له : ألسنت رؤيتنا بمكة ؟ فجعل عبد الله يهوى عليه بسيفه حتى خمد .

ولقي مثل هذا المصير الفاجع سيمون صنديداً من رهوس الكفر بمكة ، دأبت عليهم كؤوس الردي فتجرعوها صاغرين . وسقط في الأسر سيمون كذلك . وفر بقية التسعمائة والخمسين يروون لمن خافهم أن الظنم يرتعه وخيم ، وأن البطر يجر في أعقابهم الخزي والمار .



وفتح المسلمون عيونهم على بشاشة الفوز تفحك لهم خلجان الأرض والسماء .
(٠٣)

إن هذا النظر المتاح ود عليهم الحياة والأمل والكرامة ، وخلصهم من أغلال تقال
« ولقد نصركم الله يديروا وأنتم أنتم » . قاتلوا الله لعلكم تشكرون . »

وكانت عدة من استشهد منهم أربعة عشر رجلاً ، استأثرت بهم رحمة الله فذهبوا
إلى عليين . ثبت من أنس بن مالك أن حارثة بن سراقة قتل يوم بدر ، وكان في النظارة ،
أسابه سهم طائش فقتله ، فجاءت أمه فقالت : يا رسول الله أخبرني عن حارثة ؟
فإن كان في الجنة صبرت ، وإلا فليرين الله ما أصنع — تعني من النياحة — وكانت
لم تحرم بمد !! قال لها الرسول : ويحك أهملت ؟ إنها جنان ثمان وإن ابنك أصاب
الفرحوس الأعلى ... »

فإن كان هذا جزاء النظارة الذين اختطفهم سهام طائشة ، فكيف بمن خاض
إلى المنايا النمرات الصعاب ؟ ...



في هذه المرحلة التقى الآباء بالأبناء ، والإخوة بالإخوة . خالفت بينهم المبادئ ،
ففصلت بينهم السيوف . وفي عصرنا هذا قاتل الشيوعيون مواطنهم ومزقوا أعلى
الأواصر الإنسانية في سبيل ما يمتنعون . فلا عجب إذا رأيت الابن المؤمن يناصب أباه
الملحد ، ويخاصمه في ذات الله . والقتال الذي دار بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
الحاد . كان أبو بكر مع رسول الله ، وكان ابنه عبد الرحمن يقاتله مع أبي جهل .
وكان عتبة بن ربيعة أول من بارز المسلمين . وكان ولده أبو حذيفة من خيار أصحاب
النبي . فلما سُحِبَتْ جثة عتبة لترمي في القليب نظر الرسول إلى أبي حذيفة فإذا هو
كثيب قد تغير لونه ! فقال له : يا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ فقال :
لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكني كنت أعرف
من أبي رأياً وحلماً وفضلاً فكنت أرجو أن يهدي ذلك إلى الإسلام : فلما رأيت
ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنتني ذلك !
مد له رسول الله بخير وقال له خيراً .

وَمَرَّ رَسُولُ اللَّهِ بِتَبَيِّ الشُّرَكِيِّينَ فطرحوا في القليب . وروى أنه قال عند مرآم :
شربوا من كأسهم فماتوا ، كذا يمدوني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني
... .. فماتوا ووديت جثثهم وأهيل التراب على رقابهم

انصرف الناس وهم يشعرون أن أمة الكفر قد استراح الدين والدنيا من شرورهم .
إلا أن النبي استعاد ماضيه الطويل في جهاد أولئك القوم . كم طالج مغاليقهم وحاول
هدايتهم وكم ناشدهم الله وخوفهم عصيانه وتلا عليهم قرآنه . وهم على طول التذكير
يتبعصمون . وبالله وآياته ورسوله يستهزئون . نخرج النبي في جوف الليل حتى بلغ
القلب المطوى على أهله . وسمعه الصحابة يقول : « يا أهل القلب يا عبدة بن ربيعة ،
يا شيبه بن ربيعة ، يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن هشام ، هل وجدتم ما وعد ربكم
حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً ! فقال المسلمون : يا رسول الله أتنادى قوماً
جيئفوا ؟ قال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ! ولكنهم لا يستطيعون أن يجيئوني ^(١) .
كانت وقعة بدر في السابع عشر من رمضان لسنتين من الهجرة . وقد أقام رسول
الله يدير ثلاثاً ثم قفل عائداً إلى المدينة يسوق أمامه الأسرى والفنائم ! ورأى قبل
دخولها أن يسجل البشرى إلى المسلمين القيمين فيها لا يدرون مما حدث شيئاً . فأرسل
عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة بشيرين يؤذانان الناس بالنصر العظيم .
قال أسامة بن زيد فأتانا الخبر حين سوّينا التراب على رقية بنت رسول الله وأولاد
زوجها عثمان بن عفان قد احتبس عندها يعرضها بأمره . وضرب رسول الله له بسهمه
وأجره في بدر .

محاسبة وعتاب

برغم ما سجله التاريخ من تجمل ومواعاة بين الأنصار والمهاجرين ، فإن متاعب
العيلة ومشكلات الفقر تمشت خلال المجتمع الجديد إن سترها التصف حيناً أبرزتها
الحاجة حيناً آخر . والأزمات التي تصاحب تكوين دولة من الدم وسط أم
تكيد لها وتربص بها المؤثر ، يجب أن تتوقع ، وأن توطئ النفوس على احتمالها
وألا نكزن حدة الشعور بها سبياً في ضعف السيرة وعجز الهمة . . .
وقد أخذ الله المسلمين — قبل معركة بدر وبمدها — بأمر يدور بينهم يجب
لهم أن يتنزهوا عنها ، مهما بلغ من شدة المواقف والمبررات لارتكابها .

(١) تذكر عائشة هذا الحديث بحجة يقول الله « وأنت يسمع من في القبور إن أتت الإنذار »
وقول إن الفاظ التي قالها الرسول ما أنتم بأعلم لما أقول منهم .

فهم يوم خرجوا من يثرب للافاة مشركى مكة فملقت أمانتهم بإحراز المير وما تحمل من ذخائر وقائس ...

حقاً إنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم، وضجوا في سبيل الله بأنفسهم وأولادهم... فليمنضوا في طريق الفداء إلى الرحلة الأخيرة ، ومهما عظم الفقر بناه فليكن التكبير بالكافرين أرجح في ميزانهم من الاستيلاء على النسيمة .

« وإذا يمدُّكم الله كماً الله أحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلامه ويقطع دابر الكافرين » .

ومن هذا القبيل تسابقهم بعد النصر إلى حيازة الغنائم وعاقلة كل فريق الاستئثار بها . عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبي فشهدت معه بدرأ فالتقى الناس فهزم الله العدو ، فاضلقت طائفة في آثارهم يطاردون ويقتلون وأكبت طائفة على الغنم يحوزونه ويجمعونه ، وأحدثت طائفة برسول الله لا يصيب العدو منه غيرة ؛ حتى إذا كان الليل وقاء الناس بمضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم أحق بها منا نحن نحميها منها العدو وهزمناه ، وقال الذين أخذوا برسول الله : خفنا أن يصيب العدو منه غيرة فاشتغلنا به . فأرسل الله « يسألوكم عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأطيعوا ما يأمركم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » فقسما رسول الله بين المسلمين .

هذا التنازع المؤسف أثر البأساء الشامية التي لحقت بالمهاجرين والأنصار على السواء وقد نظر رسول الله إلى مظهر هذا البؤس على أصحابه وهم خارجون إلى بدر فرقى لحالهم وتألم لـ بهم وسأل الله أن يكشف كرباتهم فمن عبد الله بن عمرو قال : خرج رسول الله يوم بدر في ثلثة وخمسة عشر رجلاً من أصحابه ، فلما انتهى إليها قال : اللهم إنهم حياض فأشبعهم ، ثم إنهم جدد فاحلهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم » ففتح الله لهم ما لم يدر . ففقدوا حين تقبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع يحمل أو حلين .

... رى منهم يطأ الأرض بركن وسفوس تدوبا سيئة ويدفان ... سيق تلح غير أن هذه الآراء من أحرحت العامة وأهاجتهم

إلى طلب الثناء والكساء لأنفسهم وذرائعهم بحرص ومجاهرة ، فإن المؤمنين الكبار ينبئني أن يتأسكوا وأن يكتبوا أحاسيس الفاقة الملحة فلا يتنازعوا على شيء . . . ١٠٠
وذلك الأدب هو ما أخذ الله به السليمن ، واقتح به السورة التي تحدثت عن القتال في بدر . . .

ذلك أن الخسارة من الرجال هم قدوة غيرهم ، فإذا ساءت أخلاقهم للضوائق العارضة واضطرب مسلكهم فسيكون سواد الشعب إلى مزالق الفوضى أسرع . وقد رأينا « الألمان » في الحرب العالمية الأولى و « الإنجليز » في الحرب العالمية الثانية شدد عليهم الحصار حتى هزلت الأجسام واصفرت الوجوه . وما صابرت الجماهير هذه المجامع إلا وراء قادتها الصابرين المتجملين .



ومما حاسب الله عليه السليمن حساباً شديداً موقفهم بإزاء الأسرى . فإن الرغبة في استبقائهم للانتفاع من ثرواتهم غلبت الآراء الأخرى بضرورة الاقتصاد من مآثمهم السابقة حتى يكونوا نكالا لما بين أيديهم وما خلفهم وموعظة للمتقين . استشار رسول الله أبا بكر وعمر وعلياً . فقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء بنو الم والعشيرة والإخوان ! وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار وحسب أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً .

فقال رسول الله : ما ترى يا بن الخطاب ؟ قال : قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ولكن أرى أن تمكنني من فلان — قريب لعمري — فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل بن أبي طالب فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هودة للشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم . فهوى رسول الله ما قال أبو بكر . ولم يهو ما قلت . وأخذ منهم انتداء . فلما كان من الند قال عمر : فندوت إلى النبي وأبي بكر وهما يكيان ! قلت : يا رسول الله أخبرني ماذا يكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائك ! فقل رسول الله : لئذ عرض على أصحابك من أخذهم انتداء ! قد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة — لشجرة قرية — وأنزل الله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يَشْخَنَ في الأرض ،

يريدون مرض الدنيا والله يريد الآخرة . والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . »

إن الوقوع في الأسر لا يمتنع صدور عفو عام عن الجرائم التي اقترعها الأسرى أيام حربهم ، وهؤلاء الطغمة من كبراء مكة لهم ماض شنيع في إيذاء الله ورسوله ، وقد أبطرتهم منازلهم فساقوا عامة مكة إلى حرب ما كان لها من داع فكيف يتركون بعد أن استمكنن الأيدي من خنائهم ؟

أذلك لأن لهم ثروة يقتدون بها ؟ ما كان يليق أن ينظر المؤمنون إلى هذه الأعراض النافذة متناسين ما فرط من أولئك الكفار في جنب الله . إنهم مجرمو حرب — بالاصطلاح الحديث — لا أسرى حرب . وقد ندد القرآن بخيانتهم لقومهم بعد كفرهم بنعمة الله عليهم فقال :

« ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار . »

وهناك نصوص تومى برعاية الأسرى وإطعامهم . وتشرع القوانين الرحيمة في معاملتهم . وهذه تنطبق على جماهير الأسرى من الأتباع والامة . أما الذين تاجروا بالحروب لإشباع مطامعهم الخاصة فيجب استئصال شأفتهم . وذلك هو الإغخان في الأرض .

إن الحياة كما تتقدم بالرجال الأخيار فلنّها تتأخر بالمتأخرين الخبيثة . وإذا كان من حق الشجرة لكي تنمو أن تقلم ، فمن حق الحياة لكي تصلح أن تنقى من السفهاء والمناة والآتين . ولن يقوم عوض أبداً عن هذا الحق ، ولو كان القناطير المقنطرة من الذهب . وقد أسمع الله نبيّه وصحابه هذا الدرس . حتى إذا عوّه وتذبّروه عفا عنهم ثم أباح لهم — من رحمته بهم — الانتفاع بما أخذوا من فداء فقال « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم » .

في أعقاب بدر

شدّه العرب قطيبة للنصر الحاسم الذي ناله المسلمون في بدر ، بل إن أهل مكة استنكروا الخبر أول ما حادهم ، وحسبوه هذيان مجنون . فلما استبان صدقه صمق

نفر منهم فهلك ثلثوه وماج بعضهم في بعض من هول للصاب لا يدري ما يفعل .
وكما استبعد أهل مكة الهزيمة على أنفسهم حتى مجبوهوا بمارها ، استبعد مشركو
المدينة ويهودها ما قرع آذانهم من بشرات الفوز ، وذهب بعضهم إلى حد اتهام
المسلمين بأن ما يذاع عن نصرهم محض اختلاق ؛ وظلوا يكابرون حتى رأوا الأسرى
مقرنين في الأسفاد ، فسقط في أيديهم ..

وقد اختلفت مسالك الأحزاب الكافرة بإزاء المسلمين بعد هذا التلب الذي
مكن للإسلام وأهله ، وجعل سلطانهم مهيباً في المدينة وما حولها ؛ ومد نفوذهم
على طرق القوافل في شمال الجزيرة ، فأصبح لا يمر بها أحد إلا ياذنهم ..

فأما أهل مكة فقد انفلتوا على أنفسهم ينادون جراحهم ويستمدون قوام
ويستمدون لنيل ثأرهم ويلتفون أن يوم الانتقام قريب ؛ ولم تزد الهزيمة إلا كرهاً
للإسلام ، وقمة على عمد ومحبه ، واضطهاداً لمن يدخل في دينه ؛ فكان من ينشرح
صدره للإسلام يحتقن به أو يبيض ذليلاً مستضعفاً ..

ذلك في مكة حيث كانت الدولة للكفر ..

أما في المدينة حيث المسلمون كثرة مكينة ظاهرة ، قد اتخذت المداوة للإسلام
طريق الدس والنفاق والمخاتلة ؛ فأسلم فريق من المشركين واليهود ظاهراً ، وقلوبهم
تتلى حقداً وكفراً ؛ وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبي ..

روى أسامة بن زيد قال : كان رسول الله وأصحابه ينفون عن المشركين وأهل
الكتاب — كما أمرهم الله تعالى — ويصبرون على الأذى « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ
الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِعْمَانِكُمْ كُفَّارًا ، حَتَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ » فكان النبي يتأول
في الغم ما أمره الله به — حتى أذن فيهم —

فلما عزا بدرأ وقتل الله فيها من قتل من سناديد قريش وقتل رسول الله وأصحابه
منصورين غائبين معهم أسرارهم قال عبد الله بن أبي ومن معه من المشركين عبدة
الأوثان : هذا أمر قد توجه . أى استمر فلا مطمع في إزائته . فبايموا رسول الله
على الإسلام فأسلموا ..

على أن هذا الخلد لاذ به فريق من الكفار في الوقت الذي عانى فريق آخر

من اليهود بسخطهم على محمد ، وألهم لهمزجة التي أصابت قريشاً في بدر ، بل إن كعب ابن الأشرف من رجالات يهود - أرسل القصاصد في رثاء قتلاهم والمطالبة بتأريم !! وقد انسمت شقة المداوة بين المسلمين واليهود إثر هذا الموقف الثاني ، ثم حاول اليهود أن يحرقوا من النصر الذي حظى به الإسلام بما سجد للأحداث المتيفة التي وقعت بعد ، ودفع اليهود ثمنها من دمهم ، أفراداً وجاعات ..

أما البدو الضاريون حول المدينة ، وعلى طرق القوافل ، فهم قوم حمل لا يهمهم شيء من قضايا الكفر والإيمان ، إنما يهمهم اكتساب القوت من أي وجه ، والحصول عليه ولو عن طريق السلب والنهب ؛ وتأريخهم الحديث مع قوافل الحجاج شاهد صدق على أنهم لا يرهون حرمة ولا يخشون إلا القوة ؛ ولولا بطش السموديين بهم ما أمن طريق الحج قط ! وقد سبق لهم استيلاءهم على المدينة ، وما ورثوه من جاهلية طامسة جعل قلوبهم مع مشركي الجزيرة ، وقد ذعروا لانتصار المسلمين في بدر ، وأخذت جموعهم تحتشد ، تبني انتهاز فرصة للإغارة على المدينة ، ولكن الرسول نهض إلى جموعهم فشقها ، ولم يلق في إرهابهم متاعب ذات بال ..

بدء الصراع بين اليهود والمسلمين

لم تحدث المسلمين أنفسهم بتقص همد اليهود ، ولا فكروا في طردهم من أرض الجزيرة ، بل على العكس توقع المسلمون منهم أن يكونوا عوناً لهم في حرب الوثنية المخرفة ودعمه عقيدة التوحيد . ورجا المسلمون أن يصدق اليهود محمداً فيما يشبهه من تنزيه ومجد ، وأن تكون صلتهم بالكتب القديمة وألفتهم لأحاديث الرسلين سبباً في إقناع الرب الأميين بأن الرسالات حق والإيمان بها واجب ؛ وهذه المكسر الحسنة تمشي مع القرآن التازل يومئذ يؤسسها ويؤكدنها .. « ويقول الذين كفروا : لست برسلاً ؛ قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، ومن عندهم الكتاب .. »

« والدين آية في الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه ؛ قل : إن أئيرت من عبد الله ولا أشرك به إليه أدهو وإليه مآب » بيد أن اليهود كانوا على أسوأ الظن . فلم تمنح أليم على اختلاطهم بالمسلمين

في المدينة حتى شرعوا يخرجون سدورهم ويصنون عليهم ، ولو أنهم كذبوا بمحمد
كما كذبوا ببيسى من قبل ، واعتقدوا أن ما ورثه توراتهم باطل باطل ، واكتفوا
بأداء عباداتهم في بيعتهم ، وحبسوا في أفواههم المطاعن على أنبياء الله ، ، لتركهم
المسلمون وشأنهم يكفرون إلى قيام الساعة دون حرب أو ضرب ،

أما أن يجتهد المسلمون في بناء دولتهم فيجتهد هؤلاء في قضاها ، أما أن يسطلم
الإسلام بالترك فينضم بنو إسرائيل بمواطفتهم وألسنتهم ودعائهم ضد محمد وصحبه ،
فهذا مالا يستساغ ،

وفي فرحة المسلمين بانتصارهم في بدر ، لم يستح أولئك اليهود أن يقولوا لرسول
الله : « لا يفرحك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبحت منهم فرصة ، أما والله
نحن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس !!! »

وقد نزل الوحي ينذر هؤلاء بسوء النقلب « قل للذين كفروا : ستغلبون
وتنحشرون إلى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية في فتنين الثقتا فتة تقاتل
في سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بقصره من
يشاء ، إن في ذلك لبرة لأولى الأبصار » ،
والآية الأخيرة تذكير بما وقع في بدر ،

وأول من كشف عن ضغنه وهزأ بالإسلام وأهله يهود بني قينقاع المقيمين داخل
المدينة نفسها ، وكظم المسلمون عيظهم ، وانتظروا ما تتمخض عنه الليالي من
مكر اليهود ،

وسعى هؤلاء إلى حضمهم بظلتهم ، فقد حدث أن امرأة عربية قدمت بحليها تبيمه
في سوق بني قينقاع فجلست إلى سائغ هناك فاجتمع حولها نفر من اليهود يريدونها
على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها وهي غافلة فمقده إلى ظهرها ،
فلما قامت انكشفت سوءتها وضحك اليهود منها !! وصاحت المرأة ، فومب رجل من
المسلمين على الصائغ فقتله ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، وهكذا طارت الأشرارة
ووقعت الحرب بين المسلمين وبني قينقاع ، وكان ذلك في منتصف شوال في السنة الثانية
من الهجرة ،

لجأ اليهود إلى حصونهم يقاتلون فيها ففرض الرسول عليهم الحصار وأحكمه خمس

عشرة ليلة حتى اضطروا إلى التسليم ورضوا بما يعنته رسول الله في رقابهم ونسأهم وفريتهم ، فلما أمكن الله منهم جله عبد الله بن أبي قال : يا محمد أحسن في موالى — وكانوا حلفاء الخزرج — فأبطأ عليه رسول الله فكرر ابن أبي مقالته : أحسن في موالى ، فأعرض عنه الرسول ، فأدخل يده في جيب درعه فتخير لون النبي وقال له : أرسلنى وغضب حتى رأوا لوجهه ظلاً ، ثم أماد أمره وهو منضب : أرسلنى ومحك ! قال ابن أبي : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى ، أربعائة حاسر وثلاثائة دارع قد ممنونى من الأحمر والأسود محصدم فى غداة واحدة ! إني والله امرؤ أخشى الدوائر ! فقال رسول الله : هم لك على أن يخرجوا من المدينة ولا يحاورونا بها ، فرحلوا إلى أذمات بالشام ولم يبقوا هناك طويلاً حتى هلك أكثرهم .

أما كان خيراً لهم أن يؤدوا حقوق الجوار ويرفوا قيم اليهود ويبقوا في المدينة آمنين موفورين ؟ لقد تمجّلوا الشرفاء به ، ، ، وفي حوار عبد الله بن أبي مع الرسول نزل قوله تعالى : « فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون : نخشى أن تصيبنا دائرة فمسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين » ، ويحسن أن نتأمل في سيرة هؤلاء اليهود ، وسر تقمّتهم الشديدة على الإسلام ونبيه ، وتحيزهم الميب إلى الوثنية في نضال الإسلام معها .

أصحّح أن نزاع اليهودية والإسلام كان سياسياً لا دينياً ؟ وأن الأفراد بالسلطان في الجريرة العربية هو مبعث هذا الخصام الحاد ؟

إن التفتغل في فهم المواقف والمشاعر الإنسانية بفسر كثيراً من المواقف النامضة لقد رأينا المسلمين في مكة يتحمسون للتصراية في صراعها مع الجوسية ، ويمحزون لانكسار الروم أمام الفرس ، مع أن الإسلام لم يكن قد اتصل بعد بالتصارى اتصالاً يبرر هذا الحاس ، لكنه الشعور الطبيعي الوحيد الذى ينتظر من الرجل المخلص لدينه فالمسلمون أمحاب كتاب يدعو إلى التوحيد ، والتصارى — وإن اضطرب فهمهم لمعى التوحيد وشابوا الحق بالخرافة — فهم على كل حال أهل كتاب ، ويُتبرون أعلى مرتبة من عبدة النار ، فالرغبة في انتصارهم على الوثنية الصريحة الشرك ضرب من الوفاء للإسلام نفسه ! ومن الاحترام للحقيقة التى معك أن تقترب مما يقرب منها ، وأن تبعد عن كل ما يبعد عنها ، وقد كان المشركون من

أهل مكة متعطئين مع أنفسهم حين رحبوا بانتصار الفرس وعدوه رمزاً لنبلية الوثنية في كافة صورها على أديان السماء جملة ..

فما معنى أن ينضب اليهود الموحدون — كما يزعمون — من انتصار الإسلام على الشرك ، ويم يضربُ حُقُوقَهُم على القتل من عبدة الأصنام ، وسميهم الخبيث لتغليب كفة الوثنية المريية على هذا الدين الجديد ؟؟؟

إن التفسير الوحيد لهذا الوقف أن اليهود اقطعت صلاتهم بمعنى الدين ، وأن سلوكهم العام لا يرتبط بما لديهم من تراث سماوى ، وأنهم لا يكثرُون بما يقترب من عقيدة التوحيد أو أحكام التوراة لأن هذه وتلك مؤخرة أمام شهواتهم النالبة وأثرهم اللالزية . ومن ثم شكك القرآن الكريم في قيمة الإيمان الذى يدعيه القوم . « وإذا قيلَ لهم : آمِنُوا بما أنزلَ اللهُ قالوا : نؤمنُ بما أنزلَ علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم . قل : فلم يقاتلون أنبياءَ اللهِ من قبل إن كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العِجل من بعده وأنتم ظالمون . » والظاهر أن طوائف اليهود التى عاشت بين العرب كانت عصابات من المرتقة اتخذت الدين عنواناً لطامع اقتصادية ببيدة المدى . فلما تؤمُّ أن هذه الطامع مهددة بالزوال ظهر الكفر الخبيث ، فإذا هو كفر بالله وسائر المرسلين .

ولم يعرف أولئك شرقاً في حرب الإسلام ولم يقفهم حدٌ أو عهد في السكيد له ، فلم يكن بُدٌّ من إجلالهم وتنظيف الأرض منهم وقد تعقب المسلمون كل غادر بمهده مجاهر بحرب الله ورسوله ، مؤيد لقريش ورأيها ، مظهر العطف والأسف على ما أصابها . . . تعقب المسلمون هؤلاء الطغام من زعماء يهود وسراهم بالقتل والإرهاب .

ومن أولئك الذين نفذ فيهم العقاب المادل كعب بن الأشرف فإن كتباً هذا سافر إلى مكة — من المدينة — يواسى مشركها المزمعين في بدر ، ويحرضهم على إدراك ثأرهم من محمد ومحابته . وهو الذى سأله أبو سفيان : أأشدك الله ، أديفنا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه ؟ وأينا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق ؟ إننا نطمع الجزور الكوماء ، ونسقى اللبن على الماء ، ونظم ما هبت الشمال ! فقال له كعب : أنتم أهدى منهم سيلاً . فأزل الله على رسوله :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً » .

وماد كعب إلى المدينة سافر المداوة ، بيد الجراءة حتى أنه صاغ قصائد النزل في بعض النساء السلمات . . . وليس بعد ذلك صبر . فأهدر المسلمون دمه . وبعث إليه النبي من استنزه من حصنه ليلقى جزاءه الحق ..

ذهب إليه محمد بن مسلمة وأبو نائلة ، بعد ما استأذنا الرسول أن يقولوا فيه ما يطمئن اليهودي إلى تبرمهما بالإسلام ، أتاه محمد بن مسلمة فقال له : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عثانا ، وإني قد أتيتك أستسلفك !! . قال كعب : والله لَتَمَلَّكُنَّه ! قال : إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه . وقد أردنا أن نسلفنا . قال : نعم ، أوهنوني ، قلت : أي شيء تريد ؟ قال : أوهنوني نساءكم ! قال : كيف زهرك نساءنا وأنت أجل العرب ؟ قال : فزهرون أبناءكم . قال : يُسَبُّ ابن أحدنا فيقال : رهن في وسق أوسقين من تمر . ولكن ، زهرك السلاح . . .

وسنع أبو نائلة ما صنع محمد بن مسلمة ، قال لليهودي : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ! عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت علينا السبيل حتى ضاع الصيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا . ودار الحوار على نحو ما دار مع ابن مسلمة ، ورضى كعب أحراراً أن يسلفهم نظير ارتهان أسلحتهم . وإلى هنا قصدوا ، فإن كعباً لن ينسکر السلاح معهم وهو الذي طلبه منهم ! وفي ليلة مقمرة انطلقوا إلى حصنه ليتنموا ما تواعدوا عليه . فقالت امرأته وقد سمعت النداء . أسمع صوتاً كأنه بقطر منه الدم ؟ قال كعب . لو دعي الفتى لطنة لأجاب ؛ فنزل منوشحاً تنفح منه رائحة الطيب ؛ واستدرجه القوم في الحديث والسير ثم زهم أبو نائلة أنه يريد أن يشم الطيب من شعره ؛ فسرّح فيه يده وهو يقول : ما رأيت كاللينة طيباً أعطر ؛ وزهري كعب عما سمع ! وماد أبو نائلة فوضع يديه في شعر اليهودي حتى إذا استمكن من قوديه قال لصاحبه : دونكم عدو الله فاختلفت عليه أسيفهم ؛ دخلت في بدنه الأسلحة التي طلبها رهاناً بدل النساء والأبناء ..

وصاح كعب صبيحة لم يبق معها حصن إلا أوقدت عليه النار استجلاء للخبر ،
فلما طلع الصباح علمت يهود بمصرع جبارها ، فذب الرعب في القلوب العبيدة وأسهرت
الأنفاس إلى جحورها تحتجب فيها ..

لقد أجدت المصاح حين أعييت النصيحة وبطل القتال . وژم اليهود حدودهم
فلم يتجرأوا على المسلمين بسببٍ ، وظهر كأنهم لن يماثلوا على الله ورسوله مشركا
بعد اليوم . . .

وهكذا تفرغ الرسول — إلى حين — لمواجهة الأعراب المشركين .

مناوشات مع قريش

لم يشتر المسلمون بالنصر الذي مالوه في بدر ولم يفتروا عن مراقبة خصومهم
والإعداد لهم . وقد علموا علم اليقين أن مكة لن تنى عن الانتقام لنفسها ولن تستكين
للكارثة التي حلت بها .

ورأى أبو سفيان حفظاً لكافة قومه وإبرازاً لما لديهم من قوة أن يتجمل عملا
قليل المغارم ظاهر الأثر . فقرر أن يفاحي المدينة بنارة خاطفة يهود عقيها وقد ردَّ
لقريش بعض سميتها ، وألحق بالمسلمين ما يستطيع من حسائر . ثم إن أبا سفيان
كان نذر ألا يمسي رأسه ماء من جنازة حتى يغزو محمداً ، وينبئ أن ير في قسمه .

تفرج في مائتي راك حقي وصل إلى مساكن بني النضير في جنح الليل
— بأطراف المدينة — ، وزل على سلام بن مشكم من سادة اليهود . فتعرف منه
أخبار المسلمين ، وتدارسا أجدى الطرق لإيذائهم والإفلات من قوام .

واهتدى أبو سفيان إلى العمل الذي وفي به يمينه ، وحقق به غايته ، فهجم برجاله
على ناحية يقال لها : العريض . وحرقوا أسواراً من نخيل بها ووجدوا رجلاً
من الأنصار وحليفاً له في حرث لها فقتلوهما . ثم لاذوا بالفرار عائدين إلى مكة .

وشعر المسلمون بما حدث . فاصلقوا وبادأ أبو سفيان ورجاله يطاردونهم ، ويبغون
الإيقاع بهم . وأحس المشركون بالطلب فجذبوا في الحرب . والمسلمون يقطعون الصحراء
حلفهم راغبين في اللحاق بهم ، فله ، أحس أبو سفيان بالخطر أخذ يتخفف من الأزواد

التي يحملها حتى تمكن من النجاة . وعثر المسلمون في طريق المطاردة على هذه المؤن وأكثرها من السوق فسموا هذه النواشة الطريفة غزوة السوق !



ولم تزل قريش من هذه الفارة الفاشلة شيئاً يرفع رأسها . ففكرت أن تتجنب الصدام بالمسلمين حتى تحين الفرصة المواتية . ولكن أتى لها ذلك ، وتجاربتها تمرّاً في التدوّر والرواح بالمدينة ؟

قال صفوان بن أمية لقريش « إن محمداً ومحببه عودوا علينا متجربنا . فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ؟ وأهل الساحل قد وادعهم ودخل مامتهم معه فما ندرى أين نسلك ؟ . وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى الحبشة في الشتاء » فقال له الأسود بن عبد المطلب : تفكّب الطريق على الساحل . وخذ طريق العراق . ودله على فرات بن حيان من بني بكر بن وائل ليكون رائدكم في هذه الرحلة .

وخرجت غير قريش يقودها صفوان بن أمية آخنة الطريق الجديدة إلا أن نعيم ابن سمود ققم المدينة يحمل أبناء هذه القافلة ، وخطة سيرها . واجتمع في مجلس شرب — قبل تحریم الخمر — بسائط بن النعمان فباح له بسرّها . فأسرع سليط إلى النبي يروي له القصة . فبعت النبي^ﷺ لوتحه زيد بن حارثة في مائة راكب يمترون القافلة . فلقبها زيد عند ماء يقال له القرّة فاستولى عليها كلها . وكانت تحمل مقادير كبيرة من الفضة . وفر المشركون مذعورين . فلم يقع في الأسر غير فرات بن حيان . فلما جيء به إلى المدينة دخل في الإسلام . .

وقد حرّنت مكة لهذه النسكية الجديدة ، وزادها ذلك إصراراً على المطالبة بثأرها ، والتهيؤ للقاء المسلمين في تبشة كاملة . فكان ذلك وما سبقه من أحداث التهديد القوي لمركة أحد في السنة الثالثة للهجرة .



ولا يغوتنا إذ نتابع النشاط العسكري للإسلام في سنتيه الأوليين بالمدينة أن نذكر بعض الشئون الهامة الأخرى . فقد توفي خنيس بن حذافة السهمي زوج حفصة ابنة عمر بن الخطاب . وهو رجل صالح عمن شهدوا بدرأ . فلما تأيّم منه أراد أبوها أن يتخيّر لها زوجاً . قال عمر : فلقبت عثمان بن عفان فمرضت عليه حفصة ، فقلت :

إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر ! ! فقال سأقظر في أمرى ! فلبث ليلتي ثم لقيته
فعرضت عليه . فقال : يدا لي ألا أتزوج . . .

قال عمر . فلبثت أبا بكر فقلت له : إن شئت أنكحتك حفصة ابنة عمر : فصمت
ولم يرجع إلى شيئا ! ! فكنت عليه أوجد منى على عثمان . . .

فلبثت ليلتي فخطبها منى رسول الله صلى عليه وسلم فأنكحتها إياه . فلقيني
أبو بكر فقال : لملك وجئت على حين عرضت على حفصة فلم أرجع إليك شيئا ؟
فقلت : نعم قال : فإنه لم يعنى أن أرجع إليك فيما عرضت على إلا أنى كنت علمت
أن رسول الله قد ذكرها . فلم أكن لأفتى سر رسول الله . ولو تركها لقبلتها . . .
وانجاء الرسول إلى مصاهرة عمر بعد مصاهرة أبي بكر . ثم تزويجه ابنته فاطمة
لعل بن أبي طالب وتزويجه ابنته أم كلثوم لثمان - بعد وفاة رقية - يشير إلى أن
النبي يبنى من وراء ذلك توثيق الصلات بالرجال الأربعة الذين عرف بلاؤهم وفداؤهم
للإسلام ، في الأزمان التي مرت ، وشاء الله أن يمتازها بسلام .

وفي السنة الثانية للهجرة فرض سيام رمضان ، وزكاة الفطر ، وبيئت أنصبه
الزكاة الأخرى . ومن أجل ما وقع في هذه السنة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى
الكعبة الطاهرة . وقد كان هذا الانتقال مثار تنفيظ اليهود واستنكارهم الشديد . كانوا
قبله يؤمنون في متابعة الرسول لهم (١) ولعل أساس موادعتهم له ظنهم الإفادة منه
واستغلال أنصاره ! فلما تميز الإسلام بقبلته الجديدة ، امتلأت نفوسهم باليأس ودفعتهم
خيبة الرجاء إلى تشديد الحملة على الإسلام وتبييت السوء له .

وقد أحبط القرآن حرب الجدل التي شنها اليهود إثر تغير القبلة .

« سيقول السفهاء من الناس : ما ولأهم عن قبنتهم التي كانوا عليها ؟ قل : لله

المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

« والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله . . . » .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . ولكن البر من آمن

بالله واليوم الآخر . . . »

إن الله رب الأزمنة والأمكنة جميعا . وتوجيهه أمة إلى قبلة معينة لا يبنى
المحصار في إحاطته أو قصورا في ربوبيته . لقد كانت هودة الذين آمن إلى الكعبة رجوعا

إلى الأصل الذي بناه أبو الأنبياء إبراهيم . وفي العودة إلى الأصل نزهة عن الانحرافات التي حدثت بعد من الفراري الضالين وخصوصاً بني إسرائيل . .

معركة أحد

لم يهدأ بال قريش مذ غشها في بدر ما غشها . وكان ما جدد من الحوادث بعد
لا يزيد أحقادها إلا ضرما . فلما استدارت السنة كانت مكة قد استكتلت عدتها
واجتمع إليها أحلافها من الشركين ، وانضم إليهم كل ناظم على الإسلام وأهله . فخرج
الجنش الثأر في عدد يروى على ثلاثة آلاف . وروى أبو سفيان قائده أن يستصحب
النساء معه حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال دون أن تصاب حرماهم وأعراضهم
وكانت الترات القديمة والنظيم الكامن يشعل البغضاء في القلوب ويشف عما سوف
يقم من قتال مرير .

وفي أوائل شوال من السنة الثالثة وصل الجيش الزاحف إلى المدينة ، فنزل قريباً من جبل أحد . وأرسل خيله ترمي زروعها الممتدة هناك !
واجتمع المسلمون حول رسول الله يجذبون أحرهم : أ يخرجون لمقاتلة العدو في المراء أم يستدرجونه إلى أزقة المدينة ، حتى إذا دخلها قتله الرجال في الطرق وقتلته النساء من فوق أسطح البيوت ؟ ؟

وكان رسول الله يميل إلى الرأي الأخير ، وأبده فيه رجال من أولى النظر والروية .
وقال عبد الله بن أبي : هنا هو الرأي ١ . لكن الرجال الذين لم يشهدوا بدرا تحمسا
للخروج وقالوا : كما تمتنى هذا اليوم وندعو الله فقد سأنه إلينا وقرب السير .
وظهرهم الشباب مع والاستشهاد وبدأ أن كثرة المسلمين تميل إلى البروز لللاقة
المدوية " رسول الله حرج منه لا بسأعدته متبئاً للقتال .

وشرعتم أيتها المكرهون رسول على رأيهم ، وأظهروا الرغبة في النزول على رؤسهم . فبينما هم في ذلك ، قال لهم الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا ، لا تظلموا أنفسكم . إن الله يرى ما تعملون . فقال : ما بيني وبينكم أن تضعوا يدي ، حتى يحكم الله بينه وبين عبده . وقال : قد دعوتكم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فبما كفرتم . فصرح الله بالأس . وانظروا

ثم خرج في ألف رجل حتى نزل بأحد . إلا أن عبد الله بن أبي انسحب في الطريق بثلاث الناس . قالوا : ما ندرى هلام تقتل أنفسنا ؟ وعصباً بأن الرسول ترك رأيه وأطاع غيره . . . ١١

فبهم عبد الله بن حرام — والد جابر عبد الله — ينصعهم بالثبات ويؤنبهم على العودة ويذكرهم بواجب الفئاع عن الدينونة ضد المغيرين إذا لم يكن لهم إيمان بالله واليوم الآخر وثمة بالإسلام ورسوله . فأبى ابن أبي الاستعاع إليه . وفيه ومن انسحب معه نزلت الآية .

ولعلم الذين ناقضوا وقيل لهم : تمالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا . قالوا : لو نعلم قتالا لانتبناكم . ثم لكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان . . .



عسكر المسلمون بالشعب من أحد في عدوة الوادي ، جاعلين ظهرهم إلى الجبل . ورسم النبي الخطة لكسب المركة . فجاءت عكمة رائمة . وزع الرماة على أماكنهم وأمر عليهم عبد الله بن جبير — وكانوا خمسين رجلاً . وقال : انضحوا الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ! إن كانت الدائرة لنا أو علينا قاتلوا أما كنكم لا تؤنبن من قبلكم !!! وفي رواية قال لهم : احموا ظهورنا . إن رأيتمونا قتل فلا تصبرونا ! وإن رأيتمونا ننهم فلا تتركونا ! وأطمأن رسول الله إلى أن فرقة الرماة قد أمّنت بهذه الأوامر المشددة مؤخرة جيشه فأقبل يتمهد مقدمته . وأمر ألا ينشب قتال إلا بإذنه . وظاهر هو نفسه بين درعين . وأخذ يتخير الرجال أولى النجدة والبأس ليكونوا طليعة المؤمنين حين يلتحم الجمعان . إن عدد المسلمين على الربع من المشركين . ولن يوض هذا التفاوت إلا الأشخاص الذين يوزنون بالأنوف وهم آحاد .

روى ثابت عن النبي أنه أمسك يوم أحد بسيف ثم قال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فأحجم القوم . فقال أبو دجانة : أما آخذه بحقه فأخذه فقلق به هام المشركين قال ابن إسحاق : كان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب وكانت له عصاة حمراء إذا اعتصب بها علم أنه سيقاتل حتى الموت . فلما أخذ السيف من يد رسول الله نصيب وخرج يقول :

أنا الذي طهقني خلطي ونحن بالسفع لدى النخيل
 ألا أقوم الدهر في الكيول أضرب بسيف الله والرسول
 ويعني بدم قيامه في الكيول ، ألا يقاتل في مؤخرة الصفوف . بل يظل أبداً
 في المقدمة .

ثم تدات الفئتان ، وأذن النبي لرجاله أن يجاهدوا العدو . وبدأت مراحل القتال
 الأولى تتبدى الفرية كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم لا يضع مثات
 قلائل ! وظهر المسلمون في أعلى صور الشجاعة واليقين .
 خرج حنظلة بن أبي طاهر من بيته حين سمع هوائف الحرب ، وكان حديث عهد
 بمرس قاتل من أحضان زوجته وهرع إلى ساحة الوغى حتى لا يفوته الجهاد .
 إن حادى التضحية كان أمك لنفسه وأملأ لحسه من دامي اللذة . فاستشهد
 البطل وهو جف !!

وسادت روح الإيمان الحض صفوف المجاهدين فانطلقوا خلال جنود الشرك
 انطلاق الفيضان تقطعت أمامه السدود .
 وقف طلحة بن أبي طلحة المبدري حامل لواء قريش يتعدى داعياً إلى البراز .
 فوثب إليه الزبير بن العوام حتى صار معه على جملة ، ثم اقتحم به الأرض فألقاه عنه
 وذبحه بسيفه !!

وأقبل أبو دجانة مُعلماً بمصائبه الجراء لا يلقى مشركاً إلا قتله ، وكان أحد المشركين
 قد شغل نفسه بالإجهاز على جرحى المسلمين في المركة ! قال كعب بن مالك : وإذا
 رجل من المسلمين ينتظره وعليه لأمته . فضيت حتى كنت من ورائه ثم قت أقدّر
 المسلم والكافر يبصرى ، فإذا الكافر أضلها عدة وهيئة . فلم أزل أنتظرهما حتى
 اقتيا هضرب المسلم الكافر عن حل طاقه ضربة بالسيف . فبلت وركه . وتفوق
 رنتن ! ثم كشف المسلم عن وجهه وقال : كيف ترى يا كعب ؟ أنا أبو دجانة ...
 وناب حمزة بن عبد المطلب ثانياً ثلثيوت الممتاحة وصعد لكمة اللواء من بني عبد الدار
 فقتل أودجانه مردداً .

... حمزة بن عبد المطلب : إن قتلت حمزة عم محمد فأنت
 ... حمزة بن عبد المطلب : إن قتلت حمزة عم محمد فأنت

أخطى بها شيئاً . فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبعه حتى رأيته كأنه الجمل
الأورق يهدئ الناس بسيفه هدأ ، ما يقوم له شيء ، فوالله إني لأشبهه له أريده وأستتر
منه بشجرة أو بحجر ليدنو مني ، إذ تقدمت إليه سباع بن عبد المزى فلما رآه حمزة
قال : هلم إلي يا ابن مقطعة البطور ! قال : فصره ضربة كأنما اختطف رأسه . فهزئت
حربتي حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه ، فوقعت في ثنته — أحشائه — حتى خرجت
من بين رجله ، وذهب ليغوى نحوى فقلب ، وتركته وإياها حتى ملت ، ثم أتيتها
فأخذت حربتي ورجعت إلى المسكر فقدمت فيه . إذ لم تكن لي بنيرة حاجة إنما
تقلته لأعتق .

ومع الخسارة الفادحة التي نالت المسلمين بقتل حمزة . فإن جيشهم القليل ظل
مسيطرأ على الموقف كله . وحمل لواء المسلمين في هذا القتال مصعب بن عمير الداهية
المظيم فلما استشهد حمل اللواء علي بن أبي طالب . واستبق للمهاجرون والأنصار في
ميدان الشرف ، وأخذ اللواء الإسلامي يتقدم خطوة خطوة . وشعار للمسلمين في هذا
الالتحام أُميت أُميت .

وكانت نسوة قريش دائبات على استنهاض رجالهن يضرين بالدفوف ومحرضن
على القتال ، فتودهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان .

فكانت تقول حاتمة بنى عبد المار على إبقاء لواء مكة مرفوعاً .

ويهاً بنى عبد الدار ويهاً حاة الأديار
ضرباً بكل بئار !!

وتؤذ قومها على القتال مشددة :

إن تقبوا نمانق ونفرش التمارق :
أو تدبروا ففارق فراق غير وامق !

وقد بذلت قريش أقصى جهدها لتحطيم عتقوان المسلمين . لكنها أحست المعجز
وانكسرت همتها أمام ثبات المسلمين وإقدامهم .

قل ابن إسحاق : ثم أزل الله نصره وسدق وعده فحسوه بالسيف حتى
كشغفهم عن المسكر . وكانت الهزيمة لاشك فيها : روى عبد الله بن الزبير عن أبيه

قال : والله لقد رأيتني أنظر إلى خيم — سوق — هند بنت عتبة وسواهما مشمرات
هوارب مادون أخذهن قليل ولا كثير .



وقد يجد المرء نفسه في حفل عروج بالأنوار ، وتنتشر في جوائه الأشعة المبعرة
ثم يقع خلل مفاجئ يقطع التيار ، فإذا المصاييح تنم ثم يسود المكان ظلام
موحش سقيم !

إن هذا مثل لتحويل المستنكر التي قلب سير الحوادث في معركة أحد . لحظة
يسيرة من لحظات الضعف الإنساني عرضت لفريق من الجند فأوقعت الارتباك في
صفوف الجيش كله ، فضاعت في ساعة تزق كل المكاسب التي أحرزتها الشجاعة
القادرة والتضحية البالغة .

لقد علمت كيف شدد الرسول على الرماة أن يلزموا أما كنهم سيئة المؤخرة
المسلمين ، وأوصاهم ألا يبرحوا أبداً ولو رأوا الجيش تتغطفه الطير ! غير أن أمانة
من حب الدنيا عصفت بهذه الوصاة في ساعة غفلة ! فلما رأى الرماة الهزيمة حلت
بقريش والنساء يهمن في الجبل ، والرجال يولون الأدبار ، والفنائم التي خلفها ثلاثة
آلاف مشرك ترسم الوادي . . حتى غادروا مواقعهم هابطين إلى الميدان يبنون
انتهاج أنصبتهم من الأسلاب والأموال ! وكان فرسان الشركين بقيادة خالد
ابن الوليد محسورين لا يجدون ثغرة يتفقدون منها إلى قلب المسلمين إلى أن حلت
الهزيمة فلما رأى خالد أن مؤخرة المسلمين انكشفت فلم يبق عليها حارس احتبل
الفرصة على عجل فاستدار بالليل وأحرق بمخسومه . متحذراً عليهم من حيث
لا يحتسبون . ورأى الفارون من قريش هذا التنفير الطاريء فتراجعوا حتى إن امرأة
تدعى حمرة بنت علقمة الحارثية هي التي رفعت لواء قريش من التراب بعد أن سقط
وصُرح حملته ! وثاب المشركون إلى ديارهم وخیالهم . فأحبط بالصحابة من الأمام
والخلف ووقفوا بين شقري الرعى .

على أن الرجال الأحرار لا يصادون بسهولة ، إنهم شدهوا لما حدث ، ولكنهم
أخذوا ية ، تون بحرارة ، وإن كان هدفهم في هذه المرة أن ينجوا فحسب ! أن ييمروا
طريقاً يذهب من عرق امضوض !

واستشهد كثير وهم يحاولون شق طريقهم . واستطاع المشركون أن يخلصوا قريبا من النبي . فرمى أحدهم بحجر كسر أنفه وبأباهيته . وشجّه في وجهه فأثقله وتفجّر منه الدم . وشاع أن عمداً قتل . فتنفر المسلمون ، ودخل بعضهم المدينة وانطلقت طائفة فوق الجبل . واختلطت على الصحابة أحوالهم فأيّدون كيف يفعلون... إلا أن النبي جعل يصيح بالمؤمنين : إلى عباد الله إلى عباد الله ! فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلا . غير أن المشركين نذروا بهم فهاجمهم . ووقف طلحة بن عبيد الله وسهل بن حنيف إلى جوار الرسول . فأصيب طلحة : بسهم في يده فشلها . وأقبل أبي بن خلف الجحشي على النبي . وكان قد حلف أن يقتله . وأيقن أن الفرصة سانحة فجاء يقول : يا كذاب أين تفر ؟ وحمل على الرسول بسيفه . فقال النبي : بل أنا قاتله إن شاء الله . وطمئنه في جيب درعه طمئة وقع منها يخور خوار الثور فلم يلبث إلا يوما أو بعض يوم حتى مات . . .

ومضى النبي يدعو المسلمين إليه . واستطاع بالرجال القلائل الذين معه أن يصعد فوق الجبل . فانحازت إليه الطائفة التي احتضمت بالصخرة وقت الفرار .

وفرّح النبي أن وجد بقية من رجاله يعتنق بهم . وعاد لحولاء صوابهم إذ وجدوا الرسول حيا وهم يحسبونه مات ويبدو أن إشاعة قتل النبي سرت على أفواه كثيرة . فقد مر أنس بن النضر يقوم من المسلمين ألقوا أيديهم وانكسرت نفوسهم . فقال ما تنتظرون ؟ قالوا : قُتِلَ رسول الله ! فقال : وما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فقاتلوا على ما مات عليه . ثم استقبل المشركين فما زال يقاتلهم حتى قتل . . .

ولم توان قريش من جانبها في مهاجمة الرسول ومن انحاز إليهم من صحابته بشية الإجهاد عليه وعليهم . ومرت ساعة عصيبة من أخرج الساعات في تاريخ الدنيا ، وفرسان المشركين ورماتهم يحملون ببناد وإلحاح لتحقيق أمنيّتهم : قتل بين يدي النبي خلق كثير وهم يناغفون دونه . جالدهم طلحة حتى أجهضهم عنه ثم سقط بين حتى وميت . وترس عليه أبو دجانة بظهره . فكان النبل يقع فيه وهو لا يتحرك .

روى مسلم أن رسول الله أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش فلما أرهقه المشركون قال : من يردم عني وله الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار قاتلا

حتى قتل اثم رهنوه فقال : من يردم عنى وله الجنة ؟ فلم يزل كذلك حتى قتل
السبعة . فقال رسول الله : ما أنصفنا أصحابنا — يعنى من فروا وتركوه ! !
وتركت هذه الاسماء أثرها ، فقترت حلة قريش فى معاوية قتل الرسول . وثاب
إليه أصحابه من كل ناحية وأخذوا يلون شملهم ويزيلون شملهم ، وأمر النبي محبه
أن يتزلوا قريشاً من القعة التى احتلوها فى الجبل قائلاً : ليس لهم أن يعلونا . فغصبهم
بالحجارة حتى أجلوهم عنها :

إن الإفلات من عواقب هذا الانكسار الشنيع عملٌ لا يقل فى خطره عن
الاتصار الأول : وقد اتجه هزم الرسول إلى بذل كل جهد ممكن فى سبيل مقاومة
قريش حتى لا تظفر بشيء غنيمية ياردة ، بل حتى تتقل بها منارها فلا تطمع فى مزيد
من ليناء المسلمين ! فكان ينقل السهام من كنفاته ويسطها سعد بن أبى وقاص
ويقول : ارم فداك أبى وأمى ! ! وكان أبو طلحة الأنصارى رامياً ماهراً فى إصابة
الهدف . قاتل دون رسول الله . فكان إذا رمى رفع رسول الله شخصه ينظر
أين يقع سهمه ويرفع أبو طلحة صدره قائلاً : هكذا بأبى أنت وأمى لا يصيبك
سهم . نحمرى دون نحرك . ويقول : إنى جلدٌ يا رسول الله فوجهنى فى حوائجك
ومرنى بما شئت ! ! وقد نجح الرماة حول رسول الله فى رد الشركين الذين حاولوا
صعود الجبل . وبذلك أمكن المسلمين الشاردين أن يلحقوا بالنبي ومن معه . إلا أنهم
جاءوا وكأنما خرجوا من عماية حتى أن بعضهم من فرط النيط والقهول قاتل أمامه
لا يدرى من يقاتل . قتل الحيان والده الصعابى المعروف حذيفة . وصرخ حذيفة :
أبى أبى ! ! دون جدوى . . .

ولما تجمعت فلول المسلمين بمد هذا الكر والفر كان الإعياء قد نال منها أى مثال
لولا أن الله كذف فى قلوبهم السكينة . وأعاد إليها — بمد هذا الزوال — الأمل
والثقة . فسكنوا حول رسول الله يرقبون ما يحدث . وداعب الكرى أجقان البعض
من طول التعب والسهر ، فإذا أغفى وسقط من يده السيف عاودته اليقظة فتأهب
للمرك من جديد ! ! وهذا من نعمة الله على القوم « ثم أنزل عليكم من بمد النمر
أمنة نه — ينشى ضيقة منكم . . . »

ولم تكن قريش أقل من المسلمين مماناة لأهوال ذلك اليوم العصيب . فقد تعبت جدّ التعب في الجوبة الأولى . فلما أدبل لها وطمت أن تحمل المركة حاسمة قاصمة وجبت المسلمين أصلب هوداً ، دون إفنائهم صواب لا تستطيع احتمالها . فاكثفت مما ظفرت بالإياب .

وظن المسلمون لأول وهلة أن قريشاً تسحب لتهاجم المدينة نفسها . قال النبي لعل بن أبي طالب : أخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ فإن هم جئوا الخليل وامتلوا الإبل فإتهم يريدون مكة . وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة . فوالله نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم فيها . قال علي : فخرجت في آثارهم فرأيتهم جئوا الخيل وامتلوا الإبل واتجهوا إلى مكة .

قال ابن إسحاق : ثم إن أبا سفيان حين أراد الانصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته : أنهمت ، إن الحرب سجال ، يومٌ بيوم بدر ، أهل هبل ! فقال رسول الله لعمر : قم يا عمر فأجبه قل : الله أعلى وأجل . لا سواء . قتلانا في الجنة وقتلنا في النار . . . فقال له أبو سفيان : هلم إلي يا عمر فقال رسول الله لعمر : ائته فانظر ما شأنه فجهاد فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً . فقال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسم كلامك الآن قال : أنت عندى أسدق من ابن قبيصة — وهو الذي زعم أنه قتل النبي — .

ثم نادى أبو سفيان : أنه قد كان في قتلكم مثلة والله ما رضيت ولا سخطت ، وما نهيت ولا أمرت . ولما انصرف أبو سفيان نادى إن موعدكم بدر العام المقبل : فقال رسول الله لرجل من أصحابه : قل نعم هو بيننا وبينك موعد .

عبر المحنة

موقعة أحد فياضة بالعضات التوالى والدروس القيمة . وقد نزلت في أدوارها وحوادثها وتناججها آيات طوال . وكان لها في نفس الرسول أثر عميق ظل يذكره إلى قبيل وفاته . كانت امتحاناً ثقيل الرطاة محص السرائر ومزق النقاب عن محبوبها . فامتار التفاق من الإيمان ، بل تميزت مراتب الإيمان نفسه فعرف الذين رككوا الدنيا

بمعالهم فلم يرجوا على مطمع من مطامعها . والذين مالوا إليها بمضى الميل . قنشا عن أطعمهم الخافعة ما ينشأ عن الشرر المستصغر من حرائق مروعة . . .

بدأت الحركة بانسحاب ابن أبي . وهو عمل يتطوى على استهانة بمستقبل الإسلام وغدريه في أخرج الظروف . وتلك أبرز خسائس النفاق . والدعوات إبان امتدادها واتصافها بقرى الكثير بالانضواء تحت لوائها . فيختلط المخلص بالمتراض ، والأسبيل بالخييل . وهذا الاختلاط مضراً كبير الضرر بسير الرسائل الكبيرة وإتاجها . ومن مصلحتها الأولى أن تصاب برجات عنيفة تمزق خبثتها عنها . وقد اقتضت حكمة الله أن يقع هذا التجميع في أحد .

« ما كان الله ليذَرَ المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب . وما كان الله ليظلمكم على النيب » .

فالجبن والنكوص هما اللذان كشفنا عن طوية الناققين ، فافتضحوا أمام أنفسهم وأمام الناس . قبل أن تملن عن فراقهم السماء . . .

فلذا تجاوزت السقوح التي يصب عليها أولئك الناققون وَبَكَتْ إلى ذُرّاً شاذة للإيمان البعيد النور النقي المنصر ، يتمثل في مرحلة المعجوم المظفر الذي ابتدأ به القتال ، ثم في مرحلة الدفاع النبيل المائل الذي حمل المسلمون عبثه . عند ما ارتدت الكرة للشركين . ورجعت كفتهم .

إن الرجال الذين يكتبون التاريخ بدعائهم . ويوجهون زمامه بمزمتهم هم الذين صُلُّوا هذه الحرب وحفظوا بها مصير الإسلام في الأرض .

روى أن « خيشمة » قتل ابنه في معركة بدر فحاء إلى رسول الله يقول : لقد أخطأني وقعة بدر وكنت — والله — عليها حريصاً . حتى سمعت أباي في الخروج فخرج — في القرعة — سهمه . فرزق الشهادة . وقد رأيت البارحة أباي في النوم في أحسن سورة يسرح في نمار الجنة وأنهاها . يقول : الحق بنا راققنا في الجنة . فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً .

ثم قال : وقد أصبحت يا رسول الله مشتاقاً إلى مرافقته . وقد كبرت سني وورق « صمي وأجبت لقاء ربي . فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة خيشمة في الجهاد . . . » .

وكان عمر بن الجحج أخرج شديد العرج . وكان له أربعة أبناء شباب ينزون مع رسول الله . فلما توجه إلى أحد أراد أن يخرج معه . فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة . فلو قمت ونحن نكفيك ! وقد وضع الله عنك الجهاد ؟ . فأبى عمرو رسول الله . فقال : إن بنى هؤلاء يمتنوننى أن أجاهد معك . والله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ برجلي هذه في الجنة !! فقال له رسول الله : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد . وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لئلا الله عز وجل أن يرزقه الشهادة ؟ فخرج مع رسول الله ، قتل يوم أحد شهيدا ...

وقال نعيم بن مالك : يا نبي الله لا تحرمنا الجنة — وذلك قبل نشوب القتال — فوالله نفسي بيده لأدخلها !! فقال له رسول الله : بئس ! قال : بئس ! أحب الله ورسوله . ولا أفتر يوم الزحف . فقال له رسول الله : صدقت . واستشهد يومئذ ...

وقال عبد الله بن جهم في ذلك اليوم : اللهم إني أقسم عليك أن أتى المدون غداً فيقتلوني ، ثم يقرؤوا بطلنى ، ويحذروا أننى وأذنى . ثم تسألنى : فم ذلك ؟ فأقول : فيك ...

هذه صور الرجولة الفارعة التي اسلم بها الكفر أول المركة وآخرها . فادامها واضطربت من تحت أقدامه الأرض . فاربح شيئاً في بداية القتال ، ولا انتقم بما ربح آخره .

وهذا اللون من البطولة مدفون تحت جدران التاريخ الإسلامي القائم إلى اليوم . وما يقوم للإسلام صرح ، ولا يكف عنه طغيان ، إلا بهذه القوى المذخورة المضغوطة في أفئدة الصديقين والشهداء ...

من سيرة هذا الإلهام ؟ من مشرق هذا الضياء ؟ من مبعث هذا الاقتدار ؟ إنه محمد !! إنه هو الذي ربي ذلكم الجبل الفذا ومن قلبه الكبير أترعت هذه القلوب تغانياً في الله وإثارة لما عنده .

وقد أصيب هذا النبي الجليل في أحد ، أصيب في بطنه إذ دخلت حلقات المنفر في وجهه . فأكب عليه أبو عبيدة يمالج انزاعها بضمه فما خلصت من لحمه حتى سقطت معها ثنيتاه . وتزف الدم بغزارة من جراحته كلما سكب عليه الماء ازداد دقاً ، فما استمسك حتى أحرقت قطعة من حصار فألصقت به . وكسرت كذلك راحيته ،

وكسرت البيضة على رأسه . ومع ذلك ، فقد ظل متقد الذهن يوجه أصحابه إلى الخير حتى انتهت الحركة .

ثم أصيب في أهله قتل حمزة بحربة انخرزت في أحشائه . وجاءت هند امرأة أبو سفيان ، فاستخرجت كبده من بطنه . ولا كتبها بفمها ثم لفظتها لانفجار المראה . وقد كان رسول الله ﷺ حمزة ويحبه أشد الحب . فلما رأى شناعة المثلثة في جسمه ، تألم أشد الألم ؛ وقال : لن أسباب بمثلك أبداً ، ما وقفت قط موقفاً أغبط إلى من هذا ، بيد أن التسليم لله لم يلبث أن مسح هذه الأحران المارضة . وعاد رسول الله يتفقد أصحابه ويخفف ما تزل بهم . ويسكب من إيمانه على نفوسهم ما يملؤها عزاء ، ورضا عن الله ، واستكانة لقضائه ..

روى الإمام أحمد . لما كان يوم أحد ، وانكفأ المشركون قال رسول الله : استقروا حتى أثنى على ربي عز وجل ١١ .

فصاروا خلفه سفوحاً . فقال : اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا معضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت . ولا مقرب لما باعدت . ولا مباعد لما قربت . اللهم : ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك .

اللهم إني أسألك التميم المقيم الذي لا يحول ولا يزول . اللهم : إني أسألك المون يوم البيلة ، والأمن يوم الخوف . اللهم إني عائد بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا . وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين . اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك . واجعل عليهم رجزك وعذابك . اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب . إله الحق .

ترقى اقرآن الكريم وهو يقب على ما أصاب بالمسلمين في أحد . على عكس
 . . . و . . . من آيت . ولا غرو لحساب المنتصر — على أخطائه — أشد من

« تريدون عَرْضَ الدنيا والله يريد الآخرة . والله عزيزٌ حكيمٌ » . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيها أخذتم عذاب عظيم » .
أما في « أحد » فقال :

« منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم لتبتليكم .
ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » .

حسب الخطئين ما لهم من أوصار المزعمة . وفي القصص العاجل درس يذكر الخطيُ بسوء ما وقع فيه . وقد انجحت الآيات إلى مزج الكتاب الرقيق بالدرس النافع وتلمين المؤمنين حتى لا يتحول انكسارهم في الميدان إلى قنوط يفل قوام ، وحسرة تشل إنتاجهم .

« قد دخلت من قبلكم سننٌ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الكذابين . هذا بيانٌ للناس وهُدًى وموعظةٌ للمتقين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

ثم مضى الوحي يعلم المسلمين ما جاهلوا من سنن الدين والحياة . أو يذكرهم بما نسوا من ذلك . فبين أن المؤمن — مهما عظمت بالله سلته — فلا ينبغي أن يفتر به أو يحسب الدنيا دانت له أو يظن أن قوانينها الثابتة طوع يديه .

كلا كلا . فالخذر البالغ والعمل الدائم ما عُدْنَا المسلم لبوغ أهدافه الرسومة ، ويوم يحسب المسلم أن الأيام كلها كتبت له ، وأن شيئاً منها لن يكون عليه ، وأن أحماد القارين تنال دون بذل التكاليف الباهظة ، فقد سار في طريق القشل القريع .

« إن يحسبكم قرحٌ فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس » أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟
وأولو الألباب يستحيون أن يطلبوا السلامة النائية بالتمن التافه . وهم يريدون استعدادهم للتضحية بأنفسهم لقاء ما يشدون . بيد أن الاستعداد أيام الأمن يجب ألا يزول أيام الروح .

إن الإنسان في عاقبته قد يتصور الأمور سهلة مبسطة ، وقد يتأدى به ذلك

إلى المجازفة والخطأ . فليحذر المؤمن هذا الموقف ، وليستمع إلى نأيب الله لن تمنوا الموت ثم حادوا عنه لا جاء .

« ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » ١ .
ثم مات الله عز وجل من أسقط في أيديهم وانكسرت همهم لا أشيع أن الرسول مات . ما كذلك يسلك أصحاب العقائد ! إنهم أتباع مبادئ لا أتباع أشخاص ؛ ولو افترض أن الرسول قتل وهو ينافع عن دين الله ، فعلى أتباعه أن يشتوا مستنقح الموت ، وأن يردوا المصير نفسه الذي ورده قائم ، لأن ينهاروا ويتخاذلوا .
إن عمل محمد ينحصر في إضاعة الجوانب الممتعة من فكر الإنسان وضميره . فإذا أدى رسالته ومضى ، فهل يسوغ للمستشير أن يعود إلى ظلماته فلا يخرج منها ؟
قد جمع محمد الناس حوله على أنه عبد الله ورسوله . والذين ارتبطوا به عرفوه إماماً لهم في الحق ، وصلة لهم بالله . فإذا مات عبد الله ظلت الصلة الكبرى بالحق التي لا يموت باقية نائمة .

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » ، أفإن مات أو قتل اقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً . وسيجزى الله الشاكرين » .
وقد استطرد النظم الكريم يصير المؤمنين بواطن العزة فيما نالهم . ويملهم كيف يتقون في المستقبل هذه المآرق ، وينتبهز هذه الكبوة العارضة ليعزل عن جماعة المسلمين من خالطوهم على دخل ، واثروهم على نفاق . ولئن أقدت وقعة بدر في خذل الكافرين ، إن وقعة أحد أقدت مثلها في فضح المنافقين ؛ ورب ضارة نافعة وربما صحت الأجسام بالملل .

ولعل ما ترتب على عصيان الأوامر في هذه الوقعة درس عميق يعلم منه المسلمون قيمة الطاعة . فالجماعة التي لا يحكمها أمر واحد ، أو التي تغلب على أفرادها وطوائفها النزعات الفردية النافرة لا تنجح في صدام ، بل لا تشرف نفسها في حرب أو سلام والأثم كلها ، مؤمنها وكافرها ، يعرف هذه الحقيقة . ولذلك قامت الجندية على الطاعة التامة . وعندما تشتبك أمة في حرب تجمل أحزائها جبهة واحدة ، وأهواءها رغبة واحدة . يحمّد كل تمرد أو شذوذ ينتج في صفوفها .

واحسان الجندية كإحسان القيادة ، فكما أن إصدار الأوامر يحتاج إلى حكمة

فلان إنقاذها قد يحتاج إلى كعب وكبت . ولكن عقي الطاعة في هذه الشئون تعود على الجماعة بالتغير الجزيل .

وأسرع الناس إلى الشنب والتمرد من أقصوا عن الرئاسة وهم إليها طامعون وكان عبد الله بن أبيّ مثلاً لهذه الفئة التي تضحي بمستقبل الأمة في سبيل أطاعها الخاسرة . . .

أما الرماة الذين عصوا الأوامر يلزوم أما كنهم سها كانت أطوار القتال ، فقد مرت بهم فترة ضعف ودعول تيقظت خلالها بقية في أنفسهم من حب الدنيا والإقبال على عرضها الزائل . فكان إردك ما كان .

ولذلك لما دعى المسلمون للكارثة التي قلبت عليهم الأمور ، بين الله لهم أنهم هم مصدرها . فما أحلفهم موعداً ولا ظههم حقاً :

« أولمّا أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قدير » .

إن الإسلام يشترط لكلال العمل وقبوله الإيمان والاحتساب والتجرد .

شهداء أحد

أخذت قريش طريقها إلى مكة وقد استخفها النصر الذي أحرزته . إنها طارت به على جبل كأنها غير واثقة مما نالت بعد الهزيمة التي حاقت بها أول القتال . وأقبل المسلمون يتحصنون مصابهم في الرجال . ويجهزون القتلى لمصاحبهم التي يبرزون منها لقاء الله يوم ينفخ في الصور .

روى ابن إسحاق أن رسول الله قال : من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا . فنظر ، فوجده جريحاً في القتلى وبه رمي . فقال له : إن رسول الله أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات ؟ فقال : أنا في الأموات فأبلغ رسول الله سلامي . وقال له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته . وأبلغ قومك عني السلام . وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عند لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف . . . !

قال : ثم لم أبرح حتى مات وجئت النبي فأخبرته خبره .

وأمر رسول الله بدفن الشهيد حيث قتلوا . ورفض أن يلقوا إلى مقابر أسرم قال جابر بن عبد الله : لما كان يوم أحد جاءت حمى بأبي لتدقته في مقابرنا ، فنادى منادى رسول الله : ردوا القتلى إلى مضاجعهم . وكان رسول الله يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد : ثم يقول : أيهم أكثر أخذاً للقرآن ؟ فإذا أشير إلى أحدهما قدمه في الأحد ، وقال : أنا شهيد على هؤلاء . وأمر بدفنهم بمساكنهم ولم يصل عليهم ولم يسلمهم . . .

ولما انصرف عنهم قال : أنا شهيد على هؤلاء أنه ما من جرح يجرح في سبيل الله إلا والله يمسحه يوم القيامة بدمى جرحه . اللون لون دم والريح ريح مسك .

إن معركة أحد تركت آثاراً غائرة في نفس النبي ظلت تلازمه إلى آخر عهده بالدينيا . في هذا الجبل الداكن الجاثم حول « يثرب » أودع محمد أعز الناس عليه وأقربهم إلى قلبه . فالصفوة النقية التي حملت أعباء الدعوة ، وعانت في سبيل الله الأقرين والأبدين واغتربت بمقائدها قبل الهجرة وبمدها ، وأنفتحت وقانلت ، وصبرت وصابت ، هذه الصفوة اختلط لها القدر مثواها الأخير في هذا الجبل الأثم فتوسدت ثراه راضية مرضية . وكان رسول الله يتذكر سيرة أولئك الأبطال ومسايرهم فيقول : « أحد جبل يحبنا ونحبه . . » فلما حانت وفاته جعل آخر عهده بذكرات البطولة أن يزور قتلى أحد ، وأن يدعو الله لهم ، وأن يمط الناس بهم . .

عن عقبة بن عامر قال : صلى رسول الله على قتلى أحد بعد ثمانين سنة كالودع للأحياء والأموات . ثم طلع المنبر فقال : إني بين أيديكم فرط . وأنا عليكم شهيد . وإن موعدكم الحوض . وإني لأنظر اليه من مقامى هذا . وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها . . . !
فل عقبه : فكان آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله .

عن أنس بن مالك : دفنوا موجدتهم في قتلهم ، ولم يستسلمون لأحزان المصاب تنفى حل بهم . وكان تكبر خصوصه حزنهم سبياً في أن يقاموا عوامل الخور وأن

يبدوا للناس بقية من قوة ترد عنهم كيد التبرصين . على نحو ما قال الشاعر :

ونجلى للشامتين أريهم أنى لربهم لا أنضمض

وقد كانت الهزيمة في أحد فرصة انتهزها المناقون واليهود وكل ذى فم على محمد ودينه وأصحابه . فقاترت المدينة كالرجل المتقد ، وكشف عن عداوته من كان قبلا يواربها . وتمحلت الكافرون بالإسلام من خذلان السماء للنبي المرسل من عند الله .. فرأى الرسول أن يمد تنظيم رجاله على عجل ، وأن يتعامل الجريح مع السليم على تكوين جيش جديد يخرج في أعقاب قريش ليطاردها وعنق ما قد يجد من تكرر عدوانها !!

كانت معركة أحد في السبت لخمس عشرة من شوال وكان خروج هذا الجيش في الأحد لستة عشر منه ..

وسار رسول الله والسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد ، واقتربوا من جيش أبي سفيان وكان رجال قريش يمد أن ضمهم القضاء الرحب قد عادوا إلى التفكير فيما حدث . وأخذوا يتلاومون يقول بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً . أصبتم شوكة القوم ثم تركتمهم ولم تبتروهم وقد بقيت منهم رهوس يجمعون لكم ؟ إلا أن هذا التفكير زلزل أثر ما عرفت قريش أن السلمين عبأوا قوامهم وخرجوا يستأنفون القتال وحار المشركون في أمرهم أيمودون لحرب لا يأمنون مغبتها وربما أفقدتهم نمار النصر الذي أحرزوه ؟ أم يعضون لتوهم إلى مكة ؟ . وفي هذه الحال يتحسن مركز السلمين وتخف مرارة الهزيمة التي لحقتهم .

وقد رأى أبو سفيان أن يغم الأوبة الراجعة ، وأن يبعث إلى السلمين من يقذف بالعرب في قلوبهم ، ويخبرهم أن قريشاً عادت لاستئصال شأقتهم بعد أن تبين لها حطوها وتركهم .. !

وعسكر السلمون بحمراء الأسد ، ثم جاءهم دسيس أبي سفيان يفريهم بالعودة إلى يثرب نجاة بأنفسهم من كرة الشركين هنيئهم ، وهم لا يقدرون على ملافتهم ! بيد أن السلمين قبلوا التحدى وظلوا في معسكرهم يوقدون النار طيلة ثلاث ليال في انتظار غريش التي ترجع لديها أن النجاة بنفسها أولى فمادت إلى مكة . وعاد السلمون إلى المدينة ليدخلوها مرة أخرى أرفع رهوساً وأعز جانباً .

وفي هذه المظاهرة الناجحة وفيمن اشتركوا فيها على ألم الجراح وإرهاق التعب ،
وفي ثباتهم على التحييط والطمأنينة إلى الله زالت الآيات الكريمة .
« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم
واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ،
فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فاقبلوا بنعمة من الله وفضل
لم يمسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

آثار أحد

انتفض على الإسلام كثير من هادنه أو داهنه . ورغم مظهر البأس الذي أبداه
المسلمون في مطاردة المشركين حتى حراء الأسد ، فإن هزيمة أحد كانت أبعد عوراً
مما يظنون ، لقد جرأت عليهم أعراب البادية وفتحت لهم أبواب الأمل في الإغارة
على المدينة وانتهاب خيرها . كما أن يهود طائوا بسخريتهم وتركوا وساوس الفس
تلع عليهم وتكدر سيرتهم مع المسلمين ..

ومن أصعب الأمور قياد الأمم عقب الهزائم الكبيرة وقياد الدعوات بعد
الانكسارات الخطيرة . وإن كان الرجال يستسهلون الصب ويصابرون الأيام حتى
يمتازوا الأزمات .

وقد جاءت السنة الرابعة للهجرة والمسلمون لما يداؤوا جراحاتهم في أحد . إلا أن
الأحداث لا تنظر ، فقد أخذ البدو يتحركون نحو المدينة يحسبون أن ما فيها أصبح
غنيمة باردة وأول من تهيأ لتزو المدينة بفؤ أسد ، فسارع رسول الله إلى يث في سلمة
على رأس مائة وخمسين رجلاً ليفت القوم في ديارهم قبل أن يقوموا بقتلهم .

ولم يلق أبو سلمة عتاء في تشتت أعدائه واستياق نعمهم أمامه حتى عاد
إلى المدينة مطفراً ، وأبو سلمة يمد من خيرة القادة الذين محبوبوا رسول الله وسبقوا
إلى الإسلام ، إن به والجهاد معه . وقد باد من هذه النزاة مجهوداً إذ نثر عليه جرحه
نثر أصابه في أحد ، فلم يلبث حتى مات .

ربما من سفين الهنئ أن يحشد الجموع لحرب المسلمين ، فأرسل إليه
بني أسد بن أبي سفيان ، ويجهدي في تليب القبائل للمجوم على المدينة .

وفارت هذيل لرجلها بأن أعانت على تسليم أسرى المسلمين إلى أهل مكة في غزوة الرجيع .

وأصل قصة الرجيع هذه أن وفدًا من قبائل عضل والقارة قدم على رسول الله يذكر أن أنباء الإسلام وصلت إليهم ، وأنهم يحتاجون إلى رجال يملونهم الدين ويقرئونهم القرآن . فأرسل النبي معهم رهطًا من الدعاة يرأسهم حاصم بن ثابت فأنطلق الجميع حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة قريباً من مياه هذيل شعر الدعاة بأن أصحابهم غدروا بهم واستصرخوا هذيلاً عليهم . . .

وفزع الدعاة إلى أسلحتهم يقاتلون النادرين ومن أعانهم من قبيلة هذيل ، وماذا يجدى قتال نفر يمدون على الأصابع لنحو مائة من الرماة وراهم قوسهم يشدون أزرهم ؟ فقلت لم يلبث حاصم وصحبه أن قتلوا . واستسلم للأسر منهم ثلاثة نفر ، خبيب وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق . فاسترقهم الهذليون وخرجوا بهم إلى مكة ليبيعوم بها . ومعنى بيعهم بمكة تسليمهم لقتلة التريصين . فإن أولئك النفر من الرجال الذين قاتلوا مع رسول الله في بدر وأحد : ولأهل مكة لديهم ترات يودون الاشتقاء منها . وقد حاول عبد الله الإفلات من هذا الصير فقتل . وأما خبيب وزيد فأخذها رجال فريش ليقتلوا أخذاً بثأرهم القديم .

فأما زيد فابتاعه سفوان بن أمية ليقتله بأبيه ، ولما خرجوا به من الحرم اجتمع حوله رهط من فريش — فيهم أبو سفيان بن حرب — فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل : أنشدك بالله يا زيد . أحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ فقال : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي . فقال أبو سفيان . ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمد آ . ثم قتل زيد .

وأما خبيب فقد اشتراه عقبة بن الحارث ليقتله بأبيه فلما خرجوا بخبيب من الحرم ليصلبوه قال لهم . إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا . قالوا : دونك فاركع . فركع ركعتين أنهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لو لأن تظنوا أنني إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة . فكان خبيب أول من سن هاتين الركعتين عند القتل ثم رفضوه على خشبة فلما أوثقوه قال : اللهم

إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه النداء ما يصنع بنا ثم قال : — اللهم أحصهم عدداً
واقْتلهم ببدأ ولا تنادر منهم أحداً . واستقبل الموت وهو يشهد .
ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شاة ممزعة



حزن المسلمون لفقدانهم عاميماً وصحبه ، ولمصرع أسيرهم على هذا النحو
الفاجع ، فقد خسروا فريقاً من الدعاة الأكفاء الشجعان يحتاجهم الإسلام فى هذه
الفترة من تاريخه . ثم إن استعباد الرجال بهذه الطريقة زاد المسلمين توجساً وقلقاً :
إذ أن ذلك السلك دل على مبلغ ملهية العرب فى أهل الإيمان واستهانتهم بأرواحهم
وجراتهم على النيل منهم دون تخوف أو محاذرة قصاص !

ومع أن هذه الواقعة توجب على المسلمين أن يتبصروا قبل بث أى وفد لتشر
الإسلام بين القبائل البعيدة والمجاهل الرمية إلا أن ضرورة بث الدعوة مهما فذحت
الخسائر جعلت النبي ينظر إلى هذه التضحيات على أنها أمر لابد منه . كالتاجر
الذى يتحمل الخارم الثقيلة حيناً من الدهر لأن الانسحاب من السوق — بنية
تجنبها — قضاء عليه . فهو يبقى متجمللاً حتى تهب الريح من جديد ، رضاء تموض
ما قد . وذلك سر استجابة الرسول لأبى براء عامر بن مالك الملقب بلعاب الأسنه
حين مرض عليه أن يرسل وفداً من الدعاة ينشرون الإسلام بين قبائل نجد . وقد
أبدى النبي خشيته من أن يصاب رجاله بسوء وسط قبائل ضارية لا يؤمن ذمامها .
فقال أبو براء : أما لهم جار ! !

وخرج الدعاة من المدينة حتى بلغوا بئر معونة . وكانوا سبعة من خيار المسلمين
يعرفون بالقراء ، محتطبون بالنهار ويصلون بالليل ، ويحيون على هذا النسق الرتيب
من جهاد للحياة ورغبة فى الآخرة . فلما أمرهم الرسول بالسير لإبلاغ رسالات الله
خرجوا ، وما كانوا يعرفون أنهم جميعاً يحشون الخطأ الى مصارعهم فى أرض انتشر
سادرون فى فجاعها . . .

وعنه : أبى القراء الى بئر معونة امثوا أحدهم — حرام بن ملحان — الى عامر
بن لعل . ر ر ر فى هذه البقاع فأعطاه كتاب النبي الذى يدعوه فيه إلى الإسلام

فلم ينظر عامر في الكتاب وأمر رجلا من أتباعه أن ينتال حامل الرسالة ، فما شعر حرام إلا وطنة نجلد تحترق ظهره وتنفذ من صدره ، وكأن هذه الشهادة المفاجئة لآقت رجلا يتمناها من قديم قد صاح حرام على آثر ذلك : فزت ووب السكبة .. ! ومضى عامر في غشمه ، فاستصرخ أهوانه ليواصلوا العدوان على سائر القوم ، فانضمت إليه قبائل رعل وذكوآن والقارة ، فهجم بهم عامر على القراء الوداعين . ورأى هؤلاء الموت مقبلا عليهم من كل صوب فهرعوا إلى سيوفهم يدفعون عن أنفسهم دون جدوى إذ استطاع الأعراب الهجم أن ينشروهم في رحالم وأن يستأصلوم عن آخرهم .

وكان في سرح القراء اثنان لم يشهدا هذه المأساة منهم مرو بن أمية الضمري . ولم يرفا النبأ المحزون إلا من أفواج الطير التوحشة تنطلق نحو المسكر محومة حول الجثث الملقاة على الرمل الأصفر طامحة بما تستطيع اختطافه بأظافرها ومناقرها . . . قالا : والله إن لهذه الطير لشأنا ، فأقبلا لينظرا ، فإذا القوم مضرجون في دماهم ، وإذا الخيل التي أسابتهم واقفة ! ! قال زميل مرو له : ماذا ترى ؟ قال مرو : أرى أن نلحق برسول الله قص عليه الخبر . . . لكن زميله كره هذا الرأي ، وكان له بين من استشهدوا صديق حميم يدعى المنذر ، لذلك أجاب عمرو بن أمية قائلا : ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قُتل فيه المنذر ! وما كنت لأبقى حتى أقص خبره على الرجال ! وهجم على الأعراب يقاتلهم حتى قتل ، وأخذ عمرو أسيراً فأعتقه عامر بن الطفيل كبير الغادرين ، عن رقة زعم أنها على أمه ؟؟؟

ورجع مرو إلى النبي حاملا معه أنباء المصاب الفادح ، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين تذكر نكبتهم الكبيرة بتكبة «أحد» إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح ، وأولئك ذهبوا في غيرة شائنة

إن هذه النازلة ملأت قلوب المسلمين غيظاً ، وهم لم يضيقوا بخسائرهم فحسب ، بل الذي أخرج مشاعرهم في هذه الحادثة أنها كشفت عما تحبسه الوثنية في ضميرها من غل كامن على الإسلام وأهله ، غلر عصف بكل مبادئ الشرف والوفاء وأبلى لكل قادر أن يلحق الأذى بالؤمنين متى شاء وكيف شاء .

وفي طريق مرورهم إلى المدينة لقي رجلين عنهما من بني عامر قتلتهما تاراً لأصحابه ،
ثم تبين أنهما من بني كلاب ، ولهما مساهدين للمسلمين .
ولما قدم مرورهم على الرسول وأخبره الخبر ، قال النبي للناس : إن أصحابكم أصيبوا ،
وأنهم قد سألوا ربهم فقالوا : ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا منك ورضيت عنا ،
ثم قال النبي لمرورهم : لقد قتل قتيلين ، لَأَدِيعَهُمَا ، وانشغل بجمع ديتهما من
المسلمين وحلفائهم اليهود ، ، ، ؟



إن نجاح الإسلام في ترسيخ أقدامه بالجزيرة أحفظ قلوباً كثيرة ، ولا ريب أن
تأميل المسلمين في المستقبل وارتعابهم الزيد من الفتح زاد ضمن الضاعين ، وقد كان
الناقون والمتربسون يصفون المسلمين بالترور « إذ يقول المناقون والذين في قلوبهم
مرضٌ غَرْهُ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ زَبِذُّ حَكِيمٌ » غير أن هذه
الكرهية اختفت أمداً بعد انتصار بدر ، يل لعل هذا النصر أغرى جمهوراً من الضعاف
والمترددين بالانضواء تحت علم الدين الجديد ، فلما قلبت الليالي بالمسلمين ، ولحقهم
الهمزائم اضجر الحقد المكبوت ، ونهض خصوم الإسلام يناوشونه في كل مكان .

وقد قلنا : إن النبي أدرك هذه الحال بعد أحد فبذل جهده ليستعيد هبة المسلمين
ويوطد ما اضطرب من مكانتهم ، ولذلك اشتد الصراع بين الجانبين ، المشركون يفلنون
الفرصة سانحة لإتياع أحد بمثلها أو أشد ، والمسلمون يرون محوها إلى الأبد ، هل أن
الخصائر تلاحت بالمسلمين في الجميع وبئر معونة كما مر بك ، ودخل الإيمان في عنة
بعد أخرى ، ومع هذه البأساء لم يفقد الرجال الواثقون صلتهم بربهم واطمئنانهم إلى
قدم ، وشرعوا يدرون الضررة بمثلها ، فلما تحرك اليهود في هذه الآونة العصيبة
ليقتالوا رسول الله لم يتوان في إنزال العقوبة الرادعة بهم .

إجلال بني النضير

وتعصیل ذاك التندر أن النبي ذهب إلى منازل بني النضير ليستعين بهم في دية
اقتنيني اللذين قتلتهما عمرو بن أمية مرجعه من بئر معونة فلما فاضهم الرسول في الأمر
أظهروا انضواء معونة فجلس إلى حطب حذر من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا ،

لكن يهود خلا بعضهم إلى بعض ثم قالوا : إنكم لن تعبدوا الرجل على مثل حاله هذه — خلوا بالواطمثان نفس — فمن رجل يملو ظهر هذا البيت فيلقي عليه صخرة ويرمي حاميته ؟
وحين أوشك اليهود على إلقاء مكيدتهم ألهم رسول الله الخطر للدبر له فهض
عجلاً من جوار البيت القى اضطجع إلى جداره ، وقفل راجعاً إلى المدينة .

وشمر أصحاب النبي بمضيئه ، قداموا في طلبه . فإذا رجل مقبل من المدينة
يخبرهم أنه رآه يدخلها . فأسرعوا يلحقون به — فلما انتهوا إليه أخبرهم بما كادت
له يهود ، وقد عُرِف — بمد — أن عمرو بن جحاش هو القى أراد قتل النبي بإلقاء
الرحى عليه . ولم ينج الشق من عواقب جرمه ولا نجا منه قومه . فإن رسول الله مالبث
أن استدعى محمد بن مسلمة وقال له : اذهب إلى بني النضير ففرهم أن يخرجوا من المدينة
ولا يساكنوني بها . وقد أجلتهم عشراً ، فن وجدت بمد ذلك ضربت عقه !

ولم يجد يهود متناساً من الخروج ، فأخذوا يتجهزون للرحيل ، بيد أن منافق
المدينة وعلى رأسهم عبد الله بن أبي أرسلوا إليهم : أن اثبتوا ونحن نصركم على محمد
وحبه ! فعادت لليهود قهتهم ، واستقر رأيهم على المناوأة . وأرسلوا النبي يقولون له :
لن نخرج ، فافل ما بدا لك ثم احتسوا بمحسونهم واستمدوا للقتال ، وزادهم إصراراً
على المقاومة ما رأى إليهم من أن ابن أبي أعد ألقى مقاتل لنصرتهم . ونهض النبي
للمناجزة القوم وتحدى من يضم إليهم من قبائل اليهود الأخرى أو من مشركي
العرب . وفرض الحصار على مساكن بني النضير وأمر بتقطيع نخيلهم . ثم جد الجدة
ورأى يهود الموت ووقع العرب في قلوب أهوانهم فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيراً
أو يدفع عنهم شراً . مع أن اشتباك المسلمين بمحسومهم في هذه الفترة المرحجة من
تاريخهم لم يكن مأمون العواقب . وقد رأيت كلب العرب عليهم وقتكهم الشنيع
يعموهم . ثم إن يهود بني النضير كانوا على درجة من القوة تجعل استسلامهم بيد
الاحتمال وتجعل فرض القتال معهم محفوفاً بالمكاره . إلا أن الحال التي جدت بمد
مأساة بمرمونة وما قبلها زادت حساسية المسلمين بمجرأتم الاعتيال والندرات التي أخذوا
يتعرضون لها جماعات وأفراداً . وضاعفت قهتهم على مقترفيها .

ومن ثم قرروا أن يقاتلوا بني النضير — بمد همهم باغتيال الرسول — معها
تكن النتائج .

وقد جاءت النتيجة في مصلحتهم بأسرع مما يتصورون فاندحر اليهود ونزلوا على حكم المنتصر الذي أذن لهم بالجلاء عن ديارهم ولهم ما حملت إبلهم من أموال ، ما عدا السلاح !

وفي هذه الحركة نزلت سورة الحشر بأكلها فوصفت طرد اليهود في صدرها بقول الله عز وجل :

« هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم ما نستهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا . وقذف في قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين . فاعتبروا يا أولى الأبصار . »

ثم فضح القرآن مسلك منافقي المدينة الذين حاولوا إمانة يهود في غدورها وحربها وحرصوها على مقابلة المسلمين بما وعدوها من أمداد وعناد فقال :

« ألم تر إلى الذين ناقوا ؟ يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجنكم معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً . وإن قوتكم لننصرنكم والله يشهد أنهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم . ولئن قوتوا لا ينصرونهم . ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . »

وبهذا النصر الذي أحرزه المسلمون دون تضحيات توطد سلطانهم في المدينة ، وتحاذل المنافقون عن الجهره بكيدهم وأمكن الرسول أن يتفرغ لقمع الأهراب الذين آذوا المسلمين بمد أحد ، وتواثبوا على بئس الدعاة يقتلون رجالها في نذالة وكفران .



وتأديباً لأولئك الفادرين خرج النبي يمحوس فيافي نجد ؛ ويطلب ثار أصحابه الذين قتلوا في الرجيع وبئر معونة ويلقي بذور الخوف في أفئدة أولئك البدو القساء حتى لا يماودوا مناكرهم التي ارتكبوها مع المسلمين .

قام النبي تحقيقاً لهذا الغرض بنزوات شتى أرهبت القبائل المنيرة وخلطت بمشاعرهم الرعب . فأضحي الأهراب الذين مردوا على النهب والسطو لا يسمعون بتقسيم المسلمين إلا حذروا وتغنموا في رموس الجبال بمد ما قطعوا الطريق على الدعوة ردساً من الزمن . وفي مقدمة هؤلاء بنو لحيان وبنو محارب وبنو ثعلبة من غطفان .

فلما خضد المسلمون شوكتهم وكفكفوا شرم أخذوا يتجهزون للملاقاة عدوهم الأكبر فقد استدار العام وحضر الموعد الضروب مع قريش . وحق الحمد وصحبه أن يخرجوا ليواجهوا أباسفيان وقومه ، وأن يديروا رحى الحرب كرة أخرى حتى يستقر الأمر لأهدى الفريقين وأجدرهما بالبقاء .

بدر الآخرة

لم ينشط أبوسفيان للوفاء بالمياد الذي ضربه عند منصرفه من أحد . بل خرج من مكة متثاقلاً يفكر في عقبى القتال مع المسلمين ، وهو بعد لما يتخذ لهذا القتال أهبة التي يودها . إن قومه هزموا في بدر على كثرة عددهم ووفرة عدتهم واستخلصوا النصر في أحد بعد جهد قاتل ، ولولا الخطأ الذي وقع فيه جيش التوحيد ما ظفرت قريش بهذه الفرّة لذلك ما كاد أبوسفيان يقترب من الظهران حتى بدا له في الرجوع فصاح بقومه : يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن . وإن طامكم هذا عام جذب وإن راجع فارجموا . . .

وهكذا انسحبت قريش من المعركة المنتظرة .

أما المسلمون فإنهم نفروا للملاقاة الشركين على استعداد وحاسة حتى وصلوا ماء بدر فمكروا حوله يملنون وفاءهم بكلمتهم وتأهبهم للحرب الموعودة وظلوا ثمانية أيام يرقبون مقدم أهل مكة ويمسحون عن سمّتهم آخر ما تركت هزيمة أحد من غبار وكان ذلك في شعبان من السنة الرابعة للهجرة .

دومة الجندل

وانتقل زمام المفاجأة إلى أيدي المسلمين بعد أن تكلمت قريش عن مواجهتهم . فالتفتوا إلى الشمال بعد أن توطلت مهابتهم في الجنوب . وشمال الجزيرة يحاور سلطان الروم القديم ، والرب الضاريون هناك لا يخشون بأس أحد بعد القيصر . وقيصر نفسه لا يتوقع أن تنفث في الجزيرة قوة تناوئه أو تتجاهله .

وجاءت الأخبار إلى المدينة أن القبائل حول دومة الجندل — قريباً من الشام —

تقطع الطريق هناك ، ونهب ما يمر بها ، وقد بلغ بها الطغيان حداً ففكرت منه أن
 تهاجم المدينة ، وأن جماً كبيراً لحشد بها للدفاع في هذه النارة !
 فخرج رسول الله في ألف من المسلمين يكتن بهم نهراً ويسير ليلاً حتى يقاوم
 أعداءه وهم خازون . والمصافة بين يثرب ودومة الجندل خمس عشرة ليلة قطعها
 المسلمون بمحونة دليل ماهر . فلما بلغوا مضارب خصومهم اجتاحتها مباحثين فقرت
 الجوع والتأهب للسطو ، وأسباب المسلمون سوائهم ورجالهم وكانت لبي تميم .
 أما أهل الدومة ففروا في كل وجه فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحداً .
 وأقام الرسول عدة أيام يبعث السرايا ، ويبحث رجاله هنا وهناك فلم يثبت للقائهم هارب .
 واد المسلمون إلى المدينة . وكان توجههم لعرب الشمال في ربيع الأول من
 السنة الخامسة .



عندما كان الإسلام دعوة تنال النظام السائد كانت غاصته تتخذ طريق الجبهة
 والتهجم دون مبالاة . فلما استقر له الأمر وتوفرت لأبنائه أسباب القوة سلكت
 عداوته المسارب التي تسلكها الفرائز الكبوة ، فأسمى الكيد له يقوم على المكر
 والفساد إلى جانب الوسائل الأخرى التي يصادى بها الأقوياء . وإتمام الضمائم في جفج
 الظلام لا يقل خطورة عن نكابة الأقوياء في ميادين الصدام . بل إن المرء قد يألم
 لإشاعة ملفقة أكثر مما يألم لطعنة مواجعة . وفي الحروب الفاجرة تستخدم جميع
 الوسائل التي تصيب العدو وإن كان بعضها يستحق من استخدامه الرجل الشريف !
 وقد لجأ المنافقون في المدينة إلى مناوأة النبي ودعوته بأسلوب تظهر فيه خسة
 النفس الإنسانية عندما يستبد بها الحقد ويقلب عليها الضعف ، أسلوب اللمز والتمريض
 حيناً والإفك والافتراء حيناً آخر . وكلما توطدت سلطة المسلمين ورسخت مكانتهم
 ازداد خصومهم المنافقون ضغناً عليهم وتربصاً بهم . وقد حاولوا تأييد اليهود عند ما
 تأذتهم الرسول بالجللاء . فلما لم يقف مد الإسلام شيء ، ولم تهده هزيمة . وأخذت
 أمة نزل المائدة تختفي واحدة تلو أخرى ، التحق أولئك المنافقون بصفوف المسلمين ،
 ولم تنكشف سياهم السوء إلا على فلتات الألسنة ومزالق الطبايع . فكانت سيرتهم
 تلك ، من شام ، نأدى منها رسول الله وانؤمنون شيئاً غير قليل .

وظهر ذلك جلياً في غزوة بني المصطلق . فإن الأنبياء أتت الرسول بأن هذه القبيلة تجمع له وتستعد لقتاله . وأن سيدها الحارث بن أبي ضرار قد استكمل عدته لهذا السير ، فسارع رسول الله بالسلمين ليطفئ الفتنة قبل اندلاعها . وخرج مع الرسول هذه المرة جمع من المنافقين لم يتأدوا الخروج قبلاً . ولعل قهقههم بانتصار محمد أغرتهم بالتهاب معه ابتداء الدنيا لا انتصاراً لدين .

وانتهى السلمون إلى ماء يسمى المُرَيْسِيع اجتمع فيه بنو المصطلق ، فأمر رسول الله عمر بن الخطاب أن يمرض الإسلام على القوم . فنادى عمر فيهم : قولوا : لا إله إلا الله نمنعوا بها أنفسكم وأموالكم فأبوا . وترامى الفريقان بالبيل ، ثم أمر النبي صحابته فحملوا عليهم حملة رجل واحد . فلم يفلت من الشركين أحد إذ وقعوا جميعاً أسرى بعد ما قتل عشرة أشخاص ولم يستشهد من السلمين إلا رجل واحد قتل خطأ . وسقطت القبيلة بما تمكك في أيدي السلمين .

ورأى رسول الله أن يامل المهزومين بالإحسان . فلما جاء الحارث قائد القبيلة المنكسرة يطلب ابنته التي وقعت في الأسر ردّها عليه . ثم خطبها منه ، وتزوجها فاستحي الناس أن يسترقوا أسفار رسول الله . فأطلقوا من بأيديهم من الأسرى . فكانت جورية بنت الحارث من أئمن الناس على أهلها . فقد أعتق في زواجها مائة أهل بيت من بني المصطلق ...

على أن هذا النصر المبسر شابه من أعمال المنافقين ما عكّر صفوه وأنسى المسلمين حلاوته ، فإن خادماً لعمد كان يستحق له من ماء الرسيح ازدحم مع مولى لبني عوف ابن الخزرج وكاد يقتلان على الورود — شأن الخدم الطائشين — فصاح الأول : يا للمهاجرين . وصاح الآخر : يا للأنصار ! واستمع إلى صياح الأتباع عبد الله بن أبي وكان في رده من قومه فرأى الفرصة سانحة لإثارة حفاظهم وإحياء ما أماته الإسلام من نمرات الجاهلية فقال : أوقد فملوها ؟ نافرنا وكأثرونا في بلادنا . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرض منها الأدل . ثم أقبل على قومه — ولم تزل له فيهم بقية وجاهة — يلومهم ويحرضهم على التنكر للرسول وصحبه . فذهب زيد بن أرقم إلى النبي بقص عليه الخبر ، وأمرع ابن أبي إلى رسول الله يرى نفسه وينفي ما قاله !

ورأى الحاضرون أن يقلبوا كلام ابن أبي رعاية لمزنته ، وقالوا : الظلام - يمتنون زيد بن أرقم - أو هم ولم يحفظ ما قيل !!

على أن الحقيقة لم تقت النبي فأحزنه ما وقع ، ووجد خير علاج له شغل الناس عنه حتى يُمنى على آثاره . فأصدر أمره بالارتحال في ساعة ما كان يروح في مثاهم . ومشى بالناس سائر اليوم حتى أمسوا . وطيلة الليل حتى أصبحوا ، وصدرَ يومهم الجديد حتى آذنتهم الشمس . ثم نزل بهم فما إن وجدوا مسَّ الأرض حتى وقفوا نياماً ! وتابع الرسول رواحه حتى عاد إلى المدينة .

ونزلت سورة المنافقين وفيها تصديق ما روى زيد بن أرقم : يقولون : لن نرجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل . والله العزُّ ورسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون .

لم يدُرْ بخاطر أحد أن هذه الأوبة المتعجلة سوف تتمخض عن أكنوبة دينية يحكيك أطرافها عبد الله بن أبي ثم يرمى بها بين الناس فتسير الوباء الفاتك .

إن هذا الرجل حلف كاذباً بمد أن أنكر مقالته الثابتة ، ولو أن الجبان ذهب يطلب النجاة من عقابها لكان ذلك أجدى عليه . لكنه لم يزد على السباح الذي قوئل به إلا خسة وخصاما . واليون بيد بين أصناف الرجال الذين عادوا الإسلام ورسوله . لقد كان أبو جهل خصماً لوداً لكل من دخل في هذا الدين ، وكان طاغية هنيئاً لا تنتهى لجاحته ، إلا أنه كان كالضبع المفترس لا يحسن الالتواء والوقية ، حل السيف في وضغ النهار وما زال يقاتل به حتى صرع . .

أما عبد الله بن أبي فقد اختفى كالمقرب الخائفة ثم شرع يلسع النافلين ... قبح هذا المنافق في جنح الظلام وبدأ ينفث الإشاعات الريبة . وتدل في غوايته إلى حضيض بعيد ، فلم يبال أن يتجهج على الأعراض المصونة وأن ينسج حولها مقتريات يندى لها سبين الحرائر العفيفات . .

في عودة الرسول من عزوة بنى المصطلق إلى المدينة نبت حديث الإفك وشاع ، واجتهد خصوم الله ورسوله أن يتقلاوا شره في كل مكان ، قاصدين من وراء هذا أسلوب الجديد في حرب الإسلام أن يدمروا على الرسول بيته ، وأن يسقطوا

مكاة أقرب الرجال لديه ، وأن يدعوا جمهور المسلمين بعد ذلك يضرب في حماية من الأسى والنم !!

ولموصول إلى هذه الناية استباح ابن أبي لنفسه أن يرمى بالفحشاء سيئة لما تجاوز مرحلة الطفولة البريئة ، لا تعرف الشر ، ولاهم بمنكر ، ولا تحسن الحياة إلا في تلك النبوة المآلى . وهى التى تربت في حجر صديق ، وأعدت لصحبة نبي في الدنيا والآخرة . وتلقف المامة هذا الحديث التريب ، وهم في غمرة البهشة لا يدرون مبلغ الخطر الكامن في قبوله ونقله ، وإليك سرداً لهذا الحديث للقتل ، على لسان السيدة التى تعرضت له وبرئت منه .

حديث الإفك

قالت عائشة : كان رسول الله إذا أراد سफراً أقرع بين نسائه ، فأبتهن خرج سهمها خرجت معه . فلما كانت غزوة بني المصطلق خرج سهمى عليهن فارتفعت معه ! قالت : وكان النساء إذ ذاك يأكلن التلحى ، لم يهجهن اللحم فيثقلن . وكنت إذا رحل يبرى جلست في هودجى ، ثم يأتى القوم فيحملونى ، يأخذون بأسفل الهودج فيرفقونه ، ثم يضمونه على ظهر البعير ويشدون به الجبال ، ويمدند ينطلقون قالت : فلما فرغ رسول الله من سفره ذاك توجه قافلاً ، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات فيه بعض الليل . ثم أذن مؤذن في الناس بالرحيل فتهيأوا لذلك . وخرجت لبعض حاجتى وفى عنقى عقد لى . فلما فرغت أنسل من عنقى ولا أدرى .. ورجعت إلى الرحل فالتصت عقدى فلم أجده ! وقد أخذ الناس في الرحيل . فمدت إلى مكانى الذى ذهبت إليه فالتصته حتى وجدته . وجاء القوم الذين كانوا يرحلون لى البعير — وقد كانوا فرغوا من إعداده — فأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه فشدوه على البعير ، ولم يشكروا أنى به .

ثم أخذوا برأس البعير وانطلقوا ... !

ورجعت إلى المعسكر وما فيه داع ولا مجيب . لقد انطلق الناس ؟؟؟ قالت : فتلقت بجلبابى ثم اضطلجت في مكانى . وعرفت أنى لو افترقت لرجع الناس إلى . فوالله إنى لمضطجعة إذ مر بى صفوان بن المعطل السلى وكان قد تخلف لبعض

حاجته . فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف على — وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب — فلما رآنى قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .
ظمينة رسول الله ؟ وأنا متلفعة في ثيابى !!

ما خلقتك رحمك الله ؟ قالت : فما كنته ، ثم قرب إلى البعير فقال . اركبى واستأخر عني . قالت : فركبت وأخذ برأس البعير منطلقا يطلب الناس ! فوالله ما أذكر كنا الناس وما انقذت حتى أصبحت وزلوا فلما اطمئنوا طلع الرجل يقودى البعير فقال أهل الإنك ما قالوا . وارتج المسكر . ووالله ما أعلم شئ من ذلك ...

ثم قدمنا المدينة فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة — وليس يلبث من ذلك شئ — وقد انتهى الحديث إلى رسول الله وإلى أبوى وم لا يذكرون لى منه كثيراً ولا قليلا . إلا أنى قد أنكرت من رسول الله بعض لطفه لى فى شكواى هذه ؟ فأنكرت ذلك منه ، كان إذا دخل على وعندى أى تعرضنى قال : كيف تبيكم ؟ لا يزيد على ذلك ؟ قالت : حتى وجدت فى نفسى — غضبت — فقلت يارسول الله — حين رأيت مارأيت من جفائه لى — : لوأذنت لى فاضلت إلى أى ؟ قال : لا عليك ؟ قالت : فاهلقت إلى أى ولا علم لى بشئ عما كان حتى قهرت من وجسى بعد بضع وعشرين ليلة ... وكنا قوماً عرباً لا نتخذ فى بيوتنا هذه الكنف التى تتخذها الأماجم ، نألفها ونكرها ، إنما كنا نخرج فى فسخ المدينة وكانت النساء يخرجن كل ليلة فى حوائجهم . فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى أم مسطح ، فوالله إنها لتمشى معى إذ عثرت فى حوطها فقالت : تس مسطح ! فقلت : بلى — لعمر والله — ما قلت لرجل من المهاجرين شهد بداراً !! قالت : أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟ قلت : وما الخبر ؟ فأخبرتني بالذى كان من أهل الإنك ؟ قلت : أو قد كان هذا ؟ قالت نعم والله لقد كان ... !!

قالت عائشة : فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى . ورجعت فوالله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى . وقلت لأى . يفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً ؟ قالت : أى بنية ، خفى عنك ، فوالله لقل ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ، ولها خيرا إلا كثرن وكثر الناس عليها ..

قالت : وقد قام رسول الله نخطبهم - ولا أعلم بذلك - فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق ؟ والله ما علمت عليهم إلا خيراً . ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً . ولا يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معي !! قالت : وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبي في رجال من الخزرج . مع النبي قال : سبط وحننة بنت جحش . وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ولم تكن امرأة من نسائه تناسيني في النزلة عنده غيرها . فأما زينب فمضت معها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً . وأما حنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارني بأختها . فلما قال رسول الله تلك المقالة قال أسيد ابن حضير : يا رسول الله إن يكمنوا من الأوس فكفيهم ، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فرنا أرك فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم . فقام سعد بن عباد - وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً - فقال : كذبت لسمر الله ما تضرب أعناقهم إنك ما قلت هذه المقالة إلا وقد عرفت أنهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . فقال أسيد : كذبت لسمر الله ولكنك مفاقمجادل من الناقضين . . .

وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين شرٌّ ونزل رسول الله فدخل على ودعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما . فأما أسامة فأنى خيراً ثم قال : يا رسول الله أهلك وما تعلم منهم إلا خيراً . وهذا الكذب والباطل ! وأما علي فقال : يا رسول الله ، إن النساء لكثير ، وإنك تقادر علي أن تستخلف . وسل الحارية فإنها تصنعك . . .

فدعا رسول الله برة يسألها . وطم إليها علي فضربها ضرباً شديداً وهو يقول : أصدق رسول الله ! فتقول : والله ما أعلم إلا خيراً . وما كنت أعيب على عائشة إلا أني كنت أعجن عجيني ، فأمرها أن تحفظه ، فقام عنه ، فأتى الشاة وتأكله !! قالت : ثم دخل علي رسول الله وعندي أبواي ، وعندي امرأة من الأنصار وأنا أبكي وهي تبكي . فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فأتق الله . وإن كنت قد ظفرت سوءاً مما يقول الناس فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده . . .

قالت : فوالله إن هو إلا أن قال لي ذلك حتى قلص دمي فما أحس منه شيئاً وانتظرت أبوي أن يجييا عني فلم يشكبا !
 قالت عائشة : وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأنًا من أن ينزل الله في قرآنًا . لكني كنت أرجو أن يرى النبي في نومه شيئاً يكنب الله به عني لما يعلم من براءتي ، أما قرآنًا ينزل في فوائده لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك .
 قالت : فلم أر أبوي يشكبان ! قلت لهما : ألا تحييان رسول الله فقالا : والله لا ندرى بم نجيبه قالت : والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام . ثم قالت : فلما استجمعا على استمعت فيكيت ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدًا . والله إنني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس — والله يعلم أني منه بريئة — لأقولن ما لم يكن . ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني قالت : ثم التمس اسم يعقوب فما أذكره . فقلت : أقول ما قال : أبو يوسف : « فصبّر جيلٌ واللهُ المستعانُ على ما تصفون » .

فوالله ما برح رسول الله مجلسه حتى تنشاء من الله ما كان يتنشاء فسُجّي بهوبه ووضعت وسادة تحت رأسه ، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت وما باليت وقد عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالم . وأما أبوي فوالله نفس عائشة بيده ما سُرّي عن رسول الله حتى غلظت لثغرتُما ففرقا أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس ثم سُرّي عن رسول الله فجلس وإنه ليتحدّر من وجهه مثل الجمان في يوم شات ، فجعل يمسح المرق عن وجهه ويقول : أبشري يا عائشة قد أنزل الله عز وجل براءتك ، فقلت : الحمد لله . ثم خرج إلى الناس ، فخطبهم وتلا عليهم الآيات :

« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكَ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .
 والغريب أن الحدّ أقيم على من ثبتت عليهم تهمة القذف ، وهم : حسان ابن ثابت ، ومسطح ، وسمينة ، أما عبد الله بن أبي مديّر الحنظلي وجروثومتها الغفيرة ، فإنه كان أحذر من أن يقع تحت طائلة المذاب . لقد أوقع غيره ثم أقلت بنفسه . .

وكتاب السيرة على أن حديث الإفك وغزوة بني المصطلق كانا بعد الخندق

لكنتنا تابعا ابن القيم في اعتبارها من حوادث السنة الخامسة قبل هجوم الأحزاب على المدينة . والتحقق يساند ابن القيم ومتابعيه . . وستعلم أن سعد بن معاذ قتل في معركة الأحزاب . مع أن لسعد في غزوة بني المصطلق شأنًا يذكر . إذ أن الرسول اشتكى إليه عمل ابن أبي ، ولا يتفق أن يستشهد سعد بن معاذ في غزوة الخندق ثم يحضر بعد ذلك في بني المصطلق ، لو صح أنها وقت في السنة السادسة .

غزوة الأحزاب

أثبتت طوائف الكفار أنها لن تستطيع مقابلة الإسلام إذا حاربه كل طائفة بمفرده . وأنها ربما تبلغ أملها إذا رمت الإسلام كتلة واحدة . وكان زعماء يهود في جزيرة العرب أبصر من غيرهم بهذه الحقيقة فأجمعوا أمرهم على تأليب العرب ضد الإسلام وحشدوا في جيش كثيف ينازل عمداً وصحبه في معركة حاسمة .

وذهب نفر من قادة اليهود إلى قريش يستنفرونهم لحرب رسول الله ، وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . وقريش قد أخلت عدتها فامأً وهي لا بد خارجة لقتال المسلمين إنقاذاً لسمعتها ورأً بكلمتها . وهام أولاء رجالات يهود يحالفونهم على ما ينفون فلا مكان لتوجس أو إخلاف .

والغريب أن أحبار التوراة أكدوا اميدة الأوثان في مكة أن قتال محمد حق واستئصاله أرضى لله ! لأن دين قريش أفضل من دينه ، وتقاليده الجاهلية أفضل من تعاليم القرآن !! وسررت قريش بما سمحت وزادها إصراراً على المدوان فواعدت اليهود أن تكون معها في الزحف على المدينة .

وترك زعماء اليهود مريشاً إلى أعراب غطفان فمقدوا معهم حلفاً مشابهاً لما تم مع أهل مكة . ودخل في هذا الحلف عدد من القبائل الناقية على الدين الجديد .

وبذلك نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي ودعوته . وعرف المسلمون مبلغ الخطر المهدق بهم ، فرسموا على عجل الحطة التي يدفعون بها عن دعوتهم ودولتهم وكانت خطة فريدة لم تسمع العرب قبلاً بمثلها . وهم الذين لا يعرفون لا قتال الميادين المكشوفة . أما هذه المرة فإن المسلمين حفرُوا خندقاً عميقاً يحيط بالمدينة من ناحية السهل ، ويفصل بين النيرين والمدافين .

وأقبلت الأحزاب في جمع غفير لاقبل للمسلمين برذء . قريش في عشرة آلاف من رجلها ومن تبعهم من كفانة وسمامة . وخطبان في طليعة قبائل نجد . ويرز السلون بمد ما جعلوا نساءهم وذواربهم فوق الآطام الحصينة من يثرب ثم انتشروا على حدود مدينتهم مستدين ظهورهم إلى جبل سلع ، ومرابطين على شاطئ الخندق الذي احتفروه بمد جهود مضنية ، وبلغت عدتهم في هذه المرة نحو ثلاثة آلاف مقاتل ..

علم رسول الله أن الالتحام مع هذه الجيوش الضخمة في ساحة ممهدة ليس طريق النصر . فاحسب أن تصنع قلة مؤمنة مكافئة مع هذا السيل المافق ؟ ذلك لجأ إلى هذه السكينة ، ويرى أن الذي أشار بها سلمان الفارسي وتقدم رجاله لإحكامها وإيجازها فأخذ يحفر بيده ويعمل الأزبة والأحجار على طاقه وتأسى به الرجال الكبار ممن لم يألفوا هذا العمل قط ! فشهدت يثرب منظرأ عجيباً ، وجوها ناصعة تتألف منها فرق شتى تضرب بالفتوس وتحمل المكائل وتتمرى من لباسها وزينتها لتلبس حللاً من نسج النبار المتراكم والرق والغنوب !
قال : البراء بن مازب : كان رسول الله ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبر بطنه يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا سلينا
فأزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بنوا علينا إذا أرادوا فتنة أينا

وهذا الفتاء من شعر عبد الله بن رواحة كان المشتغلون في الخندق يزعمون التعب عن أعصابهم بالاستماع إلى نغمه وترديد الكلمات الأخيرة من مقاطعه . وكان رسول الله يعد صوته بها معهم فيقول : لاقينا .. أينا مما يمد إلى أذهاننا صور «الفتنة» الذين يحفرون الترح بالريف أو يبنون القصور بالمدن إن الدفاع عن الإسلام ومخافة الفتنة لو انتصر للمشركون جعلت الرسول ومجاهديه يالجون هذا العمل الثقيل ونفوسهم ياضية متبيلة مع ما يلقون فيه من عناء وصموبة . ولا تحسبن عمل رسول الله في معسكره خمولاً . فربما قد من قبل التمثيل الذي يحسنه بعض الزعماء في عصرنا كلاً كلاً .

إن الرجولة السكادحة الجادة في أنبل صورها كانت تقتبس من مسلك الرسول في هذه الحركة . يقول البراء : لقد أرى على الزابج جلدته بطنه وكان كثير الشعر !! أجل إنه استغرق في العمل مع أصحابه فالرجولة الصادقة لا تعرف التمثيل وكان الفصل شتاء ، والجو باردا . وهناك أزمة في الأقوات تمانيتها المدينة التي توشك أن تتعرض لحصار عنيف ، وليس هناك أقتل لروح المقاومة من اليأس ، فلو تعرض المصور لسوراته القبضة فزالق الاستسلام الدليل أمامه تنجره به إلى الحضيض . لذلك اجتهد النبي في دعم القوى المعنوية لرجاله حتى يوفوا بأن الضائقة التي تواجههم سحابة صيف عن قليل تهشم .

ثم يستأنف الإسلام مسيره مدعاً فيدخل الناس فيه أفواجا ، وتندك أمامه معاقل الظلم فلا يصدر عنها كيد ولا تخشى منها فتنة .

ومن إحكام السياسة أن يقارن هذا الأمل الواسع مراحل الجهد المضني . قال عمرو بن عوف : كنت أنا وسلمان وحديفة والتمان بن مقرن وستة من الأنصار في أربعين ذراعا — من الأرض التي كفوا بمغفرها — فغفروا حتى وصنا إلى صخرة بيضاء كسرت حديدنا وشقت علينا . فذهب سلمان إلى رسول الله يخبره عن هذه الصخرة التي اعترضت عملهم وأعجزت مطاولهم . فجاء النبي وأخذ من سلمان المول ثم ضرب الصخرة ضربه صدقتها وتطاير منها شرر أضاء حل هذا الجو الداكن . وكبر رسول الله تكبير فتح وكبر المسلمون . ثم ضربها الثانية فكذلك ، ثم الثالثة فكذلك

تفتت الصخرة تحت ضربات الرجل الأبد الجلد ، الوصول بالسماح الراسخ على الأرض ، ونظر النبي إلى محبه وقد أشرق على نفسه الكبيرة شعاع من الثقة الناعمة والأمل الحلو فقال يحدث محبه عن السنا المتقدح بين حديد المول وحدة الصخر لقد أضاء لي في الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى ، كأنها أبواب الكلاب . وأخبرني جبريل أن أمي ظاهرة عليها . وفي الثانية أضاء القصور الحجر من أرض الروم ، كأنها أبواب الكلاب . وأخبرني جبريل أن أمي ظاهرة عليها . وأضاء لي في الثالثة قصور سماء كأنها أبواب الكلاب . وأخبرني جبريل أن أمي ظاهرة عليها فأبشروا . فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله موعود صادق !

فلما انسابت الأحزاب حول المدينة وضيقوا عليها الخناق لم تفر قفوس المسلمين شاماً بل جابهوا الحاضر الروم موطنو الأمل في غد كريم « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله . وصلى الله ورسوله . وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » .

أما الواهون والرتابون ومرضى القلوب فقد تندروا بأحاديث الفتح ، وظنوها أمانيّ المفرورين . وقالوا عن رسول الله : يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنتم تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تبرزوا ؟ وفيهم قال الله : « وإذا يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » .



إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر بل معركة أعصاب .
فقتل الفريقين من المؤمنين والكفار يمدون على الأصابع . ومع تلك الحقيقة فعى من أحسم المارك في تاريخ الإسلام . إذ أن مصير هذه الرسالة المظلمة كان فيها أشبه بمصير رجل يعيش على حافة ساقطة ، أو جبل ممدود قبل اختل توازنه لحظة . وقد السيطرة على موقفه لهوى من مرتفعه إلى وادٍ سحيق ، ممزق الأعضاء ، ممزق الأشلاء ! ولقد أمسى المسلمون وأصبحوا فإذا هم كالجزيرة المنقطعة وسط طوفان يهددها بالغرق ليلاً ونهاراً . وبين الحين والحين يتطلع الدافعون : هل اقتحمت خطوطهم في ناحية ما من منطقة الدفاع ؟ وكان المشركون يدورون حول المدينة غصبا يتحسسون نقطة ضعيفة لينحدروا منها فينفسوا عن حنقهم المكتوم ويقطعوا أوصال هذا الدين الثائر . وعرف المسلمون ما يترتب بهم وراء هذا الحصار فقررروا أن يراجلوا في مكانهم ينضحون بالنبل كل مقرب ويتحملون لأداء هذه الحراسة التي تنتظم السهل والجبل وتنسج ثنورها يوماً بعد يوم . وهم كما وصف الله : « إذ جاءوك من فوقكم ومن أسفل منكم . وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً .

وكره دارس من قريش أن يقفوا حول المدينة على هذا النحو ، فإن فرض الحصار . وترقب : . نجه يس من شيمه فخرج عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل ونسب . . . وأتيناو تمنق به خيه حتى وقفوا على حافة الخندق فلما رأوه

قالوا : والله إن هذه لمكبنة ما كانت العرب تكيد بها . ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق ، وضربوا خيلهم فانتحمت . وأحس السلون الخطر للقترب فأسرع فرسانهم يسدون هذه الثغرة يقوم علي بن أبي طالب .

وقال علي لمرو بن عبد ود . وهو فارس شجاع مُعلم : يا عمرو إنك عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخفها منه ؟ قال : أجل ، قال له علي : فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام ! قال عمرو : لا حاجة لي بذلك قال : فإني أدعوك إلى النزال ! فأجاب عمرو : ولم يا ابن أخي ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك — استصفاً لشأه — قال علي : لكني والله أحب أن أقتلك ! ! فحس عمرو واتضح عن فرسه فقره وضرب وجهه ثم أقبل على علي ، فتنازلا وتجاولا فقتله علي وخرجت خيل المشركين من الخندق منهزمة حتى اقتحمت هاربة . .

وكان الأولاد في البيوت يرقبون جهاد المدافعين وحركاتهم السريعة لصد العدوان في مظانهم . فمن عبد الله بن الزبير ، جعلت يوم الخندق مع النساء والصبيان في الأطم ومعهم امرئ بن أبي سلمة ، فجعل يطأطأ إلى فأسد على ظهره فأناظر . قال فنظرت إلى أبي وهو يعمل مرة ها هنا ومرة ها هنا ، فما يرتفع له شيء إلا أناه . فلما أمسى جاءنا إلى الأطم . قلت : يا أبت ، رأيتك اليوم وما تصنع ! قال : رأيتني يا بني ؟ قلت : نعم . قال الزبير — مدكلاً ولده — فدى لك أبي وأمي .

في هذه الآونة المصيبة جاءت الأخبار أن بني قريظة قضوا معاهدتهم مع رسول الله وانضموا إلى كتائب الأحزاب التي تحمق بالدينة .

وذلك أن حُيَّ بن أخطب — أحد النفر الذين حرضوا مريشاً وسائر العرب على حرب الإسلام — جاء إلى كعب بن أسد سيد قريظة — وقرع عليه باب . وكان كعب عند قدوم الأحزاب قد أغلق أبوابه ومنع حصونه ، وقرر أن يوفى بالمهد الذي بينه وبين المسلمين ، فلا يعين عليهم خصماً — وليته بقى على هذا مزماً — إلا أن حُيَّياً لزم الباب وهو يصرخ بكعب : وبحك انتح لي ، فقال له كعب : إليك امرؤ شئوم ، وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه . ولم أر منه إلا وفاء وصداً ... قال حي : وبحك انتح لي أكلحك . قال : ما به ! فقال حي :

والله إن أغلقت دوني إلا خوقا على جيشيتك أن آكل معك منها !! فأحفظ الرجل ففتح له . . .

ودخل حيي يقول : ومحك يا كعب جيشك بمن الدهر ومحرطام أقال : وما ذاك ؟ قال : جيشك بقريش على سادتها وقاضها حتى أزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة . وبغطفان على سادتها وقاضها حتى أزلتهم إلى جانب أحد . وقد هادوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى يستأسلوا محمداً ومن معه . . .

قال كعب : جيشي والله بذل الدهر ، ويجهام قد هراق مائه ، يُرعد ويُبرق وليس فيه شيء ! دعني وما أنا عليه . فإني لم أر من عهد إلا وفاء وسدقا . . .

وتدخل آخرون فقالوا : إذا لم تنصروا محمداً — كما يقضي الميثاق — فدموه وعدوه . بيد أن حيي استطاع أن يقنع سائر اليهود بوجه نظره ، وأن يزين لهم الندى في هذه الساعة الحرجة ، وأن يضمهم إلى الشركين في قتالهم الذي أعلنوه ، وجعلوا الناية منه ، ألا يبرحوا حتى يستأسلوا محمداً ومن معه ، ومُضياً في هذه الخطة الجائرة الخسيسة ، أحضرت قريظة الصحيفة التي كتب فيها الميثاق فزقتها . فلما بحث النبي رجاله ليستجلا موقف قريظة بإزاء عدوان الأحزاب قالوا : مَنْ رسولُ الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ! وحاول سعد بن معاذ أن يذكرهم بمقدم قتصاموا عنه ، فلما خوفهم عقبى الندى ، وذكر لهم مصير بني النضير قالوا له : أَكَلْتَ أَيْرَ أَيْبِكَ . . .

وتبين أن حرص قريظة الأول على التزام الهدى كان خوفاً من عواقب الندى فقط . فلما ظنت أن المسلمين أحيط بهم من كل جانب وأنها لن تؤاخذ على خيابة ، أسفرت عن حياتها وانضمت إلى الشركين المهاجرين .

ووجع المسلمون حين عادت رسلم تحمل هذه الأنباء القلقة ، وربت مشاعر الكره في صدورهم لأولئك اليهود حتى لأسبحوا أشوه أمام أعينهم من عباد الأصنام ووعوا أنهم الوحي أن بني إسرائيل أقدموا على قرارهم هذا وهم يطمون معناه ، وعقباء ، يمدون أنه محاولة متمدة للإجهاز على هذه الأمة ودينها ، وتسليمها إلى من يقتل رحمةً ! سترق ساءها ويبيع ذرارها في الأسواق .

وَتَشَعَّ الرُّسُولُ بِشَوْهِ حِينَ أَنَاءَ غَدَرِ قَرِيطَةَ . قَاضِطُجِعَ وَمَكَّتْ طَوِيلًا حَتَّى اشْتَدَّ عَلَى النَّاسِ الْبَلَاءُ . ثُمَّ غَلَبَتْهُ رُوحُ الْأَمَلِ فَهَضَّ يَقُولُ : أَبَشِّرُوا بِفَتْحِ اللَّهِ وَنَصْرِهِ ۝ ۱ ۝ وَفَكَرَ فِي أَنْ يَرُدَّ عَنِ الْمَدِينَةِ بَعْضَ الْقَبَائِلِ الَّتِي فَرَضَتْ الْحَصَارَ لِقَاءِ ثَلَاثِ الثَّمَارِ يَنْتَهِي لَهَا وَيَتَّقِي بِهِ شَرَّهَا . وَكَادَ يَصِلُ فِي مفاوضاته مع قُرَادٍ عَظْفَانٍ إِلَى هَذَا الْحُلِّ . لَكِنْ سَادَةَ الْأَوْسِ وَالْمُزَرِجَةِ عَزَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَرْضَوْا بِهِ ، وَقَدَّرُوا لِلنَّبِيِّ شَقَقَتَهُ عَلَيْهِمْ وَأَلَّهُ لاجتماع العرب ضِدْمَ . يَبِيدُ أَنَّهُمْ قَالُوا : مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ وَاللَّهُ لَا نَطْلُبُهُمْ إِلَّا السِّيفَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ . وَطَالَ الْحَصَارُ . قَالَ مُوسَى بْنُ عُبَيْدَةَ : وَأَحَاطَ الْمُشْرِكُونَ بِالْمُسْلِمِينَ حَتَّى جَعَلُوا فِي مِثْلِ هَذَا الْحَصَنِ مِنْ كِتَابَتِهِمْ لِحَاصِرِهِمْ قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ لَيْلَةً . وَأَخَذُوا بِكُلِّ فَاحِشَةٍ حَتَّى لَا يَدْرِي : أَمَّ أَمْ لَا — هَلْ احْتَلَوْا الْبَلَدَ أَمْ لَا ؟ — قَالَ ، وَوَجَّهُوا نَحْوَ مَنْزِلِ رَسُولِ اللَّهِ كَتِيبَةً غَلِيظَةً قَاتَلَهَا السُّلَمُونَ يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ فَلَمَّا حَانَ صَلَاةُ الْمَصْرِ دَنَّتِ السَّكَنِيَّةُ — مِنَ الْمَنْزِلِ — فَلَمْ يَقْدِرِ النَّبِيُّ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ أَنْ يَصْلُوا الصَّلَاةَ عَلَى نَحْوِ مَا أَرَادُوا .

فَانْكَفَأَتِ السَّكَنِيَّةُ الْمَشْرُكَةُ مَعَ اللَّيْلِ ، فَرَضُوا أَنْ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ : شَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ الْمَصْرِ مَلَأَ اللَّهُ بَطُونَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ نَارًا .

فَلَمَّا اشْتَدَّ الْبَلَاءُ نَافَقَ بَاسٌ كَثِيرٌ ، وَتَكَلَّمُوا بِكَلَامِ قَبِيحٍ ، وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ مَا بِالنَّاسِ مِنَ الْبَلَاءِ ، وَالْكَرْبِ فَجَعَلَ ، يَشْرُمُ وَيَقُولُ : وَاللَّهِ قَضَى بِيَدِهِ لِيَفْرَجَنَّ عَنْكُمْ مَا تَرَوْنَ مِنَ الشَّدَةِ ۝ وَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أَطُوفَ بِالْبَيْتِ الْمُتَيْقِنِ آمِنًا ، وَأَنْ يَدْفَعَ اللَّهُ إِلَيَّ مِفْتَاحَ الْكُفَّةِ ۝ وَلِيَهْلِكَنَّ اللَّهُ كَسْرَتِي وَقِصْرِي ، وَلِتَنْتَفِقَنَّ كُنُوزُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وَوَقَعَ ثَقُلُ الْمَقَاوِمَةِ عَلَى أَصْحَابِ الْإِيمَانِ الرَّاسِخِ وَالتَّجِدَةِ الرَّائِمَةِ . كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكْبِتُوا مَظَاهِرَ الْقَلْقِ الَّتِي انْبَهَثَتْ وَتَكَاثَرَتْ فِي النُّفُوسِ الْحَوَارَةِ الْمُلَوَّعَةِ ، وَأَنْ يَشِمُوا مَوْجَةَ مِنَ الْإِقْدَامِ وَالشَّجَاعَةِ تَمْلُ أَوْ تَوْفِ زُرْعَاتِ الْحَيْنِ وَالتَّرَدُّدِ الَّتِي بَدَتْ هُنَا وَهَنًا . وَطِبَائِعِ النُّفُوسِ تَتَفَاوَتُ تَفَاوُتًا كَبِيرًا لَدَى الْأَزْمَاتِ الْمَضُوضِ .

مِنْهَا الْهَشْيُ الَّذِي سَرَّطَانُ مَا يَذُوبُ وَيَحْمَلُهُ التِّيَارُ مِمَّا كَيْ تَحْمِلُ الْمَيَاءُ الْإِنْتَاءَ وَالْأَوْحَالَ . وَمِنْهَا الصَّلْبُ الَّذِي تَحْرِيهِ الْعَوَاصِفُ الْجَتَّاحَةُ فَتُكْسَرُ حَدْسَتُهَا عَلَى مَتْنِهِ وَتَتَحَوَّلُ رَغْوَةً خَفِيفَةً وَزَبْدًا .

أجل من الناس من يهجم على الشرائع ليأخذها قبل أن تأخذ . وعلى لسانه قول الشاعر :

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدا
ومهم من إذا مسه الفزع طاش ليه فولّى الأديار . وكلما حاجه طلب الحياة وحب
البقاء أوغل في القرار . وقد نى القرآن الكريم على هذا الصنف الجزوع موقفه
في معركة الأحزاب فقال :

« قل : لن ينفعكم القرار إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذا لا تمتنون
إلا قليلاً . قل : من ذا الذي يمسكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة .
ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

وعندما حاولت قريش احتحام الخندق ، وعندما حاولت احتلال بيت النبي ،
وعندما هجمت عود الرابطين تبحت عن قطعة رخوة لتثب منها إلى قلب المدينة . كان
أولئك المؤمنون الراسخون سراعاً إلى داهي الفداء يبيحون من كل صوب ليستيقن
العدو أن دون مرأه الأهرال ..

روى ابن إسحق أن عائشة أم المؤمنين كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق .
وكان من أحرز حصون المدينة . وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن . قالت
عائشة وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب . فرسعد وعليه درع مقلصة خرجت منها
ذراعه كلها . وفي يده حربته يرفل بها ويقول :

أنت فليلا يشهد الهيجا جل ! لا بأس بالموت إذا حان الأجل !

فقال له أمه : الحق يا بني فقد — والله — آخرت ..

قالت عائشة : قتلت لها يأم سعد . والله لوددت أن درع سعد كانت أسبع مما هي .
قالت : وخفت عليه حيث أصاب السهم منه . فرمى سعد بن معاذ بسهم قطع
منه لأكل .

ويظهر أن جراحة سعد كانت شديدة . وليس سعد بالرجل الذي يهاب المنايا .
و — من الرغبة في متابعة الجهاد حتى يستقر أمر الإسلام وتنكسر راية خصومه
سعد . : . من كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقي لها فإنه لا قوم

أحب إلى أن أجاهد ، من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه . وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة . ولا تمتنني حتى تقر عيني من بني قريظة . ودعوة سعد الأخيرة تصور مبلغ ما فطرت عليه قلوب المسلمين من غيظ لخيانة يهود وتمزيقها للماهدة القائمة . ومسلك بني إسرائيل يلزأ الماهدات التي أمضوها قديماً وحديثاً يجعلنا نجزم بأن القوم لا يدعون خستهم أبداً ، وأنهم يرهون الوائيق ما بقيت هذه الوائيق متمشية مع أطماعهم ومكاسبهم وشهواتهم ، فإذا وقفت نطلّهم الحرام بنبوها نبد التواء . لو تركت الخير نهيتها ، والأمانى فدعها ترك اليهود يقضهم للمهود . وقد نبه القرآن إلى هذه الخصلة الشنعاء في بني إسرائيل وأشار إلى أنها أحالهم حيواناً لا أناساً ، قال :

« إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدتم منه ثم ينفضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتنون »
وقل سعد إلى خيمة بالمسجد ، لتقوم على تعريضه إحدى المؤمنين الماهرات .

وجاء المسلمون إلى رسول الله يسألون : هل من شيء . قوله ؟ فقد بلغت القلوب الحناجر . قل : نعم اللهم استر هوراتنا وآمن روعاتنا . . .
وعن عبد الله بن أوفى دعا رسول الله على الأحزاب فقال : اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب . اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم .
والله تبارك وتعالى لا يقبل البطء من متواكل كسول ، ولا يستمع لشيء استهده لختاف مجتهد ، أن يبارك له سعيه . أو دعه صابر . أن يجعل له العاقبة وقد أفرع المسلمون جهدهم في الدفاع عن رسالتهم ومدينتهم حتى لم يبق في طرق الأشهر مدخره ، ففنى أن تتدخل العناية العليا لتضع صخرة الغناء وتقيم حب المقبوض .
ومن ثم أخذ سير المركبة يتطور على نحو لا يدرك الناس كنهه « وما يملح جنود ربك إلا هو . وما هي إلا ذكري بينر ! »

ضاق الأعراب الشذرون بأمراء درعهم المده « فرب قد حيموا حول أطراف يثرب أياماً لا تؤذن بدايتها بانتهاء . وهم يحثرون ليستعدوا أهولهم أمام حندق صعب احتياز ، وجبال ربط المسلمون أمامها ، وحققوا دون أن تقترب أحدهم .

ثم إن الجواغبرت أراجؤه وترادفت أنواؤه . وهبت الرياح فكباء موحشة الصغير تكاد في هبوبها تطوى الخيام البمثرة وتطير بها في الأفاق .

والصلة بين أولئك الحلفاء لا تنرى بدوام الثقة ، إن غطفان وقبائل نجد أقبلت يحدوها السلب والنهب ، وهي قد قبلت المودة من حيث أتت عندما أغريت بعض ثمار المدينة ، لولا أن المسلمين كبر عليهم أن يطمعوا منها رهبا .

وماذا صنعت قريظة ؟

فقضت الوثائق ونكصت عن الهجوم منتظرة من العرب أن يقوموا به ! إن يهوديا خرج يطيف بحسن للمسلمين فنزلت إليه سفية بنت عبد المطلب قتلته ، ولا غرو ، فهي أخت حمزة .

وتلفت أبو سفيان يمنة ويسرة يتطلّب هونا على ما يبنى فلا يرى مأمنا ، مما أوقع الوهن في قلبه ، وفي صفوف قريش معه .

وكان رسول الله يعرف هذا التصدع الخفي في صفوف الأحزاب فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستفله لجانبه . فلما جاءه نعيم بن مسعود مسلما ، أوصاه أن يكتم إسلامه وردّه على المشركين يوقع بينهم ، وقال له : إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة . فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة — وكان لهم نديما في الجاهلية ، فقال : يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم . قالوا : صدقت ، لست عندنا بمتهم . فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم . البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم . لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره . وأن قريشا وغطفان قد جاءوا للحرب محمد وأصحابه . وقد ظاهرتهم عليه . وبلدكم وأموالهم ونساؤهم بغيره . فليسوا كأنتم . فإن رأوا نهزة أسابوها . وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادكم وخلوا بينكم وبين الرجل يبلدكم . ولا طاقة لكم به إن خلابكم . فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تنأجزوهم . فقالوا له : لقد أشرت بالرأي .

ثم خرج حتى أتى قريشا : فقال لأبي سفيان ومن معه : قد عرفتم ودي لكم ورفق محمداً . وإنه قد بانغي أمر رأيت على حقا أن أبلنكموه ، نصحاً لكم فاكتموا على تنبي : فتمل . قل : تملّموا أن هشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيا بينهم

وبين محمد . وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرزقك أن نأخذ لك من القبيلتين ، قريش وغطفان رجلاً من أشراخهم فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ؟ ثم نكون لك على من بقي منهم حتى نستأصلهم . فأرسل إليهم أن نعم إنا نشت إليكهم يهود يلتصمون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً . ثم خرج حتى أتى غطفان . فقال : يا مشر غطفان إنكم أسلى وعشيري وأحب الناس إلى . ولا أراكم تهمونني . قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمنهم . قال : فاكتموا عني ، قالوا : نعم . ثم قال لهم مثل ما قال لقريش ، وحذرهم ما حذروهم . فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس . وكان من صنع الله ورسوله أن أرسل أبو سفيان ورواس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخلف والحافر ، فاعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفره مما بيننا وبينه . فأرسلوا إليهم إن اليوم يوم السبت . وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً . وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم . ولنا مع ذلك باقيين قاتل معكم محمد حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا . حتى نناجز محمد . فإنا نخشى إن ضررناكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشعروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا . ولا طاقة لنا بذلك منه ...

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة . قالت قريش وغطفان : والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا إلى بني قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا . فإن كنتم تريدون القتال ، فاخرجوا فقاتلوا . فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذي ذكر لكم نعيم لحق . ما يريد تقوم إلا أن يقاتلوا . فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك انشعروا إلى بلادهم .

وهكذا أفلح السامون في قسم مرا التحالف بين الأحزاب المجتمعة عليهم ، فامضت أسابيع ثلاثة على ذلك الحصار المضروب حتى دب التفتت والتخاذل في صفوف المهاجرين على حين بقيت جبهة المدافعين سليمة لم تتل .

وفي ليلة شاتية تالية لفتحت سبوابها الوجوه والجنود ، وأعدت الرجال في أماكنهم

ينشدون الغناء ويقرون من التتر المتساقط على الصخور والرمال ، اتجهت نيات القوم الى اتخاذ قرار حاسم في هذا القتال الفاضل !

وكأنما كان زئير الرياح الموج سوطاً يلهب المهاجمين حتى لا يتوانوا في التخلص من هذا الموقف . ونظر رسول الله من وراء أسوار المدينة . وحوله أصحابه جاثمون في مكائهم يرمقون الأفق بحذر ، ويرقبون الغيب بأمل ، والظلام البارد الثقيل يرين على كل شيء في الصحراء المترامية .

قال حذيفة بن اليمان : رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن ساقون قعود . وأبو سفيان ومن معه فوقنا ، وفريضة أسفل منا يخافهم على ذرائعنا . وما أنت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ربحاً منها . قلن في رياحها أصوات أشغال الصواعق ، وما يستطيع أحدنا أن يرى إصبعه من قوائم السائد . ولم يكن على جنة من المدو ولا من البرد إلا مرط لا مرأتى لا يماوز ركبتى . فأتانى الرسول وأنا جاث على الأرض . فقال : من هنا ؟ قلت : حذيفة . فقال : حذيفة ؟ فتقاصرت في موضعى وأنا أقول : بلى يا رسول الله — كراهية أن أقوم ! فندبى لا يريد وقال : إنه كائن في القوم خبر فأتنى به . فخرجت وأنا من أشد الناس فرحاً وأشدم قرأ ، فعدا لى بخير فضيت لشأنى كأنما أمشى في حمام — إنها حرارة الإيمان وحماة الطاعة جعلت الرجل يناب بماطفته المتقدة قسوة الجو —

قال حذيفة : وأوصانى الرسول حين وليت ألا أحدث في القوم حديثاً حتى آتبه ، فلما دنوت من معسكر القوم نظرت ضوء نار لهم توقد ، وإذا رجل أدم ضخم يمد يديه إلى النار مستدفئاً ويمسح خصرته ، ويقول : الرحيل الرحيل . ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك . فوضعت سهماً في كبدي قوسى وأردت أن أرميه . ثم ذكرت وصاة رسول الله فأمسكت ، ولو رميته لأصبته .

وأحسست عصف الريح في جنبات المعسكر لا تتر قدراً ولا ناراً ولا بناء ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش . إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، قد هلك الكراع والحذر . وأخفقتا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم القذى نكروه ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدير ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فأتنى

مرتحل ، ثم قام إلى جملة وهو مقبول فجلس عليه ، ثم ضربه فوثب به على ثلاث ، فوافقه ، ما أطلق عقاله إلا وهو قائم . . .

ورجع حذيفة إلى النبي يقص عليه ما رأى . . . وطلع النهار فإذا ظاهر المدينة خلا . . . ارتحلت الأحزاب ، وانفك الحصار ، وعاد الأمن ، ونجح الإيمان في الهنة ! وهتف رسول الله يقول : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده . فلا شيء بعده . . . ! ! !

رجعت الطمأنينة إلى النفوس ، وظهرت خيبة الأحزاب بعد ما أقبلت من كل فج لتجتاح يثرب وظهرت صلابة المسلمين في مواجهة الأزمات المرهقة . ولذلك قال رسول الله بعد هذه النتيجة الباهرة : الآن ننزوم ولا يفزوننا . .

مع قرينة

انفصت حشود الأحزاب حول المدينة . وعادت المطى بها من حيث أتت تنزع رحاب الصحراء وليس تحمل معها إلا الفشل والخيبة ، وبقي يهود قرينة وحدهم ، أو بقوا ومعهم غدرتهم التي فضحت طواياهم . فأصبحوا وأمساوا أشبه بالجرم الذي ثبتت إدانته فهو يرقب بوجه كالح قصاص العدالة منه . وكانت مشاعر التضييق في أفئدة المسلمين نحو أولئك اليهود قد بلغت ذروتها ، إنهم هم الذين استخرجوا العرب استخرجا . واستقدموهم إلى دار الهجرة ليجتاحوها من أقطارها ، ويستأصلوا المسلمين فيها . إن جراحات المسلمين لصردهم من ديارهم ومطاردتهم في عقيدتهم واستباحة أموالهم ودمائهم شكل فاهب ومقتل لما تنتمى بعد بل لن تنتمى أبدا . فكيف ساع لأولئك الخونة من بني إسرائيل أن يرسوا بأنفسهم اخطأ لإهلاك الإسلام وأبنته على هذا النحو الدنيل ؟؟

ثم ما الذي يحمل بني فرظة خاصة — وهم لم يروا في حوار محمد لا انحر والوفاء — يستديرون بأسلحتهم منضمين إلى أعداء الإسلام كي يشركوهم في قتل المسلمين وسأبهم . وها قد دخل في حصونهم حتى بن أحص رسر لمصانة التي ضاقت بمكة ومجد تحرض الأحزاب على الله ورسوله ، وترغم أن حوثة أفضل من التوحيد . . .

لذلك ما إن وثق المسلمون من منصرف الأحزاب عن المدينة حتى أمر رسول الله مؤذناً فأذن في الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا يسلين مصر إلا في بنى قريظة .

والأذان للقتال في هذه الضحوة المشرقة بالظفر والنجاة قرع مسامع المسلمين ندياً جلياً . فهم في غمرة من الشهور بتأييد الله وملائكته لهم ، أين هم اليوم مما كانوا عليه بالأسس القريب ؟ إنهم مديتون بحياتهم وكرامتهم للعناية العليا وحدها . .

أما خصومهم ، فإن قوى الكون المسخر بإذن الله هي التي قضت جموعهم وفلّت حدودهم . فلا غرو إذا قال رسول الله للمؤمنين — عذناً عن الروح الأمين — ما وضعت الملائكة السلاح بعد . . . إن الله يأمرك يا محمد بالسير إلى بنى قريظة ، فإني عامد إليهم فزول بهم .

وقد صدق رسول الله بالأمر ، وشدد على المسلمين أن يسارعوا في إنفاذه . روى البيهقي أن رسول الله قال لأصحابه : هزمت عليكم أن لا تصلوا صلاة العصر حتى تأتوا بنى قريظة ، ففربت الشمس قبل أن يأتوهم . وقالت طائفة من المسلمين : إن رسول الله لم يرد أن تدعوا الصلاة فصلاوا . وقالت طائفة : والله إنا لنرى عزيمته رسول الله ، وما علينا من إثم ، فصلت طائفة لإيمان واحتساباً . وترك طائفة لإيمان واحتساباً . ولم يمتف رسول الله واحداً من الفريقين .

وذلك يمثل احترام الإسلام لا اختلاف وجهات النظر مادامت عن اجتهاد برىء سليم ، والناس غالباً أحد رجلين ، رجل يقف عند حدود النصوص الظاهرة لا يمدوها ، ورجل يتبين حكمتها ويستكشف غايتها ثم يتصرف في نطاق ماوعى من حكمتها وغايتها ولو خالف الظاهر القريب . وكلا الفريقين يشفع له إيمانه واحتسابه سواء أصاب الحق أو دنا عنه .

ومن اتلمأ من أهدر الوقت الميعن للصلاة بمنزلة القتال ، وذلك منهج البخاري وغيره وهذا — عندي — أدنى إلى الصواب . فإن ترتيب الواجبات النواة بأعناق المبدأ من أهم ما يحدد رسالة المسلم في الحياة . بل إنه لا يفهم دينه فهماً صحيحاً إلا إذا فقه هذا الترتيب المطلوب .

بن الإسلام تماثيل وأعمال شتى فيها الفرائض وفيها النوافل . ولا بد أن نعلم أن

الله لا يقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة . قال جل القى يستكثر من أعمال التطوع في الوقت القى يحمل فيه فرائض لازمة ، وجب ضل .

والفرائض المطلوبة لحفظ الإيمان كالأغذية المطلوبة لحفظ الجسم . وكما أن الجسم لا يقوم بالمواد الشوية وحدها ، أو الزلالية وحدها ، بل لا بد من استكمال جمل متنوعة من الغذاء ، وإلا تعرض الجسم لملل قد تنهكه أو تقتله .

فكذلك الدين . إنه لا قيام له في كيان الفرد أو في صفوف الجماعة إلا بجملة من الفرائض الملوثة تصون حياته وتضمن عافيته ونمائه . وعلى المسلم أن يقسم وقته وأن ينظمه على هذه الفرائض المطلوبة ، فلا يشغله واجب من واجب ، وبالأحرى لا تشغله نافلة من واجب . . . ! !

وقد رأى رسول الله أن مباغتة بنى قريظة قبل أن يستكملوا عندهم ويقفوا حصونهم هو الواجب الأول في تلك الساعة . فلا يبني أن ينشغل المسلم عنه ولو بالصلاة لحدود وقت الصلاة تدوب أمام ضرورات القتال .

وتستطيع على ضوء هذا الإرشاد النبوى أن تحكم على مسالك المسلمين اليوم ، إن المدرس الذى يشغل عن تعليم تلامذته ، والتاجر الذى يشغل عن تهذيب ثروته ، والموظف الذى يشغل عن أداء عمله . لا يقبل الله من أحدهم عذراً أبداً في تضييع هذه الفرائض ولو كان أحدهم قد طافه عن واجبه أنه صلى مائة ركعة ، أو قرأ ألف آية ، أو عدّ أسماء الله الحسنى سبعين ألف مرة كما يفعل جهال المتصوفة !

ذلك أنه انشغال عن الفرائض المطلوبة بنوافل لم تطلب ، وتطيل لأمة يستحيل أن تنهض إلا إذا أجهدت نفسها في محاربة جهلها وقهرها وفوضاها . . .

والجهاد المام فريضة لا يفض من فدرها شيء . ولا تراجمها على وقتها عبادة كما رأيت .

هل راية المسلمين إلى حصون قريظة على بن أبي طالب ، واستبق المسلمون يحشدون حولها حتى إذا اقترب الجيش من منازل اليهود كان القوم لا يزالون على غوايتهم ، فقد نظروا إلى المسلمين ثم سبوا رسول الله ونسأه سباً قبيحاً . فرأى على أن يصرف النبي ببداً عن أولئك السفهاء ، فاعترض طريقه وهو مقبل قائلاً :

يا رسول الله ، لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث . فقال : لم ؟ أظنك سمعت
لى منهم أذى ؟

قال : نعم يا رسول الله . قال : لو رأوني ، لم يقولوا من ذلك شيئا .
فلما دنا من حصونهم قال : يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأتزل بكم همته ؟
قالوا : يا أبا القاسم ، ما كنت جهولا .

هذه خلال اليهود ، يسفهون إذا أمتوا ، ويقتلون إذا قدروا ، ويدكرون الناس
بالمثل العليا إذا وجأوا ، ليستفيدوا منها وهدم لا شيء آخر .
أما اليهود فهي آخر شيء في الحياة يقفون عنده .

على أن سفاهتهم لم تنفهم فقد أحكم المسلمون الحصار عليهم ، وأمسكوا بمخناقمهم
فاستيقن القوم أن الاستسلام لا عيب عنده ، وامتلات قلوبهم باليأس والفرح .
قال كعب سيد بنى قريظة : يا مشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون ،
وإني عارض عليكم خللا ثلاثا ، فخذوا أيها شتم قالوا : وما هي ؟

قال : نتابع هذا الرجل ونصدق ، فوالله لقد نبين لكم إنه لنبى مرسل ، وإنه
للذى تعبدونه في كتابكم ، فتأمنون على دماءكم وأموالكم ، وأبنائكم ونسائكم
قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبدا . ولا نستبدل به غيره .

قال : فإذا أبيت على هذه فهاكم فلتقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه
رجالا مصلتين السيوف لم تترك وراءنا قفلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك
نهلك ولم تترك وراءنا نصلا نخشى عليه ، وإن ظهر فلمصرى لنجدن النساء والأبناء .

قالوا : تقتل هؤلاء الساكنين ؟ فإخير العيش بدم ؟
قال : فإذا أبيت على هذه . فإن الليلة ليلة السبت ، وإنه عسى أن يكون محمد
وأصحابه قد أرمونا فيها . فارتزوا لعلنا نصيب منهم غرة ؟

قالوا : نفسد سبتنا علينا ، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا . .
قال : ما بات رجل منكم منذ ولده أمه ليلة واحدة من الدهر حازما . .
وحاول بنو قريظة أن يظفروا بصلح كالذى ناله إخوانهم بنو النضير من قبل ،

بيد أن الساميين أبوا عليه . إلا أن يساموا دون قيد أو شرط ، فإن ما أسلف هؤلاء

من جرم بين ، وغدر شأن أحفظ عليهم الصدور ، فلم يبقَ فيها مكان لسماح ،
وتحضى الموقف للعدل المجرد يُقرُّ الأمور في نصابها كيف شاء .

واستقدم اليهود — وم محصورون — أبا لباية بن عبد النذر يستشيرونه :
أيزلون على حكم محمد ؟ فقال لهم : نعم ، وأشار إلى حلقه ، كأنه ينههم إلى أنه
الذبح ! ثم أدرك لغوره أنه خان رسول الله فضى هاماً على وجهه حتى أتى مسجد
المدينة فربط نفسه إلى سارية فيه ، وحلف لا يفك منها حتى يتوب الله عليه .

وقد قبل الله منه ندمه ، ونزلت فيه بعد أيام الآية « وآخرون اعترفوا بذنوبهم
خطئوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفورٌ رحيمٌ » .

واستمر الحصار خمساً وعشرين ليلة سمح المسلمون في أثنائها لليهود الذين رفضوا
الغدر بالرسول أيام الأحزاب أن يخرجوا . فجزوهم عن وفائهم خيراً ، وخلصوا
سبيلهم بطلقون حيث يشقون .

ثم قرروا أن يهجموا على الحصون الملقاة ويقتحموها عنوة . فصاح على :
يا كتبية الإيمان . ومعه الزبير بن العوام — والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأقتعن
حصنهم ، فقال بنو قريظة : يا محمد نزل على حكم سعد بن معاذ .

فاستأزروا من حصنهم وسبقوا إلى عبيسهم ، ثم جرى بسعد بن معاذ ليقضى
في حلفائه بما يرى .

وكان سعد سيد الأوس ، وم حلفاء قريظة في الجاهلية ، وقد توقع يهود أن
هذه الصلة تنفعهم ، وتوقع الأوس أيضاً من رجلهم أن يتساهل مع أسدقائهم
الآقمين ، فلما استقدمه الرسول ليصدر حكمه . جاء من الخيعة التي يرض فيها إثر
إصابته بسهام الأحزاب واكتنفه قومه يقولون له : يا أبا عمرو أحسن في مواليك .

لكن سعداً لم ينس في ضجيج الرجا الموجه إليه أن الإسلام وأبنائه ، والمدينة
ونمازها وحرثها ونسلها وحرماها ، لم تنج من وطأة الأحزاب الهدجين إلا بأجموية
خارقة . وأن بنى قريظة هؤلاء ومن ووم كانوا انحرضين والشركاء القبوحين
من هذه الحرب التي أعلنت لاستئصال التوحيد الحق واجتياح أهله .

وإنس سعد : كيف قضت قريظة عهداً ، واستقبلته بالأنفاظ البذيئة عند ما

ذهب يتأشعها الرفاء ! ألم يقتل لم يومئذ : أخشى عليكم مثل يوم بنى النضير
أو أمر منه فكان ردم عليه ، ما كنت أرى أهلك !
قلبك ما لبث سمد أن صاح بقومه — وقد أكثرا عليه الرجاء : — قد آن
لسمد ألا تأخذه في الله لومة لائم .

حكم سمد أن يقتل الرجال ، ونسبى الثرية وتقسّم الأموال ، وأقر النبي هذا
القضاء الحازم قائلاً لسمد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات .
وحفرت الخنادق بسوق المدينة لتنفيذ هذا الحكم ، وسبق إليها مقاتلة اليهود
أرسالاً — طائفة بعد أخرى — ليدفعوا عن خيانتهم وغدرهم .

قال لليهود لسيدم كعب وم يساقون لمصارعهم : ما تراه يُصنع بنا ؟ قال :
أنى كل موطن لا تمقلون ؟ ألا ترون الداعي لا ينزع وأنه من دُهب به منكم
لا يرجع ؟ هو والله القتل .

أجل هو القتل . وإنما قمع تبعات الحكم^(١) به على من تعرض له بسوء صنيعه ،
وبما أسلف من نيات خبيثة لم يسعفها الحظ فتحقق ، ولو قد تحققت لكان ألوف
المسلمين هلكي تحت أقدام الأحزاب المناسبة من كل ناحية يحرضهم ويؤازرهم
أولئك اليهود .

وربما كانت مغامرات نفر من طلاب الزمامة سبباً في هذه الكارثة التي حلت
ببنى قريظة ، ولو أن حيي بن أخطب وأضرابه سكتوا في جوار الإسلام وعاشوا على
ما أوتوا من منافع ما تعرضوا ولا تعرض قومهم لهذا القصاص الخطير .

لكن الشعوب تدفع من دمها ثمناً فادحاً لأخطاء قادتها ، وفي عصرنا هذا دفع
الروس والألمان وغيرهم من الشعوب أثماً باهظة لأثرة الساسة المنوعين ...

وقدك بنى القرآن على أولئك الرؤساء مطامعهم ومظالمهم التي يحملها
غيرهم فيلهم :

« ألم ترى إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفوفاً وأحلوا قومهم دارَ البوارِ ؟ جهنمُ :
يصلونها وبئس القرار ! » .

(١) يلاحظ أن هذا الحكم هو ما توصى به الثورات في سائر العصور .

لقد جىء بحمىسى ليلقى جزاءه وحىي - كما علمت - جرثومة هذه الفتنة ! فنظر إلى رسول الله ثم قال : أما والله ما كنت نفسى فى عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يخذل . ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، لا بأس بأمر الله ، كتاب وقد وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل ! ثم جلس ، فضربت عنقه ! وفى ذلك يقول الشاعر :

لعمرك ما لام ابن أخطب قسه ولكنه من يخذل الله يخذل
لجأهد حتى أبلغ النفس عندها وقتل بينى العز كل مقلل
والحق أن من مشركى قريش ومن رجال يهود واجهوا الموت بثبات . ولن
تدم البادى الباطلة والنعل المازلة أنبأ ما يقتدونها بالأرواح والأموال . خير أن شيئاً
من هذا لا يجعل الباطل حقاً ولا الجور عدلاً .

إن موقف اليهود من الإسلام بالأمس هو موقفهم من المسلمين اليوم ، فالوف من
إخواننا ذبحهم اليهود فى صمت وهم يحتلون فلسطين . والتريب أن اليهود تركوا من
نصب لهم المجازر فى أقطار أوروبا ، وجبنوا عن مواجهتهم بشرّاً ! واستضعفوا المسلمين
الذين لم يسيئوا إليهم من اثنى عشر قرناً فنكلوا بهم على النحو المخزى الفاضح الذى
لا يزال قائماً فى فلسطين ... تشهدة وتؤيده وتسانده دول الغرب .

فى طرد الأحزاب ودمر قرينة نزلت الآيات « ورد » الله الذين كفروا بنيظلم
لم ينالوا خيراً . وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً . وأنزل الذين ضاهروم
من أهل الكتاب من صياصيمهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون
فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل
شئ قديراً .

وقد المسلمون فى هذا الصراع ، مع الشركين أولاً ، ومع أهل الكتاب ثانياً ،
عدداً يسيراً من رجالهم . منهم سعد بن معاذ . أجاب الله دعوته فمات شهيداً من
جراحته التى أصابته يوم الأحزاب بعد أن شفى الله غيبته من يهود قرينة وبعد أن تبين
فشل قريش فى هجومها على المدينة . واقتلابها لتغرى فى عقر دارها لا لتغزو الآخرين
ولم تنته الخصومة بين المسلمين واليهود بأنهم لم يفرضوا وانكسار شوكتها ،

فإن بعض مؤلفي الأحزاب على الإسلام فر إلى خير لا نذا بمحسونها مستظهراً بإخوانه فيها مثل أبو رافع بن أبي الحقيق ، وهو شريك حبي في التطواف بالقبائل يستجلبها إلى يثرب بنية الإتيان على الإسلام وأهله . وليس يؤمن لليهود شر ما بقيت لهم قدرة على فعله . وقد سَوَّرَ حديث الرسول لقمة اليهود على الإسلام بقوله : « ما خلا يهودى يعلم إلا ما بمقتله » ولا نعرف لهذه اللقمة النفيسة علة ، إلا انحراف أصحابها عن الجادة . ومن حق المسلمين أن يحذروها وأن لا يدعوا لها بقية تنمو على الزمن .

لذلك خرج من المدينة خمسة من الخزرج ذاهبين إلى خير ، بينهم القضاء على أبي رافع وإلقاء الذعر في قلوب شيعته . وقد أمر الرسول عليهم عبد الله بن عتيك ، ونهام أن يقتلوا وليداً أو امرأة . . .

وقدم النامرون أرض خير . وانتهاوا إلى دار ابن أبي الحقيق وقد أظلم الساء . قال عبد الله بن عتيك لصحبه . . عندما دنوا من الحصن : امكثوا أنتم حتى أنطلق أنا فأفطر . قال : فاحتلت لأدخل الحصن ، فإذا الخدم قد دوا حماراً لم يخرجوا فبئس يطلبونه ! ! ، فخشيت أن أحرف ، فغطيت رأسي وجلست كأني أفضى حاجة . فقال البواب — بعدما استرجعوا حاجتهم — : من أراد أن يدخل فليدخل قبل أن أغلقه ، فدخلت واختبأت في مربوط الهواب عند باب الحصن .

وتمشى أبو رافع وصحبه ، وأخذوا يسرون حتى ذهبت ساعة من الليل ثم انصرف عنه جلساؤه قافلين إلى بيوتهم ، وهدأت الأصوات فما أسمع حركة . وخرجت . وأنا أحرف أين وضع البواب مفاتيح الحصن . فأخذتها وفتحت الباب حتى إذا أحس بي القوم انطلقت على مهل . ثم صعدت إلى أبواب غرضهم فلققتها عليهم من ظاهر : ثم صعدت إلى أبي رافع — حيث يبيت في الملاي — فإذا البيت مظلم قد طغى سراجاه . فلم أدر : أين الرجل ؟ . قلت : يا أبا رافع ! قال : من هذا ؟ فصعدت نحو الصوت فضربته ، فصاح ولم تنن شيئاً .

وجئت كأني أفيئه . قلت : مالك يا أبا رافع ؟ — وغيرت صوتي — قال : لأماك الويل ، دخل على رجل فضربني بالسيف ! فصعدت إليه فضربته ضربة ثانية . فصاح ، وذهم أهله ، فجئت مرة أخرى إليه وهو مستلق على ظهره فأجهزت عليه

ثم خرجت دهشاً حتى أتيت السلم أريد أن أنزل ، فسقطت منه فأنجست رجلي ،
خمسيتها وأتيت أصحابي أحبل .

وعاد القوم إلى المدينة ييشرون من وراءهم أنهم أزاحوا من طريق الدعوة
حقبة كالأداء .



تضعف الكفر بعد هذه الوقعات القليظة . ودرست أصول الإسلام وإطاعت
دولته . فأنهت السنة الخامسة للهجرة حتى أصبح للسلون قوة تفرض نفسها
وتذيق الماندين بأسها . واستيقنت قريش وأحلافها أن رد المسلمين إلى عبادة
الأوثان ضرب من المستحيل ، كما استيقن اليهود أن خصامهم الخبيث للدين الجديد
والرسالة الخاتمة لم يزدحم إلا خيالاً .

ولم تقع بعد غزوة الأحزاب هذا العام إلى أخريات السنة السادسة — أي إلى
عمرة الحديبية — أحداث ذات بال .

حاولت هذيل أن تجمع للإغاثة على المدينة ، فقتل قائدها خالد بن سفيان ،
حققت . وهم لصوص الأعراب على المدينة يقودهم عينة بن حصن في خيل
لنطفان . واستاقوا إبها ثم ولوا هارين . غير أن سلمة بن الأكوع صرخ
بأهل المدينة متندراً . وتبع الفيرين وحده يرميهم بالنبل ويسترد منهم القلاح
التهوبة حتى أدركه فرسان المسلمين ، فلما رأهم الشركون فروا بعد ما قتل بعضهم
وتركوا ما معهم .

ويروى البخاري أن ذلك كان بعد الحديبية لا قبلها ، ولعله أصح .

وفي هذه الفترة تزوج النبي بأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وكانت مهاجرة
مع زوجها بالحيشة . فارتد صاحبها وهلك . وبقيت وحدها . فرأى النبي
إعزازاً للسيدة التي تركت أبها — وهو زعيم مكة — وآثرت الهجرة إلى الله
على البقاء في كنفه . أن يتزوجها ، فأرسل إلى النجاشي مهرها ووكله عنه
في المقد عليها .

وتزوج كذلك زينب بنت جحش . وسلككم عن تفاصيل ذلك في الباب
الذى نقره بعد لتمدد الزوجات ، وزوجات الرسول .

ذلك . ويقال : إن الإسلام وقع في قلب عمرو بن العاص في هذه الأيام .
قد أثاره ما يلقاه محمد من ظفر . وقال لبعض محبه : إني أرى أمر محمد يلو
الأمور علواً منكرأ ، ثم اقترح عليهم أن يلحقوا بالحشة ، ويرقبوا نتائج الصراع
بين المسلمين وقومهم ! .

فلما ذهب إلى الحبشة ورأى إكرام نجاشيا للرسول ومن يمشي إليه مال
إلى النخول في دين الله .. ولكنه كتم ما بقلبه حتى اقترب فتح مكة والتقى
بجناح بن الوليد . وكان خالد قد أجمع أمره على الإسلام واتسوى القهاب إلى النبي*
في هجره ليتبعه قال له عمرو : أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام النسم
— وضع الطريق — وإن الرجل لنبي* ! . أذهب — والله — فأسلم .
حتى متى ؟؟

وسر حمراً أن يجد له صاحباً كخالد ، فصارحه بما في نفسه . وانطلق الرجلان
إلى يثرب مسلمين مهاجرين .

وقصة إسلامهما — كما قلنا — قبيل الفتح . فإن خالداً كان في عمرة
الحديبية قائداً لجيش قريش . وهي تعد المسلمين عن زيارة البيت العتيق .

(۷)

طوریستید

عمرة الحديبية

جاء تفكير المسلمين في زلوة المسجد الحرام بداية لرحلة متميزة في تاريخ دهرتهم . أليسوا يمانتون بمزهم على دخول مكة وهم الذين طردوا منها بالأس ؟ وحوروا حيث استقر بهم النوى ؟ وظلت حالة الحرب قائمة بينهم وبين قريش لم تحفر عن قبيجة حاسمة ؟ فكيف ينوون العمرة في هذه الظروف ... ؟

والجواب أن النبي " أراد بهذا النكث للنشود إقرار حق للمسلمين في أداء عبادتهم ، وإفهام للشركين أن المسجد الحرام ليس ملكا لقبيل يحسبها القيام عليه ويمكته الصد عنه . فهو ميراث الخليل إبراهيم . والحج إليه واجب على كل من بلنه أذن أبي الأنبياء من قرون :

« وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا . وطهرت بيتي للطائفين والقائمين ، والركع السجود . وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فجية حبيب » .

ومن ثم فليس يجوز لأهل مكة أن يحجبوا المسلمين عنه ، ولئن استطاعوا قديما إقصاءهم عنهم بعد ما وقع من قتال لن يصيروا على خطتهم القديم ... وإحرام النبي " وحجبه بالعمرة فحسب وهم يريدون دخول مكة آية على الرغبة المميقة في السلم ، وعلى الرغبة في نسيان الخصومات السابقة ، وتأسيس علاقات أهدأ وأرق .

ومنى يحدث هذا ؟ بعد أن استغرقت قريش جهدها في إيذاء المسلمين وبعد ما بدا فشلها القريع في ذلك ؟ لقد استمرت بضعة سنين قتال وتبذل من دماء ومالها لتهمز الإسلام . فلم ترجع آخر الأمر إلا بالخسائر الفادحة والأزمات المضووض ، على حين رسخت أقدام المسلمين وعلت آياتهم وانكش عدوهم وهام أولاء يخرجون إلى مكة عبداً مخبتين لا غزاة منتقمين . أجل إنهم لا يبنون إلا أن ينالوا مثل ما لنفهم من حق الاعتبار والحج ، ولا يسوغ أن يحرموا من ذلك أبداً ، وبذلك القصد السمع المذهب استنفر رسول الله جمهور المسلمين وأعراب البوادي وآذنه أنه يريد

العمرة ولا يريد قتالا ، وساق أمامه الهدى الذى سيذبح ليطعمه قراء مكة ؟ الفقراء الذين حشدوا لاستئصاله يوم الأحزاب

أكان الكافرون برسالة محمد يقتهون هذه النية ويقدرّون مكان صاحبها ؟ لا ... إنهم بقوا على الهدى من فساد الضمير ونية السوء . فالأحزاب المنتشرون حول يثرب ومن على شاكلتهم من المناقذين ، عرفوا أن أهل مكة سوف يقاتلون محمداً أمراً ، وأنه إذا أبى إلا زيارة البيت — كما أعلن — فلن تدعه قريش حتى تهلك أو تهلك هي دون إبلاغه مأربه . فعى عمرة عفوفة بالأخطار في نظرم ، والفرار منها أجدى ! ولو فرض أن الرسول نجح في مقصده هذا ، فلا اعتبار إليه بعد عودته سهل .

« سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفرنا . يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ، قل : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم شراً أو أراد بكم نفعاً . بل كان الله بما تعملون خبيراً ، بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ، وزيّن ذلك في قلوبكم وظننتم ظنّ السوء . وكنتم قوماً بوراً » .

وخرج المؤمنون الواقفون مع رسول الله ، وعددهم قريب من ألف وأربعمائة . وذلك في ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة . وساروا ملبيين يطوون الطريق إلى البيت المتين . فلما بلغوا حُسفان على مرحلتين من مكة جاء الخبر إلى المسلمين أن قريشاً خرجت عن بكرة أبيها قد أقسمت ألا يدخل بلادهم مسلم ، وأن جيشهم استعد للنضال يقود خيله خالد بن الوليد .

وبدأ شبح الحرب أمام الأعين يملأ هذه البقاع المحرمة بالعماء والأشلاء ، والسلمون لم يبيحوا لهذا . وما كان لأهل مكة أن يلجئهم إليه . فقال رسول الله : يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خَلُّوا بيني وبين سائر العرب . فإنهم أسابوني كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرّين . وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ! ! فما تظنُّ قريشٌ ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة — يعنى إلى الموت — .

ومُضِيًّا مع الرغبة عن القتال ، وتخليصاً لنفسك القصود من شائبة تحديّ سأل رسول الله : مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ فجاء رجل من أسلم فسلك بهم طريقاً وحرها أجرد شق على المسلمين اجتيازها ، ثم أفضى بهم إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي اثني للمسلمون عندها عيناً ليهبطوا عند الحديبية أسفل مكة !

ولم تخف هذه الحركة عن فرسان قريش ، فتراكضوا راجعين إلى مكة ويحولوا بين المسلمين ودخولها . ومضى النبيؐ بأصحابه في وجهتهم المددّة فإذا بناقته تبرك لا تجاوز مكانها ! ودهش الناس لما عراها فقالوا : خلأت القصواء ! فقال النبيؐ : ما خلأت . وما هو لها بخلق . ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعوني قريش اليوم إلى خلة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم لها ، ثم أمر الناس أن يحلوا حيث انتهى بالناقة السير ...

ونزل المسلمون كما أمروا ينتظرون مع الند القريب أن تفتح لهم أبواب مكة فيطوفوا ويسمّوا ، ثم يعودوا واقرين راجعين . إنهم واثقون من إدراك بنيتهم ، ولماذا يشكّون وقد سمعوا من رسول الله بشرى كثيرة بأنهم سيد خلون المسجد الحرام آمين ، محلقين رءوسهم ومقصرين ؟ .

أما قريش فقد ذهبت لهذا الزحف اللباغت ، وفكرت جاذبة في إبعاده عن مكة سها كافها من منارم . وذلك أنها نظرت إلى الأمر من زاوية ضيقة فرأت أن مهايتها ستنزح من أفضة الناس قاطبة إذا دخل المسلمون بلادهم على هذا النحو بدماء وقع من حروب طاحنة .

غير أن قريشاً تعرف حروجة موقفها أن نشب قتال جديد . فحجتها فيه أمام نفسها وأمام أخلافها داحضة ، وقد ينهي بكارثة تودي بكيانها كله . ولهذا سيرت الوسطاء يفاوضون محمداً هلهم ينتهون منه إلى مخلص من هذه الورطة . .

وكان أول من جاءه بُدَيْل بن ورقاء في رجال من خزاعة ، فكلّمه وسأله : ما الذي جاء به ، فأخبرهم أنهم يأت يريد حرباً ، وإنما جاء زائراً للبيت ومعتزلاً حرمة . فرجعوا إلى قريش يقولون : يامشر قريش ، إنكم تسجلون على محمد ، إن محمداً لم يأت اتنا . وإنما جاء زائراً لهذا البيت . فاتهموم وجبّهم ، وقالوا : وإن كان

جاء لا يريد قتالا... فوالله لا يدخلها علينا عتوة أبداً ، ولا تحدثُ بذلك عنا العرب !
ثم يمشت قريش يئزّز بن حفص ، فساد بما عاد به بديل الخزاعي .
ثم يمشتوا سيد الأحابيش الحليس بن علقمة ، فلما رأى رسول الله قال : إن هذا
من قوم يتألمون فابشوا الهدى في وجهه حتى يراه . فلما رأى الهدى يسيل عليه من
عرض الوادي ماد إلى قريش قبل أن يصل إلى رسول الله ، إعظاماً للمشاهد ، فقال
لهم ذلك ، فأجابوه : اجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك ، فاستشاط الحليس وصاح :
يا مشر قريش ، والله ما على هذا حالناكم ، ولا على هذا طاعتناكم ، أيعصد عن بيت الله
من جاء معظماً له ؟ وإنا نرى نفس الحليس بيده لتُخلَن بين محمد وبين ما جاءه ، أو لا تفرق
بالأحابيش نفرة رجل واحد . . . قالوا : مه ، كف عنا يا حليس حتى نأخذ
لأنفسنا ما نرضى به .

ثم يمشتوا إلى رسول الله عروة بن مسعود ، وكره عروة أن يعود من مفاوضة
المسلمين فيسممه رجال قريش ما يسوءه فقال . يا مشر قريش ، إني قد رأيت ما يلقي
منكم من يمشي إلى محمد من التنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والدوا نبي ولد .
وقد سمعت بالذي نابكم فجئت من أطاعني من قومي ثم جئتكم حتى آسيتكم
بنفسي . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بهم .

فخرج حتى أتى رسول الله فجلس بين يديه ثم قال : يا محمد أجمت أوشاب الناس
ثم جئت إلى بيضتك لتفضها — إلى قومك لتجتاحهم — ! إنها قريش خرجت
معهما العوذ الطافيل — يقصد النساء والأطفال — قد لبسوا جلود النمر يماهدون الله
لا تدخلها عليهم أبدا . وإيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك فدا . . . وكان
أبو بكر خلف رسول الله يسمع فلما وصل عروة في حديثه إلى التمريض بالمسلمين قال له
هازنا : امصص بظر اللات ! أنحن تنكشف عنه ؟

قال عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أبي قحافة ! فردّ عروة على أبي بكر
يقول : أما والله لولا يدك كانت لك عندي لكافأناك بها . ولكن هذه بهذه .
وعاود عروة حديثه مع رسول الله . وجعل يتناول لحيته وهو يكلمه — كأنه ينفه
إلى خطورة ما سبق بقومه — إلا أن المنيرة بن شعبة كان يقرع يده كلما فعل ذلك وهو
يقول : اكفف يدك من وجه رسول الله قبل أن لاتصل إليك . فقال عروة له :

ويحك ما أنظك وأغلظك ، ثم سأل النبي : من هذا يا محمد ؟ فأجاب الرسول وهو يتنسم : هذا ابن أخيك المنيرة بن شعبة . فقال عروة للمنيرة : أى غدر هل غسلت سوءتك إلا بالأمس ^(١) .

وقد رد النبي على عروة بما يقطع الحاجة ويضيئ الشبهة . إنه لا يبنى حرباً . وإنما يريد أن يزور البيت كما يزوره غيره فلا يلتقى صادداً ولا راداً . ورجع عروة ينوء بإجلال الصحابة لرسول الله . ويقول : إني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه . ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه بشيء أبداً . فـرؤا رأيكم .



إن الرجال الذين تكلموا باسم قريش في هذه المفاوضات لم تنهض لهم حجة ، بل إنهم عادوا إلى أهل مكة وهم أميل إلى ملاينة المسلمين وتمكينهم من أداء نكسهم ولم يلحف بعضهم في التصريح بذلك إلا لما لمسه من كبرياء قريش وعزوفها عن الحق بعد ما تبين . إن النزق استبد بهم وأطاش ألبابهم فقررُوا إلا يدخل المسلمون البلد الحرام وليكن ما يكون . . .

وبقي المسلمون في أماكنهم يتلمسون للمشكلة حلولاً أخرى أفضل من اقتحام مكة في هجوم عام . وحاول فريق من السفهاء أن يشعل المركة لكن المسلمين لزموا الهدوء وملكوا أعصابهم فمن ابن عباس أن قريشاً بثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين وأمرهم أن يطيّفوا بمسك رسول الله ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً ، فأخذوا ، وأتى بهم إلى النبي ، ففعا عنهم وخلى سبيلهم وكانوا رموا في المسكر بالحجارة والتبل . . .

وفي قضاة قريش وسحابة المسلمين نزل قوله عز وجل :
« إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّمِيمَ كَلِمَةَ التَّقْوَى ، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلُهَا . وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً » .

(١) كان المنيرة قبل إسلامه حامياً فأنكأ قتل غزاة فوداهم عروة إلقاء لعنة .

ومن السكينة التي نزلت على المسلمين أن رسل قريش كانت تناد على رسول الله وتروح فلا يترضا أحد . أما رسل المسلمين إلى قريش فقد تعرضت لهلاك كاد خراش بن أمية الخزاعي يقتل لولا أن أقنعه الأخايض فرجع وقد قهر جله . وكان النبي أرسله ليلخ أهل مكة حقيقة بحبته وأنه يريد البعاده لا الحرب ..

والرسل لا تقتل ، بيد أن غليان قريش أقنعهما الرعى . والرجل إذا قد وقفته لا يبالى أن ينتحر . وقد انصرف كبراء مكة عن الصراط السوى ولم يكثرثوا للمصير القائم الذي ينتظرهم إذا ركبوا رهوسهم . فلو اسطدم المسلمون بهم ما قامت لهم فاعمة ولأصبحت حرمان مكة في صميمها .

« ولو قاتلكم الذين كفروا لوثوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا سنة الله التي قد خلت من قبل ، ولن نجد لسنة الله تبديلا » . لكن رسول الله كره أن تجرى الأمور على هذا النحو ، ورأى أن يمدد محاولاته لإقناع أهل مكة بتركه يزود ، ويعود لشأنه .

فدعا عمر بن الخطاب لينذهب إلى القوم يمدد بهم بما خرج المسلمون فيه . فقال عمر : يا رسول الله ليس بمكة أحد من بني عدى يقضب لى إن أوذيت ، فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته لا تزال بمكة ، وإنه مبلغ عنك ما أردت .

ودخل عثمان مكة فى جوار قريبه أبان بن سميد بن الماص ، واستطاع أن يبلغ رسالته كاملة ، وأن يفهم من لقيه الحقيقة الكريمة التي جاء المسلمون قاطبة بها فكان الرد الذي حظى به عثمان : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله .

ومما يذكر هنا أن مكة لم تخل من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات . كانت قلوبهم معلقة بالمسلمين المحجوزين خارج مكة ، لقد انتشر الإسلام سراً فى بيوت كثيرة طالبا تشوقت إلى اليوم الذى تستطيع فيه أن تظهر لإيمانها ، وتتخلص من سطوة الكفر عليها ، ويظهر أن عثمان اتصل بأولئك الثغر المؤمن وبشرهم بقرب الفتح فرأت قريش أن عثمان قد عدا الحدود المهودة ، وأمرت باحتباسه عندها وشاع لدى المسلمين أن عثمان قتل .

وحين بلغت هذه الشائمة مسامع النبي^ﷺ قال : لا نبرح حتى نتأجر القوم . ودعا الناس إلى مبايعة وكان تحت شجرة متشابكة النصوص ، فخرج أصحابه إليه يبايعونه على ، الموت أو على ألا يفروا .

حدث جابر بن عبد الله بعد ما كُفَّ بصره قال : قال لنا رسول الله يوم الحديبية أنتم خير أهل الأرض ، وكنا ألفاً وأربعمائة . ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة . وروى عن جابر أن عبداً لحاطب جاء يشكوه إلى رسول الله ويقول : ليدخلن حاطب النار . فقال له الرسول : كذبت ، لا يدخلها ، شهد بدرأ والحديبية وتسمى هذه البيعة بيعة الرضوان إشارة لقول الله في أصحابها .

« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة . فلم يما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » .

وقد قطعت الشجرة ونُسِيَ مكانها ، وذلك خير . فلو بقيت لضربت عليها قبة وشدت إليها الرحال . فإن الرطاح سراح التعلق بالمواد والآثار التي تقطعهم من الله . عن طارق بن عبد الرحمن انطلقت حاجباً فمرت بقوم يصلون . فقلت : ما هذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة حيث بايع النبي^ﷺ بيعة الرضوان . فأبيت سعيد بن المسيب فأخبرته فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله تحت الشجرة ، قال : فلما كان العام المقبل نسيانها فلم يقدروا عليها . ثم قال سعيد : إن أصحاب محمد لم يعلموها ! وعلمتوها أنتم ؟ فأنتم أعلم ؟

وعند أخذ البيعة من المسلمين ضرب رسول الله بإحدى يديه على الأخرى وقال : هذه لعنان . .

على أن عنان لم يطل احتباسه ، فإن قريشاً جرعت أن تسميه بأذى وهو من سراتها بمكان . وسارعت إلى بئس سهيل بن عمرو ليعقد مع محمد صلحاً . ولم يكن يمينها في هذا الصلح إلا أن يرجع المسلمون هذا العام ، على أن يهودوا بعد إذ شاءوا . وذلك لإبقاء على مكانة قريش في العرب !!



واستقبل رسول الله مفاوض قريش وهو أرغب ما يكون في مواعدة القوم ، وإن كان قادراً على تحكيم السيف وإزالة خصومه على منطقته التي آتروه مذ صدوره عن

اليث ، وتسلكم سهيل فأمال . وعرض الشروط التي يتم في نفاذها الصلح ، ووافق عليها النبي^٤ . ولم يبق إلا أن تسجل في وثيقة يمضيها الفريقان .

وحدثت في معسكر المسلمين دهشة عامة للطريقة التي سلكها رسول الله مع أوليائه ومع أعدائه . فأما مع أعدائه فقد ذهب في ملايتهم إلى حدود بيضة وأولى به أن يقسو عليهم . وأما مع أصحابه فإنه — على غير ما ألفوا منه — لم يستشرهم في هذا الاتفاق المقترح . مع أنه في شئون الحرب والسلام التي سلفت كان يرجع إليهم . ودعا نزل على رأيهم وهو له كاره . لكنه اليوم يتفرد بالعمل ويقر ما يكرهون ، على غير ضرورة ملجئة . . .

وقد شرحنا في غير هذا المكان^(١) موقف النبي^٥ في حمة المدينة خاصة . وأبنا أن تقدير الأمور لم يترك للنظر المتداد ، بل كان للإلهام الأعلى توجيهه الصائب . إن الله الذي جعل الناقة أن تتابع سيرها لا يأذن لهذه الكتاب أن توالى زحفها وتشرح رماحها ، وقد تميز نصر أفل على الإسلام — في جدواه — من سلم مباركة التنازع قال الزهري : فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أو لسنا بالسلمين ؟ قال : بلى . قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فلام نعطى الدنية في ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر أؤم غرزه — أمره — فإني أشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله . ثم أتى رسول الله فقال : أأنت برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أو لسنا بالسلمين ؟ قال : بلى . قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فلام نعطى الدنية في ديننا ، قال : أنا عبد الله ورسوله ولني أخلف أمره ولني يضيمني . . .

ثم دعا رسول الله على بن أبي طالب ، فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله : اكتب باسمك اللهم ، فكتبها ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أميك ! فقال رسول الله : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله

(١) من كتابنا 'الإسلام والاستبداد' لسياسي .

سهيل بن عمرو ، اصطلعا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس
وحكف بعضهم من بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بشير إذن وليه رده
عليهم ، ومن جاء قريشاً بمن مع محمد لم يرثوه عليه !

وأن بيننا عيبة مكشوفة — صدورا منطوية على ما فيها — وأنه لا إسلال
ولا إغلال — لا سرقة ولا خيانة — وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده
دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

وأنك ترجع عنا طامك هذا فلا تدخل علينا مكة . وأنه إذا كان طام قابل خرجنا
عنا فدخلتها بأصحابك . فأقت بها ثلاثا معك سلاح الراكب ، السيوف في القرب
لا تدخلها بنيرها . .

فبينما رسول الله يكتب الكتاب إذ جاء ابن المفاوض عن قريش نفسه ، جاء
أبو جندل بن سهيل بن عمرو ! يريد الاتصاف بالمسلمين ، قد دخل في دين الله ولقي
العذاب من أهله وما هو ذا يرسف في الحديد ويقتل به قيوده . .

ما كان المسلمون يشكون في فتح مكة ، فإن الرسول قص عليهم رؤيا أنه دخلها
وطوف بالبيت المتيق فيها . فلما رأوا ما رأوا من شروط الهدنة ، وأمر الصلح
والعودة ، وتعتت سهيل مع النبي واقتياه على شخصه ، دخل عليهم من ذلك كله
أمر عظيم حتى كادوا يهلكون . ثم جاءت قصة أبي جندل فزادت الطين بلة . . .
ورأى سهيل ابنه قمام إليه يضرب وجهه وأخذ بتليبيه ثم قال : يا محمد . قد لجأت
القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ! قال : صدقت . فجعل سهيل يثر ابنه
بتليبيه ويجره ليرده إلى قريش . وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا مشر
المسلمين ، أرد إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم .

وقال رسول الله : يا أبا جندل اصبر واحتسب ؛ فإن الله جامل لك ولئن معك من
الستمنفين فرجا ومخرجا . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك
وأعطونا عهد الله . وإنا لا نغدر بهم .

ونفذت القضية . وأعلنت خزاعة دخولها في عقد المسلمين ، وأعلنت بنو بكر
دخولها في عقد قريش . ومضت شروط الهدنة . . . !

والنظرة الأولى لهذه الشروط تدل على أنها بحسب ما يحق للسلين مرضية
لكبرياء قريش وحيثها الجاهلية . وقد تسأل أصحاب رسول الله مستنكرين : لماذا
يردون إلى قريش من جاء منهم مسلماً . ولا ترد قريش من جاءها من المسلمين مرتداً ؟
ويفسر رسول الله هذا الشرط بأن من ذهب إليهم كافرين ، فلا رده الله وقد وُق
المسلمون خيبتهم . أما المستضعفون من المسلمين . فستسبى قريش بأمرهم ، كما عجزت من
سابقهم ، وستكون العقوبة لهم . ألم يكن النبي ومن معه مستضعفين ؟ ثم نصرهم
الله وخذل قريشاً أمامهم ؟

ثم هاجت في نفوس المسلمين مرة أخرى خيبة الأمل ، لقد حدثوا أنهم داخلون
في المسجد الحرام ، وهام قد ارتدوا عنه . لكن الرسول بين أنهم عائدون إلى دخوله
كما وعدوا ، فهو لم يذكر أنهم سيطوفون به هذا العام .

وعرا المسلمين وجوم ثقيل لهذه النهاية الكثيرة . وزاغت نظراتهم لما ركبهم من
من الحرج المفاجيء . فلما فرغ الرسول من قضية الكتاب قال لهم : قوموا
فانمروا ثم احلقوا — ليتحلوا من عمرتهم ويمودوا إلى المدينة — فلم يبق منهم
رجل ! حتى قال ذلك ثلاث مرات ! . فلما لم يبق منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر
لها ما تلقى من الناس فقالت أم سلمة : يا رسول الله أعجب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم
أحدنا منهم كلمة حتى تنحر بطنك ، وتدعو حلقك فيحلقك .
فخرج فلم يكلم أحدنا منهم حتى فعل ذلك .

فلما رأى المسلمون ما صنع النبي زاح عنهم القهول ، وأحسوا خطر المعصية
لأمره ، فقاموا عجولين يتعرون هديهم ، ويحلق بعضهم بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل
الآخر لفرط النهم



ليت نيات الخير والشر تؤتي ثمارها الحلو والمر بالسرعة التي ظهرت في عهد
الحديبية الآنف ، إنه لم تمر أيام طوال على إيرامه حتى كان تشدد المشركين فيه وبإلا
عليهم ، فأخذوا يشكون من النصوص التي فرضوها ، أو فرضتها حيتهم النليظة .
ونظر المسلمون كذلك مهوورين إلى عواقب التسامح البعيد التي أبداه النبي ،
فوجدوا من بركاته ما ألهج ألسنتهم بالحمد !

لقد انخرط هذا الكفار في الجزيرة منذ تم هذا العقد . فلن قريشاً كانت تستبر رأس الكفر وحالة لواء التمرد والتحدى للدين الجديد . وعندما شاع نبأ تمادها مع المسلمين خمدت قنن الناقحين الذين يملكون لها ، وتبعثت القبائل الوثنية في أنحاء الجزيرة ، وخصوصاً لأن قريشاً جمعت على سياستها التفعية واهتمت بشئونها التجارية فلم تجتهد في ضم أحلاف لها ، في الوقت الذي اتسع فيه نشاط المسلمين الثقافي والسياسي والعسكري . ونجحت دعايتهم في تألف قبائل غفيرة وإدخالها في الإسلام . وكثير من المؤرخين يمد صلح الحديبية فتحاً ، بل إن الزهري يقول فيه : ما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه . إنما كان القتال حيث اتقى الناس . فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وآمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة لم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه . ولقد دخل في تبليك الستين — بعد الحديبية — مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر .

قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة ثم خرج عام فتح مكة . بعد ذلك بستين في عشرة آلاف . أما المسلمون المذبذبون في مكة ، فقد فر منهم أبو بصير عبيد بن أسيد وهاجر إلى المدينة يئس القام فيها مع المسلمين . فأرسلت قريش وراءه اثنين من رجالها يرجعان به إليها تنقيلاً لتصوص الماهدة . فقال رسول الله : يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا العند ! وإن الله جاعل لك ولني معك من المستضعفين فرجاً وغرجاً فانطلق إلى قومك . وحزن أبو بصير وقال : يا رسول الله أتردني إلى الشركين ليفتنوني في ديني ؟ فلم يزد النبي عن تكرار رجائه في الفرج القريب ، ثم أرسل أبا بصير مع القرشيين الشركين ، ليمودوا جميعاً إلى مكة .

ورفض أبو بصير أن يستسلم لهذا المصير . فاحتال في أثناء الطريق على سيف أحد الحارسين وقتله به ففر الآخر مذعوراً ، وقفل راجعاً إلى المدينة يخبر رسول الله بما وقع لصاحبه . وإذا بأبي بصير يطلع متوشحاً بالسيف يقول : يا رسول الله وقت ذمتك ، وأدى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم وامتنعت بدني أن أقف في أو يصبث بي ..

فقال الرسول : ويل أمه ، مسمر حرب لو كان معه رجال . وأدرت أبو بصير أنه لا مقام له في الدنة ، ولا مأمن له في مكة ، فانطلق

إلى ساحل البحر في ناحية تدمي الميصر ، وشرع يهدد قوافل قريش للمرة بطريق الساحل وسمع المسلمون بمكة من مقامه ، وعن كلمة الرسول فيه « مسر حرب لو كان معه رجال » فتلاحقوا بأبي بصير يشدون أزره حتى اجتمع إليه قريب من سبعين ثائراً ، فيهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو .

وألف أولئك للمعذون التناقون جيشاً ضيق الخناق على قريش فلا يظفر بأحد منهم إلا قتله ، ولا تمر بهم غير إلا اقتطعوها .

وإذا بقريش ترسل إلى رسول الله تتأشده الرحم أن يؤذى إليه هؤلاء فلا حاجة لها بهم .

وبذلك نزلت قريش من الشرط الذي أملت تمتاً ، وقبله المسلمون كارهين . وقصة أبي بصير وأبي جندل وإخوانهما لها دلالة مثيرة ، فهي قصة العقيدة المكافئة ، في ثوم من الأعداء ووحشة من الأسعاب ! وهي توضح أن الإيمان بالله أخذ طريقه إلى قلوب أولئك النفر مجرداً من كل شيء إلا سلامة جوهره . إنهم قد فقدوا الأمداد الروحية التي تجيئهم من غالبة الرسول والإسعاء إليه وهو يتلو وينصح ، بيد أنهم عوّضوا عنها من الاتصال بكتابه والاعتباس من آدابه ، فكانوا في اهتدائهم للحق وإبائهم للضميم وإشارهم للمفارقة مثلاً حسنى للإسلام المكافع العزيز . ولم يد أبو بصير إلى رسول الله ، ذلك أن الإذن بالمقام معه جاءه وهو محتضر .

وروى موسى بن عقبة أن رجال أبي بصير سادروا قافلة كان فيها الماص بن الربيع صهر النبي — وهو لما يدخل الإسلام يمد — وأسروا ما فيها ما عدا الماص لسكاته فذهب الماص إلى زينب امرأته وشكا لها ما وقع لأسعابه وما ضاع لهم من أموال ، وحدثت زينب رسول الله في ذلك . فقام رسول الله فخطب الناس قائلاً : إنا صاهرنا أناساً ، وصاهرنا أبا الماص فتم المهر وجدناه . وإنه أقبل من الشام في أسعاب له من قريش . فأخذهم أبو جندل وأبو بصير ، وأخذوا ما كان معهم ، وإن زينب بنت رسول الله سألتني أن أجيرهم ، فهل أنتم مجيرون أبا الماص وأسعابه ؟ فقال المسلمون : نعم .

وبلغ هذا الجوار أبا جندل فأفرجوا عن الأسرى ، وردوا عليهم كل شيء أخذ منهم حتى العقال .

ثم جاء كتاب رسول الله إلى أبي بصير ليترك مكانه ويرجع حيث يحب . وكان أبو بصير يهود بأنقاسه الأخيرة . فات والكتاب على صدره ، ودفعه أبو جندل ١١ . أما الناصي بن الربيع فارتحل ببضائع قريش حتى قدم مكة . فأدى إلى الناس أموالهم . حتى إذا فرغ قال : يا مشر قريش ، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم أرده عليه ؟ قالوا : لا ، فجزاك الله خيراً ، قد وجدناك وفياً كريماً ١١ قال : والله ما منعت أن أسلم قبل أن أقدم عليكم إلا أن تظنوا أنني أسلمت لأذهب بأموالكم ، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

وماد إلى المدينة فرد عليه رسول الله امرأته زينب ، وكان اختلاف الدين قد فرق بينهما ، ولم يبق في ذلك عقداً جديداً .



وقد أبى المسلمون عقب صلح الحديبية أن يردوا النسوة المهاجرات يدينهن إلى أوليائهن ، إما لأنهم فهموا أن الماهدة خاصة بالرجال فحسب ، أو لأنهم خشوا على النساء اللاتي أسلمن أن يضمنن أمام التمثيب والإهانة ، وهن لا يستطعن مضطرباً في الأرض ورداً للكيد كما فعل أبو جندل وأبو بصير وأضرابهما . . وأياً ما كان الأمر فإن احتجاز من أسلم من النساء تم بعلم القرآن ، وكلف المسلمون أن يدفعوا لأزواجهن الشركين عوضاً يستعينون به على زواج آخر إذا لم يشاءوا الدخول في الإسلام والمودة به إلى أزواجهم الأوليات .

قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنحنوهن الله أعلم بإيمانهن » . فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار . لاهن حل لهن . ولا يملحن لهن » .

والآية تشير — بجانب ما فيها من أحكام — إلى ما كانت تستمتع به المرأة من استقلال فكري وكيان أدبي محترم .

ولو حدث ذلك اليوم لتساءل فريق كبير من المسلمين : من التي تمتحن ؟ أهو رجل أم امرأة ؟ وإن كان رجلاً فهل يكون شاباً أو شيخاً ؟ وهل تمتحن المرأة مباشرة أو من وراء حجاب ؟

مع اليهود مرة أخرى

بقى أمام المسلمين فريقان من الخصوم الأتقاء .

أعراب البادية الذين يسبحون في عرض الصحراء كالإبل السابعة لا يقتلون شيئاً ، فإذا لاح منهم طاروا وراده ، وقلما يلقنهم حديث الإيمان بالله واليوم الآخر .
وبنو إسرائيل الذين ظنوا الثبوة حكراً عليهم فهم لا يفتأون يجهلون المسلمين ويكذبون محمداً ويحصدون رسالته ، وقد أغرقتهم القشور التي ورثوها من التوراة فجادلوا المسلمين جدالاً طويلاً . وحرسوا أشد الحرس ألا يترفوا بهم . ثم ذهبوا إلى حد التأليب عليهم كما رأيت فكانت سيرتهم عزيزاً غريباً من الحقد والكبر والفس . ومع ما ألهب جلودهم من سياط كاوية في صراعهم مع المسلمين فإنهم لم يتحولوا عن خطتهم المريبة قيد أعلة .

وجمت عداوة الإسلام بين الأعراب إليه ، وأهل الكتاب اليهود . وعند ما فشلت الأحزاب في اتصاف يثرب . وجنت قريظة عقب غدرها . لم يهدأ يهود خيبر أو يحاولوا إصلاح شئونهم مع المسلمين ، كلا . إنهم شرعوا يسلون جالهم بنطفان والأعراب الضارين حولهم ليؤلفوا ضد الإسلام جبهة أخرى تكيد من جديد لمحمد وصحبه . لكن المسلمين كانوا أيقاظاً لهذه المؤامرات . فإِنْ مَادُوا مِنْ مَرَّةٍ الحديبية آخر السنة السادسة حتى توجهوا في الحرم من السنة السابعة إلى خيبر لكسر شوكة إسرائيل بها .

ولم يفت المسلمين قبل سيرهم أن يفصموا الجبهة المؤلفة ضدهم من يهود وغطفان فأوهمو غطفان أن الهجوم متجه إليهم . وأن قوة المسلمين توشك أن تلتف بهم . قال ابن اسحاق : بلغني أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله من خيبر جمعت له ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه ، حتى إذا ساروا مرحلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهلهم حساً فظنوا أن القوم خالفوهم إليهم فرجموا على أعقابهم ، وأقاموا في أهلهم وأموالهم ؛ وخلوا بين رسول الله وبين خيبر !!

وهكذا نجحت الخطة في عزل يهود خيبر عن حلفائهم المشركين . .

فلما أشرف رسول الله على القرية الحصنة ونهياً لئلا تقاتل لأصحابه : ققوا
ثم تضرع الى الله بهذا الدعاء . .

« اللهم رب السموات وما أظلمن ، ورب الأرضين وما أظلمن ، ورب الشياطين
وما أضلن ، ورب الرياح وما أذرين ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها
وخير ما فيها . ونموذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها » .
ثم قال : أقدموا باسم الله .

ويظهر أن اليهود ظنوا أول وهلة أن زحف المسلمين صوب غطفان ، فلم يسيروا
الأمر التفتاً بل أصبحوا غادين الى حقولهم بمساحيقهم ومكائلمهم حتى فوجئوا بالمسلمين
يسيرون نحوهم . فارتدوا الى حصونهم فزعين . وهم يقولون : محمد والمحميس !

إن اليهود — على ما ألف المسلمون من حروبهم — لا يعتمدون على تسيير
الجيوش في الفضاء الرحب ، تصيب ويصاب منها . إنهم يكرهون اللقاء في تلك الميادين
المكشوفة . ويدبئهم الذي لا ينفكون عنه الكفاح من وراء الجدران .

أنك بقية من حرصهم على الحياة وتوقيع الموت ! فلما رآهم النبي يهرعون الى
حصونهم أراد أن يقذف في قلوبهم الرعب فصاح : الله أكبر ، هلكت خير ،
إنا إذا زلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

والقرى الفاجرة تجر على نفسها الهلاك إن عاجلاً وإن آجلاً ، روى عن رسول
الله أنه قال : « إذا شاع الزنا والزنا في قرية فقد أحتل بنفسها غضب الله » .

واليهود يشيع فيهم هذا الفساد المزدوج ، فهم الى اليوم دهاقين الزنا في العالم ،
وهم قادة التبجح والعمر ، ونسوتهم لا يرددن يد لأمس ، ولا ينفي هذا أن فيهم
فتنة تعرف المطلق والمقعة ، ولكنهم قليل « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه
يضلون » والكثرة — لا القلة — هي التي تتحدد مصائر الشعوب .



وشن المسلمون هجومهم على الحصون المشيدة ، فبدأت تتداعى تحت وطأتهم
حصنها بعد حصن ، ودافع اليهود عنها دفاع المستعيت ، فلن خير أخصب أرضهم
وأمنع بقاعهم ، ولما بدأ الحصار يمتد . وبنوا إسرائيل إذا سقطت لهم قلعة
تمسكوا بأخرى .

قال رسول الله : لأصلين الزاية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ! فبات الناس يذكرون أيهم يسلطها ، فلما أصبحوا غدوا إليه متطلعين إلى أخنها . فنادى النبي صلى الله عليه وآله : يا أي طالب فأطأها إياه . فقال علي : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ قال : انقذ ، على رسك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير من أن يكون لك حمر النعم .

وإنما ساق رسول الله هذا النصع الرشيد حتى يقطع تطلع النفوس إلى اللغاث السجلة فلن تروا يهود إذا هزموا ضغمة ، ولكن ثواب مقاتلتهم — إذا احتدوا — أضخم .

ولو نزل القوم على أحكام الله ، وتركوا الخلال الدينية التي عاشوا بها وعاملوا الناس بسوءها لأراحوا واستراحوا . غير أنهم أبو إلا الحرب فهاجمهم على شدد النكير حتى سقط الحصن واحتله المسلمون .

وكان شمار يوم خيبر يامنصور أمت أمت .

وخرج من حصون اليهود فارس يدمى مرحبا فنادى في المسلمين من يبارز ؟ وهو ينفذ :

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
أظن أحياما ، وحينا أضرب إذا الليث أقبلت تحرب

قيل : فك به علي بن أبي طالب . وقيل : بل قتله محمد بن مسلمة . وكان محمود ابن مسلمة أخوه قد أقيمت عليه في أثناء الحصار رحي فصرته فتأمر محمد له بقتل مرحب ورز بعد قتل مرحب أخوه ياسر ، فتصدى له الزبير . وكانت صفية أم الزبير بين السوة اللأى خرجن مع الجليس معاونات في قتال بني إسرائيل ، فغشيت على ابنها أن يقتل ، فقال لها النبي : بل ابنك يقتله إن شاء الله ، فصارع الزبير ياسرا .. وتثبت اليهود بما بقي من حصونهم يذودون عنها ذبادة اليأس . وشدد المسلمون عليهم الحصار يريدون الانتهاء من هذا القتال مسرعين ، فقد أجهدهم الجوع وضاق بهم القمام ، وأصيب كثير منهم بعلل شتى لرداءة الجو ووخامة المستنقعات ثم جاء إلى النبي من أخبره أن اليهود لن يبالوا بهذا الحصار ، فإن لهم مشارب خفية ،

يخرجون إليها ليلا فيستقون ويمودون . فأمر النبي بقطع مشاربهم ليكرههم على القتال أو التسليم ، فخرجوا واشتبكوا مع المسلمين في صراع شديد استشهد فيه عدد من المسلمين بعد أن مهدوا الطريق لمقوط الحصن ، ويسمى حصن الزبير ، وهو نهاية سلسلة من القلاع تسمى النظاة استولى المسلمون عليها جميعا بعد مداخلوا حصون ناعم ، والصعب ، والوطيح ، والسلام .

وبقيت هناك سلسلة أخرى تهيأ المسلمون لهاجتها . فقام رسول الله على قلعة يقال لها : سموان : قاتل عليها أشد القتال . وخرج منها رجل يسمى عزولا ينى المبارزة . فهاجم عليه الحباب بن المنذر فضربه بالسيف ضربة أطاحت يده اليمنى بنصف ذراعه ، ثم وقع السيف من يده وفر اليهودى راجعاً ، فأدركه الحباب فقطع عرقوبه ! ورز آخر فقام إليه رجل من المسلمين فقتله اليهودى فلاحق به أبو دجانة فقتله وثأر لصاحبه ! ثم كبر المسلمون وتعاملوا على الحصن وأمامهم أبو دجانة فاقسموه بعد لآى ، ووجدوا به أثاثاً وطعاماً وغنماً ومتاعاً .

وأفلت بعض المحصورين فانضموا إلى إخوانهم بحسن البزاة وزحف المسلمون إليهم ، وتراشق الفريقان بالنبل فأصيب بنان النبي في المركة . ولكن المسلمين استبسلوا في الكر على العدو حتى اقتحموا هذا الحصن الآخر ، وأخذوا من فيه باليد . ثم هم المسلمون بنصب المنجنيقات ليهدموا الحصون الباقية على من اعتصم فيها فأيقن اليهود بالهلكة ولم يروا مخلصاً من الاستسلام فنزل ابن أبي الحقيق وعرض الصلح على أن يجالوا من أرض خيبر ولهم ما حملت ركا بهم ، وللمسلمين سائر ما بقى . قبل الصلح ، واشترط عليهم رسول الله ألا يكتموا ولا يشيوا شيئا ، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد . . . فلما ثبت على بعضهم النذر بما تمت عليه شروط الصلح قتل .

وخضعت سائر يهود ثم جاءت تعرض على رسول الله أن يناملهم بالنصف في زراعة الأرض ، ولم يجعل ذلك على الأبد ، مخافة عبثهم بل قال لهم : إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم .



وحدث في إبان المركة أن عبداً حبشياً أسود كان يرعى لسيده اليهودى غنمه ، فلما رأى أهل خيبر يحملون السلاح ويتأهبون للحرب سألمهم : ماذا تريدون قالوا :

قتال هذا الذي يزعم أنه نبي*. فوقع في نفس الرجل ذكر النبوة وصاحبها ، فأقبل بنمته على رسول الله وسأله : ماذا تقول ؟ وإلام تدعو الناس ؟ فأجابه : أدعو إلى الإسلام ، وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسوله ، وأن لا تعبدي غيره قال البعد : فإني إن شهدت وآمنت ؟ قال : لك الجنة إن مت على ذلك ا فأسلم ثم قال : يا نبي الله إن هذه النعم مندى أمانة . فقال رسول الله : أخرجها من عندك وارمها بالحصباء فإن الله سيؤدى عنك أمانتك . ففعل ، فرجعت النعم إلى صاحبها . فلم اليهودي أن غلامه أسلم ، ثم قام رسول الله وقد نهياً الناس للقتال فوطئهم وحضهم على الجهاد ، واتسم الفريقان ، فقتل البعد الأسود بين من قتل من المسلمين وحملت جثته إلى المسكر ، فرووا أن رسول الله اطلع على الفسطاط الذي ضم جثتان الشهيد ، ثم أقبل على أصحابه يقول : لقد أكرم الله هذا البعد وساقه إلى خير ، رأيته عند رأسه تفتين من الحور العين ولم يصل لله سجدة قط .

وفي هذه النزاة أذن النبي لمن تلوّعن من النساء أن يخرجن معه . قال ابن إسحاق : شهد خير مع رسول الله نساء من نساء المسلمين ، فرضخ لمن رسول الله من الفتياء — أعطاهن يسيراً — ولم يضرب لمن بسهم .

وروى الإمام أحمد عن حشرج بن زياد عن جدته أم أيه قالت : خرجنا مع رسول الله في غزاة خير ، وأنا سادسة ست نسوة . قالت فبلغ النبي أن معه نساء ، فأرسل إلينا فدعانا . قالت : فرأيتنا في وجهه الغضب قال : ما أخرجكن وبأمر من خرجتن ؟ قلنا : خرجنا نناول السهام ونسقى السويق ، ومعنا دواء للجرحى ، ونزول الشعر فتبين به في سبيل الله قال : فأنصرفن .

قالت فلما فتح الله عليه خير أخرج لنا سهماً كسهام الرجال . فقلت لها : يا جدة ما الذي أخرج لكن ؟ قالت : تمرأ .

ويرى ابن كثير أن الرسول أعطاهن من ثمرات الأرض كالرجال ، فأما أنه أسهم لمن في الأرض نفسها كالرجال فلا . وهذا حق .

وفي حديث أبي داود أن نسوة من بني غفار قلن يارسول الله : قد أردنا أن

يُخرجُ منك في وجهك هذا - وهو يسير إلى خير - قدأوى الجرحى ونجين
المسلمين بما استعطينا . قال : على بركة الله ...

وكانت صفية بنت حيي بن أخطب زعيم اليهود بين من أسرن من نساء خير ،
وقعت في يد أحد الصحابة فاستردها منه الرسول ، ثم أعتقها وبني بها . وجعل
مهرها عتقها ..

فلما اطمان به القام أهدت له امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية مسمومة
وأكثرت من السم في ذراع الشاة لما عرفته أن الرسول يؤثرها . وقد تناول النبي
مضغتها منها ، فلاكها ثم لفظها ، وهو يقول إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم
وكان معه بشر بن البراء فأساغ اللحم وازدوده .

وحجى بالمرأة الجانية فاعترفت بما صنعت ، وقالت للنبي : بلغت من قومي ما لم
يخف عليك . قلت : إن كان ملكا استرحمت منه ، وإن كان نبياً فسيُخبر فتجاوز
عنها النبي ، ثم مات بشر بعدما سرى السم في جسمه ، قتيلاً : اقتص له منها . وقيل
بل أسلمت وعفا عنها .

ومكث يهود خيبر يزرعون الأرض على النصف من نتائجها ، إلا أن بنضاء
للمسلمين حلتهم على اقتراف بعض الجرائم . فقد اغتيل رجل من الأنصار ، وقدمت
يدا عبد الله بن عمر أيام خلافة أبيه . فخطب عمر الناس قائلاً : إن رسول الله كان
طاملاً يهود خيبر على أن يخرجهم إذا شئنا ، وقد عدوا على عبد الله بن عمر ففقدوا
يديهم كما قد بلنكم ، مع عدوهم على الأنصارى قبله . لانشك أنهم أصحابه ، ليس لنا
هناك عدو غيرهم . فمن كان له مال بختيار فليطعن به . فإني أخرج يهود . فأخرجهم .
ولا ريب أن الهزيمة التي أصابت بني إسرائيل في خير قضت على كياناتهم
المسكرى في الجزيرة قضاء تاماً . جاء يهود فذك يطلبون الأمان .

وقاتل يهود وادى القرى بعدما دُعوا إلى الإسلام وأخبرهم رسول الله أنهم إن
أسلموا أحرزوا أموالهم وحققوا دماءهم ، وحسابهم على الله . فلما أبوا نشبت بين
الفرقيين معركة محدودة انتهت مع الصباح بسقوط الرادى اليهودى عنوة .
واستسلم يهود نباء ..

ومد الإسلام رواقه على هذه الأرض بمد أن ظلت حيناً من الدهر في أيدي اليهود يبشرون عليها كما يشتهون .

والعلة التي نستخلصها من هذه الممارك وما أعقبها من جلاء ، أن الأرض لله يورثها من يشاء . وهو لا يترعها من قوم ويعطيها آخرين بحياة ، كلا . ولكن الأمة التي تفسد على النعمة تُسلِّها ، ثم تساق النعمة إلى من يقدرها ويشكر الله عليها ! والأمة التي تتكبر مع الحرية وتبطر ، تفقد امتلاكها لنفسها ، وحقها ، وأمرها ، لتقع في إسار الآخرين فيصرفون شئونها كما يشتهون .

وقد طبق هذا القانون على بني إسرائيل بقسوة عندما أهدروا أحكام التوراة ، وتبعوا الهوى ! وطبق بمد ذلك على المسلمين يوم سدروا في النواة وجحدوا ما لديهم من هداية « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذهم شديد » . إن الحياة كركو وفرو ، وإقبال وإدبار . والنظرة المبجل إلى تاريخ البشر توحى بأن مكان الصدارة لم يثبت لأمة من الأمم إلا ربما تنهياً أمة أخرى لانتزاعه . والدول التي ساحت أشبه بلجج البحر التي ترتفع حيناً ثم لا تلبث أن تضمحل رويداً رويداً حتى تنداح على الشاطئ ضيفة مطامنة . ولا مانع من أن تعود مرة أخرى مع المد لتبلغ الأوج ، ثم تنفك عنها أسباب القوة فتبسط مستكينته من جديد .

وقد ملك بنو إسرائيل وعزوا بقدر حكيم ، ثم سلَّبوا الملك والعزة بقدر كذلك لترتجس دوة الإسلام الفتى الناهض ، وتم هذا التحول لغير البشر قاطبة .

لماذا تظاهر اليهودية الوثنية ضد الإسلام ؟ ولصلحة من يقع هنا ؟ إن بني إسرائيل ينظرون إلى الدنيا والدين من خلال منافهم الخاصة وذلك ما حدا بهم إلى مقاومة الإسلام بمنف . أما القدر الأعلى فيريد أن يجعل من الأمة الجديدة رسالة تفسير شامل لما شاع في العالم أجمع من مفساد ولما عرا حضارته من تفنن وركود . فإذا وقفت حفة من الأعراب أو حفة من اليهود لتعترض هذا التحول الهائل بدوافع من الحقد الرخيص أو الطامع الدنيا في التي جنت على نفسها إذا غرقت في الطوفان . لو ظل اليهود ألف سنة أخرى في جزيرة العرب ما زادوها إلا انقساماً ، وما اكتسبت أقطار الأرض الأخرى من بقائهم شيئاً ، ربما نالت مزيداً من الحبوب والقواكه التي يتقنون زراعتها ، بيد أنها لن تظفر بهذه الزيادة إلا ومعها كغل من

الفساد الذى يصدره بنو إسرائيل إلى العالم مع معملات الرب وأخلاق الهرم والتحليل
أما الإسلام فقد خرج من الجزيرة، يوم خرج، رسالة إيمان وإصلاح، وبما يحمله
في طوابعه من حق ونفع استحق الانتصار والانتشار.

فلما جرى على أمته من أسباب البلى والحول ما جرى على اليهود الأولين تعرضت
لطرده من أوطانها والتشرد هنا وهناك كما تعرض غيرهم حذوك النمل بالنمل !!!

عودة مهاجرى الحبشة

ووافق فتح خير قدوم جعفر بن أبى طالب ومن معه من المهاجرين إلى الحبشة .
وقد سرَّ رسول الله أيعا سرور لحيء هؤلاء السحابة الكرام ، إهم خرجوا من مكة
فارين بدينهم من الفتان واليوم يمدون وأمر الإسلام يملو ، وسلطانه يمتد شمالى
الجزيرة وجنوبها ، فلا خوف من غشم أو ظلم . .

وعندما حلوا بالمدينة قال رسول الله مبتهجاً : « والله ما أدرى بأيهما أفرح ؟
بفتح خير أم بقدوم جعفر ؟ . وجعفر وإخوانه مكثوا في الحبشة بضمة عشر عاماً ،
نزل خلالها قرآن كثير ، ودارت ممالك شتى مع الكفار ، وقلب المسلمون قبل
الهجرة العامة وبسببها في أطوار متباينة ، حتى ظن البعض أن مهاجرى الحبشة —
وقد فاتهم هذا كله — أنزل قدراً من غيرهم . فمن أبى موسى الأشعرى « . . . كان
أناس يقولون لنا : سبقناكم بالهجرة . ودخلت أسماء بنت ميس — على حفصة زوج
النبي زائرة — وكانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر . فدخل عمر على حفصة
وأسماء عندها . فقال حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت : أسماء ابنة ميس . قال عمر :
الحبشية هذه ؟ البحرية هذه ؟ قالت أسماء : نعم ! قال عمر : سبقناكم بالهجرة فنحن
أحق برسول الله منكم ! فنضبت وقالت : كلا والله كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم
ويسقط جاهلكم . وكنا في أرض البعناء البهضاء بالحبشة ! وذلك في الله ، وفي رسول
الله . وإيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ماقلت لرسول الله وأسأله
ووالله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه . فلما جاء النبي قال : يا بني الله إن عمر قال
كذا وكذا ! قال : فما قلت له ؟ قالت : كذا وكذا .

قال : ليس بأحق بي منكم وله ولاصحابه هجرة واحدة . ولكم أنتم أهل السفينة

هجرتان .. ولم يمض كبير وقت على أولئك المائدين حتى اكتسبوا ما فاتهم من علم بالقرآن والسنة ، وانتظموا في موكب الجهاد مع من سبقهم بإحسان .
وقد أشركهم النبي في منازم خير ، مع أهل الحديبية ، ولم يقسم لأحد غيرهم معهم . فإن الله جعل خير مكافأة سخية لمن ساروا إلى مكة ، وبايموا على الموت تحت شجرة الرضوان ...

تأديب الأعراب

أما عبدة الأصنام من البدو فإن المسلمين شرعوا يتعقبونهم مذ خلصوا من مشاكل اليهود ، وقد أشرنا إلى أن مثل هؤلاء الأعراب انتكثت بعد الوادعة التي تمت في الحديبية بين قريش والمسلمين ، كانوا أمس يحاصرون دار الإسلام أحزاباً متحدة ، لكن الحال تبدلت اليوم ، تمزق بنو إسرائيل ، وانسحب أهل مكة ، وأمكن للمسلمين أن يتفردوا بأولئك القوم قبيلة إثر قبيلة ولن يمجز السلمون عن حسم شروهم ووقف فؤادهم . إن البدو جنس جاف غليظ ، ولن تنسى أنهم حتى القرن الأخير كانوا يستمرئون الفتنك بقوافل الحجاج ، وقد يذبجون الحاج لدرام معدودة ؟ وعلمهم بشئون الدنيا وحقوق الآخرة يُبسي المدرسين . وقد بذل الإسلام جهوداً جبارة في رفع مستوهم المادى والأدبى . إلا أن اغتيال النخلة من القراء الربيين جعل الإسلام يظهر رجاله هؤلاء بالقوة التي تمنع الشغب وتقطع دابر الفساد .
وكان بث السرايا في قياى نجد من أم ما شغل المسلمين بعد ما رجعوا من خير ، في صفر من السنة السابعة حتى شدوا الرحال إلى مكة لعمرة القضاء ، كما نص على مواعدها في عهد الحديبية .

ولا يمتينا كثيراً أن نتبع هذه السرايا في سيرها فهي — وإن وطئت هبة المسلمين العسكرية — أقرب إلى فرق الشرطة منها إلى الجيوش المبأة . والهدف الأكبر من بثها توطيد الأمن ، ومنع الفارات على المدينة ، وتمكين الدعاة إلى الله من أن يجوبوا الآفاق بتعاليم الرسالة دون غدر أو خيانة .

إن أحوال هذه القبائل مريبة الشبه بأحوال قراما في عهد الإقطاع القريب ، كان العملة يملك ألف صوت لألف نائب في قريته . فالحديث عن الحرية السياسية في هذا

الحديث خرافة . كذلك كان رؤساء القبائل الأولون ، تختلف حولهم عشائرم
ويطونهم ليقنصروا في الحرب والبلع على ما يهوى السادة . فإذا كثر في أولئك
الحاكمين من يوسف بالأحق المطاع . وإذا اشتغل أولئك الحق بالكر والفر على
ما قال دريد بن الصمة :

يُنَارُ عَلَيْنَا وَآثِرِينَ فَيُشْتَقَى بِنَا إِنْ أَسْبَنَا ، أَوْ نَغِيرَ عَلَى وَتَرِ
قَسَمْنَا بِذَلِكَ الدَّهْرَ شَطْرَيْنَ بَيْنَنَا فَمَا يَنْقُضُ إِلَّا وَنَحْنُ عَلَى شَطْرِ
أَقْتَرَى أَنْ الدَّهْرَ يَسِيرُونَ عَزَلًا فِي هَذِهِ الْبَيْتَةِ الَّتِي تَخْتَفِ الْأَمْوَالُ وَالْمَقَاتِدُ ؟
إِنْ الْعَمَلُ عَلَى تَوْطِيدِ الْأَمْنِ شَيْءٌ غَيْرُ إِكْرَاهِ النَّاسِ عَلَى الْإِيمَانِ . هَدَفَ الْأَوَّلُ
إِقْصَاءَ الضَّمُطِ وَالْفَتْنَةِ مِنَ الْمَجْتَمَعِ حَتَّى إِذَا آمَنَ فَرْدٌ فِي قَبِيلٍ لَمْ يَجِدْ مِنْ يَصِبُّ عَلَيْهِ
سُوطَ عَذَابٍ ، أَمَا الْآخِرُ فَيُرِيدُ بِالسُّوْطِ أَنْ يَحْمِلَ النَّاسُ عَلَى عَقِيدَةِ مَسِيئَةٍ .

والسرايا التي كان الرسول يسيرها إلى كل فج فاج كانت تحمل معها كلام الله لتقرأ
منه « قل : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ » ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم
مغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ . وَالَّذِينَ سَمَوْا فِي آيَاتِنَا مُجَازِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ »
فالسرايا لمعجزة الآيات أمر خطير . ولو كانت معجزة باللسان ما كثرت لها أحد !
فهيئات أن تغلب الخرافة الحق في معرض جدل حر ، إنها معجزة بالسوط والقهر !
« وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنبَغِ تَعَرُّفٌ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ، يَكَادُونَ
يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَنَالُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ... » .

فإذا تأهب التالي حتى لا يروح ضحية هذا السوط فهو يؤدي واجبه ، وإذا
سخرت القوة لتطهير الحياة من أسباب هذا السوط فأى غبار على هذا العمل ؟
وقد مضى المسلمون في نشر الدعوة داخل جزيرة العرب على ذلك الأساس
المادل ومنذ أمضوا عهد الحديبية ، وهم دائبون على البلاغ والتبصرة ، وقدلك نجحوا
نجاحاً ملحوظاً في هذا المضمار ، فدخلت قبائل كثيرة في عهدهم على حين انصرفت
جوع الأعراب عن قریش فلم يدخل في عهدهم أحد . وسير الأمور في هذا الاتجاه
كان التمهيد الفعّال لنهاية الإسلام ثم لفتح مكة نفسها فيما بعد .

والدعوة إلى الإسلام داخل الجزيرة لم تشغل النبي عن حق آخر من حقوق الله
عليه وهو إعلام الناس كافة بما آتاه الله من بينات ، فليرفع السراج إلى أعلى لتصل

أشسته المادية إلى مواطن أبعد ، مواطن فرقت في الظلام دهرأ . . وأوحى إلى هذا القرآن لأتذكركم به ومن بلغ . أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد ، قل : إنما هو إله واحد . وإنى يرى عما تشركون .
فليتجه إلى الجيوس وإلى النصارى ، يدعوهم إلى توحيد الله والإسلام له والخضوع لأحكامه ...

مكاتبة الملوك والأمراء

كان الفرس يحتلون أجزاء كبيرة من جنوب الجزيرة ، وكان الرومان يحتلون أجزاء أخرى من شمالها . وقد انتشرت ديانة المذنبين في الأقاليم التي أخضعوها لنفوذهم ومن البعث لإرجاع هذا الانتشار للحرية العقلية المحضة . وعلى أية حال فإن الجيوسية سادت الأقاليم التابعة لفراس ، والنصرانية سادت الأقاليم التابعة للرومان ، وكان أمراء هذه الأقاليم يستنون من قبل الدول الحاكمة وينصاهون لأوامرها .
وقد رأى النبي أن يرسل بكتبة إلى رؤساء الدول الكبرى وإلى أمراء الولايات المحتلة على سواء يدعوهم إلى الله ويعرض عليهم الإسلام . روى مسلم عن أنس أن رسول الله كتب إلى كسرى وقيصر وإلى النجاشي — وهو غير القتي سلى عليه — وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل .

بعث رسول الله حمية بن خليفة بكتابه إلى قيصر الرومان ، وليس الوصول إلى قيصر بدعوة غريبة على مسامحه أمراً سهلاً ، فكيف وهى — في نظر الرومان — من أعرابي ساذج ينتمى إلى قوم تحت سلطانهم ؟ وتقديراً لهذه الأوضاع اختار النبي لتلك المهمة من يقوم بها إيماناً واحتساباً غير مبال بمواقبها عليه ، ولا نتائجها عنده من يدعوهم . فمن ابن حبان أن رسول الله قال : من ينطلق بصحيتي هذه إلى قيصر وه الجنة ؟ فقال رجل : وإن لم يقبل ؟ قال : وإن لم يقبل ! فأخذ حمية الكتاب وسافر به إلى أرض الروم فوافق هرقل وهو مقبل على بيت القدس يزوره عقب انتصاره على الفرس ، قربى إلى الله .

وتناول قيصر الكتاب قرأ فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من أتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام

أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأكارين — الفلاحين —
و يا أهل الكتاب تمالوا إلى كلمة سواء يتناوبتكم ألا نبعد إلا الله ولا نشرك
به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا : اتهدوا
بأننا مسلمون .

وقد حاجت حاشية هرقل لا كثرات القيصر بهذه الرسالة ، وازدادوا هياجاً
عندما عرض عليهم — لا تدرى جاداً أم هازلاً — أن يستقوا هذا الدين !
وهرقل في نظرنا سياسي ما كر . وأمر الدين لا يمتيه إلا بقدر ما يدمم ملكه
وينسى قوته . وقد تولى شئون الدولة في وقت كانت الخلافات الكنسية حول طبيعة
المسيح تتل غليان الرجل ، وتثير في الأمة انقسامات غيفة . وقد حاول التقريب
بين وجهات النظر المتباينة ، وجمع الكنائس المتخاصمة على مذهب واحد فمجز ،
وتمرد عليه اليمانية وغيرهم في مصر والشام !

فالكلام في الإلهيات ليس غريباً عليه ، والتقريب بين وجهات النظر — لمصلحة
الدولة — ديدنه . ولعله في أعماق قلبه يحس سخط أولئك المختلفين جميعاً . وربما
تألفت في نفسه ، لوقت محدود ، فكرة الخروج من عقدة التثليث إلى بساطة التوحيد .
ثم اضطفت لها استجره على الدولة من خلاف أشق في وهمه ، وأمر الملكة عنده
أم من أي شأن آخر ! ! .

وشاءت لباقة قيصر السياسي أن يستدعي دحية ، وأن يحاول إيهامه بأنه مسلم
ثم أعطاه قدراً من الدنانير . . وصرفه ؟
وعاد دحية إلى رسول الله بالنبا ، فقال النبي : كذب عدو الله ، ليس بمسلم ؟
وأمر بالدنانير قسمت على المحتاجين . .



أما الولايات العربية التابعة للرومان فإن النبي أرسل إلى أربائها يعرض عليهم
الإسلام فكانت إجاباتهم أخشن وأقسى من رد القيصر نفسه ؟
قرأ أمير دمشق خطاب الرسول له « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله
إلى الحارث بن أبي شمر . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، وإلى أدموك
أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبق ملكك » .

فلما قرأه رى به الأرض . وقال : من ينزع ملكى منى ؟ وأخذ يمد المدة
لقتال المسلمين .

والحارث ليس بالملك الأسيل حتى يشمخ بملكه على هذا النحو . إنه مؤتى
من قبل الرومان الغالبين ليخدم أهواءهم ويعشى فى ركابهم ، فهو كنف من ملوك
الشرق فى عصرنا هذا . منهم المستعمرون ليكونوا حبالا تنجر بها الأمم
الستضعفة وراء غاصبها .

والهداية التى ردها هى الأمل الوحيد لجملة حاكما شريفا ، لو أنه قبلها وأشاعها .
ويث النبى إلى أمير بصرى — من ولايت الروم — مثل ما بث به إلى أمير
دمشق ، وحمل الكتاب الحارث بن عير الأزدى . فاعترضه فى الطريق شرحبيل
ابن عمرو النسائى وسأله : أأنت من رسل عمدة ؟ قال : نعم فأمر به شرحبيل فقتل .
وترامت هذه الأخبار إلى المسلمين فى المدينة فجزعت كرامتهم ، وأبانت لهم
أن علاقتهم بالرومان لن تندفع فى طريق العدل والاحترام إلا بمد جهود شاقة .



وردّ المقوقس على النبى ردّا حسنا فلم يؤمن به ولم يهجم عليه . ولا تسلم كتابه
من حاطب بن أبى بلثمة قال له : ما منعك إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه
من بلده ؟ فقال حاطب : ما منع عيسى — وقد أخذه قومه ليقتلوه — أن يدعو الله
عليهم فيهلكهم ؟ فقال المقوقس : أحسنت ، أنت حكيم جاء من عند حكيم . .
وكتب إلى رسول الله يقول : لحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ،
سلام عليك ، أما بعد : فقد قرأت كتابك . وفهمت ما ذكرت فيه وتدعو إليه ،
وقد علمت أن نبيا قد بقى . وكنت أظن أنه يخرج بالشام . وقد أكرمت رسولاك
ويثت لك بجاريتين لما كان عظيم فى القبط ، وبتياب ، وأهديت لك بنلة تركها .
وماذا يفعل عمدة بهذا ؟ لقد قبل الهدية تقديرا للماطقة التى أملت بها وإن كان
يرى أن الإيمان بالله وحده أفضل ما يهدى إليه وخير ما ينتظره ويهش له .

وجدير بنا أن نذكر كلام حاطب للمقوقس ، حتى يعرف القارئ أن هذه
البعوث بلغت حدّا من الفقه والحصافة يستحق الإعجاب البالغ :

قال حاطب : إن هذا النبى دعا الناس ، فكان أشدّهم عليه قريش و ، أعداءهم

له اليهود وأقربهم منه النصارى . ولمعنى ما بإشارة موسى بميسى إلا كإشارة عيسى
بمحمد وما دماؤنا إليك إلى القرآن إلا كدمائك أهل التوراة إلى الإنجيل . وكل نبى
أدرك قوما فهم أمته . فعن* عليهم أن يطيعوه . وأنت ممن أدرك هذا النبى ولسنا
ننالك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به . . .

وكان أثر هذه الدعوة الحارة الخطاب الذى سقناه آنفاً . . .



تلك مثل لرسائله إلى رجالات النصرانية ومواقفهم منها . وقد ساق النبى كذلك
مبعوثيه إلى رؤساء الجوسية يدعوهم إلى الله . ويحدثونهم عن الدين الذى
لو تبعوه قلمهم من التنى إلى الرشاد . وقد تفاوتت ردودهم بين المنف والطف ،
والإيمان والكفر . . .

كتب رسول الله إلى كسرى أبروز ملك فارس يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم .
من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله
ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله . أدعوك
بدعاية الله فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ليند من كان حيا ويحق القول على
الكافرين . أسلم تسلم . فإن آيت فمليك إثم الجوس » .

ومزق كسرى الكتاب ، وهو عنتى ، ولعله حسب الجرأة على مكاتته السامية
بعض ما رماه به القدر من مصائب ، فقد هزمه الروم هزيمة منكرة ، وها قد جاء
العرب يطمونه ما لم يكن يعلم . . .

وأصدر كسرى أمره إلى والى اليمن — وكانت لما نزل فى حكمه — يأمره أن
يرسل اثنين من رجاله الأشداء ، ليأتيا إليه بالرجل الذى تجرباً على مكاتبه ا ا

وأبروز هذا رجل أحمق ، ومنصبه يضى عليه لقب ملك الملوك . والوثنية السياسية
إذا ظاهرتها وثنية دينية أسست ظلمات بعضها فوق بعض . وقد غلب على الرجل
السفه فى تصريفه شئون الدولة وحكمه على الأشخاص والأشياء حتى ضاق قومه
أنفسهم به بل ضاق به أقرب الناس إليه وهو ابنه « شيرويه » فوثب عليه فقتله .

ويروى أن النبى لما بلغه ما صنع كسرى أبروز بكتابه قال : مزق الله ملكه . .

والطريف أن والى اليمن لما صدر إليه أمر كسرى سارع إلى تنفيذه ، فأرسل اثنين من لذه إلى المدينة يرضان على النبي أن يطلق معهما ليسأل عما فعل ١١٠٠
ونظر النبي إلى الرجلين فوجدهما من ذلك النوع الذى تربيته الملوك فى القصور
كما تربي القسوة الديكة الرومية . مناظر قارعة وبواطن تافهة . فلما رأى شواربهما
مفتولة وخدودهما مملوكة أشاح عنهما . وقال : وبحكما من أمركا بهذا ؟ قالا : أمرنا
ربنا ! ! يمينان كسرى . . .

إن تأليه الملوك خلال قديم ، وبمد أن انتشر الإسلام ذهبت حقيقة التأليه ،
ثم طادت الآن آثاره وخصائصه ، فالكى يلقب صاحب جلالة ، ولا يسأل عما يفعل ،
ويطيل شرائع الله ليقم شرائع الهوى ، ويمتد هو وبطاعته ، لتتكش أمامها أمته ...
ولما سمع النبي كلام الرجلين أمرهما أن يمودا من حيث أتيا إلى والى اليمن ، وقال :
أخبروه أن ربى قد قتل ربه البلية . وكان رسول الله قد علم قبلهما بمصرح كسرى ...
وقد وقع الإسلام فى قلب والى اليمن ورجاله بمد هذه القصة . وانتشر انتشاراً
عظيماً فى الجنوب بين الطائفتين جميعاً من نصارى ومجوس .

وأرسل النبي إلى أمير البحرين كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام وينذ الجوسية
حمله إليه الملاء بن الحضرمي . وكان المنذر بن ساوى أمير البحرين رشيداً موقفاً
فرحب بالدعوة وانتشر صدوره لقبولها .
وقد أبلغ الملاء فى ترغيبه وإبراز محاسن الإسلام له .

فما قاله : « . . . يا منذر ، إنك عظيم العقل فى الدنيا فلا تصفرون من الآخرة .
إن هذه الجوسية شر دين ليس فيها تكريم العرب ولا علم أهل الكتاب ، ينكحون
ما يستحي من سكاحه ويأكلون ما يتنزه عن أكله . ويمبدون فى الدنيا نارا
تأكلهم يوم القيامة . . . ولست بمديم عقل ولا رأى . فأنظر : هل يبنى لمن
لا يكتنب فى الدنيا ألا تصدقه ، ولن لا ينجون ألا تأمنه ، ولن لا يخلف ألا تق به .
هذا هو النبي الأسمى والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر به نعى
عنه ، أو ما نعى عنه أمر به ! أوليته زاد فى عفوه أو نقص من عقابه . إذ كل ذلك
منه على أمدية أهل العقل وفكر أهل النظر . . . »

وقد أصل المنفر . وعرض على قومه الإسلام . فنههم من أعجبه فدخل فيه ومنهم من كرهه وبقي على مجوسيته ، أو على يهوديته . فلما استشار رسول الله ما يفعل بإلزامهم كتب له « . . من أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » .



إن توسيع ميدان الدعوة بحيث تشمل للعروف المصور من أرض الله يومئذ أمر يثير التأمل . لقد كان العرب يمتسكونون النبوة على واحد منهم ، ويوسعون جحوداً وكنوداً ؟ « وإذا رأوك إن يتخذونك إلهاً هُزُوا : أهذا الذي بعث الله رسولا » فما يكون شأن الروم والسجم ، وهم يرون العرب دونهم منزلة وحضارة وثقافة وسياسة ألا يكونون أسرع إلى السخرية وأدنى إلى الكفران ؟

يبدأن أصحاب الرسائل لا ينظرون إلى الأمور على ضوء الحاضر الضيق للكنكور فإن متهمهم العميقة في سيادة فكرتهم وامتداد نطاقها ، تصغر المقبات للفروضة في الطريق . وتجعلها — ولو كانت الشم الرواسي — هباء منثوراً .

ولو انحصر « كارل ماركس » في حدود مذهبه وهو فكرة مطاردة تصل ينوبها إلى السجون لأسبابه الشلل وقضى عليه وعلى أفكاره . لكنه مضى في سبيله وهو على أمل بالغ أن تقوم بتوجيهها دول كبرى . فإن كان هذا شأن الماديين من أصحاب الأفكار . فلا جرم أن المرسلين المؤيدين بالوحي يكتابون الملوك والأمراء وهم موقنون بأن ما لديهم من حق سيملا ما عداه ؛ وذلك ما كان يجوس في نفس الرسول الكريم وهو يبالغ هداية الأعراب الشاردين في الصحراء طوراً بالين وطوراً بالشدّة . ثم هو في الوقت نفسه ينصح لقادة الشعوب الأخرى أن يفكروا في هذا الدين الجديد ، وأن يمتنعوه وافرير .

إن الخرافة التي أفسدت عقل بدوى تترّب إلهابه وثيابه رباحٌ نجد هي بينها الخرافة التي تقصد فكر كسرى طاهر القرص العظيم .

ما الفارق بين الحى " تعيب ملكاً أو تعيب صعلوكاً ؟ إن الطبيب يصف لها في الحالين دواء واحداً ، ويتخذ ضد عدواها حصانات واحدة .

وقد أراد النبي أن يشفي الكبار والصغار من أمراض نفوسهم ، وأن يناولهم جميعاً الدواء الذى يصحون به « ونزل من القرآن ما هو شفاؤه ورحمة للمؤمنين .

ولا يزيد الظالمين إلا خساراً» فلا غرو إذا جمع في مصحفه بين الأحمر والأسود ،
والسادة والبيد . أجل . قد يكون أولئك الملوك محبين وراء أسوار مشيدة ،
وحولهم من الأنبايع والجند والأبهة والرياش ما يهر المين ، لكن أى عين تقهر لهذه
الظاهر ؟ إن الطبيب المالح لا يمتنيه من مريضه إلا جسده الشاحب الطليل . والأفنياء
لا يرون في القوم إلا أنهم جهال يجب أن يتعلموا . سفهاء يجب أن يسترشدوا .
وأن ماحولهم من الدنيا يحيل تبعثهم أخطر ، وجزاءهم على الهدى والضلال أضخم .
على أن هذه القوى السخرة في حماية الباطل لن يطول أمدعا ، إلا كما يطول
الليل على المؤرق ، ثم تطلع الشمس ، ويحمر الله بالآية البصرة سدول الظلام .
وقد قال النبي لرسول والى اليمن حين جاءوه « أخبراه أن ديني وسلطاني
سيبلغ ما بلغ كسرى ، ويتنهي إلى الخف والحافر ، وقولا له : إن أسلمت أعطيتك
ما تحت يديك وملكتك على قومك » .

إنه وهو في المدينة بولى ويمزل ، عن حق لا عن غرور ، أليس موصولاً بما لك
الملك ، مبعوثاً من رب السموات والأرض ؟

ومن الطبي أن يعرف مشركو العرب أنباء هذه البعث النبوية ، وأن يرقبوا
تأنيها عن كتب ، وقد استبشروا أول الأمر حين بلغتهم سنيح كسرى بن هرمز ،
وقال بعضهم لبعض : كُفِّتِمْ الرجل ، قد نَعَمَتْ له كسرى ملك الملوك ! وشاعت
هذه القالة في مكة والطائف . .

ثم مرت الأيام ، وطاح كسرى ، وبقى الإسلام يفتزو الأفتنة والبلاد .. وجاءت
الأنباء أن بعث محمد في بعض الأرجاء أمكنها نشر الإسلام وتثبيت هدايته ، حتى
دخلت فيه اليمن وعمان والبحرين ، فارتد استبشار المشركين خذلاناً . وفكرت
قبائل شتى في الاقبياد لحكمه ، خصوصاً ورقة الكفر تنكش يوماً بعد يوم أمام
موجات الوحي الجارف ، وبقيت أخرى مصرة على جاهليتها « بل متناهولاء وآباءهم
حتى طال عليهم الثمر . أفلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .
أَفَهِمُ النَّالِبُونَ ؟ قل : إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصمُّ الدعاء إذا ما يُنذَرُونَ » .

عمرة القضاء

أوشكت السنة السابعة أن تنقضى ، وحق للمسلمين أن يمددوا إلى مكة ليؤدوا مناسك العمرة التي حرموا من أدائها قبلاً . لقد تأخروا طمأً وهم كارهون ، لكن مكاسبهم للدعوة في هذه الفترة أربت على الأمان ، وهام أولاء يسوقون المهدي إلى الحرم مرة أخرى ، ويجريون وراءهم أذبال نصر عريض .

وأحب أهل مكة أن يمزوا أنفسهم وهم يحملون عنها — وفق الاتفاق للبرم — ليدخلها النبي وسحابه معتمرين . فأشاعوا أن المسلمين يمانون عُسرة وجهداً ! . قال ابن عباس : سَفَّوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه . فلما دخل رسول الله المسجد اضطجع بردائه ، وأخرج عضده اليمنى . ثم قال : رحم الله امرأ أراه اليوم من نفسه قوة . ثم استلم الركن وأخذ يهرول ، ويهرول أصحابه معه حتى وراه البيت منهم .

والتطواف بهذه السرعة إظهار لبأس المسلمين ، وتكذيب لإشاعات الضعف ، وقد مضت السنة به بعد ذلك .

وروى أن رسول الله لما دخل مكة كان عبد الله بن رواحة آخذاً بمخطام ناقته وهو ينفذ :

خَلُّوا بَنِي الْكَفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ خَلُّوا فَكُلُّ الْخَيْرِ فِي رَسُولِهِ !

يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقَبِيلِهِ أَعْرِفْ حَقَّ اللَّهِ فِي قَبُولِهِ !

وأقام المسلمون ثلاثة أيام ، جاء في نهايتها نفر من قريش يذكرونه باقتضاء الأجل المضروب ويقولون له : اخرج عنا . فقال لهم الرسول : لو تركتموني فأعرت بين أظهركم ، وسمعتنا لكم طامعاً فحضرتكم ؟ قالوا : لا حاجة لنا في طامعك ، فاخرج عنا .

وكان اليباس عم رسول الله قد زوجه من ميمونة بنت الحارث ، خالة عبد الله ابن عباس ، فمقد عليها في مكة ، وبقي بها في سَرَف . وفي هذه العمرة نزل قوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين علفين رهوسكم ومقصرين لا تخافون فلم مالم تعلموا . فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » .

غزوة مؤتة

عزَّ على المسلمين مصرع رسولهم إلى أمير بصرى ، والطريقة الشائنة التي هومل بها . فقد أوتق شرجيل بن عمرو رباطه ثم قدمه ف ضرب حقه ، ولم يقتل أحد غيره من موثق الرسول الكثيرة إلى الأفاق ، والرُّسل لا يقتلون . فلك كان وقعُ هذه الإهانة شديداً على المسلمين ، فمزموا على الاقتصاص لرجلهم ، وعلى زلَّة الوالى الأثيم الذى صنع ما صنع لحساب الرومان .

وتجيز المسلمون فى جيش يتبر بالنسبة لهم كبيراً ، إذ بلغت عدته ثلاثة آلاف ، وخرج أهل المدينة يودعون الجيش الراحف وهم يقولون : صحبكم الله بالسلامة ! ودفع عنكم ! وردكم إلينا صالحين . فقال عبد الله بن رواحة رد على هذا الوداع :
لكننى أسأل الرحمن منفرة وضربة ذات فرع تغذف الزبدا !
أو طمئة يبدى حران مجهزةً بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا !
حتى يقال - إذا مروا على جدنى - : يا أرشد الله من قازي . وقد رشدا !
ورتب النبيُّ قادة الجيش ، فجعل الأمير زيد بن حارثة ، وقال : إن أصيب جعفر بن أبى طالب . فإن أصيب جعفر فبىد الله بن رواحة .
وانطلق الجيش إلى مشارف الشام .

إلا أن أخباره سبقته إلى الروم . ولا بد أن تهاويل كثيرة أحاطت بسمعة المسلمين وطاقتهم الحربية مما جعل القوم يستمدون ثقتال بجيش كثيف . فلما وصل المسلمون إلى « معان » عرفوا أن فى انتظارهم مائة ألف من الروم ، ومائة ألف أخرى من نصارى العرب .

والهجوم على جيش تلك عدته مجازفة مخوفة فأقام المسلمون ليلتين بمان جدبرون أمرهم . وقال نفر منهم : نكتب إلى رسول الله نخبه بمدد عدونا ، فإما أن يُمددنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له . ولم يرق ذلك لبد الله بن رواحة فشجع الناس قائلاً : يا قوم ، والله إن التى تكمهون التى خرجتم تطلبون ، الشهادة ! وما نقاتل الناس بمدد ولا قوة ولا كثرة ، ما تقانهم إلا بهنا الدين الذى أكرمنا الله به . فانطلقوا ، فإنا هى إحدى الحسنين : إما ظهور وإما شهادة .

وكان لهذه الكلمة اللطيفة أثرها ، فاختفت من صفوف المسلمين مشاعر التردد ، وقرروا القتال . مهما كانت النتائج .

وابن ربيعة شاعر حاد الملاحظة ، وقد أحس منذ خروجه أن الاستشهاد مقبل عليه فهو يتهيأ له بقلبه ولسانه . وقد تكون الحكمة العسكرية في تصرف غير ما أوحى به ، غير أن المسلمين ما إن سمعوا حديث الفداء والموت في سبيل الله حتى جاشت بأنفسهم حبة الآخرة . ثم ذكروا أنهم نُصروا في معارك سابقة باستعداد أقل من عدوهم . فأقبلوا مطمئنين . عن أبي هريرة قال : شهدت مؤتة . فلما دنا المشركون وأينا ما لا قبل لأحد به من المدّة والصلاح والكرام والديار والحرر والذهب ، فبرق بصرى !! فقال لي ثابت بن أرقم : يا أبا هريرة كأنك ترى جوعاً كثيرة ؟ قلت : نعم — وأبو هريرة بمن أسلموا بعد الحديبية — فقال له ثابت : إنك لم تشهد بديراً معنا . إنا لم ننصر بالكثرة .



والثقي الجمان . وبعث أن تنتظر من ثلاثة آلاف بطل أن يصاولوا في ميدان مكشوف فيألق تريو عليهم سبعمين ضعفاً .

قاتل زيد بن حارثة براءة رسول الله حتى شاط في رماح القوم .

وتلقف الراية جعفر بن أبي طالب فأقبل على الروم يمالهم بسيف . روى أبو داود حديث شاهد عيان يقول : لساكني أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء ، ثم عقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل وهو ينشد :

يا حبنا الجنة واقترابها ! طيبة ، وإردا شرابها !

والروم روم قد دنا عنايبها ! كافرة بريدة أنسابها !

على أن لاقيتها ضرابها !

قيل إن رجلاً من الروم ضربه ضربة قطعته نصفين ...

وقيل : أخذ اللواء يمينه قطعته ، فأخذه بشماله قطعته ، فاحتضنه بمضديه

حتى قتل . وقد رزق جعفر هذه الشهادة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

١٤١٤ هـ - ١٩٩٦ م : ولما دنا من ربيعة الراية . ثم تقدم بها وهو على فرسه ، فلما أحس

دقة الموقف وشدة الضغط هراء بعد التردد ، ثم أقنع نفسه برود الصبر الذى ذاته صاحبه . فأقبل على الساحة المضطربة يقول : -

يا نفس إن لا تقتلى تموتى ! هذا رحام الموت قد صليت !
وما تمتنبت فقد أعطيت ! إن تقلى فلهما هديت !
ثم أقدم . وجاءه ابن عم له قطعة لحم فتناولها إياه وهو يقول : شد بها صلبك ،
فإبك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت ، فما كاد يقطع منها مضنة حتى سمع الحطة
فى ناحية من الجهة استعرت بها الحرب . فقال لنفسه : وأنت فى الدنيا ؟ وروى
بالطعام من يده . ثم اتضى سيفه وهلم حتى قتل . .

وأخذ الراية التى تناولتها أيدي الأمراء الثلاثة ثابت بن أقرم . وصاح : يا معشر
المسلمين اسطبلحوا على رجل منكم ! قالوا : أنت ؟ قال : ما أبا بفعل ؟ فاستطلع
الناس على خالد بن الوليد . وثابت أبى القيادة ، لانكوسا عن الموت بل شمورا
بوجود الأكفأ منه فى الجماعة ، وحملانه الراية خشية أن تسقط من آيات الجراءة
فى هذا الموقف المصيب . ولبت كل امرئ يعرف أقدار الناس ينزلهم منازلهم التى
يستحقونها . فلا يكلف أمته أن تحمل عبزه وآثره . .

وأخذ الراية خالد فشرع يقاتل ويمتثل لفضاوص بالجيش من هذا المأزق التضائق .
وقتل الانسحاب شاق مرهق خصوصا وخالد لا يريد إشعار الروم بهذه الخطلة
روى البخارى عن خالد . اندقت فى يدي يوم مؤته تسعة أسياف ، وما ثبت فى يدي
إلا صفيحة يمانية ، ودخل الليل على المتحاربين ، فكان هدنة مؤقتة ، فلما طلع الصبح
كان خالد قد أعاد تنظيم قواته القليلة ، فجعل المقدمة ساقة واليمينه ميسرة .

وجعل هدفه مناوشة الرومان بحيث يلحق بهم أفذح الخسائر دون أن يمرض
كتلة الجيش لالتحام عام ، وقد أعلحت هذه الخطلة فى إقاذ الآلاف القليلة التى معه ،
وإقاذ سممة المسلمين فى أول معركة لهم مع الدول السكرى ، والمجيب أن الرومان
أعيام هذا القتال وأسيبوا به بخسائر كبيرة . بل إن بعض فرقهم اسكشف ، وولى
مهروما . . . واكتفى خالد بهذه النتيجة ، وآر الانصراف عن معه .

عن أنس بن مالك ، أن رسول الله نى ريذا وجعفرأ وابن رواحة للناس قبل
أن يأتيهم حبر . فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم

أخذها ابن رواحة فأصيب — وحينئذ تفرق — قال ، ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم .

وروى ابن اسحاق عن رسول الله : لقد رفعوا إلى الجنة — فيما يرى النائم — على سر من ذهب ، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبه قلت : من هذا ؟ ف قيل لي : مضياً ، وردد عبد الله بمض التردد ثم مضى .



والدلالة التي تعلم على الرب في هذه المركة أن شجاعة المسلمين وبسالهم بلغت حدًا لم تعرفه أمة معاصرة . وقد أكسبهم هذا الروح العالي إقداماً حقر أمامهم كبرياء الأمم التي عاشت مع التاريخ دهرًا ، تصول وتجول لا يقفها شيء .

إن الاستهتار بالخطر والطيران إلى الموت ليس فروسية احتكرها الرجال المقاتلون وحدهم ، بل هي قوة فائقة قاهرة تملكت الرجال إلى الأطفال فأصبحت الأمة كلها أمة كفاح فال عزيز وحسبك أن جيئى مؤتة لما حاد إلى المدينة قابله الصبية بصيحة الاستنكار يقولون : يا فرار ، فررت في سبيل الله ؟ ؟ إن أولئك الصغار الأغرار يرون انسحاب خالد ومن معه فراراً يقابل بمشو التراب . أى جيل قوى نابه هذا الجيل الذى سنمه الإيمان بالحق ؟ أى نجاح بلغته رسالة الإسلام في سياغة أولئك الأطفال المظالم ؟ من أبائهم ؟ من أمهاتهم ؟ كيف كان الآباء يرون ؟ وكيف كانت الأمهات يدللن ؟ إن مسلمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرف هذه القروس . . .



تحدث النبي ﷺ من قادة الجيش الذين قتلوا ، فقال لأصحابه : ما يسرهم أنهم عندنا ! أجل . إن الجوار الذى ساروا إليه أحب لنفوسهم وأقرب لميولهم من الدنيا وما فيها ومن فيها . أما أسرهم ففى كفالة الله . وهو نعم المولى ونعم النصير . .

عن عبد الله بن جعفر — ابن الشهيد — جادنا النبي ﷺ ، بعد ثلاث من موت جعفر ، فقال : لا تبكوا على أخى بعد اليوم . وادعوا لى بنى أخى . .

قال عبد الله : فجيء بنا كأننا أفراخ . فقال : ادعوا إلى الخلاق . فجيء بالخلاق فخلق دوسنا ثم ذل الرسل — مداهبا — أما محمد فشبهه مننا أى طالب . وأما عبد الله

خشيته خَلَقَ وَخُلِقَ . ثم أخذ يمدى فأشأها وقال : اللهم اخلف جعفراً في أهله .
وبارك لبيد الله في صفة يمينه — قالها ثلاث مرات —
قال عبد الله : وجاءت أمنا فذكرت له بتمنا وجعلت تحمزه . فقال لها النبي :
الميلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة ؟ ؟



ولم ير المسلمون في نتائج مؤتة ما يسكن نائرتهم ، فإن القبائل المنتصرة بالشمال
استظهرت بالرومان على مقاتلتهم واستطاعت بذلك النجاة من عدوانها على الحارث
ابن عمير ، ولا بد من قذف الرعب في قلوبها ، وإشمارها بأن يموت الإسلام لا تلقى
هنا الهوان وهكذا اتجه نشاط المسلمين السكري إلى ميدان جديد بعيد .

ذات السلاسل

كانت مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثامنة ، ولم يلبث المسلمون طويلاً بعدها
حتى عادوا إلى مشارف الشام يلاحقون خصومهم قبل أن يستريحوا . فخرج عمرو
ابن العاص ليؤدب القبائل الضاربة هناك . إلا أنه خشي من كثرة عدوه فأرسل إلى
النبي يطلب مدداً ، وانحاز إلى ماء يسمى السلاسل حتى يبيته العون .
وبعث رسول الله جيشاً من المهاجرين الأولين — فيهم أبو بكر وعمر — يقوده
أبو عبيدة بن الجراح . ووصاه رسول الله حين وجهه لنجدة عمرو فقال : لا تختلفا
فلما وصل أبو عبيدة قال له عمرو : إنما جئت مدداً لي . فقال له أبو عبيدة : لا . .
ولكنني على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه ! فقال عمرو أنت مدد لي ! — وكان
أبو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً ، هينا عليه أمر الدنيا — فقال : يا عمرو إن رسول الله
قال لي : لا تختلفا . وإنك إن عصيتني أظمتك ! قال عمرو : فإني أوبر عليك وإنما أنت
مدد لي . قال : فدونك . ! فصلى عمرو بالناس وتولى فيادهم جيماً . . .

وأخذ عمرو يطارد القبائل النوالية للروم . فتوغل في بلاد بلي وعذرة وبتقين وطبي .
وكلام انتهى إلى موضع قيل له : كان هنا جمع فدا سمعوا بك تفرقوا ! وظفر مرة بواحد
من هذه الجوع فتتلوا ، وحمل عليهم المسلمون فهزموا ، وأُجْزِئهم هرباً في البلاد .

ومع أن عمرا دوح أولئك الأعراب وشئت شملهم إلا أنه لم يلهم في معركة حاسمة وعلى أية حال فإن سمة المسلمين انزعج عنها غبار كثير بهذه الغزوة .



وحدث أن عمرو بن العاص احتلم في ليلة باردة . وخشى على نفسه إن اغتسل أن يمتلئ قتيماً وصلى بالناس . وكان بعض الصحابة شك في هذا الصنيع من عمرو ، فذهب إلى النبي يقول له : إن عمراً صلى بنا وهو جنب فقال الرسول : يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ فأخبره بالقي منه من الاغتسال ، لقد خاف على نفسه قسوة البرد والله يقول : « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً » .

فضحك الرسول ولم يقل شيئاً . .

وقد عرفت في هذه المسألة صحيح فإن التيمم يجوز إذا كان استعمال الماء مظنة الضرر .

الفتح الأعظم

شغل المسلمون بعد عهد الحديبية بشهر الدعوة وعرض تماليم الإسلام على كل ذي عقل . وكان وفاؤهم لقريش أمراً مقررأ فيما أحبوا وفيما كرهوا . ورأى الناس من ذلك الآيات البينات ... لكن قريشاً ظلت على جودها القديم في إدارة سياستها غير واعية للأحداث الخطيرة التي غيرت مجرى الأحوال في الجزيرة العربية ، وتوشك أن تغيره في العالم كله .

وقد جرها فقدان هذا الوعى إلى حماقة كبيرة أصبح بعدها عهد الحديبية لنوا . وذلك أنها مع حلفائها من بنو بكر هاجموا خزاعة — وهى مع المسلمين في حلف واحد — وماتلوم قاسابوا منهم رجالاً . وانمازت خزاعة إلى الحرم ، إذ لم تكن متأهبة للحرب ، فقبضهم بنو بكر يقتلونهم ، وقرىس تدمدم بالسلاح وتعينهم على البنى .

وأحسن نصر من بنو بكر أنهم دخلوا الحرم — حيث لا يجوز قتال — فقالوا
رؤسهم نوفل بن معاوية : يا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك . فقال نوفل : لا إله
اليوم إلا الله . . . أحسوا أنكم . . . ١١٠

وفزعته خزاعة لما حل بها ، فبعثت إلى رسول الله عمرو بن سالم يقص عليه نبأها فلما قدم المدينة وقف على النبي وهو جالس في المسجد بين ظهري الناس يقول :

يا رب إني ناشد محمدا حلفَ أئينا وأبيه الأئمة
قد كنتم ولما وكنا والما ثمت أسلمنا فلم نترع يننا
فانصر هذاك الله نصرأ أعتدا وادع عباد الله يأتوا مدنا
فيهم رسول الله قد تجردا أبيض مثل البدر تسمو صمنا
إن سيم خسفا وجهه تربدا في فيلق كالبحر يجرى مربنا
إن قريشا أخلقوك الموعدا وهضموا ميثاقتك الوكدا
وجلوا لي في كداه رصنا وزعموا أن لست أدعو أحدا
وم أذل وأقل مدنا هم يتنونا بالوتير هجنا
وقتلونا ركمأ وسجنا

قال له رسول الله : نصرت يا عمرو بن سالم ...



وأحست قريش — بعد فوات الأوان — خطأها . فخرج أبو سفيان إلى المدينة يصلح ما أفسده قومه ويحاول أن يعيد للعقد المهدر حرمة ! وبلغ المدينة فذهب إلى ابنته أم حبيبة ، وأراد أن يجلس على الفراش سطوته دونه . قال : يا بنية ما أدري ، أرعبت بي عن هذا الفراش أم رعبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ، وأنت مشرك نجس ! قال : والله لقد أسأبتك بسدى شر ! ثم خرج حتى أتى رسول الله فكلمه ، فلم يرد عليه شيئا .

واستشفع أبو سفيان بأبي بكر ليحدث النبي في هذا الشأن فرفض . فتركه إلى عمر ، فقال عمر : أما أشفع لكم عند رسول الله ؟ والله لو لم أجد إلا القدر الجاهدتكم به . فتركهما إلى علي فرد عليه : والله يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، ثم نسحه أن يعود من حيث جاء... فقفل أبو سفيان إلى قومه يجبرهم بما لقي من صدود .

وأمر النبي^١ الناس أن يتجهزوا ، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة ، وأوصاهم بالجد والبدار . وقال : اللهم خذ السيون والأخبار عن قريش حتى نبقيها في بلادها ! واستمع المسلمون لأمر نبيهم ، فاضوا يسيثون قوائم للقاء المنتظر ، وهم مدركون أن الساعة الفاصلة مع أهل مكة قد دنت .



ووقع في هذه الفترة الدقيقة حادث مستغرب ، فإن رجلاً من أهل السابقة في جهاد المشركين تطوع بإرسال كتاب إلى قريش يخبرهم فيه أن محمداً سائر إليهم بجيشه . . . ! !

وقد رأيت أن المسلمين حراس على إخفاء خطة النزو ، أليس مما يقرب نجاحهم ويخفف خسائرهم ، ولعله يدفع قريشا إلى التسليم دون أن تسفك الدماء عبثاً ؟ وما معنى الكتابة إليهم إلا التحريض على حرب الله ورسوله ، والاستكثار من أسباب المقاومة ؟

عن علي بن أبي طالب بعثي رسول الله أنا والوزير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة « خاخ » فإن بها ظمينة معها كتاب ، فخذوه منها ، فانطلقنا تهادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظمينة . قلنا : أخرجي الكتاب . فقالت : ما معي ! قلنا : لتخرجي الكتاب أو لنلقين الثياب ! فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله .

فإذا فيه « من حاطب بن أبي بلتمة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم بيمض أمر رسول الله . فقال : يا حاطب ما هذا ؟ فقال : يا رسول الله لا تسجل علي . إني كنت امرأاً ملصقاً في قريش — كنت حليفاً لها ولم أكن من صميمها — وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم . فأجبت إذ فاني ذلك ، من النسب فيهم . أن أتخذ عندهم بدا يحمون بها قرابتي ، ولم أفله ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام . . . »

قال رسول الله : أما إنه قد سدفكم ! قال عمر : يا رسول الله دفعني أضرب عني هذا ! فقال : إنه قد شهد بدراً . وما يدريك ؟ . . . لعل الله قد اطام على من شهد بدراً ! (انملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . . .) ؟

ونزل قول الله تبارك وتعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَ مِنَ الْحَقِّ » . يُخْرِجُونَ الرِّسَالَ وَيَأْتِيكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُفِّرْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي . تَسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمُدَّةِ وَأَمَّا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ شَيْئًا سَاءَ السَّبِيلِ » .

إن حاطباً خرج من جادة الصواب بهذا العمل . وما كان له أن يواد الشركين وهم الذين تبجحوا بالكفران وتظاهروا على العدوان ، ومنعوا بالمسلمين ما حاطب أعلم به من غيره .

لكن الإنسان الكبير تمرض له فترات يصرفها . والله أبرُّ بعباده من أن يؤاخذهم بسورات الضعف التي تمر ونورهم فيخبو ، وسيمهم فيكبو . وقد استكشف النبي خبيثة حاطب فرف أنه لم يكذب به في اعتذاره . إنهم مقبلون على معركة كبيرة قد يهزمون فيها فتقوم المصيبات القديمة بحماية الأتارب الشاردين ؛ ويوق حاطب لاجئاً له فليتخذ تلك اليد عند قريش حيلة للمستقبل .

ذاك ما فكر فيه حاطب . وهو خطأ . فإن الشركين لم يذكروا في عداوة الإسلام رحماً ولا أهلاً . وما ينبغي — ولو دارت علينا القوار — أن يبقى لهم ودّاً وقد خاسمناهم في ذات الله ، وأخذ علينا الهدى أن نبذل في حرمهم أنفسنا وأموالنا . ولو جاز اتخاذ يد عندهم فكيف يتوسل لذلك بعمل يُعد خيانة كبيرة ، فادحة الإضرار بالإسلام وأهله ؟

على أن حاطباً شفع له ماضيه الكريم ، فجبرت عثرته ، وأمر النبي المسلمين أن يذكر الرجل بأفضل ما فيه . وبهذا التقدير السامح علنا الإسلام ألا ننسى الحسنات والفضائل لمن يخطئون حيث بعد أن أصابوا طويلاً .

سرى القلق في رموع مكة عقب أوبة أبي سفيان ، ورأى المباس بن عبد المطلب أن يسلم هو وعياله وأن يهجروا مكة إلى المدينة . فقابلوا الرسول في الطريق مقبلاً يبيشه على مكة وخرج كذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله

أبي أمية ، فلقيا النبي ﷺ بالأبواء — وهما بين مكة وبين مكة — وكانا من أشد الناس إيفاء له بمكة . فأعرض عنهما لما ذكر مسامتهما .

لكن علي بن أبي طالب أشار على ابن عمه أبي سفيان بوسيلة يترضى بها رسول الله ، قال له : اتجه من قبل وجهه وقل له ما قال إخوة يوسف : تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا غافلين ، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه جواباً . ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله : لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ؛ وأنشد أبو سفيان آياتاً جاء فيها :

لمرك إن حين أحل راية لتنب خيل اللات خيل محمد
لكالدج الحيران أظلم ليله فهنا أواني ، حين أهدى فأهتدى
هناى هاد ، غير نفسى ، ودلى على الله من طرده كل مطرد
فضرب الرسول على صدره وهو يقول له : أنت طردتني كل مطرد .

وسار الجيش يطوى الوهاد والنجاد مسرعاً إلى مكة . حتى بلغ مر الظهران قريباً منها في المشاء ، فنزل الجيش ونصبت الخيام وأوقدت النيران في معسكر يضم عشرة آلاف حتى أشاء منها الوادى . وأهل مكة في حماية من أرحم لا يدرون عن القضاء النازل بهم شيئاً .. وعز على العباس أن يحتاج مكة في أعقاب قتال تتفانى فيه ولا يفتنها خيلاً .

فخرج يبحث من وسيلة تمنع قريشاً بمسألة النبي ﷺ وتدخلها في أمانه . وصافد ذلك أن ثلاثة من كبراء مكة خرجوا يتصرفون الأخبار ، ويسمعون ما يقال ، فلما اقتربوا من الوادى راعهم ما به . قال أبو سفيان زعيم مكة : ما رأيت كالملة نيراناً قط ولا عسكرياً !! ، قال : يدبل بن ورقاء . هذه — والله — خزاعة محشها الحرب ! فرد أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ..

وكان المسلمون على خطهم الرسومة ييثون العيون حولهم حتى يأخذوا قريشاً على غرة فلا ترى من التسليم بدءاً . فمشرت خيالهم على رجال قريش أولئك ومعهم حكيم ابن حزام فأخذتهم ، وطدت بهم مسرعة إلى رسول الله ، ولحق العباس بالأسرى

وهو يملن أنهم في جواره . فلما دخلوا على النبي ﷺ حادتهم عامة القبل ، فانشروا صدورهم بالإسلام . وإن كان أبو سفيان قد تأخر إسلامه حتى طلع الصبح ...
ثم سأله الأمان قريش . فقال رسول الله : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن . ومن أغلق بابه فهو آمن .

وإنما أحلى رسول الله ﷺ أبا سفيان هذه الميزة إرضاء لماطقة الفخر في نفسه ، وقد أرضاه بما لا يضر أحداً ولا يكلف جهداً ، ولا عليه أن يصحب إلى نفس بمثل هذا الثمن اليسور . وأراد رسول الله ﷺ أن يستوثق من سير الأمور بعيداً عن الحرب والضرب ، فضم إلى ذلك السلوك مع أبي سفيان أن أوصى العباس باحتجازه في مضيق الوادي حتى يسترض القوي الزاحفة كلها فلا تبقى في نفسه أثارة لمقاومة . وهو سيد مكة المتبوع . قال العباس : فخرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله ﷺ ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : سليم . فيقول : مالي وسليم ؟ ثم تمر به القبيلة . فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة . فيقول : مالي ولمزينة حتى تغتذ القبائل ، ما تمر به قبيلة إلا سألتني عنها . فإذا أخبرته قال : مالي ولبنى فلان ؟

حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد فقال : سبحان الله ! يا عباس من هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار قال : ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة ! والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك النداء عظيماً .

قال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة ! قال : فنعمة إذن ...

ودخل أبو سفيان مكة مبهوراً مذهوراً ، وهو يحس أن من ورائه إحصاراً إذا انطلق اجتاحت ما أمامه ، فاجف دونه شيء ، ورأى أهل مكة الجيش الفاتح يقبل من بريد رويداً رويداً . فاجتمعوا على ساحتهم ينتظرون الأوامر بالقتال ، فإذا بصوت أبي سفيان ينطلق عالياً واضحاً : يا معشر قريش ، هذا محمد جاءكم فيأ لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ! وشهدت أمراته هند بنت عتبة وهي تسمع من

زوجهما هذا الكلام ، فوثبت إليه وأخذت بشاريه تلويه وصاحت : اقتلوا الحيت الفهم
الأحمس — أى هذا الرُّق المتفنج — قُبِضَتْ من طليعة قوم ! !

ولم يكثر أبو سفيان لسباب امرأته فعاود تحذيره : ولكم لا تترسكم هذه من
أنتسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ! فن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . .
قالوا : فانتك الله ! وما تنفي عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .
ومن دخل المسجد فهو آمن . ففرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

وأصبحت أم القرى وقد قيد الرب حركاتها ، واسترخت تجاه القدر للنساق
إليها فاخنتي الرجال وراء الأبواب الموصدة ، أو اجتمعوا في المسجد الحرام يرقبون
مصيرهم وهم واجون .

على حين كان الجيش الزاحف يتقدم . ورسول الله على ناقته . تتوج هامته حمالة
دسماء . ورأسه خفيض من شدة التخشع لله . لقد انحنى على رحله وبدأ عليه التواضع
الجم حتى كاد عثنونه يحسُّ واسطة الرجل . إن الموكب الفخم الهيب الذى ينساب به
حشيئاً إلى جوف الحرم ، والفيلق البارح الذى يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة
شئ آمن ، إن هذا الفتح المبين ليذكره بياض طویل الفصول ، كيف خرج مطارداً
وكيف يمود اليوم منصوراً مؤيداً . . . وأى كرامة عظمى حقه الله بها في هذا
الصباح الميمون وكلما استشرهم هذه النماء ازداد الله تواضعاً ، وازداد على راحلته خشوعاً
وانحناء ، ويبدو أن هناك مواطن أخرى كانت نجيش في بعض الصدور . فإن سعد
ابن عباد زعيم الأوس ذكر ما فعل أهل مكة ، وما فرطوا في جنب الله ، ثم شعر
بزمام القوة في يده فصاح : اليوم يوم اللعنة : اليوم تستحل الحرمه . اليوم أذل
الله قريشاً . . .

وبلغت هذه الكلمة مسامع الرسول : فقال : بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة
اليوم يوم أهر الله فيه قريشاً ، وأمر أن ينزع اللواء من سعد ويدفع إلى ابنه غافة
أن تكون لسعد صولة في الناس .



وسار رسول الله فدخل مكة من أعلاها وأمر قادة جيشه ألا يقاتلوا إلا من
قاتلهم فدخلت سائر الفرق من أنحاء مكة الأخرى .

ودخل خالد بن الوليد من أسفل مكة . وكان هناك نفر من قريش غاظهم هذا التسليم فتجمعوا عند الخندمة يقودهم عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وسفوان ابن أمية ، إلا أن الحقيقة الكبيرة سدمت غرورهم فبددته ! فإن خالد أحصاهم حصناً حتى لاذا القوم بالفرار . ومن طريف ما وقع أن حماس بن خالد من قبيلة بني بكر كان قد أعد سلاحاً لمقاتلة المسلمين . وكانت امرأته إذا رأته يصلحه ويصمده تسأله : لماذا تمد ما أرى ؟ فيقول : لحمد وأصحابه . . وقالت امرأته له يوما : والله ما أرى أنه يقوم لحمد وحبه شيء ! فقال : إني والله لأرجو أن أخدِمَكَ بمضهم ... ثم قال :
 إن يقبوا اليوم فإلى علة هذا سلاح كامل وألة — حربة —
 وذو فرارين سريع السلة

فلما جاء يوم الفتح ماوش حماس هذا شيئا من قتال مع رجال عكرمة . ثم أحس بالشركين يطاريون من حوله أمام جيش خالد . فخرج منهزماً حتى بلغ بيته فقال لامرأته : أغلقى على الباب !

فالت المرأة لفارسها العلم : فأين ما كنت تقول ؟ . فقال يمتنر لها :

إنك لو شهدت يوم الخندمة إدار سفوان وفكر عكرمة
 وأبو يريد قائم كاللؤثة^(١) واستقبلتهم بالسيوف السلطة
 يقطعن كل ساعد وحجمة ضربا فلا يسمع إلا عمنه
 لهم نهيت حلفنا ومهممة لم تنطق بالقوم أدنى كلمة !

وسكنت مكة . واستسلم سادتها وأتباعها . وعلت كلمة الله في جنباتها . ثم نهض رسول الله إلى البيت الحقيق فطوف به . وأخذ يكسر الأصنام المصفوفة حوله . ويضربها بقوسه ظهراً لبطن فتقع على الأرض مهشمة متناثرة . كانت هذه الحجارة — قبل ساعة — آلهة مقدسة . وهي الآن جص وتراب وأقاض يهدمها بيء التوحيد وهو يقول : جاء الحق وزهق الباطل . إن الباطل كان زهوقاً ...

ثم أمر بالكعبة ففتحت ، فرأى الصور تملؤها ، وفيها صورتان لإبراهيم وإسماعيل يستقيمان بالأرلام ، فقال — ساخطاً على الشركين — قاتلهم الله . والله

(١) الاسطوانة ، وأبو يريد سهيل بن عمرو .

ما استقم بها قط . وما ذلك كله . حتى إذا طهر المسجد من الأوثان أقبل على قريش وهم صفوف صفوف يرقبون قضاءهم فيهم . فأمسك بمضادتي الباب — باب الكعبة — وهم تحته . فقال : لا إله إلا الله وحده صدق وعده . ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده .

ثم قال : يا مشر قريش . ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا . أخ كرم وابن أخ كرم ! قال : فإني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته : لا تريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء ...

وعندما كان رسول الله بالسجد يجهز على الوثنية في صاحبها الكبرى اقترب منه فضالة بن عيريريد أن يجد له فرصة ليقتله . فنظر إليه النبي فظفرة عرف بها طويته إلا أنه في غمرة النصر الذي أكرمه الله به لم يجد في نفسه على الرجل ، بل استدعاه ثم سأله : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ! فضحك النبي ثم قال استغفر الله .

وتلطف معه الرسول فوضع يده على صدره . فأنصرف الرجل وهو يقول : ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إلى منه .

وكان لفضالة في جاهليته هنات . قر — وهو راجع إلى أهله — بإمرأة لها معه شأن . فلما رآته قالت : هلم إلى الحديث . فأنبت يقول :

قلت : هلم إلى الحديث ، فقلت : لا يأتي عليك الله والإسلام
لو ما رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسر الأستار
لرأيت دين الله أضحي بيننا والشرك يفتي وجهه الإظلام



وصعد بلال فوق ظهر الكعبة فأذن للصلاة ، وأنصت أهل مكة للنداء الجديد على آذانهم كأنه في حلم ، إن هذه الكلمات تقصف في الجوف فتقذف بالرعب في أفئدة الشياطين فلا يملكون أمام دويها إلا أن يولوا هاربين أو يودوا مؤمنين .
الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر .

هذه الصيحات المؤكدة تذكر الناس بالناية الأولى من محياهم ، وبالرجع الحق بعد مماتهم ، فكذلك البشر غامات صغيرة أركضتهم على ظهر الأرض ركض

الروحش في البرارى ، واجتذبت انتباههم كله ، فاسترقوا في السمع وراء الحطام ! واستلكت عواطفهم كلها ، فالحزن يقتلهم للحرمان والفرح يقتلهم بالامتلاء ، ولم يصفُ الرء نفسه بالنيبوية في هذه التواضع ؟ إن صوت الحق يستخرجه من وراء هذه الحجب المتركة ليلقى في روعه ما كاد ينسا ، وهو تكبير سيد الوجود ورب العالمين ، سيده ومولاه . . .

أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله .

لقد سقط الشركاء جميعاً ، ظللاً خرع الناس للوم ، واعتزوا بالهباء ، وأملوا الخير فيمن لا يملك لنفسه نصيباً ، وانتظروا النجدة ممن لا يدفع عن نفسه عدوان ذبابة ، ولم الخبط في هذه التناهات ؟ إن كان المفلون يشركون مع الله بعض خلائقه ، أو يؤلفونها دونه ، فالمسلمون لا يعرفون إلا الله رباً ، ولا يرون غيره مؤثلاً . والتوحيد المحض هو النهج المتيد للناية التي استهدفوها .

ولكن من الأسوة ؟ من الإمام في هذه السبيل ؟ من الطليعة الهادية للؤنسة ، إن المؤذن يستلئلي ليدكر الجواب :

أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله .

سيرة هذا الرجل النبيل هي المثل الكامل لكل إنسان يبنى الحياة الصحيحة . إن محمداً إنسان ، يرسم بسنته الفاضلة السلوك الفريد لمن اعتنق الحق وعاش له . وهو يهيب بكل ذي عقل أن يقبل على الخير ، وأن يشط إلى مرضاة ولي أمره ، وولي نعمته فيحث الناس أولاً على أداء عبادة ميسورة دقيقة .

حي على الصلاة ، حي على الصلاة .

هذه الصلوات هي لحظات التأمل في ضجيج الدنيا ، هي لحظات الدّيب كالمحرف الإنسان عن الحادة ، هي لحظات الخضوع لله كما هانج بالره الزرق وطنت على فكره الأثرة فنظر إلى ماحوله ، وكأنه لله صغير . هي لحظات الاستعداد للإلهاء ، وما أقر الإنسان — برغم غروره — إلى من يهيمه أرشد ملا يستحق ويمده بالقوة فلا يعجز ويستكين . . . ثم يحث الناس أخيراً على تجنب احياة في شئونهم كلها . والحية إنما تكون في الجهد الضائع سدى ، في العمل الباطل لأنه خطأ . سواء كان الخطأ في الأداء ، أو في القصد . . . وهو يحذر من هذه الحية عندما يدعو :

حتى على الفلاح ، حتى على الفلاح .

ويوم يخرج العمل من الإنسان ، وهو صحيح في سوره ونيت ، قد أفلح . ولو كان من أعمال الدنيا البهتة ، ألم يعلم الله نبيه أن يجعل شئون حياته ، بعد نسكه وصلاته خالصة لله ؟ قل : إن سلاتي ونسكي ، وعيالي وعمالي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين .

ولا سبيل إلى ذلك إلا بإصغار ما عدا الله من غايات ، والتزام توحيده أبداً ، ومن ثم يعود إلى تحرير الناية والتهج مرة أخرى .

الله أكبر الله أكبر ...

لا إله إلا الله ...

إن كلمات الأذان تمثل المناوين البارزة لرسالة كبيرة في الإصلاح . ولذلك جاء في السنن الثابتة أن المسلم عندما يسمعها يقول :

اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابسته مقاما محموداً . الذي وعده ، إنك لا تخلف اليعاد .



وفي يوم الفتح قد ترجع بنا القريبات إلى رجال لم يشهدوا هذا النصر المبين ، ولم يسموا صوت بلال يرن فوق ظهر الكعبة بشمار التوحيد ، ولم يروا الأصنام مكبوبة على وجوهها مسوأة بالزغام ولم يروا عبّادها الأقدمين وقد ألقوا السلم واتجهوا إلى الإسلام ...

إنهم قُتلوا أو ماتوا إبان المركة الطويلة التي نشبت بين الإيمان والكفر . ولكن النصر الذي يجني الأحياء ثماره اليوم لهم فيه نصيب كبير وجزاؤهم عليه مكفول هند من لا يظلم مثقال ذرة .

إنه ليس من الضروري أن يشهد كل جندي النتائج الأخيرة للكفاح بين الحق والباطل . فقد يحترمه الأجل في المراحل الأولى منه . وقد يُصرع في هزيمة مارضة

— كما وقع لسيد الشهداء « حمزة » ومن معه —

والترآن الكريم بينه أصحاب الحق إلى أن الموئل في الحساب الكامل على النار

الآخرة . لا على النار الدنيا . فهناك الجزاء الأوفى للمؤمنين والكافرين جميعاً . « فاصبر إن وعد الله حقاً فلماذا نرى بينك بعضَ القدي نبيهم أوه توكفينك فإليها يرجعون » .



ودخل رسول الله مكة في رمضان ، وظل بها سائر الشهر يقصر ، ويفطر أكثر من خمسة عشر يوماً ، وكان قد خرج من المدينة صائماً ثم أظفر وهو ومحبوه في الطريق . فلما استقر الأمر شرع يبايع الناس على الإسلام ، فجاءه الكبار والصغار والرجال والنساء فتمت البيعة على السمع والطاعة لله ولرسوله فيها استطاعوا .

وسنة رسول الله في مبايعة النساء أن يأخذ عليهن اليثاق كلاماً لا مصافحة ، فمن مائثة « لا والله ما مست يد رسول الله يد امرأة قط » .



وهكذا دخل أهل مكة في الإسلام . وإن كان بعضهم بقي على ريبته وجاهليته يتعلق بالأستام ويستقسم بالأزلام . وأولئك تركوا للأيام تشق جهلهم ونحيي مآلات من قلوبهم وألبابهم . وما دامت الدولة التي تحمي الوثنية وتقاتل دونها قد ذهبت فسوف تتلاشى هذه الخرافة من تلقاء نفسها .

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة ، ولقد أفلحت خطة المسلمين في تسمية الأخبار على قريش حتى بوغثوا في عقر دارهم . فلم يجدوا مناصاً من الاستسلام ، فا استطاعوا الجلاء ولا استجلاب الأمداد ، وفتح العرب جميعاً أعينهم فوذا بهم أمام الأمر الواقع ، حتى خيل إليهم أن النصر منقود بالوية الإسلام فما ينقك عنها !

ممركة حنين

يبد أن هذا القلب كان له رد فعل معكس لدى القبائل الكبيرة القمية من مكة . وفي مقدمتها هوازن وثقيف وتمتد أحافق قصبها ، وهي أكبر المدن في الجزيرة بعد مكة ويثرب .

اجتمع رؤساء هذه القبائل على مالك بن عوف سيد هوازن ، وأجمعوا أمرهم على السير لقتال المسلمين ، قبل أن تتوطد دعوته الممتح ، وقبل أن يتحركوا لاستئصال

ما بقي من معالم الوثنية الديرة . وكان مالك بن عوف شجاعاً مقداماً ، إلا أنه سقيم
الرأى سيئ الشورة .

فأمر قومه وهم خارجون للفرز أن يأخذوا معهم نساءهم وأموالهم وذرايعهم ،
ليشمر كل رجل وهو يقاتل أن ثروته وحرمته ورايه فلا يفر عنها ...

وقد اعترضه دريد بن السمة ، وهو فارس مجرب عنك ، وقال له : هل يردُّ
النهزم شيء ؟ إن كانت الهائرة لك لم ينفعك إلا رجل برعه وسيفه ، وإن كانت عليك
فضحت في أهلك ومالك .

فسفه مالك رأيه ، وأصر على خطته .

وعلم المسلمون بمخرج أعدائهم فأرسلوا عيونهم يتعرفون عندهم وهيئتهم .

روى أبو داود أن رجلاً جاء إلى رسول الله فقال له : إني انطلقت بين أيديكم ، حتى
طلعت جبل كذا وكذا فإذا أنا بهوازن من بكرة أبيهم بظنهم ، وبسهمهم وشأنهم ؟
اجتمعوا إلى حنين .. فبسم رسول الله قال : تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله ... !

إن السهولة التي تم بها فتح مكة ، وإحساس جمهور المؤمنين أن الجاهلية تلفظ
أنفاسها الأخيرة فلن تبدى مقاومة تذكر ، ووطنٌ حدثاء العهد بالإسلام أن شيئاً
مألوف يقف في طريقه ، كل ذلك جعل الجيش يزحف لقاء المشركين وهو غير
مكتثر لما سوف يواجه ، ولم يكثر ؟ إنهم — وهم قلة — كانوا يكسبون المعارك
الطاحنة . فكيف وهم اليوم يخرجون في عدد لم يجمعوا مثله قبلاً : قيل : إن
أبا بكر الصديق لما نظر إلى الجيش قال : لن نطلب اليوم من قلة .. !

ذلك أن المسلمين بلغوا اثني عشر ألفاً بما انضم إليهم من أهل مكة .

هزيمة

وسار الجيش الواصل حتى وصل إلى وادي حنين وكان مالك بن عوف ورجاله
قد سبقوا إلى احتلال مضايقه ، وأنشؤا في الشباب والأجناب النيمة . ثم تهيئوا
لاستئصال المسلمين ...

وأثبتت الطلائع الفخيرة تتدافع نحو الوادي — وهي غافلة عما يكن فيه —
وكان وديع جوف متحدياً ينحط فيه الركبان كلها أوغلوا ، كأنهم يسرون إلى هاوية .

فلما تكاثرت في دروبه الفرق الزاحفة لم يرهم إلا وإبل من السهام يتساقط
فوقهم من المكامن العالية ، وكان غبش الفجر لا يزال يترك بقاياه في الجو النائم
فارتاعت القملة لهذه المفاجأة ، فعى في حماية من الليل ومماية من أمرها لا تعرف
إلا أن تستدير ثم تولى الأدبار . .

وانتشرت موجة الفزع فكسرت الصفوف للرصوصة وبمثرتها . واستغل رحل
مالك بن عوف هذا الارتباك فهجمت كتائبهم وحملت الخيل على ما أمامها ، فانكفأ
للسلمون مهزومين لا يلقى أحد على أحد . .

ونظر زمءاء مكة إلى الجيش المولى نظرة تشفع وفرح . وعاد إلى بعضهم كفره
بالله ورسوله فقال أبو سفيان : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ! ولا عجب فإن الأزمات
التي يستقسم بها في جاهليته لا تزال في كنفاته . .

وقال كلفة بن الجعيد : ألا طرأ - - - يوم ؟ فأما صفوان بن أمية - ولا يزال
مشركا - : أسكت فض الله فك ، فوالله لأن رؤى رجل من قريش أحب إلى
من أن يرؤى رجل من هوازن .

وانحاز رسول الله ذات اليمين ، وقد أعضه هذا الممرار فقال : أين أيها الناس ؟
هلموا إلى . أنا رسول الله . أنا محمد بن عبد الله . . فلا يزال عليه شيء ، وركبت
الإبل بعضها بعضا ، وهي مولى بأصحاب .

ولمح النبي وراءه رجلا من هوازن على حمل له أحمر ، بيده راية سوداء في رأس
رمح طويل . وهوازن حنفة . إذا أدرك الفارس ضمن يرمحه . وإذا فتوه رفع رمحه
لمن وراءه فاتبعوه .

إن الذي تولى كبر هذه المهزلة الشائنة هو المأثم . من أهل مكة ورواح البدو
ووقف النبي ساكن الحاش بدر الرأي في حطة يقذفها سممة الإسلام ومستقبله .
وقد أحاط به لقيف من المهاجرين الأولين ، ومن أهل بيته . فمر "مباس
ابن عبد المطلب - وكان جدير الصوت - أن يندى : لا معشر الأصهار ، يا أصحاب
لبيمة يوم الحديبية . .

لقد هداه الحق أن يهتف بأصحاب العقائد ، ورجال النداء عند الصدام . فهم
وحدهم الذين تنجح بهم الرسالات وتفرج الكروب .
أما هذا النشأ من العوام الحراس على الدنيا ، السعاة إلى المنام فما يقوم بهم
أمر أو كتبت بهم قدم .

الثبات والنصر

وفي ضجة الفزع الذي ساد الحركة أولا علت صيحات العباس ووصلت إلى آذان
الرجال الشدوهين لما وقع . فأخذوا يكافحون ليلتوا مصدر الصوت . إذا أراد أحدهم
أن يعطف ببيره ليمود به لا يقدر من ضغط الفارين . فما يجد بدا من أن يقذف درعه
من عنقه ، ويحمل سيفه وترسه ثم يؤم الصوت .
واجتمع حول رسول الله عدد من الرجال الذين دعاهم . وهم يصيحون : لبيك
لبيك ، حتى قارب القوم مائة . فاستقبل النبي بهم الشركين ، وقدمك زمام الموقف ،
وأعاد الكرة عليهم ، فاجتهد الفريقان اجتلادا شديداً .
وقصد على واحد الأنصار إلى حامل العلم في طليعة هوازن ، فضرب على عرقوبه
جمله فوق على عجزه . ثم استمكن منه الأنصار فهوى به عن رحله .
وكان النبي على بقلته يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

يدعو : اللهم نزل نصرك . والمهاجرون والأنصار قد اتحموا مع رجال
هوازن وثقيف .

قال العباس : ونظر رسول الله — وهو على بقلته ، كالتناول عليها — إلى قتالهم
فقال : الآن حمى الوطيس . ثم أخذ حصيات فرمى بهن في وجوه الكفار . ثم قال :
انهزموا ورب محمد .

قال العباس : فذهبت أنظر ، فإذا القتال على هيئته فيما أرى . فما هو إلا أن
رماهم فما زلت أجد حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً . .

ولم يطل وقت حتى كان رجال ثقيف ومن معهم يوغلون مولين الأدبار في وادي
حنين ! ورجع الطائفة والبدو إلى رسول الله فإذا بهم يرون الأسرى مكثفين !

وفي هذه الحركة نزل قول الله عز وجل : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حُتَيْنِ إِذْ أَهْبَجْتُمْ كَفْرُكُمْ ، فلم تُنْفِنْ عَنْكُمْ شَيْئاً ، وضاعت عليكم الأرضُ بما رَحَّبَتْ ثُمَّ وَلِيَتْكُمْ مَدِينُكُمْ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا . وذلك جزاء الكافرين » .



واعتمد بعض المهزمين بناحية يقال لها : أوطاس فأرسل النبي ﷺ في أعقابهم أباً عامر الأشعري فقاتلهم حتى قتل ، فأخذ الراية منه ابن عمه أبو موسى الأشعري فما زال يناوش القوم حتى بدد شملهم ، وهزموا شر هزيمة .

واضطرب مالك بن عوف ومن معه من رجالات قومه أن يعضوا في الفرار حتى يسالوا إلى الطائف فيمتنعوا بحصنها . تاركين في هذا الفرار منافع هائلة ، فإن مالكا كما علمت خرج يفتزو ومعه نساء القبيلة وما تملك . فضخف في الميدان أربعة وعشرين ألفاً من الإبل وأكثر من أربعين ألفاً من النعم وأربعة آلاف أوقية من الفضة وهذا إلى جانب ستة آلاف من السبي .

الفنائم

وكره رسول الله ﷺ أن يقسم على الناس هذه الفنائم ، وتأنى يبتنى أن يجمع القوم إليه تائبين فيحجزوا ما فقدوا .

ومكث ينتظرم بضع عشرة ليلة فلم يبعث أحد .

فشرع يسكت المتطلمين من رؤساء القبائل وأشراف مكة ، وبدأ بقسمة المال فكان المؤلفات قلوبهم أول من أعطى ، بل أول من حظى بالأنسبة الجزلة ؟ أخذ أبو سفيان مائة من الإبل ، وأربعين أوقية من الفضة ؟ فقال : وابني معاوية ؟ ففتح مثلها لابنه معاوية ؟ فقال : وابني يزيد ؟ ففتح مثلها لابنه يزيد . وأقبل رؤساء القبائل وأولو النعمة يتسابقون إلى أخذ ما يمكن أخذه . وشاع في الناس أن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، فزدحموا عليه يبيعون الزيد من المال ، وأكب عليه الأعراب يقولون : يا رسول الله انقسم علينا فيئند ، حتى اضطروه إلى شجرة فانترعت رداه ! فقال :

« أيها الناس ، ردّوا على ردائي . فوالذي نفسي بيده لو كان لكم عندي عدد شجر تهامة نَمَا لقسمة عليكم ، ثم ما ألقيتوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً » .
ثم قام إلى جنب بغير فأخذ من سنامه وبرة ، فجعلها بين إصبعه ، ثم رفعها فقال :
« أيها الناس والله مالي من فيثكم ولا هذه الورة ، إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم » .

إن أعين القوم تكاد تخرج من المهاجر تطلماً إلى الدنيا . وهؤلاء الأعراب والطلاقاء والرؤساء ما أغفوا عن الإسلام شيئاً في مأزقه الأولى ، بل كانوا هم العقاب الصلدة التي اعترضت مسيله حتى تحطمت تحت ممالو المؤمنين الرافيين في ثواب الآخرة ، المؤثرين ما عند الله .

ولكنهم اليوم بعد ما أعلنوا إسلامهم ينخون من الرسول أن يفتح عليهم خزان الدنيا ، فحلف لهم أنه ما يستبق منها شيئاً لشخصه ، ولو امتلك ملء هذه الأودية مالاً لوزعه عليهم .

والحق أن الرسول وسع بحمله وكرمه مسالك بينة العيش والمشع في سبيل تألف هؤلاء الناس وتحبيهم في الإسلام . ولو عاقبهم على جنهم في حنين لنال منهم أى منال .

روى الإمام أحمد أن أبا طلحة - وهو من فرسان المسلمين المدودين - لقي أم سليم ومعهما خنجر ، فقال لها : ما هذا ؟ قالت : إن دما منى بمض الشركين أبهج بطنه - وذلك في معركة حنين - فقال أبو طلحة لرسول الله : أما تسمع ما تقول أم سليم ؟ فضحك النبي . فقالت أم سليم : يا رسول الله أهتل من بعدها الطلقاء . . انهزمرا بك ؟ فقال : إن الله قد كنى وأحسن يا أم سليم :

والعجيب أن هؤلاء الذين فروا عند الفزع هم الذين كثروا عند الطمع ، وشاء النبي أن يلفظ معهم ويسى ماضيهم تكرماً وتأليفاً .

ومادا يصنع ؟ إن في الدنيا أقواماً كثرين يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم . فكما تهدي الدواب إلى طريقها بحزمة يرسم تظل تمد إليها منها حتى تدخل حظيرتها آمنة ! فكذلك هذه الأصناف من البشر ، تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له .

عن أنس بن مالك قال : كنت أمشي مع رسول الله ، وعليه برد نجراني غليظ الخاشية ، فادركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبه . قال : مر لي من مال الله الذي عندك ! ! قاتلت إليه فضحك ثم أمر له بطاء . . . إن هذا الأعرابي لا يعجبه المتعلق الدقيق ولا الطمع الرقيق قدر ما يعجبه من عطاء يملأ جيوبه ، ويسكن مطامعه ومن هنا قال صفوان بن أمية : ما زال رسول الله يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إليّ ، حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليّ منه . . .

حكمة هذا التقسيم

وهذه السياسة البعيدة لم تفهم أول الأمر ، بل أطلقت ألسنة شتى بالاعتراض فهناك مؤمنون ظنوا هذا الحرمان ضرباً من الإعراض عنهم والإهمال لأمرهم .

روى البخاري عن عمرو بن تغلب قال : أعطى رسول الله قوماً ومنع آخرين : فكانهم عتَبوا عليه فقال : إني أعطى قوماً أخاف عليهم وحزهم ! وأكل قوماً إلى ما جبل الله في قلوبهم من الخير والنفي ! منهم عمرو بن تغلب .

قال عمرو : فما أحب أن لي بكلمة رسول الله حر النعم .

فكادت هذه التزكية تطيباً لحاظر الرجل ، أرحح لديه من أئمن الأموال . . . ! ! وكان الأنصار ممن وقفت عليهم منارم هذه السياسة ، لقد حرموا جميعاً أعطية حنين وهم الذين نودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع رسول الله حتى تبدل القرار انتصاراً ، وهام أولاء يرون أيدي القارين تعود ملأى .

أما هم . . فلم يمنحوا شيئاً قط . . . !

عن أبي سعيد الخدري لما أصاب رسول الله الغنائم يوم حنين ، وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم ، ولم يكن في الأنصار شيء منها ليل ولا كثير ، وجد هذا الحى من الأنصار في أنفسهم حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله قومه . فثنى سعد بن عباد إلى رسول الله فقال : يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار وجدوا عليك في أنفسهم ، قال : فيم ؟ قال : فيما كان من قسمك هذه الغنائم

في قومك وفي سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء ؟ قال رسول الله : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : ما لنا إلا امرؤ من قومي .

فقال رسول الله : اجمع لي قومك في هذه الحظيرة . فإذا اجتمعوا فأعلمني ؟

فخرج سعد فصرخ فيهم فجمعهم في تلك الحظيرة . . . حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له أتاه فقال : يا رسول الله اجتمع لك هذا الحى من الأنصار حيث أمرتني أن أجمعهم .

فخرج رسول الله فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله . ثم قال : يا معشر الأنصار ألم آنكم ضلّالاً فهداكم الله ، وطالة فأغنناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ؟ قال رسول الله : ألا تبيحون يا معشر الأنصار ؟

قالوا : وما قول يا رسول الله وبماذا نبيحك ؟ للنّ الله ورسوله .

قال : والله لو شئتم لقتلتم فصدقتهم وصدقتم : جئتنا طريداً فأويناكم ، وعائلاً فأكسيناكم ، وخائفاً فأمنّاكم ، ومخذولاً فنصرناكم . . .

فقالوا : اللّ الله ورسوله .

فقال : أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لماعة من الدنيا تألفت بها قوماً أسلموا وولّكتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام ؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبمير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟
فو الذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار .

اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم . وقالوا : رضينا بالله رباً ورسوله فقسماً . . .
ثم انصرف . . . وفرقوا . . .

والأنصار — في تاريخ الدعوات — مُثُل فريدة للرجال الذين تقوم بهد الرسالات العظمى حتى إذا استوت على سوقها ، وتجاوزت أيام عفتها وموتها ، وتدلت غمارها وحلا جناحها ، جاءت أيدي غير أيديهم تقطفت ما تشتهي ، ولم تكف بذلك ! بل لطمت أيدي الفارسين حتى لا تلتقط من الثمار الساقطة فايلاً ولا كثيراً !

ولا قول ذلك تليقا على توزيع التناائم في هذا اللقام ، فقد اتضح وجه الرشد في هذه القسمة الحصيفة ...

ولكننا نذكر في مناقب الأنصار ، واقتراض ترفعهم عن الدنيا في سبيل الدين وتأليف الناس عليه أن شئون الحكم ايجدت عنهم ، واحتازها غيرهم وهم لها أكفاه فلم تمض ثلاثون سنة حتى كانت في أيدي الطلقاء .

ولا رية في أن أولئك التجردين لله سوف يلقون جزاءهم الأوفى ، وأن شأن الدنيا أنزل قدراً من أن يأسى عليه رجل العقيدة .

غير أننا نتساءل ، أكان من مصلحة الرسالات نفسها أن تقع هذه الأثرة ؟ أم كان من سوء حظ الإسلام أن يلقي هذا اللون من الحكم ، فيقصي أصحاب السبق وأولو النصره ويملك زمام الدين آخر الناس دخولا فيه وبصره به ؟ ؟

عودة وفد هوازن

وبعد توزيع التناائم أقبل وفد هوازن مسلماً ، وسألوا رسول الله أن يرد عليهم سبيهم وثروتهم ! فقال لهم : إن منى من ترون ، وإن أحب الحديث إلى أسدقته فأبناؤكم ونسأؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً . فقام رسول الله في المسلمين قائماً على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءوا ثائمين . وإنى قد رأيت أن أود إليهم سبيهم فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل . ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مال يقى الله علينا فليفعل . فقال الناس : قد طيبنا ذلك يا رسول الله . فقال لهم : إنا لا ندرى من أذن منكم ممن لم يأذن ، فارجوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم . فرجع الناس فكلهم عرفاؤهم ، ثم عادوا إلى رسول الله يخبرونه أنهم قد طيبوا وأذنوا .

حصار الطائف

أما تهيف فإنها بعد أن تراجعت منهزمة في حنين وأوطاس دخلت حصونها وتهبأت فيها لحصار طويل . وعرف المسلمون أن القوم لا يزالون على إصرارهم والبقاء على جاعليتهم ، وأن الحصار التي لحقت بهم لم تكسر شوكتهم ولم ترهق عزيمتهم .

فقررُوا السيرَ إليهم ومناجرتهم والمسلمين خبرة قديمة بهذا الأسلوب من القتال فقد حاصروا وحوصروا ، وعرفوا آيَّح طرائق الهجوم والدفاع . ونهض رسول الله بم جيشه حتى اقترب من الطائف فمسك حوله وأخذت ثقيف من حصونها تحذف بالنبال فأصيب نفر من المسلمين واضطر الجيش أن يؤخر موافقه حتى لا يستهدف لقداً منهم . ويظهر أن النبي لم يحرص على اقتحام هذه الحصون واستئزال أهلها قسراً كما فعل بيني إسرائيل . أمّل فيهم خيراً . وأدار المركة حولهم في حدود ضيقة وبضحايا يسيرة . وظل يحاصرهم خمس عشرة ليلة ، ثم بدأه أن يدعمهم وشأنهم ، وأشار على المسلمين بذلك . فرغبوا أولاً في إطالة حصارها حتى تفتح عليهم . ثم زلوا أخيراً على رأيه .

وروى : أن رسول الله استشار نوفل بن معاوية فقال : يا نوفل : ما ترى في المقام عليهم ؟ فقال : يا رسول الله ، ثملب في جحر إن أقت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك ! فأمر النبي عمر بن الخطاب أن يؤذن في الناس بالرحيل . فلما قفلت بهم المطايا ، قالوا : يا رسول الله ، أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم . فقال : اللهم اهد تقيفاً !..

ولم يطل بقاء ثقيف على شركها . فاهى إلا شهور قلائل حتى أرسلوا وفدهم إلى المدينة يخبر النبي برغبتهم في الإسلام وانفساح قلوبهم له .

إلى دار الهجرة

عاد المسلمون من الطائف إلى مكة ، لاليمادوا المقام فيها بمدأن فتحها الله عليهم ، بل لينظموها أمورهم ثم يرتحلوا إلى مهاجرهم الخالد ... إن صلهم بالمدينة أضحت من العمق والقوة بحيث لا يرجعها وطن قديم ولا ذكريات عزيزة .

روى أن النبي لما افتتح مكة ودخلها قام على الصفا يدعو ، وقد أهدت به الأنصار ، فقاموا فيما بينهم : أترون رسول الله إذ فتح الله أرضه وبلده يقيم بها ؟ فلما فرغ من دعائه قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا شيء . يا رسول الله ! فلم يزل بهم حتى أخبروه فقال : معاذ الله ! الهيا محياكم والمهات مماتكم

ولما كان أهل مكة حديثاء عهد بالإسلام ، وقفهم في أحكامه ومراميه قليل .
فإن النبي خلف فيهم مما ذنب جيل يعلمهم كتاب ربهم وسنة نبيهم .
وجعل كتاب بن أسيد أميراً على مكة وممره يومئذ عشرون سنة . وكان كتاب
شاباً ذكياً قنوطاً شجاعاً . وقد قرر له من مال المسلمين درهم كل يوم ، هو مرتب
الإمارة . فمرت بذلك حينه ، بل إنه خطب الناس فقال : أيها الناس ، أجاج الله
كبد من جاع على درهم . فقد رزقني رسول الله درهماً كل يوم . فليست
في حاجة إلى أحد . . .

ثم قدم رسول الله المدينة في الشهر الأخير من السنة الثامنة .
فله ما أنصح المدي بين هذه الأوبة الطافرة بمد أن توج الله هامته بالفتح المبين
وبين مقدمه إلى هذا البلد النبيل منذ ثمانية أعوام !
لقد جاءه مطارداً بيني الأمان ، غريباً مستوحشاً بفشد الإيلاف والإيناس ،
فأكرم أهله مثواه ، وآووه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أزل معه ، واستخفوا
بمداوة الناس جميعاً من أجله . وها هو ذا بعد ثمانية أعوام يدخل المدينة التي استقبلته
مهاجراً خائفاً لتستقبله مرة أخرى وقد دانت له مكة وألقت تحت قدميه كبريائه
وجاهليتها ، فأهضها ليمزها بالإسلام وعفا عن خطيئتها الأولى .
« إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

موقف المناققين

وكان حقيقاً بالذين خالجتهم الريبة في رسالة محمد أن يتوسموا في هذه الآيات البينات
ما يقربهم من دينه ويفرهم بالتصديق ونبد الجفوة والعتاد . إلا أن النفوس الخسيسة
ترداد شراً وجعوداً كلما ازداد خصومها نجاحاً وصعوداً .
فما نظنه سبب إقبالها قد يكون سبب احتكامها . . .

فذلك لا يستغرب أن يرجع رسول الله إلى المدينة فيجد قلوب المناققين لا تزال
مطوية على دخلها تبتم للفاغ المائد وهي تود لو لم تر شبحه يستوى في ذلك رؤساء
المشائر الذين وهى سلطانهم أمام انتشار الإسلام ، وسواد الأعراب الذين يرحون
في البادية كالسوائم النفل لا يكادون يفقهون حديثاً . . .

وَنَمَّ أمر آخر زاد في غواية الناققين وتربصهم الشر بالإسلام ونبي الإسلام ، ذلك هو عرفانهم بالخسومة التي نشبت بين المسلمين والرومان : وإدراكهم لما تحملوه في أطوائها من خطورة وعنف . فالعرب ينظرون إلى دولة الروم نظرة أهل أفريقيا اليوم إلى أوروبا وأمريكا .
لأنها قوة لا تغال ولا تناوش .

ولئن كان الرومان بهذه الثابة المرهوبة إن محمداً — كما عرف القوم من سيرته — لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض ، وقد مضى برسائته يذيب ما اعترضه من عوائق ، فحقا الوثنية وأجلى اليهودية وقاوم بطش الروم مقاومة الوثائق الممتدة .
والناققون مسرورون بهذه الخسومة الجديدة . يحسبون أن مقبرة الإسلام ستحفر فيها . . .

لذلك لما أعلن النبي في المدينة أنه منطلق إلى تبوك تجمع رهط من الناققين فقال بعضهم لبعض — مشيرين إلى المسلمين — أنمحسبون جلاد بني الأسفر كقتال العرب بعضهم بعضا !

والله لكاننا بكم غدا مقرنين في الجبال — لإرجاف وترهيبا للمؤمنين ! !

تبوك

عزم النبي أن يرسى الملائق بين الإسلام والنصرانية على دعائم مكينة . وهو لا يقبل مساومة في ترك دعائمه أحراراً يمرضون دينهم على الناس فإن راقهم دخوله وإن ساءم تركوه . يجب أن تتاح الفرص المعقولة لإفهام الجماهير ما تدعى إليه !
أما أن تقطع أعتاق الدعاة وتقام الأسوار الكثيفة في وجوههم ، فهذا ما يقاومه الإسلام بالقوة . .

ثم إن الرومان في الشام والعراق ومصر وغيرها من البلدان قوم فزاة لا تربطهم بأهل البلاد الأولين إلا سلات القهر المادى والأدبى .

فالذى يمترض زحف الإسلام إلى الشمال يجب أن يسأل نفسه قبل ذلك :
لم سكت عن زحف الرومان إلى الجنوب ؟ وعن الطريقة التي يباثرون بها حكم هذه الأقطار : لئلا يولعوا على أمريها ؟

والقارة النصفه تجعل ما يطلبه النبي شيئاً لا غبار عليه .
دموا العقائد المختلفة تبين على نفسها ، وتجذب الشعوب إليها أو تصرفهم عنها ...
لكن هذا الطلب قبول بالرد السليح . فلا دولة الروم تفتح أبواب المصيدة عن
الفرائس التي تضطرب داخل جدرانها .
ولا كنيسة الروم ترحب بهذا الجو الجديد .

قلنا في كتابنا : « التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام » في صدد
غزوة تبوك .

« . . . والكنيسة لا تطلق أن يعيش بجانبها رأى يخالف في الفروع الثقافية .
فكيف تسمح بالبقاء لدين ينكر سلطة رجالها ، لأنه لا يرى بين العباد وربه وسائط .
وينكر عقيدة الفداء التي تركز عليها لأنه يبقى الجزاء على عمل الإنسان وحده . فليس
للإنسان إلا ما سعى . ولا تزد وازرة وزر أخرى . ثم هو ينكر مبدأ الشركة
في الألوهية فليس للعالم إلا رب واحد يخضع له عيسى وأمه .

فذلك رأى الروم أن يبدوا الكرة فيضربوا الإسلام في شمال الجزيرة خربة ترده
من حيث جاء . وتوسد عليه أبواب الحدود ولا يستطيع التسرب منها . . . وتضمن
الكنيسة أفرادها بالضمير البشري . حتى إذا فرغت أجراسها لم يشب رنينها سدى
لؤذن يهتف بتكبير الله وتوحيده ، ويدعو للصلاة والفلاح .

وترامت إلى النبي في المدينة أنباء هذا الإعداد الماكر . وتاريخ النصرانية منذ
تولت الحكم يؤكد نية المدوان لدى رجال الكهنوت . فلم ير النبي بدءاً من استنفار
المسلمين لملاقاة هذا المدوان البيّث .

والتهيؤ لملاقاة الروم جاء في أحد أيام قيظ وقحط . والسير إليهم يتطلب جهداً
مضنياً ونفقة كبيرة .

وقتل الروم ليس صداماً مع قبيلة محدودة العدد والمدة ، بل هو كفاح مرير مع
دولة تبسط سلطانها على جملة قارات ، وتملك موارد ترة من الرجال والأموال .
على أن أصحاب العقيدة لا ينكسرون أمام الصواب والسكوت على تحدى النصراني
لهذا الدين ورغبتهم الملحة في القضاء عليه تعتبر انتحاراً وبواراً ... فليتعامل المسلمون
على أنفسهم إذا وليوا جهوا مستقبلهم بما يفرض من تضحيات وتنفذات .

والظروف التي ا. كتنت إعداد هذا الجيش سمي جيش السرة . والآيات التي أزلها الله في كتابه — متعلقة بفزوة السرة — هي أطول ما تزل في قتال بين المسلمين وخصومهم . وقد بدأت باستنهاض المهمل لرد هجوم المسيحية على الإسلام . وإفهام المسلمين منية تقصيرهم في أداء هذه الفريضة ، وإشمارهم بأن الله لا يقبل ذرة من تقريط في حماية دينه ونصرة نبيه ، وأن التراجع أمام المصوبات الحائلة دون قتال الروم يستبر مزلة إلى الردة والتناق « يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله انما قلتم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فإنا متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » . إلا تنفروا يُمدِّبْكُمْ عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضره شيئا . والله على كل شيء قدير » .

ومضت الآيات تتحدث في صرامة وعنف ففضحت المنافقين ، وكشفت عن المترددين ، وأهانت طلاب الدعة والراحة الذين آثروا ظل القمود في بيوتهم وحقولهم على حر الصحراء ووعثاء السفر ومتاعب الجلاء . « فرح المظفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . وقالوا : لا تنفروا في الحر ، قل : نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون » .

وأبناء جيش السرة تفيض بها صفحات طوال من سورة التوبة . ولعل من البين في أسلوب القرآن وهو يصف هذا الجهاد أنه لم تأخذه هودة في التثويه بمن اشتركوا فيه والتثديد بمن تخلفوا عنه . ولا عجب . فتحديد موقف الإسلام من النصرانية ، وهو بت في مستقبل الدين كله إلى الأبد . فلما ثبت المسلمون أمام لد الكنيسة المتعصبة . وإما أحرقتهم نارها فلم يبق لدينهم أثر ...

وكان لهذا الحزم أطيب النتائج . فخرج المسلمون في قبة لم يخرجوا من قبل في مثلها . وانطلقوا صوب الشمال حيث تربض جيوش الروم ... »



وتجلت في هذا الإعداد طوايا النفوس ومقدار ما استودعت من إخلاص وصحابة ونشاط . فهناك أغنياء أخرجوا ثرواتهم لتجهيز الجيش وإمداده بمحاجته من الرواحل

والصلاح والخيل . منهم عثمان بن عفان الذى سبق فى بذه سبقه بميداً حتى إن الرسول حجب من كثرة ما ألقى وقال : ألهم ارض عن عثمان فإني عنه راض .

ومنهم الفقراء الذين شاقهم الجود بأنفسهم فى سبيل الله . ثم أعجزتهم الوسائل التى تبلنهم للبدان فسحت أميهم السمع لهذا الحرمان .

روى عن علي بن يزيد أنه قام من الليل يصلى ، فتهجد ماشاء الله ثم بكى وقال : اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به ، ولم تجعل فى يد رسولك ما يعطينى عليه . . . وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلة أصابى فيها فى مال أو جسد أو عرض . . .

وأصبح الرجل — على عادة — مع الناس فقال رسول الله : أين المصدق هذه الآية ؟ فلم يبق أحد . ثم قال : أين المصدق فليقم ، فقام إليه فأخبره . فقال رسول الله : أبشر فوالذى نفسى بيده لقد كتبت فى الزكاة التقبلة . . .

وهناك أهل الرية الذين يلمسون للفرار الأعذار وتهذب بهم كراهيتهم للإسلام عن إساءة أى مؤن له ، فهيات أن يُبدوا للخروج عُدَّة ، أو يمتنوا للخارجين عودا . ومن أسغف الأعذار التى تجعلها أولئك القاعدون المناقون ما قال الجدي بن قيس للنبي — وقد عرض عليه الجهاد — : يا رسول الله أوتأذن لى ولا تقتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشدَّ عجباً بالنساء منى . وإني أخشى إن رأيت نساء بنى الأصغر « الروم » ألا أُصبر . . .

فأعرض عنه رسول الله ! وفيه نزلت الآية : « ومنهم من يقول ائذن لى ولا تقتنى . ألا فى الفتنة سقطوا ، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » .

وهناك الذين فترت أول الأمر همهم ، فلما جدَّ الرحيل وانطلق الجيش أحسوا خطر التخلف على إيمانهم فنهضوا يدركون ما يوشك أن يفوتهم .

منهم أبو خيشمة ، عاد يوما إلى أهله — بعد مسير النبي وصحبه — وكان اليوم قائظا فوجد امرأته كاتنتهما قد أعدتا له الطعام الشهى والماء البارد الروى ، ووجد مسكنه مبللاً رطباً وسط بستانه الذى أخذ يسره الأحر يفضح ويسود .

فاستيقظ ضمير الرجل ، وقال : رسول الله فى الشمس والريح والحر ، وأبو خيشمة فى ظل بارد ؟ وطعام مهيب ؟ وامرأة حسناء ؟ فى ماله مقيم ؟ والله ما هذا بالنصف . . . !

ثم قال: والله لا أدخل عريض واحدة منكما حتى ألحق رسول الله ، فهبطا إلى زادتهما ففعلتا ثم قدم ناضحه فارتحمه .
وأسرع الرجل المؤمن يطلب رسول الله حتى أدركه حين نزل تبوك .



وعانى الجيش الذهاب إلى تبوك مصاعب ثقيلة . روى الإمام أحمد في تفسير قول الله عز وجل « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة السيرة . . . » قال : خرجوا في غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بئر واحد وخرجوا في حر شديد . وأصابهم عطش حتى جعلوا ينحرون لإبلهم لينفصوا أكراسها ويشربوا ماءها فكان ذلك صرة في الماء وصرة في النفقة وصرة في الظهر . . .

وعن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب : حدثنا عن شأن ساعة السيرة فقال مر : خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد ، فنزلنا منزلا وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع . . . حتى إن الرجل لينحدر بميره فيمتص فرثه فيشربه ، ثم يحمل ما بقي على كبده فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله إن الله عودك في الدماء خيرا فادع الله لنا فقال : أوتعب ذلك ! قال نعم . فرفع رسول الله يديه إلى السماء فلم يرجعهما حتى قالت السماء — أي آذنت بمطر — فأطلت . ثم سكبت ، فلبثوا مامعهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جاوزت السكر .

قال ابن إسحاق : وكان في الجيش رجل منافق فقالوا : ويحك هل بمد هذا من شيء ؟ قال : سحابة مارة . . . !

وفي الطريق مر المسلمون بالديار التي كانت تمود تسكنها . وهي أطلال هامة وآثار بقيت تذكر بغضب الله على من كذبوا رسوله وتبعوا عقابه . فقال رسول الله : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم والظاهر أن النبي يريد ألا يتغل المسلمون عن مواطن العظة ، وألا يستهينوا بما خلا قبلهم من مثلات . فإن المرء لو قبض له أن يزور السجون ويشهد — مثلا غرفة الإعدام — فليس يلبث أن ينظر إلى جبل الشنفة وهو شارد أو ضاحك . لا أقل من بعض الأسى لأحوال المجرمين ومصارعهم ! !

وردى أحد من جابر لما رآه النبي بالحجر قال : لا تسألوه الآيات - خوارق
الطاعات - فقد سألها قوم صالح - فبث الله لهم ناقة - فكانت ترد من هذا
الفج وتصد من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فقروها . وكانت تشرب ماءهم
يوما ويشربون لبنها يوما فقروها فأخستهم صبيحة أحمد الله بها من تحت أديم
السماء منهم ... » .

والنبي عن سؤال الآيات عود بالناس إلى الأحوال المألوفة ، إذ لا جدوى
في الخروج عليها . وخير للمائلين أن يذلوا طاعتهم في أداء ما يكلفون به ، وأن يرققوا
قلوبهم حتى تلين لأمر الله ، فإن من قبلهم شهد العجائب ثم أغرته قسوة القلب بازديادها
لحقاق به العنة .



وبلغ المسلمون تبوك فلم يجدوا بها كيدا أو يواجهوا عدوا . ولابد أن الروم
آثروا الاختفاء داخل حدودهم عن ملاقة هذه القوة الفتية . . .

وصالح النبي متتصرة العرب الضارين في هذه الأرجاء . فدخل في عهده أهل
أيلة ، وأدح وتياه ودومة الجندل . وأيقنت القبائل التي تعمل لحساب الرومان أن
اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانه !

وغزوة تبوك تشبه غزوة الأحزاب . فلن بلاء المسلمين أولها كان شديدا .
ثم جاء ختامها طمأنينة وعزة . ومكث الرسول هناك بضعة عشر يوما يد بصره
وراء الصحراء حيث اختفى الرومان ، يقرب منها حركة فلما رأى القوم قاطعين
مستكئين قرر أن يقلل عائدا إلى المدينة موفورا منصورا .

وقدم رسول الله المدينة . ولاحت له معالمها من بعيد . فقال : هذه طابة !
وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه ! وتسامع الناس بمقدمه فخرج النساء والصبيان
والولائد يقلن :

طلع البدر علينا من ثبات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داعي

لقد قوبل جيش السرة في مرجعه هذا بحفاوة بالغة . إنه أكبر جيشا خرج
مع رسول الله ، إذ وصل تعداده نحو الثلاثين ألفا . ولم يدس النبي في ذهابه وإيابه

أصحاب القلوب الكبيرة الذين سمع عليهم أن يجاهدوا معه فتخلفوا راغبين والمبرات تملأ ميونهم . عن أنس بن مالك أن رسول الله رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال : إن بالمدينة أقواما ما سرتهم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، فقالوا : يا رسول الله وهم بالمدينة ؟ قال وهم بالمدينة حينهم المذر !

بهذه المواساة الرقيقة كرم النبي الرجال الذين شيعوه بقلوبهم وهو ينطلق إلى الروم فأصلح بالهم وأزاح همًا ثقيلا عن أفئدتهم .
أما المناقشون من مؤمل الشر ودعاة الهزيمة ، والأحزاب الذين اعتبروا الإسلام نكبة حلت بهم فهم يتربصون الدوائر بأهله !! أما هؤلاء وأولئك فأمامهم عناء طويل . .

المخلفون^(١)

ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بدأ بالسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس فجاءه المخلفون فطفقوا يتندرون إليه ويخلفون له وكانوا بضمة وثمانين رجلاً قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علا نيتهم وبإيهم واستغفر لهم ووكّل سرّارهم إلى الله .

وجاءه كعب بن مالك فلما سلم عليه تبسم تبسم المنضب ثم قال له : تعال . . . قال : فجلست أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابست ظهرك ؟ قلت : بلى والله ؛ إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه مبذور . ولقد أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت إن حديثك اليوم حديث كذب ترضى به عليّ ليوشكن الله أن يسخطك عليّ . ولئن حدثتكَ حديث صدق تجد عليّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله عني .

والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . . . !!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. أما هذا فقد صدق قمت حتى يقضى الله فيك ... قعت .

(١) هذه الرواية من خلاصة نوادر اللامع .

وثار رجال من بني سلة فاتبوني يؤنبوني فقالوا لي : « والله ما علمناك كفت أذنت ذنباً قبل هذا . ولقد عجزت أن لا تكون إعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر إليه المخلفون فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك . قال فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي .

ثم قلت لهم : هل لقي هذا مسمى أحد ؟ قالوا : نعم رجلان قالا مثل ما قلت قليل لهما مثل الذي قيل لك فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي . فذكروا لي رجلين صالحين شهدا بدرنا فيهما أسوة ۱ ۱ فضيت حين ذكروها لي .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه .

فاجتنبنا الناس وتنبهوا لنا حتى تنكرت لي الأرض فما هي بالتي أعرف . ۱

فلبئنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يسيكبان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجهدهم فكنت أخرج وأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا . ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني .

حتى إذا طال علي ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام ۱ قلت : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت فعدت له فنشدته فسكت : فعدت له فنشدته فقال : الله ورسوله أعلم .

ففاضت عيني وتوليت حتى تسورت الجدار .

فبينما أنا أمشي بسوق المدينة وإذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بالعلماء بييمه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك ، فطلق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك فإذا فيه . أما بعد فإنه بلغني أن صاحبك قد جفاك

ولم يحبك الله بنار هوان ولا مضية فالحق بنا نواسك . قلت لما قرأتها : وهذا أيضاً من البلاء فتيممت بها التتور فسجرتها .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من المحسين إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعزل امرأتك قلت أطلقها أم ماذا ؟ قال : لا ولكن اعزلها ولا تحريها .

وأرسل إلى صاحبي " مثل ذلك . قلت لأمرائي : الحق بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله هذا الأمر .

جاءت امرأة هلال بن أمية فقالت : يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدعه قال لا ولكن لا يقربك . قالت : إنه والله مابه حركة إلى شيء . والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

قال كعب : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدعه ؟ قلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب . ولبت بعد ذلك عشرين ليلة حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا . فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة على سطح بيت من بيوتنا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى قد ضاقت على نفسي وضاقت على الأرض بما رحبت سمعت صوت سارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشرا . . .

فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرج من الله .

وأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر فذهب الناس يشروننا وذهب قبل صاحبي " مبشرون . وأركض إلى رجل فرسا وسعى ساع من أسلم فأوفى على ذروة الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس .

فلما جاءني النبي سمعت صوته يشترني نزهت له ثوبي " فكسوته إياها بشراء والله ما أمك غيرهما واستمرت ثوبين فلستهما ، فانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فناداني الناس فوجا يهتفونني بالتوبة يقولون : ليهنك توبة الله عليك .

قال كعب : حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وحوله الناس قدام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ولست أنصاها لطلحة .

فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال قلت : أهو من عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا . بل من عند الله .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه .

فلما جلست بين يديه قالت يا رسول الله إن من توبتي أن أمتنع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله . فقال أمسك عليك بمض مالك فهو خير لك قلت : فإني أمسك سهمي الذي بخير .

قلت : يا رسول الله إن الله إنعاجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاء الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا ما أبلىني الله وما نعمت بمد ذلك إلى يومى هذا كذبا وإنى لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت فأمر الله تعالى على رسوله « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار » . إلى قوله « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » فوالله ما أنعم الله على نعمة قط بمد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبة فأهلك كما هلك الذين كذبوا فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد قال « سيحلفون بالله لكم إذا اقلبتم إليهم » إلى قوله « فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » .

قال كعب : وكان تخافنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ أمرنا حتى قضى الله فيه فبذلك قال الله : وعلى الثلاثة الذين خلفوا . وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الفزو وإما هو تخليفه إيانا وإرجاؤنا عن حلف له واعتذر إليه فقبل منه .

مسجد الضرار

سلك النبي مع القدين يتظاهرون بالإسلام طريق الملاينة والإغضاء يقبل منهم أعتارهم — وهي مختلفة — ويتكرم عن فضحهم وهم يتفلتون من قيود السمع والطاعة . فإذا تلبس أحدهم بخيانة تهدر دمه رغب في التجاوز عنه حتى لا يقال : إن عمداً يقتل أصحابه وما هم في حصته من شيء . ولكن هكذا سيقول الناس .

ولو أن هؤلاء المناقين كانوا على قليل من الخير لأمرهم هذا الحلم وانخلعوا من خداعهم الصغير وأقبلوا على الإسلام طيين خالصين بيد أن هذا الأسلوب العالي في معاملتهم لم يزد على الله ورسوله إلا جرأة ، فزاد افتياتهم وربت شرورهم ، ولم يبق بد من كشف خبثهم وإشمار جمهور الأمة بما تنطوى عليه نفوسهم وأعمالهم ... وقد نزلت الآيات أخيراً تندد بما فعل ويفعل أولئك المناقون ، وتعمق الأستار التي يتوارون خلفها . وكانت ألامهم قبل تبوك وبمدها هي النهاية الحاسمة للساحة التي مرحوا في سمتها طويلاً ولم يقدروها حق قدرها . فأمر النبي أن يعلن على الناس ذبذبتهم ونكوصهم ، وكلف ألا يقبل منهم وألا يصل عليهم ، بل عرّف أن استغفاره لهم لن يجاب ثم طوب المسلمون كافة أن يقطعوم ...

ومن أعجب ما تفتت عنه حيل المناقين أن يبنوا مسجداً يلتقون فيه وحدهم ، وعكرون فيه بالإسلام تحت ستار التجمع على العبادة ، وقد ذهبوا للرسول قبل رحيله إلى تبوك يقولون له : بنينا مسجداً لدى اللة والحاجة واليلة المطيرة ، ونحب أن تأتينا قصلي لنا فيه فاعتذر لهم بأنه على جناح سفر وحال شغل . وقال : لو قمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه ...

فلما آب النبي بجيشه ، ونمخرج موقف المناقين وانكشفت خباياهم ، أرسل اثنين من أصحابه إلى هذا المسجد وأمرهم أن يحرقوه ويهدموه . وانطلق الصاحبان إلى المسجد يحملان الشمل الحارقة وأخذوا يأتیان عليه ، وفيه أهله القدين فروا مذعورين لمراى الاله يدمر آخر ما شاد التفاق من حيل .

ونزل قوله تعالى : « والقدين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفرا وتقرباً بين المؤمنين وإرساداً لمن حارب الله ورسوله من قبل » ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى . والله

يُشَهِدُ أَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا . لَمَسَّجِدٌ أَشْهَدُ عَلَى الْتَقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ
أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ... »

طليعة الوفود

استغرق السير إلى تبوك والمآب منها أياماً طويلاً ، فقد خرج المسلمون إليها
في رجب ، وطادوا في رمضان ليؤدوا ما عليهم من فريضة الصيام . ولم يلبثوا طويلاً
حتى جاءت البشريات بأن وقد ثقيف قدم المدينة ليفاوض رسول الله على الفخول
في الإسلام . لقد استجاب الله دعوة نبيه لأهل الطائف أن يسلس قيادهم للحق فيأتوا
طائمين . وكان أهل الطائف بعد أن انقض الحصار المضروب عليهم قد أخذوا يتروؤن
في شأنهم ومصيرهم إلا أن جمهورهم لما يزل على ولائه للأستنام وسدوده
عن الإسلام .

وحاول رئيسهم عمرو بن مسعود أن يتحدث إليهم في بند هذه الجاهلية ، وعمرو
فيهم سيد مطاع محبوب . غير أن نخوة الامتناع استبدت بهم فلما أظهر الرجل دخوله
في الإسلام ودعاهم إلى ذلك رموه بالنبل فقتلوه .

ولم يئأس العقلاء من رشد قوسهم ، ولم تستطع ثقيف كذلك تجاهل ماحولها .
فإن دولة الأستنام تدير في كل مكان . وأمر الإسلام يملأ يوماً بعد يوم . فاجتمع
عمرو بن أمية بمبد باليل بن مر . وقال له : إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة . إنه
قد كان من أمر هذا الرجل مارأيت . وقد أسلمت العرب كلها وليست لكم بحرهم
طاقة فانظروا في أمركم .

ورأت ثقيف أن تبث وفدعا إلى رسول الله ليصل معه إلى وضع تقربه . وتألف
الوفد من ممثلين لمشار ثقيف كلها حتى يلتزموا ما يصل إليه من شروط .

وجادل الوفد رسول الله جدالاً طويلاً بينى أن يظفر منه بإقرار لبعض مآثر
الجاهلية . ورسول الله بأبى أشد الإباء . طلبوا منه أن يدع اللات ثلاث سنين
ثم يهدمها ، ثم ساوموه على سنتين ، ثم ستة ثم شهر واحد بعد مقدمهم . والنبي
بأبى إلا هدمها دون توقيت أمد معين .

فلما يسألوهم ألا يكفروا أو اتهمهم بأيديهم . فأجابهم إلى ذلك بإرسال من يكسرهم لهم !

وسألوهم أن يضع عنهم الصلاة ! فقال رسول الله : لا خير في دين بلا صلاة .

وعاد الوفد إلى الطائف . ومعه النخيرة بن شعبة وأبو صفيان بن حرب ليهتما « اللات » وكان هدم اللات يوماً مشهوداً فإن نسوة ثقيف خرجن حاسرات الرؤوس يكيبن ويصرخن وهن يرين القنوس تهتم ألتهن ، وطالما خشعن له وذبحن حوله وسقن له النذور ويروى أن النخيرة كلما هوى بالناس على بنيان الصنم قال أيوسفيان : واهأ لك ، آهأ لك ، تأسفأ — ! ولله كان يسخر أو يواسي نساء ثقيف ..

ولا مراء في أن استسلام ثقيف ثم دخولها في الإسلام يمد كسباً كبيراً وفتحاً جديداً ، فلم يبق قبيل عزيز الجانب في الجزيرة إلا وقد دان لله ورسوله .

أما القبائل التي لما تزل على جاهليتها فهي أوزاع توشك أن تستبين الحق وتستريح له ، إن الليل المضروب عليها لن يطول سواده بل إن تباشير الفجر قد خالطته هنا وهناك حتى لم يبق لظلمته مكان تتشبث به .

قال ابن إسحاق : لما افتتح رسول الله مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه .

وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش ، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديتهم ، وأهل البيت الحرام ، وصريح وفد إسماعيل ، وقادة العرب لا يتكرونها ذلك — وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله وخلافه .

فلما اقتضت مكة ودانت له قريش ودوخها الإسلام عرفت العرب أنها لا طاقة لهم بحرب رسول الله ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله أفواجاً بضربون إليه من كل وجه .

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » .

بعدكم من الستين بلغ النبي هذه الرحلة ؟ بعد اثنتين وعشرين سنة من البداية الحثيثة والتذكير القاطم وتحمل الأذى وكفاح المدوان . . .
فإن كانت هناك بقايا من النافلين لا تزال تضرع للأستنام ونحيا على القوضى فإن فطامها عن هذه الرذائل لا ينكره ذولب أو مروءة . ومن ثم اتجه الإسلام إلى ضرورة تطهير الجزيرة كلها من عبادة الأوثان . وإشعار المشركين بأن أمامهم حيلة معدودة للتخلص من أدرانها . . ثم تعريفهم كذلك بأن الأستنام التي كانوا يقدسونها حول الكعبة قد أزيلت فأصبحت الكعبة قبله مسجد يؤمه الموحدون . وليست مطاف جهال يتبركون بالحجارة ، وأن تقاليد المرء التي شاعت في الجاهلية وجعلت اللطاف يزدهم بالسوءات للكشفة قد نبذها الإسلام . فلن يسمح في عهده بالتبذل القديم .

وأقبل موسم الحج في السنة التاسعة . والمشركون على ما ألفوا . إنهم يؤمنون البيت العتيق ولا يمتطون من معبر الأستنام التي نكسرت ! أين الآلهة التي قضوا أعمارهم ينحنون لها ويتوسلون بها ؟ لقد هُشِمت ودبست ! ومع ذلك فإن عبادها لبثوا مشركين . . . وقد تكون في نفوسهم حسرات لخلو الكعبة منها . . .
إن من حق المسلمين أن يضمنوا حداً لهذه المهازل ، وأن يزيحوا عن كرامة البشر هذا الموان .

حج أبي بكر

بعث رسول الله أبا بكر أميراً على الحج ليقم بالمسلمين المناسك . فخرج من المدينة يسوق البدن أمامه مولياً وجهه شطر المسجد الحرام . ونزل الوحي بسورة براءة . بعد انصراف أبي بكر ووقد الحبيب . فأشير على رسول الله أن يبعث بالآيات إليه ليقراها على أهل الموسم كافة . . .

ورأى رسول الله أن يرسل بها علي بن أبي طالب قائلاً : لا يؤدي عنى إلا رجل من أهل بيتي وذلك من رسول الله تعالى مع عادة العرب في عهد الهدماء والأموال . ألا ترى أنه قبل هجرته وكل إلى علي رد الأمانات إلى أهل مكة ؟ إن أواصر القرى تقتضى التكافل التام في هذه الشؤون . فكان الرسول أدى بيده ما أداه على عنه ، وكأنه قال بلسانه في الموسم ما سيقروه على بين الناس .

ورعاية هذه الأفهام ليست فريضة بل هي من النبي^ص زيادة حيلة وإعذار . . .
قال ابن إسحاق : ثم دعا علي^ص بن أبي طالب فقال له : أخرج بهذه القصة من
صدر براءة . وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا يعني : أنه لا يدخل الجنة كافر ،
ولا يخرج بعد المأم مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله
عهد فهو إلى مدته .

تفرج علي^ص بيمتلي المضياء — ناقة رسول الله — حتى أدرك أبا بكر بالطريق .
فلما رآه أبو بكر سأله : أمير أم مأمور ؟ قال : بل مأمور . ثم مضيا . . .
أبو بكر — كما كلفه رسول الله — يقيم للناس المناسك . وعلي^ص يؤذن في الناس
بما أمر به ، ويقرأ على العرب صدر السورة التي فصّلت في أحرم وأجهزت على الوثنية
في بلادهم .

وكان هناك مؤذنون آخرون بهم أبو بكر في الجامع الكبيرة يمينون علياً على
إبلاغ رسالته ويصيحون هنا وهناك : لا يخرج بعد المأم مشرك ! ولا يطوف بالبيت
عريان ! وعن زيد بن نفع سألتنا علياً : بأي شيء بثت في الحجة ؟ قال : بثت بأربع
لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولا يطوف بالبيت عريان ولا يجتمع مسلم وكافر
في المسجد الحرام بعد طهه هذا . ومن كان بينه وبين النبي^ص عهد فهداه إلى مدته .
ومن لم يكن له عهد فأجله إلى أربعة أشهر .



وقد تكلمنا في موضع آخر عن مكانة الماهدات^(١) في الإسلام . وشرحنا
ما تضمنه صدر سورة التوبة من أحكام .
وليعلم من يشاء أن تشريع قانون بمحو الوثنية كتشريع قانون بمحو الأمية عمل
إنساني نبيل ، وأن اعتراضاً عليه لا يصدر من رجل يؤثر الخير للأمة ويتمنى لها
السمو والكرامة !

وبحسب الإسلام أنه ظل اثنين وعشرين عاماً يحارب الخرافة بالتعليم والتربية كلها
أتميت له فرص لنشر المعرفة وغرس الأدب ، وبالقصاص والقتال كلها وقف في طريقه
الجهال والضلال يطلون سعيه أو يصدون عنه .

وقد منح الإسلام الوثنية أول الأمر حق الحياة . وترك من يرتد عنه يرجع إليها إذا شاء . ولم يفعل ذلك إيمازاً لها . إنما هو حسن ظن بعقل الإنسان وخميره .
قتل من يسهون أنفسهم ويتركون الله العظيم إلى سورة من حجر أو خشب أو طمام .

فلما تبين أن الوثنيين يستغفون بكل شيء . وأنهم يستقلون الحق للمنوح لهم في القتلة والمذنبين والقتل . . . لم يبق لتركهم من حكمة .
إن الكلب المقور لا يترك طليقاً . فإذا أفلت من قيده فأهدر دمه ، فمن السفه اعتبار ما حدث جريئة قتل .

والذين يظنون أو يحلو لهم الظن بأن الإسلام عندما طارد الوثنية خنق حرية الرأي . . . هم أشخاص واهمون أو مفرضون .

وعلى هدى التجارب والمصائب التي طامها للسلمون طوال اثنين وعشرين عاماً تعرف سر الغضب الذي اشتعل آخر الأمر ، ولم تزل الوحي يماثل المشركين بالقطيعة ويرفض منهم كل اعتذار ؟ ثم يسرد ما أسلفوا من سيئات على أنه خليقة فيهم لم يفكروا عنها يوماً ، ولا يرجى أن يفكروا عنها أبداً .

ومن ثم فلا مكان لأنسانهم بعد العملة للضروية لهم « براءة » من الله ورسوله إلى الذين هادتهم من المشركين . فسبحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير مُنجزى الله وأن الله يُخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم . . .



ومن قبل هذا التنذير المخوف ومن بعده كانت أفواج الوافدين تنطلق صوب المدينة تباع رسول الله على أن تخلع رداء الجاهلية وتدخل في الدين الحق .

وهذه الوفود القليلة عرفت خلال السنين السابقة طرقاً يسيراً من الإسلام . فقد شاع في أرجاء الجزيرة كلها نأ الرسالة الجديدة وما تضمنته من عقائد وما تفرضه على أتباعها من تاليم .

وتتبع المحبون والبنفسون كفاحها الوصول في طلب الحياة ، ومبلغ ما بذلت وبذل أعداؤها حتى انتهت الأمور بهذا الختام المبين .

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْحِزْبَ الَّذِي يَبْدَأُ نَشَاظَهُ بِأَنْصَارِ قُلَاتِلٍ يَضَاعِفُ الْإِقْبَالَ عَلَيْهِ
عِنْدَمَا تَلْمِزُ لَهُ وَقَفَاتٍ مُشْرِفَةً وَيَتَّحِ لَهُ نَصْرٌ كَبِيرٌ . فَكَيْفَ إِذَا اخْتَقَى خُصُومَهُ
وَتَأَلَّفَتْ بَيْعُومُهُ ؟

فَلَا جَرَمَ أَنَّ الْمَدِينَةَ تُنْدَفَقُ عَلَيْهَا سَيُولُ الرَّاغِبِينَ فِي اعْتِقَادِ هَذَا الدِّينِ . أَوِ الرَّاغِبِينَ
فِي مَسَالِكَهُ وَرَسْمِ سِيَاسَةِ قَوْمٍ عَلَى التَّعَاوُنِ مَعَهُ .

وَلَسْنَا بِسَبِيلِ إِحْصَاءِ هَذِهِ الْوُقُودِ الْقَادِمَةِ مِنَ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ ، لَكِنَّا نَسُوقُ
مِثْلَيْنِ لَوْ قَدَيْنِ ، أَحَدُهُمَا وَثْقَى أَقْبَلُ يَبْنِي الْإِسْلَامَ . وَالْآخَرُ نَصْرَانِيٌّ جَاءَ يَسْتَطْلِعُ النَّبَأَ
وَيُفَاوِضُ وَيُمَاهِدُ بِمَدِّ جِدَالٍ وَبِلَاحِجَةٍ .

وَفَدٌ لِلْأَمِيْنِ وَوَفْدٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ

أَرْسَلَتْ قَبِيلَةُ سَعْدِ بْنِ بَكْرِ ضِمَامَ بْنِ ثَمَلَةَ وَاقْدَأَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ . فَامْتَنَعَى ضِمَامُ
بِعَمِيرِهِ حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ فَأَنَاقَهُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ ، ثُمَّ عَقَلَهُ ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَرَسُولُ
اللَّهِ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ .

وَكَانَ ضِمَامُ رَجُلًا جَلَدًا أَشْعَرُ ذَا غَدِيرَتَيْنِ ، فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
فِي أَصْحَابِهِ . . . فَقَالَ : أَيُّكُمْ ابْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ! قَالَ : أَمَحَمَّدٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ !
قَالَ : يَا ابْنَ عَبْدِ الْمَطْلَبِ إِنِّي سَأَلْتُكَ وَمَنَعْتَ عَلَيَّ فِي الْمَسْأَلَةِ فَلَا تُجِدُنِي فِي نَفْسِكَ .
قَالَ : لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي فَسَلْ عَمَّا يَدُنَا لَكَ :

قَالَ : أُنَشِدُكَ اللَّهَ إِلَهَكَ وَإِلَهَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ وَإِلَهَ مَنْ هُوَ كَاتِنٌ بِمَدِّكَ : آلهُ بَنِيكَ
إِلَيْنَا رَسُولًا ؟

قَالَ : اللَّهُمَّ نَعَمْ .
قَالَ : فَأُنَشِدُكَ اللَّهَ إِلَهَكَ ، وَإِلَهَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ وَإِلَهَ مَنْ هُوَ كَاتِنٌ بِمَدِّكَ . آلهُ
أَمْرُكَ أَنْ تَأْمُرَنَا أَنْ نَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا . وَأَنْ نَخْلَعَ هَذِهِ الْأَنْدَادَ الَّتِي كَانَ
آبَاؤُنَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ ؟

قَالَ : اللَّهُمَّ نَعَمْ .
وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَنَا رَسُولُكَ فَزَعِمْنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ ؟

قال : صدق ! قال : فمن خلق السماء ؟ قال : الله ! قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : الله ! قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جميل ؟ قال : الله .
قال : فبألقى خلق السماء وحلق الأرض ونصب هذه الجبال الله أرسلك ؟ قال : نعم ...

قال ضمام : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا ؟ قال : صدق قال : فبألقى أرسلك الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم !
ثم جعل يذكر فرائض الإسلام وشرائعه على هذا النحو . حتى إذا فرغ قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . وسأؤدى هذه القرائض ، وأجتنب ما نهيتني عنه ، ثم لا أزيد ولا أقص ... وانصرف إلى بيته راجعاً فقال رسول الله : إن صدق ذو القيصتين دخل الجنة .

فأتى ضمام بيته فأطلق عقاله . ثم خرج حتى قدم على قومه . فاجتمعوا إليه . فكان أول ما تكلم به أن قال : بثت اللات والمزى !! قالوا : مه يا ضمام ! اتق البرص اتق الجذام اتق الجنون ... قال : ويلكم ، إنهما والله لا يضران ولا ينفعان .

إن الله قد بعث رسولا وأزل عليه كتاباً استنفذكم به مما كنتم فيه وإن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتمكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ...

قال : فوالله ما أسمى في الحى من ذلك اليوم رجل ولا امرأة إلا مسلماً .



ذاك وقد يمثل بساطة الأميين في منطقهم ، وسلامة طويتهم في جندهم وتساؤلهم وخلو أذهانهم من القدر التي تترص الحق في مسيله السمع .

ولا نكران في إن جهاد الدعوة القديم له أثره في الوصول إلى هذه النتائج السريعة .

وهذا طبيعي فإن تغيير دين ليس كتجديد زى . وضمام بن ثعلبة كان يستحضر في ذهنه وهو يسأل النبي ثم وهو يخاطب قومه أن هذه الرسالة الجديدة مرت بأطوار

شق من الحن والفتن . كشفت عن صدقها وسلامة جوهرها ، فليس لإيمانه وإيمان
نومه وليد ساعة من كلام .
ذاك وفد الأسين . وهو مثل لوفود أخرى كبرت أو صغرت . أمّت المدينة ترى
هذا النبي وتبايحه ، ثم تؤوب إلى قومها حاملة الهدى والغدير .



أما أهل الكتاب فإن قلة منهم شرحت صدرا بالحق وسارعت إلى اعتناقه
مؤازرته . والكثرة الباقية اختلفت عداوتها له شدة وهتورا .
أبى اليهود إلا إيادة الإسلام فوقموا في شرور نيتهم وإباد سلطانهم المسكرى
السياسى قبل أن يدركوا هذه الناية .
وقبلهم الإسلام في دولته القاعة أفراداً ييقون على ديانتهم ما أحبوا . ولا يمكنون
من تجمع على عدوان ودمس .
وذلك حقه لا ريب !!

ولم تصادر الحقوق الشخصية ليهودى تحت سلطان الإسلام . وحسبك أن النبي
نفسه لكى يقترض من يهودى ارتنهه درعه ... وما فكر قط في إحراجه بما يملك
من سلطان بعيد ...

وكان النصارى أخف خصومة حيث ابتعدوا عن الكنيسة ، فأسلم
بعضهم عن طواعية وإحجاب بما فى الإسلام من سهولة واستقامة . وبقي الآخرون
على ما ورثوا .

وسارت العلاقة بين الدينين في مجراها التى أبتاعته آتفاً حتى تحولت إلى حرب
طاحنة بين السلمين والرومان .

وكانت النصرانية — مع تفوق الرومان السياسى والمسكرى — تسود شمال
الجزيرة وجنوبها .

فرأى المسلمون ، وهم في حرب مع دولة الروم ، أن يحددوا موقفهم مع نصارى
الجنوب ، خصوصاً وأن الروم كانوا يندفون المطايا على مبشرهم هناك وبينون
لهم الكنائس وييسطون عليهم الكرامات ويشجعونهم على المضى في تنصير القبائل
التوطئة بهذه الأرجاء .

فأرسل النبي^ﷺ إلى أهل نجران كتاباً جاء فيه « باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب
أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد .
وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد .
فإن أيتهم فالجزية . فإن أيتهم فقد آذنتكم بحرب . والسلام » .

فأرسلت نجران — وهي كعبة النصرانية جنوباً — وفدتها إلى المدينة ليقابل
رسول الله ويتفاهم معه . ووافق الوفد المدينة بعد العصر . ودخل للمسجد . فكان
أول ما صنع أن اتجه إلى بيت المقدس يسلم لله على ما تقضى به تقوى المسيحية .
وأراد الناس منهم فقال رسول الله . دعوهم . حتى انتهوا من عبادتهم ...

ورآهم النبي^ﷺ قد لبسوا لملاقته أردية الكهنتوت الفاخرة ونحوها بخواتم الذهب
وجاءوا يخشون في الحرير وتبدو لهم بين القلائس والطلاليس سياء التكلف الشديد .

فأبى أن يتحدث معهم حتى يرجعوا إلى ملابس سفرهم ريدعوا هذه الزينة .
والغريب أن بعضهم سأل النبي^ﷺ : أريد منا يا محمد أن نعبدك كما يُعبَد عيسى
ابن مريم ؟ وإلى ذلك تدعوننا ؟

فقال رسول الله : ماذا الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره . ما بذلك
بشئ ولا أمرني . وأُتِلَّ الله عز وجل في ذلك « ما كان لبشر أن يؤتيه الله
الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس : كونوا عباداً لي من دون الله . ولكن
كونوا ربانين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يَأْمُرُكم أن
تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً . أيأمركم بالكفر بعد إيمانهم مسلمون » .

وعرض النبي^ﷺ على أحبار نجران وسائر الوفد أن يُسلموا فقالوا له : أسلفنا
قبلك . قال : كذبتم ، يمتنعكم من الإسلام دعاؤكم لله ولما وهبادتكم الصليب
وأكلكم الخنزير .

فجادلوه في عيسى ، وقالوا : من أبوه ؟ فروى أن النبي^ﷺ رد عليهم قائلاً : ألسنتم
تلمون أن الله حي ، لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء ؟ قالوا : بلى . قال :
ألسنتم تعلمون أن ربنا قيمٌ على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ . قالوا : بلى . قال :
فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟ قالوا : لا .

قال : ألسم تظنون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ؟ قالوا : بلى . قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما علم ؟ قالوا : لا .
قال : ألسم تعلمون أن ربنا سور عيسى في الرحم كيف يشاء ؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ قالوا : بلى . قال : ألسم تعلمون أن عيسى حلقه أمه كما تحمل المرأة . ثم وضته كما تضع المرأة ولدها ثم غذى كما يغذى الصبي . ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا : بلى .

قال فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟

فقالوا : ألسم تقول في عيسى : إنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه ؟ قال : بلى .

فلما رأى النبي أن الجدل يتبادى بالقوم . وأنهم مصرون على اعتبار عيسى إلهاً أو ندأ للإله قال لهم : أقيموا قدأ حتى أخبركم .

فذكر آيات المباهلة « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون . الحق من ربك فلا تسكن من المترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم قل تماولوا ندم أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم . ثم نبهل فنجمل لعنة الله على الكاذبين » .
فأصبح رسول الله من الغد ، وقد أقبل بنفسه ، وحفيديه الحسن والحسين ، وابنته فاطمة .

واستمد أن يشترك مع نجران في صلاة جامعة تُستَئْزَلُ فيها لعنة الله على المترين .

واستمع وفد نجران إلى هذا الاقتراح ، فأوجسوا خيفة من قبوله ! من يدري ؟ قد يكون محمد صادقاً في أن عيسى شرٌّ مثله ويكونون هم وأهله في اتحال الألوهية له . فلماذا يتهلون إلى الله أن يحقهم .

ونظروا إلى محمد وطفليه وابنته فشمروا بأن الكاذب منهما لن يهلك وحده بل ستهلك معه أسرته . فخشوا على أولادهم وأهلهم البوار إن هم قبلوا هذه المباهلة ثم خلصوا نحيباً

قال بعضهم للآخر : إن كان هذا الرجل مسلكا فلن نأمن طمعا عليه وخصامنا له
فلن دولته مقبلة وربما أصابنا قومه بجماعة .

وإن كان نبياً مرسلًا فلاعناء فلن يبق على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر
إلا هلك . فما الرأي !

فجاءه متحدث القوم شرحبيل بن وداعة . وقال له : رأيت خيراً من ملاعتك .
فقال النبي : ما هو ؟ قال : أدع لك الحكم فبنا فهما قضيت فهو جائز ! فقال
رسول الله : لعل وراءك أحداً يثرب عليك ؟ فقال شرحبيل : سل عنى . فلما سأل
الرسول عنه أخبر أن أهل الوادى لا يصدرون ولا يردون إلا عن رأيه . . . فقال :
جاهد موثق .

ورجع رسول الله ولم يلاعهم ، وعقد مدهم صلحا أصبحوا بمقتضاه من رمايا
الدولة الإسلامية .

وجاء في شروط هذا الصلح أن لننصاري نجران « .. جوار الله وذمة محمد النبي ،
على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وتبهم ، وأن
لا ينفروا مما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغير أسقف من
أسقفيتهم ولا راهب من رهبانيتهم ... وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير .

وليس عليهم رية ولا دم حالية ولا يحشرون — يكلفون يجهاد — ولا يمشرون
— يكلفون بزكاة — ولا يبطأ أرضهم جيش .

ومن سأل منهم حقا فينبهم النصف فير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل رباً
فتمتى منه بريئة . ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر .

وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد رسول الله حتى يأتي الله بأمره
ما نصحوا وأسلحوا فيما عليهم ، غير منقلبين بظلم » .

وشهد على هذه الماهدة أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف
والأقرع بن حابس والمغيرة بن شعبة .

فإذا كلف به نصارى نجران بإزاء هذه الحقوق ؟ أن يدفعوا للدولة ألقى حلة
في السنة ! وهى بدل قافه عن الزكاة التى يدفعها المسلمون وحدم ، والجهاد الذى
يحملونه وحدم .

وتلك هي الجزية التي ضربت على أهل نجران ، بمد المفاوضات التي رأيت .
وبذلك قطع الإسلام الصلة بين أولئك العرب المتصرين وبين دولة الروم التي
يشتبك معها في الحرب ، بعدما ضمن الحرية الدينية لمن سألوه وكفوا عنه . .
ونحن نسأل — على وجه التحدي — : هل عاملت الطوائف المسيحية بمضا
بمضا بهذه الساحة الرائعة ؟ أم كان ذلك مسلكا أضاء به الإسلام وحده ظلمات
القرون الأولى ؟
ثم نسأل مرة أخرى : هل احترام أهل الكتاب ما عليهم من واجب ، وهل أنصفوا
الدين الذي رعى ذمامهم .

لقد دخلت السنة المباشرة على الإسلام وهو يبسط تماثيله على حساب الوثنية
المتقلصة . فإذا ببعض القبائل في الجنوب تثور ضده تحسب أن رجلا من قريش ملك
العرب بإدعاء النبوة . فليس يسجزعا أن تقدم من مغاليكها من يزعم النبوة كذلك !
لعله يملك مثل ما ملك محمد بن عبد الله .

ومن المؤسف أن النصارى في جنوب الجزيرة ساعدوا في إشعال هذه الثورات ،
وأن نصارى نجران كاتبوا الأسود العنسي^(١) فسار إليهم — وهو أحد التنبئين —
ثم رحل عنهم إلى اليمن ، فلحقها حتى قتلتها امرأة هناك وأراحت الأرض منه ...
أ كانت هذه الفتن معاونة لنصارى الشمال في حربهم ضد الإسلام ، أم كانت
شفياً يمليه الكره الجرد تحسب ؟

وما فعله نصارى نجران في تأييد الأسود العنسي^(٢) فعل مثله نصارى تغلب في تأييد
مسيلة الكذاب حين ادعى هو الآخر أنه نبي ! .

ونحن نفهم أن يرفض أهل نجران وبنو تغلب الدخول في الإسلام . وأن يؤثروا
البقاء على ما اقتنموا به من ديانتهم الموروثة . لكننا لم نفهم البتة أن يكنب رجل
بصحف الوحي وأن يؤمن مثلاً بالمسكوك^(٣) .

ذاك إن كانوا قد آمنوا حقاً بالأسود ومسيلة ...

أما إذا كان الأمر لا يعدوا الإغاثة على حرب الإسلام بأي سلاح ومع أى حليف
فهذه مسألة^(٤) أخرى يختار في علاجها أطباء القلوب .

(١) مجلة مزلية . (٢) راجع كتابنا التصب والتسامح بين المسيحية والإسلام .

(٨)

أصحاب المؤمنين

أثار بعض الكاتبيين غباراً حول مبدأ تعدد الزوجات . وحاولوا تقييد ما أباحه الإسلام من ذلك أو منعه . محتجين تارة بأن الإسلام لم تثبت فيه هذه الإباحة بصورة حاسمة ، وتارة أخرى بأن تطور الحياة وصالح الجماعة يقتضيان أن يكتفى الرجل بامرأة واحدة لا يمدوها . وحسبه أن يوفق في رعايتها وكفالة أولاده منها .. !

ولا شك أن هذه الأفكار تولدت في بيئاتنا نتيجة عوامل شتى تحتاج إلى حسن النظر وقوة الرد . ومنذ سنين حاول خصوم التمدد أن يستصعدوا قائلين بذلك ، ثم توقفت محاولاتهم أمام غضب العلماء وهياج الجماعات المشتعلة بالشتون الإسلامية . وقد كتبت آنثذ كلة في طيبة التمدد أرى إثباتها^(١) هنا بين يدي الموضوع الذي نتحدث فيه لما لها من صلة ظاهرة به .

« للحياة قوانين عمرانية واقتصادية ثابتة ، تفرض نفسها على الناس حتماً ، سواء عرفوها فاستمدوا لمواجهتها ، أم جهلوا فظهرت بينهم آثارها .
وسلة الرجل الفرد بمدد من النساء من الأمور التي ثبت فيها الأحوال الاجتماعية ويمتبر تجاهلها مقاومة مابثة للأمر الواقع .

وذلك أن النسبة بين عدد الرجال والنساء إما أن تكون متساوية ، وإما راجعة في إحدى الناحيتين . وإذا كانت متساوية أو كان عدد النساء أقل فإن تعدد الزوجات لا بد أن يحتقن من تلقاء نفسه . وستفرض الطبيعة توزيعها العادل قسراً ويكتفى كل امرئ طوعاً أو كرها بما عنده .

أما إذا كان عدد النساء أربى من عدد الرجال . فنحن بين واحد من ثلاثة :
إما أن نقضى على بعضهم بالحرمان حتى للموت ...
وإما أن نبيح اتخاذ الحليلات ، وقر جريمة الزنا ...
وإما أن نسمح بتعدد الزوجات .

وظن أن المرأة - قبل الرجل - تأتي حياة الحرمان ، وتأتي مراض الجريمة والمعصيان فلم يبق أمامها إلا أن تشرك غيرها في رجل يحتضنها وينتسب إليه أولادها ولا مناص بمدتد من الاعتراف بمدد الذمد الذي صرح به الإسلام .

(١) في مجلة الإخوان المسلمين ٣ شعبان سنة ١٣٦٠ العدد ٦٣ .

ثم إن هناك اختلافاً كبيراً بين أنصبة الرجال من الحساسية الجنسية، فهناك رجال أوتوا حظاً من كمال الصحة ويقظة الفريضة ونموه الميئس لم يؤثّر غيرهم ، والمساواة بين رجل يارد الشاعر في نشأته وآخر قريب الاستئثار واسع الطاقة أمر بعيد عن المدالة ، ألسنا نبيع قدوى الشهية للتعلّمة مقادير من الطعام لا يبيحها للمعمودين والضعفاء ؟ فهذه بتلك .

وتمّ حكمة أخرى . قد تكون الزوجة على حال من الضعف أو المرض أو المغم أو تأخر السن فلماذا تترك لهذه الأعذار ؟ إن من حق المشرّة القديمة أن تبقى في كف الرجل ، وأن تأتي إلى جانبها امرأة أخرى تؤدي وظيفة الزوجة أداء كاملاً .



ومع المبررات الكثيرة لتمدد فلان الإسلام التي أباحه رفض رفضاً باتاً أن يحمله امتداداً لشهوات بعض الرجال وميلهم إلى المزيد من التمتع والتسلط . فالنرم على قدر الغنم ، والنعم الميسرة تتبعها حقوق ثقيلة . ومن ثم فلا بد عند التمدد من تيقن المدالة التي تحمسه . أما إذا ظلم الرجل نفسه أو أولاده أو زوجاته فلا تمدد هناك .

التي يمدّد يجب أن يكون قادراً على النفقة اللازمة . وإذا كان الشارع يعتبر المجز عن النفقة عنراً عن الاقتران بواحدة . فهو من باب أولى مانع من الزواج بما فوقها . إن الشارع يوصي الشاب الأعزب بالصيام مادام لا يستطيع الزواج ويأمر الماجز عن الواحدة بالاستغفار :

« وَلَيَسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُنْفِقَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ... »

فكيف الحال بمن عنده واحدة ؟ إنه بالصبر أحق وبالاستغفار أولى ..

وكثرة الأولاد تتبع مادة كثرة الزوجات والإسلام بوجوب رعاية العدل مع الأولاد في التربية والتكريم ووسائل المعيشة سهما اختلفت أمهاتهم . وفي الأثر « لمن الله من استمع^(١) أولاده » فلي الأب المكثّر أن يحذر عقبي الليل مع الهوى .

(١) أي كان سبباً في حقوق ولده .

وكذلك يوجب الإسلام العدل مع الزوجات . ولئن كان الميل القلبي أعصى من أن يتحكم فيه إنسان إن هنالك من الأعمال والأحوال ما يستطيع كل زوج فيه أن يرهى الحدود المشروعة وأن يزن تصرفه بالقسط وأن يخشى الله فيما استتراه من أهل ومال . قال رسول الله « إن الله سائل كل امرئ عما استتراه حفظ ذلك أم ضيحه » ؟ « بحسب امرئ من الإثم أن يضيع من يمول » .

تلك حدود العدل التي قرنها الله بالتعدد فمن استطاع النهوض بأعبائها فليتزوج مثنى وثلاث ورباع .

ولا فليكتف بقرينته الفذة « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » .

وقرأت لبعض الصحافيين يمترض على مبدأ التعدد لماذا يمدد الرجال الزوجات ولا تمدد النساء الأزواج ؟ وقد نظرت إلى هؤلاء التسائلين فوجدت جمهورهم بين دأمر أوديوث أوقوآد ؛ وعجبت لأنهم يعيشون في عالم من الزنا ويكرهون أشد الكره إقامة أمر الأسرة على العفاف . . .

والجواب على هذا التساؤل المريض أن الهدف الأعلى من التواصل الحسنى هو إنشاء الأسرة وتربية الأولاد في جوٍّ من الحضانة النظيفة وهذا لن يكون في بيت امرأة يطرقها نفر من الناس . . . يحتلدون للاستحواد عليها ولا يعرف لأبيهم وفد منها

ثم إن دور المرأة في هذه الناحية دور القابل من الفاعل ، والمقود المحمول من القائد الحامل . وإنك لتتصور قاطرة تجر أربع عربات ، ولا تتصور عربة تشد أربع طائرات ، ومن الكفر بطبائع الأشياء الماراة في أن الرجال قوامون على النساء .

على أنه من المؤسف حقاً أن يهدر العوام هذه الحدود ، وأن تتجهوا إلى التعدد دون وعى لمعنى العدل الفروض بل تلبية لنداء الشهوة ، ولو أدى إلى الاهتيات والجور الصارخ .

فالرجل قد يعجز عن نفقة نفسه ثم هو يسمى إلى الزواج . .

وقد يعجز عن رعاية واحدة ثم هو يبحث عن غيرها ١١
وقد يحيف على بعض أولاده في التعليم ، وفي توزيع الثروة ، تمشياً مع هواه
وقد يتزوج الأخرى ليهجر الأولى ويذرهما كالمعلقة .
وربما ترى الرجل يستطيع البناء بأربع ، والإنفاق على ماينجب من بنين وبنات
ومع ذلك الاقتدار فهو يحيا على التسول الجنسي والتقلب في أحضان الساقطات
فما دواء هذه الفوضى ؟



هل منع التمدد يشفي الأمة من هذه الأدواء ؟
كلا . إن تقييد مباح ليس مما يمي سياسة التشريع في الإسلام إلا أن مبدأ التمدد
لو سكت الدين عن إبداء الرأي فيه لوجب أن يبدى نحن الرأي فيه ونقول بإباحته
سيانة للمصلحة العامة التي أوضحناها في صدر هذا الكلام .

ولكن إقرار القاعدة شيء وسوء تطبيقها شيء آخر . وعندما يحىء دور التشريع
في إصلاح مجتمعا وإقامة عوجه — من هذه الناحية — فلتتجه همه الباحثين إلى
ضبط وسائل المدل ومظاهره إن أرادوا . أما الحبط في مبدأ التمدد نفسه ومحاولة
النيل منه فهو عبث .

وأستطيع القول بأنه أثر من آثار النزو الصليبي الحديث لبلاد الإسلام . فإن
النصرانية — دون سائر الأديان من عهد نوح — انفردت بتحريم^(١) التمدد وحبس
الرجل — مهما كان شاه — على امرأة واحدة ، وترك المجتمع بعد ذلك يمالج كثرة
النساء وهياج الفراز بوسائله الأخرى .

وفي طبقات كثيرة الآن ينظر إلى التمدد على أنه منكر ! وإلى الزنا على أنه
مسلاة نافهة ! أى أن المشكلة الآن مشكلة الدين كله والأخلاق كلها . وتقييد التمدد
— والحالة هذه — محاولة مسجة لتلويث المجتمع على حساب الإسلام وباسم القانون .

(١) نحن نعتقد أن التمدد هو حكم الله في الأديان كلها — ومن بينها النصرانية —
ولا نقيم وزنا لما عداه .

إن جمهوراً كبيراً من الدين والصالحين تزوج بواحدة وبأكثر من واحدة ولم يحدش ذلك قوام . وفي صفح العهد القديم للوجود الآن ما يؤيد ذلك .

والإسلام لا يرى التبتل عن النساء عبادة — كما يفعل الرهبان — ولا الزواج إلى أربع مصيبة — كما ينسب إلى النصرانية . إنما المصيبة في ترك الفريضة الجنسية تتزنى كيف تشاء ، أو في كبتها لتتسرب وراء وراء كما تتسرب المياه الجوفية تحت أديم الغبراء . . . !!



والمفوض من سيرة نبي الإسلام أنه تزوج بالسيدة خديجة وهو في الخامسة والعشرين من عمره وكانت هي في سن الأربعين وظل معها وحدها ، لا يضم إليها أخرى حتى تجاوزت السيدة الفضلى الخامسة والستين وماتت وهو — صلوات الله وسلامه عليه — فوق الخمسين .

ولم يجرؤ أحد من أشد خصومه لهدأ أن ينسب إليه دنسا ، أو يتهمة ربية ، في هذه الفترة الخصبية الرحبة من عمر الإنسان ، كان رونق العفاف والشرف يتألق في جيبه حيث سار ، ولو أنه أحب الزوج بأخرى ما عاقه مانع من شرع أو عقل أو عادة . فإن التعدد كان مألوفاً بين العرب معروفاً في ديانة أبي الأنبياء إبراهيم . إلا أنه ظل مكتفياً بمن استراح إليها واعطأ بصحبها . ولو أنها طعنت في السن ويقى هو في كمال قوته وتام رجولته . . . ولهذا المسلك دلالة القاطمة .

فلما انتقلت خديجة ، وأحب النبي أن يتزوج لم يكن البحث عن المجال في مظائه هو الباعث له على تخير شريكته في حياته ، أو شريكاته — ولو قد فعل ذلك ماتعرض للوم — بيد أن الباعث الأول كان الارتباط بالرجال الذين آزره في دعوته وعاونوه في رسالته . فاختار عائشة بنت أبي بكر على سمر سنها واحتار حفصة بنت عمر على قلة وسامها . . .

ثم اختار أم سلمة أرملة قائدته التي استشهد في سبيل الله . وعانت معه امرأته ما عانت في الهجرة إلى الحبشة وفي الهجرة إلى المدينة .

ومن قبل هؤلاء كانت معه سودة . وهي امرأة زلت من حظها من الرجال
لكبرها وعزوفها .

والعيشة مع أولئك الأربع لا تقوم على متاع ملحوظ ودنيا سارة . ولو قد قامت
على ذلك ما كان على رسول الله من حرج . فلا يؤمن أن يستمتع بأربع نسوة .
وتحقق العدل متيقن في سيرة رسول الله .

قد تقول : لكن هذا الرسول مات عن تسع نسوة فكيف وقع هذا ولم قال
ما لم ينل غيره ؟ ؟

أليس هذا فتحاً لباب التهنئة وإجابة لقوامي اللذة ؟
وقول : أين مكان التمتع في حياة رجل لم يسترح يوماً من هناء الكفاح الموصول
والجهاد المضى ؟

إن حملة الرسائل الإنسانية المحدودة تسببهم هموم العيش ومتاعب الشعوب
فلا يحظون بساعة راحة إلا ليستجموا قليلاً ثم . . . ينهضون لاستئناف الغروب !
فكيف بمصاحب الرسالة العظمى ؟ وقد لقي من العرب ما رأيت ؟
ونسأل أيضاً : ما مكان التمتع في حياة رجل عزف عنها وهو شاب . فكيف
ينرق فيها وهو شيخ ؟

إن الظروف التي أحاطت بالزوجات الخمس الآخر تجعل البناء بهن بعض ما كلف
الرسول بتجشمه من سياسة الأفراد والجماعات ، وبعض ما كلف بتحقيقه من إقامة
الخير ومحو الضرر .

خذ مثلاً زواجه بزَيْنَب بنت جحش . كان هذا الزواج امتحاناً قاسياً لرسول الله ،
أمره الله به لإبطال تقليد شائع عند العرب ، وأقدم عليه الرسول وهو شديد التحرج
والحياء والأذى .

وزَيْنَب هذه من قريبات الرسول . فهو يعرفها حق المعرفة من طفولتها .
وقد رغب في أن يزوجها من زيد بن حارثة فكرهت ذلك ورفض أخوها . اعترازا
بما لأسرة زَيْنَب من مكانة ، فهي من ذؤابة قريش ، وما زيد ؟ إنه كان عبداً ولو أن
الرسول أكرمه فيما بعد وألحقه بنسبه فصار يدعى زيد بن محمد ! !

إلا أن زينب لم تجدد بداً من الانصياع لأمر النبي ، فقد أراد أن يحطم الاعتزاز بالأنساب وأن يُنكح زيداً زينباً فرضيت وفي نفسها غصاضة ، وقبل أخوها وهو يؤدي حق السمع والطاعة بحسب ، بمد ما تزل قوله تعالى :

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن بعض الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً » .

ودخل زيد بزينب فوجد امرأة مصروفة الفؤاد عنه ، تسله جسدها وتحرمه المطف والتقدير . فثارت رجولته وقرر ألا يبقى معها . وتدخل النبي بين الحلين والحين لإصلاح ذات البين دون جدوى .

في هذه الحال أوحى الله لنيه أن يدع زيداً يطلق زوجته ، وأن يتزوجها هو بمد انتهائهما منه ...

فاهتري الرسول ثم مقلق لهذا الأمر الغريب ، وساورة التوجس من الإقدام عليه بل أخفاء في نفسه خوفاً من منبته ، فسيقول الناس تزوج امرأة ابنه ... وهي لا تحمل له !!

ولكن هذا القى سيقوله الناس هو ما أراد الله هدمه . ويجب على النبي أن ينفذه دون تهيب .

وقد تريث النبي في إنفاذ أمر الله ، ولعله ارتقب من الله — لفرط تخرجه — أن يعفيه منه ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فمنما جاء زيد يشكو امرأته ويمرض نيته في تطليقها قال النبي : أمسك عليك زوجك واتق الله ...

عند ذلك نزل الوحي يالوم على الرسول توقفه ، وبمتب عليه تصرفه ، ويحضنه على إساءة رغبة زيد في مراق امرأته وبكلفه بتزوجها ، ولو قال الناس : تزوج امرأة ابنه . فإن ادعاء البتة لون من التزوير تواضع عليه العرب مراغبة للحق ، وينبني أن يظلموا عنه ، وأن يهدروا نتائجها وليكن حمل الرسول بنفسه وبمن التصق به أول ما يهدم مآثر الجاهلية في هذا العرف الشائع ..

هذه هي القصة كما بدأ القرآن الكريم يرويها :

« وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأئمت عليه أمسك عليك زوجك واتق »

الله . ونحفي في نفسك ما الله مُبْدِيهِ ، ونحشى الناس والله أحق أن تحشاه . فلما قضى زيد منها وطراً زَوَّجْنَا كَمَا لَكُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا . . . » .

على أن التريب في هذه القصة ما أدخله النفايون عليها من دسائس الشهوة ومظاهر الحب الرخيص فقد زعموا أن الرسول أحب زينب ثم كم هذا الحب ثم ظهر . . . فتزوجها بعد ما طلقت !!!

ثم زعموا أن صدر الآية السابقة جاء عتاباً له على هذه العاطفة المكبوتة ، ونحن نتعجب أشد التعجب لهذا الخبط الهائل ومحاولة تلييس الحق بالباطل .
من كان يتمتع عندما من الزواج بزيب وهي من أسرته . وهو الذي ساقها إلى رجل لم تكن فيه راقية ؟ وطيب خاطرها لترضى به .
أفبعد أن يقدمها لغيره يطمع فيها ؟

ثم لنتنظر إلى الآية وما يزعمون أنها تضمنته من عتاب .

إنهم يقولون : الذي كان يخفيه النبي في نفسه ، ونحشى فيه الناس دون الله هو ميله لزيب ، أي أن الله — يزعمهم — يشب عليه عدم التصريح بهذا الميل !
وقول : هل الأصل الخلفي أن الرجل إذا أحب امرأة لفظ بين الناس مشهراً بنفسه وبمن أحب ؟ وخصوصاً إذا كان ذا عاطفة منحرفة جعلته يحب امرأة رجل آخر ؟

هل يلوم الله رجلاً لأنه أحب امرأة آخر فكتم هذا الحب في نفسه ؟
أكان يرفع درجته لو أنه ساغ فيها قصائد غزل ؟
هذا والله هو السفه . . . !

وهذا السفه هو ما يريد بعض المغفلين أن يفسروا به القرآن !!!
إن الله لا يعاقب أحداً على كتمان حب طائش ، وإعما سياق الواقعة كما قصصنا عليك . فالقائى أحقاء النبي في نفسه تأذيه من هذا الزواج المفروض وتراخيه في إفاد أمر الله به وخوفه من لفظ الناس عند ما يجدون نظام التبتى كما ألفوه فد انهار .

وقد أفهم الله نبيه أن أمره لا يجوز أن يقفه نوم شيء ما . وأنه بإزاء التكليف
الأعلى لا مفر له من السمع والطاعة شأن من سبقه من الرسلين . . .
وإذا عدت إلى الآية التي تتضمن القصة وجدتها ختمت بقوله تعالى :
« . . . وكان أمر الله مفعولاً » . أى من حقه أن يقع حتماً . ثم أعقبها
ما يؤكد هذا المعنى :

« ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له . سنة الله في الدين خلوا
من قبل . وكان أمر الله قدراً مقدوراً . الذين يلغون رسالات الله ويخشونه
ولا يخشون أحداً إلا الله . وكفى بالله حسيباً » .

إليك عند ما تثبت قلب رجل فضول له : لا تخش إلا الله . لا تقول ذلك له
وهو بصدد ارتكاب معصية . إنما قول ذلك له . وهو يبدأ القيام بعمل فاضل
كبير يخالف التقاليد المتوارثة .

وظاهر في هذه الآيات كلها أن الله لا يجرئ نبيه على التذلل بحب امرأة ،
إنما يجرئه على إبطال عادة سيئة يتمسك الناس بها . ويراد منه كذلك أن ينزل
على حكمها وتلك يقول الله بعد ذلك مباشرة - وهو يهدم نظام التنبؤ :
« ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين .
وكان الله بكل شيء عليماً » .



أما السيدات الأخريات اللاتي بنى بهن الرسول . فهن نساء تنميهن أصول
عريقة حتى ليتمتحن بنات ملوك ! وقد أحاطت بهن عند دخول الإسلام ملابسات
لا يليق أن يجملها قائد دعوة .

ثم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب سيد قريش وقائدها عشرين سنة في حرب
الإسلام أو يزيد ، أنذا أسلمت وراغمت أبها وقومها في ذات الله ، ثم هاجرت
إلى الحبشة ناركة مكة حيث يسود أبوها وتملوكته ؟

أرى مثل هذه السيدة إذا مات زوجها ترك لمن يخذل مكانها ؟

قد ضمها النبي إلى زواجه إيماراً لشأنها وتهديراً لصنيعها . . .

وصفية بنت حيي ؟ كان أبوها ملك اليهود ، وفي الصراع بين بني إسرائيل والإسلام هلك أبوها وأخوها وزوجها ، ووقعت في سهم جندي لا يعرف إلا أنها أسيرة حرب ، من حقك بملك الميم أن يسلك معها كيف يشاء . فإذا رقي النبي لحالها ، ووهبها حريتها ، ثم جبر كسرهما وقدر ماضيها ، فتزوجها ليستطيع بإحسانه وإكرامه تطيب خاطرهما ، فهل ذلك مما يلام عليه ؟

وجورية بنت الحارث . إن أباه زعيم بني المصطلق ، وقد انتهت حربه مع المسلمين بهزيمة نكراء ، وكانت قبيلته تهون وتذل عقب هذه الهزيمة . فواسى النبي القائد المهزوم ، ثم أسهر إليه حتى يشمر المسلمين بما يبنين لأتباعه من كرامة وممونة . وقد وقع ما أحبه النبي ، فصادت الحرية إلى القبيلة رجالاً ونساء ، إذ تخرج المسلمون أن يسيثوا إلى قوم تزوج النبي ابنتهم . . .



وقد يسبق إلى أذهان البعداء عن السيرة أن حياة رسول الله الخاصة قامت على التوسع في الطعام والمشارب .. والتلح الأخرى .

والصورة التي قد ترسم بادئ الأمر لرجل عنده عدة نساء . أنه مغمور بالسادة السادية . يقوم عن الموائد الحافلة باللحوم والفواكه ليرتوي من الأشربة التي تسرى في أوصاله بالنشوة ، ثم يتقلب بين أحضان البيضاوات والشقراوات . ويصبح يستقبل الدنيا بعد ذلك خالي البال .

وقد تكون هذه الصورة مساوية أو مقاربة لما يدور في قصور الملوك . لكن حذار أن تسفه نفسك فتحسب شية من هذا الجيش الرخى في بيوت محمد بن عبد الله .

انتقل على عجل إلى لون آخر من الحياة الخشنة لترى فيه رجلاً تملقت همته بالحق وحده فهو ينتمش بمعرفته ويمتهد لجمع الناس عليه . وقرة عينه في خطوة تقربه من نايته شبرا . أما أهواء الدنيا فهي تحت قدميه ودبر أذنيه . . .

إذا استطاعت قنائف الدفء على ظهر الأرض أن تبلغ النجوم البعيدة استطاعت
مفريت الحياة أن تقترب من قلب محمد الزكي النقي . ذاك إنسان اصطفته العناية فهو
يخلق في مدى آخر ، يقول فيه : « مالى وللدنيا إنما أنا كرجل قال تحت ظل شجرة
ثم راح وتركها » .

يربط هم البشر بالمثل العليا وما تصير إليه عند الله فيقول : « موضع سوط
في الجنة خير من الدنيا وما فيها . ولندوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا
وما فيها » .

وحياته مع زوجته نهج من الشظف لا يطيقه أحد ، روى البخاري عن أنس
بن مالك قال : ما أعلم النبي رأى رفيقاً حرقاً حتى لحق بالله ، ولا رأى شاة سمياً
بسمته قط ! !

وعن عائشة قالت : إن كنا ننظر إلى الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين ، وما أوقدت
في أبيات رسول الله ناراً !

قال لها عروة بن الزبير : ما كان يُميشكم ؟ قالت الأسودان التمر والماء .
وقالت عائشة أيضاً : لقد توفى رسول الله وما في رقبتي من شيء يأكله ذو كبد
إلا شطر شمير في رقبتي لي ... » .

أما الفراش الذي يأوى إليه هذا النبي فهو من آدم — جلد — حشوه لقيف !
يشوى فيه قليلاً فما إن يستدفئ به حتى يسمع الصارخ — الديك — فينهض
متأهباً لصلاة الفجر . . .

ولا نفي بهذا الوصف أن الإسلام يناف الطيبات أو أن نبيه يسنُّ للناس تركها .
كلا . فشرية الإسلام في هذا بيئة بريّة . وإعنا نمرّد الواقع من حياة رجل
صدفت نفسه مما يقتتل الناس عليه . إن الرجل قد يترك لأولاده الصغار لعبة
يفرحون بها ويختصمون عليها لأن طبيعة رجولته في شغل عن عبث الصبية .
وإن بعض المخترمين والفكرين يذهلون عن الطعام المهيأ لهم ، لا ازدراء له ،
ولكن استغراقاً فيما ملك عليهم مشاعرهم .

وكأنّي أنخيل هذا النبي ، وهو يرى سواد الناس يتفانون على الحطام الذاهب

خيمز وأسه أسفا . ويقول : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا . . .
ثم يضرع إلى الله « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا . . . »

إن من الزاوية بالقل والجور الفاحش على التاريخ أن يبيح رجل من مرض
الطريق فيرى أو يقال له : إن محمدا كان لديه نسوة حديدات ، فيظن المسكين أن ذلك
دلالة استكثار من الشهوات ونشبع من الدنيا .

ولا يحسن هذا الاخشيان قل من لا يجد وأنه لو ضحت إلى ميوت هذا
النبي نافذة تطل على بحبوحة الحياة الرغدة لاستمتع واكتنز واستمتع نسوة وابتهجن .
لا . كان قادراً أن يحتجز من المال القى يمر به ويحكم فيه ما يشاء ، لو يشاء .
لكن هذا النبي السمع كان فوق التطلع إلى القذات الصغيرة ، لأن عينيه ترمقان
هدفاً أمسى ولو سبقت إليه خزائن الأرض لفكر قبل كل شيء في إشباع نهمة
الناس منها .

عن أبي ذر كنت أمشي مع النبي في حرة المدينة ، فاستقبلنا أحد . قال :
يا أبا ذر ، قلت لبيك يا رسول الله قال : ما يسرنى أن عندي مثل أحد هنا ذهباً ،
تمضي على ثلاثة وعندي منه دينار — إلا شيئاً أرسده لدين —

إلا أن أقول به في عباد الله هكنا وهكنا وهكنا ، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه
ثم أمشي فقال : إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكنا وهكنا وهكنا ،
عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ، وقليل ما هم . . . » .

إن أشهى الطعام في قم الرجل الشبان المتلى لا مذاق له ، وقد كان هذا النبي
شبان القلب ، فإ يخف إليه غيره من زينة الدنيا لا يحرك منه شرة ، فلا غرو إذا
بشر ما يصل إليه على المحتاجين والمترقين . أما هو فضاء في قلبه .
ذاك أدب أخذه الله به من قديم منذ قال له :

« ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجنا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه .

ورزقُ ريك خير وأيقى . وأمرُ أهلك بالصلاةِ واصطبر عليها . لا نسألك رزقاً نحن
نرزقك . والمأقبة للتقوى .

قاية ما يبيته هذا النبي أن يتجو من مآسى الدنيا ومظالم البشر ، فلا تستغله
أو يستغل أهله قايمة !

إنه يعيش على قاعدة « ما قل » وكفى خير مما كثر وألمى « وفي حدود هذا القليل
الكافى يود أن يخلص من عقايل الخلق ، لا له ولا عليه . وقلبك يدعو الله :
« اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقاقة ، والقلة والقلّة ، وأن أعظم أو أُظلم ،
أو أجمل أو يُجملَ عليّ » ويقول : « اللهم إني أسألك الهدى والتقى والماقبة
والنقى » — الاستثناء —



وهذا التهج السارم فى الميشة قاضى نساءه أن يصحلمن شدة ما كنّ يرفقنها
من قبل ، قد جئن إليه من بيوتات كبيرة ، وأكترهن اعتادت فى صدر حياتها
الزاد الطيب والنعمة الدافقة ، إمام مع آبائهن وإمام مع رجالهن السابقين . فلا صعب
إذا تخلمن من هذه الحياة الجديدة . وطلبن الرغد والنموعة ، واجتمعن — على ما يبينهن
من خلاف — ليسألن الرسول حينئذ من النفقة !

لأنهن فى بيت أعظم رجل فى العرب فيجب أن تكافأ معيشتهن مع مكانتهن ،
وقد تزعم هذه الطالبات شدة فتى أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، وتبعهن الباقيات ...
وحزن رسول الله لهذه المظاهرة . إنه السلم الأول على ظهر الأرض ، وأبصار
الؤمنين والمؤمنات تنوإ إليه من كل ناحية . وهو بصدد بناء أمة تشق طريقها وسط
ألوف مؤلفة من الخصوم المتربصين فإذا لم يمض بيته عيشة المجاهد المحصور . فكيف
يوصل الكفاح ويكلف الرجال والنساء من أمته أن ينهلوا عن كل شىء إلا السير
بدينهم حتى يبلغ مأمنه ؟؟

فذلك رفض النبى الاستجابة لرغبات نساؤه فى توسيع النفقة ، وكره منهن هذا
التطلع فقرر مقاطعتن ، حتى شاع بين الناس أن النبى طلق نساءه جملة ...
وفزع أبو بكر ومهر لهذه الإشاعة . فابتة كليهما عند رسول الله . فذهبا يستأذنان

ليدخل عليه ، وليتمرفا جليلة الخبر . فلما دخلا وجدا النبي صامتا ، وحوله نساؤه
 حواجبات !! وسأله مر : أطلقت نساءك يا رسول الله قال : لا ...
 إلا أن جو الحزن كان يخيم على المكان . فقال مر : لأكلني رسول الله
 لعله يضحك !

فقال : يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد — يعني زوجته — سألتني النفقة آنفاً
 فوجأت عنقها ، فضحك النبي حتى بدا نازجه . وقال : هن حولى يسألنني النفقة .
 فقام أبو بكر إلى عائشة يؤذيها ، وقام مر إلى حفصة .
 كلاً يقول : نسألان النبي ما ليس عنده .
 فهى النبي الأيوب أن يصنما بينهما شيئاً . وكانت نساؤه يلقن نادعات : والله
 لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده .

ومرهن النبي شهرآ لا يتصل بهن حتى يشعرن بما فعلن ، ونزلت آيات التخيير
 من عند الله تطلب إليهن جميعاً إما التجرد للدار الآخرة مع رسول هذه طريقته
 في حياته ! وإما اللحاق بأهلن حيث الملابس الحسنة والمآكل الدسمة ...
 وكان هذا الدرس كافياً ليحو آخر ما في أنفسهن من رغبة لم تتجاوز للباحات
 المشهاة ! فاخترن جميعاً البقاء مع النبي على قاعدته العتيدة « ما قل وكفى خير مما
 كثر وألهى » وعشن معه للجهاد والهجاء ، والبذل والمواساة ، والتواضع والخدمة .
 « يا أيها النبي قل لأزواجك : إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فعالمين
 أمتكنن وأسرحكن سراهما ههنا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة
 فإن الله أعد للمحسنات مكنن أجراً عظيماً ... »
 فآثرن الله ورسوله والدار الآخرة ... وعشن مع النبي مميزات على الحق
 راغبات في الثواب .



وبهذا التفاني في خدمة الرسالة والإهمال لمطالب النفس رفع الله درجاتهن فلم
 يصعبن زوجات رجل يطلبن في ظله النعاع بل صرن شريكات في حياة فاضلة عالية ،
 واستحققن قول الله عز وجل « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم .. »
 وتوكيداً لهذه الأمومة الروحية شرع الحجاب الدقيق على أمهات المؤمنين ،

فلا يجوز لأحد من الأجانب أن يلتقي بهن — ولو مع محرم — وسؤالهن في شئون الدين والدنيا إنما يكون من وراء الحجاب ، كما لا يجوز لأحد — بعد وفاة الرسول — أن يتزوج بإحداهن ...

وبهذا التشريع الصارم قطع دابر المضولين والثقلاء الذين يكثرزون التردد على بيوت الزعماء ، كما قطع دابر المتربصين منهم الذين ينشدون الرقة من وراء الاقتران بأولئك النساء . ولا تستغرب مثل هذا التشريع ! فقد تأذت المرأة ببعض الناس أن يقول أحدهم : لو قُبِضَ النبي* تزوجت عائشة ..!! ومن حق النبي أن يسان شموره ، وأن يُصدَّ عنه وعن أهله أولئك الأعراب السفهاء ...



ولم يقب الرسول من زواجه أولئك ولما ، أما بناته اللاتي أعقبهن من خديجة فقد مِتْنَّ وهو حي* . عينا فاطمة فإنها بقيت بعده شهوراً ثم كانت أول أهله لحوقاً به ...



ودخل رسول الله عريم التي بنت بها القوقس إليه بعد أن أسلمت وحملت منه ، ثم وضعت له ابناً أسماه إبراهيم باسم جده أبي الأنبياء ، ولم يمر طويلاً بل مات وهو رضيع .

قال أنس : لقد رأيته وهو يحود بنفسه بين يدي رسول الله - فدمعت عليه عينا النبي ثم . قال : تسمع العيز ويحزن القلب ولا يقول إلا ما يرضى ربنا . وإنا بك يا إبراهيم لمزنون ...

واتفق أن الشمس كسفت في ذلك اليوم ، فتحدث الناس أن الشمس كسفت لموت ابن النبي . فقام النبي مصلياً بالناس ثم قال : يا أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل لا ينكسفان لموت بشر . فإذا رأيتم شيئاً من ذلك فصلوا حتى تنجلي ...

استقرار

زالت غربة الجاهلية من آفاق الجزيرة كما تزول بقايا الليل أمام ملاحم الشرق ، وصحت العقول المليئة فلم تعد تخشى وترجو إلا الله بعد ما ظلت دهوراً تعبد أصناماً جامدة ، وُسمع الأذان للصلوات يشق أجواز الفضاء خلال الصحراء التي أحيها الإيمان الجديد . وانطلق القراء شمالاً وجنوباً يتلون آيات الكتاب ، ويقومون أحكام الله ، ويمشون العرب ما لم يملواهم ولا آباؤهم . إن هذه الجزيرة منذ نشأ فوقها عمران لم تهتز بمثل هذه النهضة المباركة ، ولم يتألق تاريخها تألقه في هذه الأيام الفريدة من عمرها .

وكان النبي^ﷺ في المدينة يستقبل الوفود ويشيما بمدماً ينفتح فيها من روحه الكبير ويزودها بحكمته الباهرة فتعود من حيث أنت لتنتشى في مواطنها القصية معاول للإسلام ومخائف يرضا في ماربخ أمته . ولم يكتف النبي^ﷺ بتربق الوفود المقبلة ، بل أرسل رجاله الكبار إلى الجنوب ليزيد رغبة الإسلام هناك انساها . فلن في اليمن وما حولها قبائل كثيفة المدد . ولأهل الكتاب السابقين نشاط قديم . وقد نشأ الإسلام هناك حقاً ، وتقلص ظل الفرس لنير عودة . إلا أن هذه البقاع النائية تحتاج مزيداً من رعاية وتفقد . ومن ثم بعث النبي^ﷺ خالد بن الوليد ، ثم معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري ، ثم علي بن أبي طالب .

وكان هاتفاً خفياً انبعث في قلب رسول الله يشمره أن مقامه في الدنيا يوشك على النهاية ! فإنه بعد أن علم معاذ بن جبل كيف يدعو من يلقاه ، وكيف يعرفهم دينهم ، خرج معه إلى ظاهر المدينة يوميه ، ومعاذ راكب ورسول الله يمشي تحت راحلته 11 فلما فرغ قال :

يا معاذ إني عسى أن لا تلقاني بعد طي هذا . ولذلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري ! فبكي معاذ خشعاً لفراق رسول الله^ﷺ ثم التفت النبي^ﷺ بوجهه نحو المدينة فقال : إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا . . .

وقد وقع ما أوماً إليه الرسول ، فلن معاذ أقام باليمن حتى كانت حجة الوداع ثم كانت وفاة النبي^ﷺ بعد الحبيب الأكبر بأحد وعشرين يوماً . ومعاذ باليمن . . .

وقد كان العناية باليمن ما يبررها ، فقد ظهر فيها وفي بني حنيفة دجلان يزعمان النبوة ، ولم يكن لكلا الدجالين من خلال الرجولة وآيات الخير ما يجمع عليه حفة من الرجال ، ولكن داء العصبية الصماء جعل قبيلة كبيرة من الرطاع يقول: نحن نعلم أن مسيلة كذاب ، ولكن كذاب ربيعة خير من صادق مضر !!

وقد اشتعلت فتن المتنبيين حيناً ثم حاستها أقدام المجاهدين بعدُ فأخذت جنوتها وزهبت نبوة مسيلة وغيره كما تذهب بولة شاة على أديم الثرى . . .

حجة الوداع

أعلن رسول الله نية بالحج ، وأشمر الناس بذلك حتى يصحبه من شاء . فترك المدينة وأخر ذى القعدة بعد أن أُرِّعَ عليها في غيابه أبا دجاجة . . .

والحج هذه المرة جاء منيراً لما ألفتته العرب أيام جاهليتها . انتهت اليهود المطاة للمشركين ، وحظر عليهم أن يدخلوا المسجد الحرام . فأصبح أهل الموسم قاطبة من الموحدين الذين لا يسبدون مع الله شيئاً . وأقبلت وفود الله من كل صوب تيمم وجهها شطر البيت المتيق ، وهي تعلم أن رسول الله هو في هذا العام أميرهم ومعلمهم مناسكهم . . .

ونظر رسول الله إلى الألوف المؤلفة وهي تلبى وتهرع إلى طاعة الله فشرح صدره اقتيادها للحق ، واهتداؤها إلى الإسلام . وعزم أن يفرس في قلوبهم لباب الدين وأن ينتهز هذا التجمع الكريم ليقول كلمات تبديد آخر ما أبقّت الجاهلية من غلغلات في النفوس ، وتؤكد ما يحرص الإسلام على إشاعته من آداب وهلائق وأحكام .

فألقي هذه الخطبة الجامعة .

أيها الناس اسمعوا قولي ، فإنني لا أدرى لى لا ألقاكم بعد طاعى هذا ، بهذا الوقت أبداً . . .

أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا . وإلحكم سناقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم . وقد بلغت ... فن كانت -تد- أهانة ، وأودعا إلى من ائتمته عليها . وإن كل ربا موضوع .

ولكن لكم رموس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أنه لا ربا ! وإن ربا
العباس بن عبد المطلب موضوع كله . . .

وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع . وإن أول دمائكم أضع ، دم ريعة بن
الحارث بن عبد المطلب — وكان مسترضاً في بني ليث قتلته هذيل — فهو أول
ما أبداً به من دماء الجاهلية . . .

أما بعد — أيها الناس . إن الشيطان قد يئس أن يبعد في أرضكم هذه أبداً
ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به ، مما تحقرون من أعمالكم ! فاحذروه
على دينكم ! !

أيها الناس . إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً
ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله . فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله .
وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . وإن عدة الشهور
عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ورجب — الذي بين
جادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس . فإن لكم على نساءكم حقاً ولهن عليكم حقاً . لكم عليهن
أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة . فإن
فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح .
فإن اتهمن فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف : واستوصوا بالنساء خيراً . فإنهن
عندكم حواء لا يملكن لأفئسهن شيئاً . وأنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم
فروجهن بكلمة الله . فاحفظوا أيها الناس قولي فإنني قد بلغت . . .

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمراً بيناً ، كتاب الله
وسنة نبيه . . .

أيها الناس اسمعوا قولي واعتقلوه ، تعلمون أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين
إخوة فلا يحل لأمرى من أخيه إلا ما أعطاه من طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم
الهم هل بلغت !

قالوا اللهم نعم . . . فقال رسول الله : اللهم اشهد . . .

قال ابن إسحاق : كان الرجل اتى يصرخ فى الناس يقول رسول الله — وهو بعرفة — ربيعة بن أمية بن خلف .

يقول له رسول الله : قل يا أيها الناس إن الرسول يقول : هل تدرون أى شهر هذا ؟ فيقول لهم — فيقولون : الشهر الحرام . . . فيقول : قل لهم : إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا . . .

ثم يقول : قل : يا أيها الناس إن الرسول يقول : هل تدرون أى بلد هذا ؟ فيصرخ به ، فيقولون : البلد الحرام . فيقول : قل : اللهم : إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا !

ثم يقول . يا أيها الناس إن رسول الله يقول : هل تدرون أى يوم هذا ؟ فيقول لهم . . . فيقولون : يوم الحج الأكبر ! فيقول : قل لهم : إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا . . .

كان الرسول يريد — بعد بلاء طويل فى إبلاغ الرسالة — أن يفرغ فى آذان الناس وقلوبهم آخر ما لديه من نصيح . كان يحس أن هذا الركب سينطلق فى ينداء الحياة وحده . فهو يصرخ به كما يصرخ الوالد بابنه الذى انطلق به القطار يوسيه الرشد ويذكره بما ينفعه أبداً . . .

وكان هذا النبى الطيب كلما أوجس خيفة من مكر الشيطان بالناس طود صيحات الإنذار ، واستثار أقصى ما فى الأعماق من انتباه . ثم ساق المسمى والعلم . . . وقطع المآذير المتحلة ، وانتزع بعد ذلك شهادة من الناس — على أنفسهم وعليه — أنهم قد سمعوا ، وأنه قد بلغ . . .

لقد ظل ثلاثاً وعشرين سنة يصل الأرض بالسماء ، ويتلو على القاصى والقاصى آى الكتاب الذى نزل به الروح الأمين على قلبه . وينسل أدران الجاهلية التى التأت بها كل شئ . ويرى من هؤلاء العرب الجليل الذى يفقه الحقائق ويفقه العالم فيها . وها هو ذا يقود الحجاج فى أول موسم يخلص فيه من الشرك ويتمحضر فيه لله الواحد القهار ، وها هو ذا على ناقته المتبوء يستنصت الجماهير المأجبة إيؤكد للمعانى التى بثت بها والى عرفهم عليها ، ويخلى ذمته من عهد البلاغ والتبيان التى نيطت بمنقه

لقد أجيبت دعوة أبي الأنبياء « إبراهيم » حين هتف وهو بين البيت العتيق :
« ربنا وابحث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة
وزكهم . إنك أنت العزيز الحكيم »

إن العزيز الحكيم تجلى باسمه الجليلين على هذه الديار ، فوهب العزة والحكمة
أو قل : القوة والسياسة محمد بن عبد الله فمالج بها الآثام الجائفة على صدر الأرض
فما استمضى على الأناة والحلم استكان لتأديب والحكم .

وبهذا المنهج الجامع بين العدل والرحمة أخذت رقعة الباطل تتكشش وريداً وريداً
حتى اختفت الجاهلية ولوثاتها وثبت الإسلام ثم أساخ العرب — بعد ما لان قيادهم —
إلى صوت الحق الأخير في حجة الوداع .



وفي يوم عرفة من هذه الحجة العظيمة نزل قول الله عز وجل : « اليوم أكملت
لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ... » .
وعندما سمعها مربي . قيل له : ما ييكيك ؟ قال : إنه ليس بعد الكمال
إلا نقصان . وكأنه استشر وفاة النبي صلوات الله عليه وسلامه .

والحق أن مشاعر التوديع للحياة والأحياء كانت تتضخ بها بعض العبارات التي
ترد على لسان الرسول منها ما سبق ذكره في خطبته بالوم . ومنها ما يقع في أثناء
تعليمه الوفود المحتشدة حوله ، كقوله عند جرة العقبة . خذوا عني مناسككم فلمل
لا أحج بعد طي هذا ...

إلى المدينة

فلما قضى الرسول مناسك حث الركاب إلى المدينة المطهرة لا ليأخذ حظاً من
الراحة ، بل ليستأنف حياة الكفاح والكدح لله .
إن البطلين لا يدعون لأهل الحق مهلة يستجمون فيها . وأصحاب الرسالات
أنفسهم لا يستعيدون نشاطهم في القمود عن العمل بل يستمدون الطاقة على العمل
من الشعور بالواجب .

وراحتهم السكامة يوم يرون بواكير نجاحه دانية الغطاف !!...

فقل الرسول إلى المدينة ليعي جيشاً آخر يقاتل به الروم . فإن كبرياء هذه الدولة على الإسلام جعلها تأتي عليه حق الحياة ، وحلها على أن تقتل من أتباعها من يدخل فيه .

كان قروة بن عمرو الجندى واليا من قبل الروم على معان وما حولها من أرض الشام ، فاعتنق الإسلام ، وبث إلى النبي يخبره بذلك .

وغضب الرومان فجردوا على قروة حملة جاءت به ، وألقي في السجن حتى سلب الحكم بقتله ، فضرب عنقه على ماء لم يقال له : عفراء بفلسطين ، وترك مصلوباً ، ليرهب غيره أن يسلك مسلكه ! وقيل إنه لما قدّم لقتل قال :

بلغ سرّة المسلمين بأننى سيلم لربى ، أعظمى ودمائى !

فأعدّ رسول الله جيشاً كبيراً ، وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة . وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، يبنى بذلك لإرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضارين على الحدود ، حتى لا يحسب أحد أن بطش الكنيسة لا مقب له وأن الدخول في الإسلام يمر على أصحابه الخوف فحسب . . . ولما كان أسامة شاباً لا يتجاوز الثمانية عشر فلان بعض الجهال ساءتهم هذه الإمارة ، واعترضوا أن يقود الرجال الكبار شاب حدث ...

ولا شك أن النبي لا يلتفت في ولايته إلا إلى الجدارة ، فمن استحق منصباً بكفايته قدمه له غير مكترث بمعداة سنه . فلان كبر السن لا يهب الأغبياء عقلاً ولا المنع ينقص الأتقياء فضلاً . . .

فما المعداة من حلم بمائة قد يوحد الحلم في الشبان والشيب وقلبك قال رسول الله — ردّاً على اعتراض الناقدين — : لئن طعنتم في تأميرى أسامة فلقد طعنتم في تأميرى أباه من قبل .

وايم الله إن كان خللياً بالإمارة وإن ابنته من بدمه خلليتي بها . وإن كان ابن أحب الناس إلى ...

وانتدب الناس يلتفون حول أسامة وينتظمون في جيشه .

إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله أكرهتهم على التريث حتى يعرفوا ما يقضى به الله . . .

(٩)

الرئيسية الأعمى

شمر رسول الله ﷺ بوعكة المرض التي نزل به أواخر صفر من السنة الحادية عشرة . وبدأت آلامه سداً حاداً عاناه في سكون ، حتى هزل عليه الوجع وهو في بيت زوجته ميمونة . . فلم يستطع الخروج .

وأذن له نساؤه أن يُمرَّض في بيت عائشة لما رأين من اوتياحه إلى خدمتها له . فخرج من عند ميمونة بين الفضل بن العباس وعلى بن أبي طالب . وكان الألم قد أوجع قواه . فلم يستطع سيراً . فاقبل بينهما مصوب الرأس تخط قدماء على الأرض ... حتى انتهى إلى بيتها .

واشتدت وطأة المرض على رسول الله ، واشتدت حرارة الملة في بدنه . فطلب أن يأتيه بماء يبرد به ... ماء كثير ! ! أهرقوا على سبغ قرب من آبار شتى ... قالت عائشة : فأقعدناه في غضب لحفصة ، ثم سينا عليه الماء ... حتى طفق يقول : حسبكم ، حسبكم ...

وعندما أحس الرسول بأن سورة الحر خفت عن بدنه استدعى الفضل بن عباس العباس . فقال : خذ يدي يا فضل — وهو موعوك مصوب الرأس — قال الفضل : فأخذت يده — حتى دخل المسجد ، وجلس على المنبر . ثم قال : ناد في الناس . . فاجتمعوا إليه ...

وكانت ظهيرة تظللها السكابة وتتمرها الرقة . اشترأت فيها الأحناف إلى الرجل الذي أحيا موات القلوب وأخرجهم وذرياتهم ونساءهم من الظلمات إلى النور . تطلعت إليه الأعين الحائرة فرأته متمباً .

انهزمت العافية في بدنه الجلد أمام سطوة المرض القاتل .

إلا أنه أخذ يحدثهم ويربهم ، على عهدهم به دائماً . وأنصتوا فإذا بهم يسمعون منه عجبا .. إنه لما أحس بدنو أجله أحب أن يلقي الله وليس هناك بشر يطلبه بنبعة . إنه تحرى المدالة في شئونه كلها . لكن من يدرى ؟ ربما عرض له سهو مما يمرض لبني آدم أو خطأ . فجاء وهو الذي يبرأ منه الجور وذو به ! !

إذن ليخطب الناس في هذا حتى يستريح ضميره ... قال : أما بعد أيها الناس ، فإنني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ...

فمن كنت جللت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه ! ومن كنت شتت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه .

ألا وإن الشحشاء ليست من طبي ولا من شأني . ألا وإن أحبكم إلى من أخذ مني حقاً ! إن كان له . أو أحلني مني فليقت الله وأنا طيب النفس .

وقد أرى أن هذا غير منفي مني حتى أقوم فيكم مراراً .

قال الفضل : ثم نزل فصلي الظهر . ثم رجع فجلس على المنبر . فماد لقاؤه الأولى في الشحشاء وغيرها .

فقام رجل فقال يا رسول الله : إن لي عندك ثلاثة دراهم ! فقال : أعطه يا فضل ...

ثم قال النبي : أيها الناس من كان عنده شيء فليؤده . ولا يقل : فضوح الدنيا ..

ألا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة !

فقام رجل فقال : يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غلبتها في سبيل الله . قال :

ولم غلبتها ؟ قال : كنت إلها محتاجاً . قال : خذها منه يا فضل !

ثم قال : أيها الناس من خشي من نفسه شيئاً فليقم أدع له . فقام رجل فقال :

يا رسول الله ، إني لكذاب ، إني لفاحش ، إني لنؤوم ! فقال النبي : اللهم ارزقه

سداً وإيماناً وأذهب عنه النوم .

ثم قام رجل آخر فقال : والله يا رسول الله إني لكذاب ، وإني لفاحش ،

وما من شيء إلا قد جنيت به .

فقام عمر بن الخطاب فقال له : فضحت نفسك . فقال النبي : يا ابن الخطاب فضوح

الدنيا أهون من فضوح الآخرة . اللهم ارزقه سداً وإيماناً وصبراً أمره إلى خيره .



وماد النبي إلى بيته اللاسق بالمسجد لينام في فراش السقام وهو القى لم يعود

أن يركن إليه أو يهدأ فيه .

وكانت هناك مهام كثيرة ترتب سموه لبيت فيها . ولكن أعباء الالة حبسته

في قيودها فلم يستطع منها فكاً . وإذا استطاع أن يخرج في فترات قليلة تنف فيها

حدة المرض ، فإلى المسجد ليلقي نظرات أخيرة على الأمة التي صنعها والرجال

الذين أحبهم !!

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله جلس يوماً على المنبر فقال : إن عبداً خيره الله بين أن يؤتاه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عند الله فاختار ما عند الله . فبكر أبو بكر ثم قال : فدينك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله ...

قال أبو سعيد : فحجبنا له وقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ يحمد رسول الله من عبد مختار . ويقول : فدينك بآبائنا وأمهاتنا !

قال : فكان رسول الله هو المختار . وكان أبو بكر أعلمنا به ... فقال رسول الله : إن آمنَّ الناس عليَّ في محبة وماله أبو بكر . ولو كنت متخذاً خليلاً لا تأخذت أبا بكر خليلاً . ولكن أخوة الإسلام . وفي رواية : ولكن محبة ، وإخاء إيمان ، حتى يجمع الله بيننا عنده .

وحدث أثناء المرض أن مرت أوقات هائلة ، خيلت لحي الرسول أن أمانتهم في مافيتة نجحت وأنه يوشك أن يقوم ليستأنف كفاحه في سبيل الله . ولبطل محبوبهم بطقه وحرصه وإيناسه ورحمته .

فمن عبد الله بن كعب بن مالك أن ابن عباس أخبره أن علي بن أبي طالب خرج من عند رسول الله في وجهه الذي توفى فيه . فقال الناس : يا أبا حسن ، كيف أصبح رسول الله ؟ قال : أصبح بمحمد الله بارئاً .

فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب فقال : ألا ترى ؟ إنك بمد ثلاث عبد المصا ! وإن أرى رسول الله سيتوفى في وجهه هذا . وإن لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت ...

فأذهب إلى رسول الله . فسله فيمن يكون هذا الأمر . فإن كان فينا علمنا ذلك . وإن كان في غيرنا استوصى بنا خيراً . قال : والله لئن سألتها رسول الله فنمنهاها لا يعطيناها الناس أبداً . والله لا أسأله رسول الله أبداً . .

وظاهر أن العباس يعني الخلافة ! فقد شعر الرجل بأن النبي في مرض الموت ، وخبرته بأقاربه حين يحتضرون جعلته صادق الحس في تبين مصايرهم .

ولما كان محمد بن هاشم قد أمه أن يعرف لمن ستكون سيادة الناس بمد وفاة الرسول ؟ وقد أجه إلى على بيته مكنون نفسه ، لأن علياً بسايقته وكفايته ومنزلته

في الناس وموضعه من الرسول يُعَدُّ أول بني هاشم ترشيحاً لهذا الأمر . بيد أن علياً كره أن يكلم النبي في ذلك ، وآثر ترك الأمر للجمهور المسلمين .
وكان النبي نفسه قد عمَّ بكتابة عهد يمنع شغب الناس في الحكم ، ثم بدا له فاختار أن يدع المسلمين وشأنهم . ينتخبون لقيادتهم من يُحبُّون .



وزادت وطأة المرض على رسول الله ، وعانى من برحاته ألماً مضاعفاً . حتى تأذت فاطمة ابنته من شدة ما يليق . قالت : واكرب أبتاه ! فقال : لا كرب على أهلك بعد اليوم . .

وترامت الأخبار إلى جيش أسامة . فشاع الحزن والاضطراب في صفوفه . عن محمد بن أسامة عن أبيه قال : لما قتل رسول الله هبطت وهبط الناس معي إلى المدينة . فدخلنا على رسول الله وقد أصمَّت لا يتكلم . فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضمها على . فعرفت أنه يدهولي .
وأغمي عليه مرة فالدَّ أهله . فلما أفاق كره ذلك منهم .

وكان إلى جواره قدح فيه ماء ، يمس فيه يده ثم يمسح وجهه بالماء ويقول : اللهم أعني على سكرة الموت .

وحين عجز النبي عن الصلاة بالناس استقدم أبا بكر ليؤمهم .
نفثت عائشة أن يكره الناس أباها وينشأوا من طلته . قالت : إن أبا بكر رجل رقيق ، وإنه متى يتم مقامك لا يطيق ! فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس فكررت عائشة اعتراضها . فغضب رسول الله وقال : إنك ن سواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس . .

وصلى أبو بكر بالناس سبع عشرة صلاة .
وهذه الأيام التي تخلف فيها النبي من أن يؤم المسلمين كانت من أشد الأيام تقلباً عليه . وصح عنه أنه قال : إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم .
ومع فيج الحى وحيدة مسها لبدنه قد ظل يقظ الذهن مهموماً بشاليم الرسالة حريصاً على تذكير الناس بها .

وكان يخشى أن ترتكس أمته فتتعلق بالأشخاص «الأضرحة» كما ارتكس أهل الكتاب الأولون .

وشدة في إخلاص التوحيد لله هي التي جعلته وهو يعالج سكرات الموت يُرهب المسلمين من هذا الزلق . من عائشة وابن عباس قالا : لما نُزِلَ برسول الله طفق يلرح خيصة له على وجهه . فإذا اقم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا » .

وكان يخشى أن تغلب شهوات النى والكبر على أمته ، فإن الذين يتبعون شهوات النى يفسون الصلاة والذين يتبعون شهوات الكبر يطفون على ما تحت أيديهم من خدم ومرءوسين ورفيق .

والأمة التي تستبد بها هذه الشهوات ، لا تصلح للحياة ولا تصلح بها حياة ومن اليسير أن يتركها الله تلقى جزاء ما تصنع ، وهو خزي الدنيا وعذاب الآخرة . هذه الخشية حملت النبي وهو يلفظ أفهامه الأخيرة أن ينبه المسلمين إلى مآقده الخير ليمسكوا بها .

عن أنس بن مالك قال : كانت عامة وصية رسول الله حين حضره الموت ، الصلاة وما ملكت أيمانكم . حتى جعل رسول الله يفرغر بها صدره وما يكاد يفيض بها لسانه ...



وربما غلبه الشوق لحضور الجماعة ورؤية الأصحاب في أيامه الأخيرة فتحامل على جسمه المهوك ونسل إلى المسجد من حجرة عائشة . فعلى بالناس وهو قاعد . قال ابن عباس لما مرض النبي أمر أبا بكر أن يصلى بالناس ثم وجد خفة ففرج فلما أحس به أبو بكر أراد أن يتكس فأومأ إليه الرسول فجلس إلى جنب أبي بكر من يساره واستفتح من الآية التي انتهى إليها أبو بكر . فكان أبو بكر يأتيه بالنبي والناس يأتيهم بأبي بكر .

على أن أبا بكر ظل يصلى بالناس هذه الأوقات التي مرض فيها رسول الله حتى صبيحة اليوم الذي قبض فيه وكان الرسول معلق القلب بشئون أمته . وكأن الله أراد أن يعلمته على كمال اتقائها وحسن اتباعها فأشهده آخر وقت حضره وهو في الدنيا .

إذ أقبل المؤمنون من بيوتهم إلى المسجد فجر الاثنين الذي قبض فيه ، واسطفوا لصلاتهم خُشْعاً غيبتين وراء إمام رقيق التلاوة فياض الإخلاص . ورفع النبي^ﷺ الست المضروب على منزل عائشة وفتح الباب وبرز للناس . فكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم ابتهاجاً برويته وتفرجوا يفسحون له مكاناً . فأشار بيده : أن اثبتوا على صلاتكم . وتبسم فرحاً من هيبتهم في صلاتهم . قال أنس بن مالك : ما رأيت رسول الله أحسن هيئة منه في تلك الساعة .

ثم رجع وانصرف الناس وهم يظنون أن رسول الله قد أفاق من وجهه . واطمأن أبو بكر لهذا الظن فرجع إلى أهله بالسنح - في ضواحي المدينة . قالت عائشة : وعاد رسول الله من المسجد . فاضطجع في حجرى . ودخل علينا رجل من آل أبي بكر في يده سواك أخضر . فنظر رسول الله إلى يده نظراً عرفت منه أنه يريد . فأخذته فألته له ثم أصليته إياه . فاستن به كأشد ما رأيت يستن بسواك قبله . ثم وضعه .

ووجدت رسول الله يثقل في حجرى .

فذهبت أنظر في وجهه .

فإذا نظره قد شخص وهو يقول : بل الرقيق الأعلى من الجنة ...

قلت : خُيرتَ فاخترتَ والذي يمكك بالحق ...

وقبض رسول الله ...



وتسرّب النبأ القادح من البيت المحزون ، وله طنين في الآذان ، وثقل ترزح تحته النفوس وتدور به البصائر والأبصار .

وشمر المؤمنون أن آفاق المدينة أظلمت ، فتركهم لوحة الشكل حيارى لا يدرون ما يفعلون .

ووقف عمر بن الخطاب وقد أخرجه الخبر عن وعيه يقول : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفى ، وإن رسول الله ما مات . ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فتاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع بعد أن قيل قد مات ...

والله ليرجمن رسول الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات . ۱۱۱

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين يلته الخبر وعمر يكلم الناس . فلم يلفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله في بيت عائشة ، وهو مُسَجَّى في ناحية البيت عليه بردٌ حيرةٌ .

فأقبل حتى كشف عن وجهه . ثم أقبل عليه قَبْلَهُ . ثم قال : بأبي أنت وأُمي أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها . ثم لن يصيبك بعدها موت أبداً . وردَّ الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس . فقال : على رسلك يا عمر فَأَنْصِتْ . . .

لكن عمر ظل محتاجاً مندفعاً في كلامه .

فلما رآه أبو بكر كذلك أقبل على الناس وشرع يتكلم . فلما سمعه الناس انصرفوا من عمر وأقبلوا عليه . . .

وحمد أبو بكر الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس من كان يميد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يميد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا هذه الآية « وما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَلَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَهْلِبْتُمْ عَلَى أَهْقَائِكُمْ وَمَنْ يَنْفَلِبْ عَلَى عَصِيْبِهِ فَلَنْ يَنْفُرَ اللَّهُ شَيْئاً . وسيجزى الله الشاكرين » .



خاتمة

لم تمض أيام معدودات على وفاة الرسول حتى اشتبك الإسلام في صراع رهيب مع الوثنية التي حاولتها الحياة فجأة ، والصليبية الراضة في شمال الجزيرة تمنع الدخول في الإسلام وتعبط دمايته بالقوة .

ولم تشهد الصحراء في حياة النبي نفسه مثيلاً لهذه المارك الطاحنة .
فقد اتسعت ميادينها وتتابعت أمدادها وفدحت منارها وكثرت ضحاياها . . .
إلا أن الرجال الذين رباهم محمد على معرفة الحق والفناء فيه صدقوا الله في عملهم ونهضوا كأعنى الأبطال بالأفعال الباهظة التي رُموا بها . . .
ضربوا الوثنية في الجزيرة ضربة كسرت قنارها واعتصرت روحها فهدمت إلى الأبد . . .

وطردوا الرومان من الحدود التي تمردوا فيها . . .
ثم دادوا إلى المدينة لا يستجموا ، بل لينتشروا خلال الممر من أرض الله يومئذ ، في نظام رتيب وروح شريرة محكمة .
وما هي إلا سنوات قلائل حتى كان الإسلام ملء البر والبحر ملء السمع والبصر . .



والآن مرت قرون أربعة عشر على هذه الحقبة الزاهرة .
إن الإسلام — بعد مجد كبير — لا يحكم أمته فضلاً من أن يوجه العالم إلى بر يذكر أو خير يشكر .

والأديان الأخرى تمشي على هامش الحياة .
فالحضارات القائمة أو المترتبة لا تمكن الدين من زمامها .
الوثنية في الشرق الأقصى وفي بقاع أخرى لا تزال تظلل الجوانب المظلمة من حياة العامة ومساكن الجماهير السائمة .
واليهودية تنحاز بأبنائها جانباً لتفرض في قلوبهم الحق على البشر ، والنفاذ من خلل الصفوف المتناصرة بأكبر غم لإسرائيل .

أما الصليبية ، سعى كالكلمات المتسلقة في خط الاستواء ، تعتمد في بقائها على الالتصاق بالفلسفات السائدة والنظم النابذة كي تضمن حياة أى حياة لدماغها الأول من تقاليد وقرايين .

والمسلمون سرت إليهم لوثات الاحتراف والتعلق بالقشور والمراسيم .
وردتهم ردائل الضعف والجهالة إلى أحوال أشبه بما كان يسود اليهود والنصارى على عصر النبوة والخلافة الراشدة .

وقلة يسيرة منهم هي التي بقيت إلى يوم الناس هذا تنال الجاهلية وتتشبث بالحق .
إن كان مما يمين على الأمل أن الإسلام ظل من الناحية العلمية محفوظا في مسدريه الخطرين : الكتاب والسنة .

على أن الذين يعملون للإسلام عملا صحيحا يلقون مقاومة عنيفة من شتى الجبهات الأخرى ، أعنى الجبهات التي قاومت امتداده من أربعة عشر قرنا . ولم تبرد هدواتها له يوما . . .



وقد يسأل سائل : هل العالم اليوم بحاجة إلى هذا الإسلام ؟ . وقول : إذا كان العالم بحاجة إلى أن يعرف الله ويسعد لقاءه ويقدم حسابا على ما أدى في هذه الدنيا فلا بد له من الإسلام .

إن الارتقاء المادي لا يفي فتيلًا عن التقيد بهذه الحقائق الكبيرة .
قد يقال : لكن من الناس من لا يؤمن بالله قائم أو يوم آخر . ومنهم من يؤمن بذلك على نحو غير ما جاء به الإسلام .
فدعوا الناس وما يرون .

ونقول : لير الناس ما يشاءون ولكن ليس من حق المميان أن يظلموا عيني البصر أو يضيّقوا عليه الخلق لأنه يرى ما لا يروون !

فليدعوه يمشى بهدى بصره ، وليدعوه كذلك يصف ما يرى في طريقه وما يتوهم فمن تبعه من غير استكراء فليطلق معه ولترفع من أمامه المرائي .
وذلك ما ينبغيه الإسلام بحسب . . .

إن البطلين يكرهون الإسلام لأنه حق فائق يجادل من يقف ويستملن بما فيه ويرفض أن يتواري أو يصمت .

هذه الخاصة في الإسلام ، خاصة إحقاق الحق وإبطال الباطل أزجعت أعداءه ، وجعلتهم يختلفون له التهم . فإذا رفض المداهنة فهو مهاجم ، وإذا أبى أن تموت أمام كيد الخصوم فهو ينتشر بالإكراه . . .

وذلك سر الخرافة التي راجت أن الإسلام ساد بالسيف .

والإسلام إنما امتشق الحسام لينجو به من غوائل الرماح والقطع . ولو ترك من غير ترويع ما أثقل طاقه برمح ، ولا كفى من السنان باللسان .

نعم إنه كان في هذه السبيل سارما . . . وهل ينتظر منه إلا ذلك في ملاقاته خصوم يجرؤون وراءهم بكبرياء القرون الطوال ؟ وضلالات تحتمى وراء غابات متشابكة من الرجال السلاح . . . ؟

إنه لولا هذه الصرامة ما بقيت أصوله العلمية والنفسية سليمة إلى اليوم . فإن البيانات التي ضعفت قبله أفلح أعداؤها في جرّها عن أصولها جرّاً شليماً فلم تمد إلى قواعدها سائلة . . . ! !

أما الإسلام فإياك واجدّه اليوم ، ولو في كتابه ، إن لم يكن في أصحابه . . .

قد نطن أنك درست حياة محمد إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة . وهذا خطأ بالغ . لن نفقه السيرة حقاً إلا إذا درست القرآن الكريم والسنة الطاهرة .
وبقدر ما تنال من ذلك تكون سلتك بنبي الإسلام . . .

فهرس

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٢١٥	بدر الآخرة	١٠٨	الفرار والإسراء	٣	مقدمة
٢١٥	دومة الجندل	١١١	الهجرة رسالة مقسماتها وتأثيرها	٩	رسالة وإمام
٢١٩	حديث الإنك	١١٣	فروق بين / يطين	١٠	الوثنية تسود الحضارات القديمة
٢٢٢	غزوة الأحزاب	١١٣	صنع اليهود	١٣	طبعة الرسالة الخاتمة
٢٣٥	مع قرظلة	١١٥	بيمة العبة الأولى	١٦	العرب حين البيئة
٢٤٥	طور جدهد	١١٦	بيمة العبة الكبرى	١٩	رسول معلم
٢٤٦	عمرة الحديبية	١٢١	علامات الهجرة	٣٤	النبي وخوارق العادات
٢٥٩	مع اليهود مرة أخرى	١٢٤	في دار الندوة	٤٣	من الميلاد إلى البعث
٢٦٦	عودة مهاجرى الحبشة	١٢٥	هجرة الرسول	٤٨	شق الصدر
٢٦٧	فأدب الأعراب	١٢٦	درس في سياسة الأمور	٥١	بحيرا الرامب
٢٦٩	مكتبة الملوك والأمراء	١٢٧	في الفار	٥٢	حياة الكدح
٢٧٦	عمرة القضاء	١٢٨	في الطريق إلى المدينة	٥٥	حرب القتيار - حلف الفضول
٢٧٧	غزوة مؤتة	١٣٠	دعاه	٥٧	قوة ونشاط
٢٨١	ذات السلاسل	١٣٢	الوصول إلى المدينة	٥٨	خدعة
٢٨٢	الفتح الأعظم	١٣٣	الاستقرار بالمدينة	٦١	الكعبة
٢٩٤	منعمة	١٣٧	أسس البناء للمجتمع الجديد	٦٣	باحثون من الحق
٢٩٦	الثبات والنصر	١٣٨	المسجد	٦٥	في دار حراء
٢٩٧	الفتانم	١٤٠	الأخوة	٦٧	ورقة بن نوفل
٢٩٩	حكمة هذا القسم	١٤٣	غير المسلمين	٧٠	جهاد الدعوة
٣٠١	عودة وفد هوازن	١٤٦	المصطفون الأخبار	٧٣	لإمام يدعو الناس
٣٠١	حصار الطائف	١٥٠	مسي البادة	٧٥	الزميل الأول
٣٠٢	إلى دار الهجرة	١٥٥	قيادة تهوى إليها الأكتة	٧٨	أبو طالب
٣٠٣	موقف المناقنين	١٦١	الكفاح الحاشي	٨١	الاضطهاد
٣٠٤	تبوك	١٦٥	سرايا	٨٢	عمار بن ياسر - بلال - خباب
٣١٠	المخلفون	١٦٧	سرية عبد الله بن جحش	٨٤	مفاوضات
٣١٤	مسجد الضرار	١٦٩	معركة بدر	٨٧	الهجرة إلى الحبشة
٣١٥	طلعة الوفود	١٧٩	محاسبة وعتاب	٩١	إسلام حزة وعمر
٣١٧	صح أبي بكر	١٨٢	في أعقاب بدر	٩٢	القطاطمة العامة
٣٢٠	وفد للأنبياء ووفد لأهل الكتاب	١٨٤	بدأ الصراع بين اليهود والمسلمين	٩٧	عام الحزن
٣١٧	أهيات المؤمنين	١٨٩	مناوشات مع قريش	٩٩	في الطائف
٣٤٢	استقرار	١٩٢	معركة أحد	١٠١	الإسراء والمراج
٣٤٣	حجة الوداع	١٩٩	عبر الحنة	١٠٥	حكمة الإسراء
٣٤٦	إلى المدينة	٢٠٥	شهداء أحد	١٠٦	إكمال البناء
٣٤٩	المعيق الأعلى	٢٠٨	آثار أحد	١٠٧	سلامة الفطرة
			احلاء	١٠٨	فرض الصلاة

معارف

- ١ - الإسلام والأوضاع الاقتصادية .
 - ٢ - الإسلام والمناهج الاشتراكية .
 - ٣ - الإسلام المفقري عليه .
 - ٤ - الإسلام والاستبداد السياسى .
 - ٥ - تأملات فى الدين والحياة .
 - ٦ - من هنا نعلم .
 - ٧ - التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام .
 - ٨ - عقيدة المسلم .
 - ٩ - خلق المسلم .
 - ١٠ - فقه السيرة .
 - ١١ - فى موكب الدعوة .
 - ١٢ - من معالم الحق .
 - ١٣ - ليس من الإسلام .
- تحت الطبع
- ١ - نظرات فى القرآن .

